

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجيلالي لياس - سيدي بلعباس -

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم التاريخ



تلمسان من خلال كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين  
من القرن السابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري (13 - 15م)

أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

بلعربي خالد

إعداد الطالب:

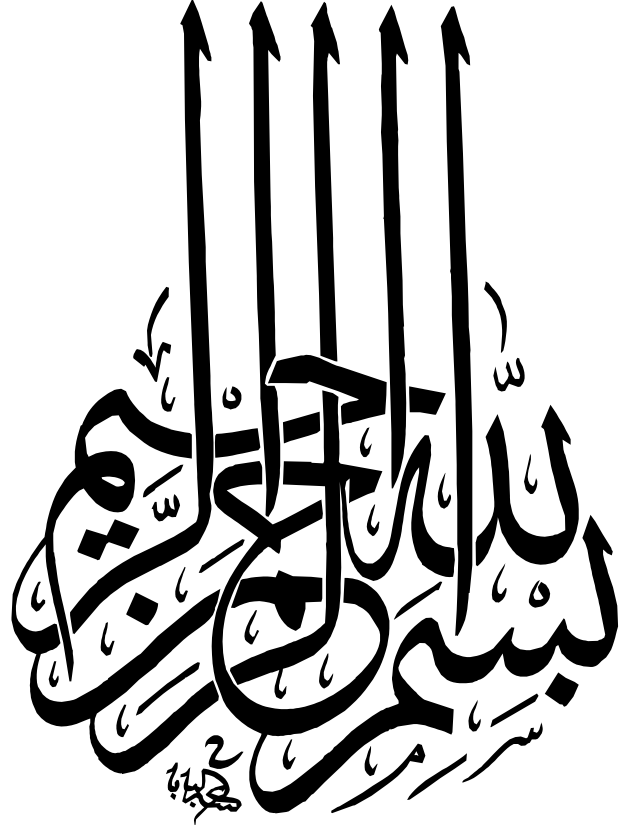
علوي مصطفى

أعضاء لجنة المناقشة

رئيسا	جامعة سيدي بلعباس	أستاذ التعليم العالي	أ.د لونيبي إبراهيم
مشرفا و مقررا	جامعة سيدي بلعباس	أستاذ التعليم العالي	أ.د بلعربي خالد
مناقشا	جامعة سيدي بلعباس	أستاذ محاضر "أ"	د. شخوم سعدي
مناقشا	جامعة وهران	أستاذ التعليم العالي	أ.د بوباية عبد القادر
مناقشا	جامعة وهران	أستاذة التعليم العالي	أ.د.ة بلهواري فاطمة
مناقشا	جامعة الشلف	أستاذ محاضر "أ"	د. مغزاوي مصطفى

السنة الجامعية: 1435 - 1436 هـ / 2014 - 2015 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

سورة المجادلة: الآية



سلطان

إلى - داء

، دى هذا العمل المتواضع

إلى روح جدى بلقاسم بن محمد بن على

إلى ربه يى و دايى الكريمين رحمهما الله

إلى ، ل م . يى و أساتذتى

إلى زوجتى و أبنائى و بناتى إكرام حنار ، أسامة و إبراهيم

إلى إخوانى وأخواتى وكل أفراد العائلة

إلى أساتذة ، طلاب كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

جامعة طاهري محمد ببشار

إلى زملائى طلبة الدكتوراه

بجامعة الجيلالى اليابس سيدي بلعباس (

## كلمة شكر و تقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف،

الأستاذ الدكتور بلعربي خالد

على معناه المتابعة و التوجيه و التصحيح

كما أتقدم بشكري الخالص إلى الأساتذة الأفاضل

أعضاء لجنة المناقشة الموقرة الذين شرفوني بمناقشتهم لهذه الأطروحة

و إلى كل أساتذتي و عمال إدارة جامعة

الجيلالي اليابس بسيدي بلعباس

و على رأسه السيد العميد

و إلى كل من أحانني من قريب أو بعيد

في إنجاز هذه الرسالة .

## كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أخي المهندس

الأستاذ الخبير علوي عبد الله

على وقوفه إلى جانبي للتغلب على الصعوبات

و الشدائد التي واجهتني خلال دراستي العليا

فكان نعم المعين و نعم المرشد

كما أشكر، على صبره و سعة صدره.

دون أن أنسى أخي الأستاذ علوي بلقاسم

## قائمة المختصرات:

### 1- بالعربية:

الرمز	الكلمة
ج	جزء
ص	صفحة
ص ص	من الصفحة إلى الصفحة
ورقة	رقم الورقة في مخطوط
د.ت	دون تاريخ
تح	تحقيق
[ ]	يشيران إلى اسم مكان ورد ذكره
مج	مجلد

### 2- بالأجنبية:

<i>Edit</i>	<i>Edition</i>
<i>Op .cit</i>	<i>Opero citado</i>
<i>p</i>	<i>page</i>
<i>P P</i>	<i>De la page à la page</i>
<i>Vol</i>	<i>Volume</i>
<i>ibid</i>	<i>Ibidem</i>

مقدمتہ

تعتبر كُتب الرحلات و الجغرافيا من المصادر التاريخية الهامة، إذ كثيراً منها تناولت المغرب الأوسط في العصر الوسيط، و هي كذلك بمثابة مادة أساسية تزود الطلاب الباحثين بمعلومات عنه في مختلف الميادين، و منها يمكن رسم صورة واضحة عن المغرب الأوسط و حواضره، فنجد صاحبها يعتمد على استقاء المعلومات و الحقائق من الواقع الحي و الأحداث التي عايشها خلال رحلته، و قد استطاع الإنسان أن يتعرف على أرجاء المعمورة و أممها و مسالكها من خلال كُتب الرحلات و الجغرافيا، فكان من بين الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين علماء و فقهاء و أشخاص بسطاء دفعتهم المغامرة إلى المخاطرة لاستكشاف المجهول.

يتناول موضوع بحثي دراسة للأوضاع المختلفة لتلمسان من خلال كُتب الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين ما بين القرنين السابع و التاسع الهجريين، الثالث عشر و الخامس عشر الميلاديين، و هي فترة شهد فيه المغرب الأوسط ظهور دولة بني عبد الواد أو دولة بني زيان كدولة مستقلة عن دولة الموحيدين المنهارة، كما أن لهذه الفترة الزمنية أهمية خاصة في تاريخ الدولة الزيانية، لأنها ظلت تتأرجح بين نفوذ الجيران من مرين و بني حفص.

و على الرغم من أهمية الموضوع الذي يؤرخ لتلمسان كأحدى الحواضر التاريخية بالمغرب الأوسط من خلال كُتب الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين، فهو لم يحظ بعناية الباحثين، كما حظيت به فاس و مكناس بالمغرب الأقصى، أو تونس و القيروان في المغرب الأدنى، باستثناء بعض المقالات و الكتب و هي تستحق كلها التنويه، لكنها عالجت الموضوع بصورة عامة، في سياق دراسة تاريخ الدولة الزيانية.

و يطرح بحثي جُملة من التساؤلات حاولت الإمام بها من خلال طرح الإشكالية التالية: كيف وصفوا لنا الرحّالة و الجغرافيون المغاربة و الأندلسيون مدينة تلمسان في شتى المجالات؟ و هل كان وصفهم لها مفيداً و موضوعياً؟.

إن اختياري للموضوع كإطار تاريخي للبحث تقف وراءه جملة من الاعتبارات و منها:

- أهمية الموضوع و رغبتني في كتابة تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط بطريقة ترقى إلى اعادة إحياء دور تلمسان في التاريخ المغربي.
- رغبتني في تسليط الضوء على المحطات الهامة التي عرفتتها الدولة الزيانية من خلال كُتب الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين في المجالات السياسية و الاقتصادية و الثقافية.
- الميل الشخصي إلى أدب الرحلة و كتب الجغرافيا التي بإمكانها أن تمدنا بالكثير من الحقائق التاريخية حول الموضوع.

و قد واجهتني خلال إنجاز هذا البحث المتواضع صعوبات كثيرة، منها تشابه المادة العلمية و وجود إشارات لتلمسان تمثلت في عبارات و جُمَل مختصرة أحياناً لا تغطي عناصر البحث.

و من بين الدراسات السابقة التي تناولت تلمسان، الدراسة التي أنجزت من طرف عبد العزيز فيلالي الموسومة ب: «تلمسان في العهد الزياني» في جزئين و هي دراسة شاملة عن تلمسان، زدنا فيها بمعلومات قيمة عن تلمسان كمدينة و عاصمة للدولة الزيانية من جوانب متعددة السياسي، الاقتصادي و الاجتماعي. بالإضافة إلى دراسة للدكتورة أنساع سميعة بعنوان «الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري» التي كان الهدف منها حسب مؤلفته اكتشاف خصوصيات المضمون، و طبيعة البناء الفني لتلك الرحلات، عن طريق التساؤل عن كيفية التحديد و الوصف الجغرافيين للطرق و المدن في الرحلات، و عن طبيعة الشخصيات و هويتهم و وظائفهم و طرائق تصويرها لدى كتابة كتاب الرحلة، بالإضافة إلى دراسات أخرى مشابهة لها أو قريبة منها في البحث.

أتبعت بدراساتي هذه المتواضعة المنهج التاريخي الذي يعتمد على التحليل و استقراء نصوص الرحلة و تفسير الأحداث و مناقشتها وفق رؤية علمية.

و من الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع، رغبتني و ميلي إلى أدب الرحلة و كتب الجغرافيا من جهة، و هي مصادر هامة، يستطيع الطالب الباحث من خلالها أن يفتك تاريخ مدينة تلمسان و حواضر المغرب الأوسط في العصر الوسيط و ذلك باستغلال المعلومات المدونة عنه. و من جهة أخرى قد يكون المغرب الأوسط لم يلق العناية الكافية ضمن هذا النوع من الدراسات الأكاديمية.

بفضل المادة التاريخية التي أمكن جمعها، قمت بدراسة الموضوع و لمّ شتاته في مقدمة اشتملت على خطة البحث، و المنهج الذي سلكته في معالجة هذا الموضوع و أتبعت ذلك بعرض أهم كتب الرحلات التي اعتمدها ثم قسمت البحث إلى ثلاثة فصول: ناقشت في الفصل الأول منه الأحوال السياسية في تلمسان من خلال كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ ( 13 و 15 م)، منها الأوضاع الداخلية، العلاقات الخارجية و النظام الإداري و القضائي و العسكري. أما الفصل الثاني تناولت فيه الأحوال الاقتصادية و الاجتماعية في تلمسان من خلال كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ ( 13 و 15 م)، ففي الأوضاع الاقتصادية تناولت الزراعة، الصناعة و التجارة. أما الأوضاع الاجتماعية تناولت عناصر المجتمع و طبقاته و أخلاق التلمسانيين وصفاتهم. و خصصت الفصل الثالث للحركة الفكرية في تلمسان من خلال كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ ( 13 و 15 م)، منها الحياة العلمية بتلمسان، المؤسسات التعليمية و العلوم السائدة.

و للإلمام بالموضوع تطلب الأمر جمع شتات إعادة المادة الخبرية من مختلف المصادر و رتبها بحسب

أهميتها على النحو التالي:

أ- المصادر الأساسية:

1- كتاب الجغرافيا، لأبي الحسن بن سعيد المغربي ( ت 685 هـ / 1285 م) و هو مصدر جغرافي من

مصادر القرن السابع الهجري، و قد أمدنا ابن سعيد بمعلومات هامة و حدد موقع تلمسان من حيث

الخطوط و وصف أحوالها الاقتصادية و ذكر المراسي القريبة و البعيدة التابعه لها.

- 2- رحلة العبدري أو الرحلة المغربية، لأبي عبد الله محمد بن محمد ( توفي بعد 700 هـ / 1300 م)، حيث أن العبدري مرّ في رحلته بتلمسان ذهاباً وإياباً و وصف أحوالها و قد نعت حالها العلمي بالسوء و يبدو أن الرحلة العبدري أسقط هذا الوصف على كثير من الحواضر التي شهدت العلم، و في نفس الوقت يذكر علماء جالسهم في تلمسان أمثال ابن خميس.
- 3- فيض العباب و إفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب، لابن الحاج النُميري (ت 768 هـ / 1367 م) و هي رحلة رافق فيها السلطان المريني أبي عنان و كتبها ابن الحاج و تنتمي هذه الرحلة إلى صنف الرحلات الأمنية و كان من دوافعها حسب أبي عنان تأديب الأعراب بالزاب و قسنطينة، و أفادتني هذه الرحلة بمعلومات عن تلمسان التي مرّ بها ابن الحاج و وصف في رحلته أحوالها و مدى إعجاب السلطان أبي عنان بطبيعتها.
- 4- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ / 1374 م)، و هي رحلة قام بها لسان الدين بن الخطيب إلى بلاد المغرب، مزج فيها بين الوصف الجغرافي و التدوين التاريخي و تحدث فيها عن تلمسان و الغزو المريني لها بين الحين و الآخر.
- 5- تحفة النظائر في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله (ت 779 هـ / 1377 م)، و هي رحلة اشتهر بها ابن بطوطة فبعد خروجه طنجة من المغرب الأقصى مرّ بتلمسان خلال رحلته بها ذهاباً و إياباً و زدنا بمعلومات و لو قليلة عنها مثل ذكره حاكمها آنذاك و الطرق المؤدية إليها.
- 6- أنساب الأخبار و تذكرة الأخيار، للمدجّن الحاج عبد الله بن الصباح ( النصف الثاني من القرن 8 هـ / 14 م)، و هي رحلة من الرحلات التي كانت على شكل مخطوط، لكن الدكتور محمد بنشريفه هذبها و أصلح ظلها و علّق حواشيتها في نسخة جديدة محققة، و أفادتني هذه الرحلة حين خصص صاحبها لتلمسان صفحات أسماء مملكة بني عبد الواد و قدمت لي هذه الرحلة معلومات كثيرة عن تلمسان.
- 7- رحلة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ / 1406 م)، و هي سيرة ذاتية تناول فيها عبد الرحمن بن خلدون الأحوال السياسية لتلمسان من خلال ذكره لأهم الأحداث التي شهدتها تلمسان، حيث زودتني بمعلومات عن تلمسان في جوانب عديدة، خاصة الجانب السياسي.
- 8- أنس الفقير و عز الحقير، لأبي العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني (ت 810 هـ / 1408 م)، عرّف فيه صاحبه بشيخ الأولياء الغوث أبي مدين شعيب و بعض أصحابه، حيث قام ابن قنفذ القسنطيني برحلته الزيارية إلى المغرب الأقصى كانت بدايتها سنة 761 هـ / 1360 م، و أورد في رحلته هذه ذكر الشيوخ الذين التقى بهم و ذكر المجاعة التي انتشرت بالمغرب سنة 776 هـ / 1375 م، و قد أفادني كتابه «أنس الفقير و عز الحقير» في الحديث عن التصوف و المتصوفة في تلمسان.

9- رحلة القلصادي «تمهيد الطالب و منتهى الرّأغب إلى أعلى المنازل و المناقب» ( ت 891 هـ/1486 م)، و هي من الرحلات العلمية قام بها القلصادي قصد التحصيل العلمي فنزل بتلمسان و تعلم كثير من شيوخ العلم أورد ذكرهم في رحلته هذه، و أفادتني في استخلاص صورة واضحة عن أحوال تلمسان العلمية و أهم شيوخها في مختلف العلوم.

10- الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري (ت 866 هـ/1463 م)، و هو معجم جغرافي لا يخلو من السرد و ذكر للأخبار و الوقائع مع تحديد المواقع و قد خصص فيه صفحات عن تلمسان.

### ب - المصادر ثانوية:

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لشمس الدين أبو عبد الله المقدسي (ت 390 هـ/1000 م)، يعد من طليعة العلماء و كبار الجغرافيين، و يتضح ذلك من خلال مؤلفه الذي اقتصر فيه على العالم الإسلامي، لأنه كما يقول لم يزر غيره، و قد تناول في مصنفه هذا الأقاليم السبعة و ذكر المسافات وطرق المواصلات.

- المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب لأبي عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت 487 هـ)، و هو أكبر جغرافي أندلسي، له مؤلفان في الجغرافيا: معجم ما استعجم، والمسالك والممالك، و قد تحدث عن المغرب و أقطاره و جاء بمصطلح المغرب الأوسط.

- المغرب و أرض السودان و مصر و الأندلس مأخوذ من نزهة المشتاق واختراق الأفاق لأبي عبد الله الإدريسي (ت 560 هـ/1166 م)، ورد فيه تحديد لبعض المناطق من بينها مدن المغرب الأوسط، و أفادنا بمعلومات هامة من خلال رحلاته و أسفاره خلال القرنين 5 و 6 هـ.

- مستفاد الرحلة و الاغتراب للقاسم بن يوسف التيجيبي السبتي (ت 730 هـ/1329 م)، الذي مر بالمغرب الأوسط أثناء رحلته لأداء فريضة الحج، فبدأ رحلته سنة 696 هـ/1296 م التي دونها في مصنفه فلم يُعرف منها إلا مجلدا واحدا فقط.

- وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسي المتوفى 960 هـ/1553 م، المدعو بليون الإفريقي، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، فكتابه يعد من أهم كتب الجغرافيا كون صاحبه زودنا بمعلومات قيمة عن مختلف النواحي ببلاد المغرب خلال بني حفص و بني زيان و بني مرين، رغم أنه عايش أحداثا من القرن 10 هـ/16 م.

### ج- كتب التاريخ: و منها

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (ت 647 هـ/1249 م)، عايش أحداث الدولة الموحدية، فقد زودنا بمعلومات هامة عن الأحداث التي جرت ببلاد المغرب في عهدها وأخبار بعض ملوكها.

- البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب لأبي عبد الله محمد المراكشي، المشهور بابن عذاري (ت 695 هـ/1295 م)، و في مؤلفه أمدنا بمعلومات عن حدود المغرب و إفريقية و أحداث هامة كانت بدايتها من الفتح الإسلامي.

- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لشيخ الفقيه أبو زكريا يحيى بن خلدون (ت 780 هـ)، حيث قد قدم لنا معلومات هامة فقد عرف لنا بقبيلة بني عبد الواد و كيف تأسست الدولة الزيانية و معلومات عن ملوكها.

- كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ)، الذي أمدنا بمعلومات هامة، خاصة مقدمته و الجزئين السادس و السابع منه عن الدولة الزيانية و دول المغرب الإسلامي التي عاصرتها.

#### د- كتب الطبقات و التراجم: و منها

- البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان لأبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد الملقب بابن مريم (من أهل القرن العاشر الهجري)، ترجم ضمن مؤلفه لأولياء و علماء ولدوا أو لم يولدوا بتلمسان أو زاروها، و أفادنا كتابه في ترجمة بعض الشخصيات الواردة في البحث.

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لإبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون، (ت 799 هـ/1396 م)، من فقهاء المالكية و مؤرخ، مؤلفه في جزئين يؤرخ لطبقات المالكية حتى عصره، منها من وُجد بالمغرب الأوسط. كما عُرف ابن فرحون بإمام المذهب ثم بالرواية عنه، و المجتهدين في مذهبه طبقة بعد طبقة.

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني (ت 714 هـ)، و قد حصر ترجمته لمشاهير المائة السابعة من علماء بجاية أو الوافدين عليها، غير أنه أورد تراجم لبعض علماء القرن السادس الهجري كأبي مدين شعيب دفين تلمسان.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التتبكتي (ت 1036 هـ/1627 م)، اشتهر بمؤلفه هذا، و هو في جزئين، فأورد فيه تراجم منها شخصيات هامة بالمغرب الأوسط، و قام أيضا بوضع مؤلف هام آخر و هو "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج".

#### هـ- كتب النوازل:

- المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914 هـ/1508 م)، يعتبر مؤلفه من أهم كتب النوازل الفقهية و مجاميع الفتاوى، و قد تناول السابع مسألة التعليم و مؤسساته و الفقهاء و علاقة العلماء برجال السياسة و تكمن أهمية هذا المؤلف كون صاحبه عاصر الدولتين الزيانية بالمغرب الأوسط و المرينية بالمغرب الأقصى و مارس التدريس بفاس.

**و- كتب التصوف:**

-الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري،(ت 465 هـ)،و تعد رسالة القشيري من أهم المصادر في التعرف على مذهب الصوفية المعتدلة و شرح ألفاظها و ذكر شيوخها.

- التشوف إلى رجال التصوف و أخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي المعروف بابن الزيات،(ت617 هـ/1220 م)،ترجم فيه لشخصيات صوفية منهم من استوطن بجاية و بونة و قلعة بني حماد و تلمسان و غيرها،مثل أبو مدين شعيب.

- شفاء السائل و تهذيب المسائل لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ)، فكتابه مصدرا مهما في علم التصوف،بدأه بالحديث عن نشأة التصوف،ثم أخذ يفصل في التطور التاريخي لكلمة التصوف.

**ز-المراجع:**

اعتمدت في هذا البحث على مجموعة من المراجع بالعربية، المترجمة، الأجنبية و المجالات، بغية إثراء البحث بمعلومات قيمة و مكتملة له.و عليه أتمنى أن أكون قد وفقت و لو بالقليل في إنجاز هذا البحث،و أن تكون هذه الدراسة بمثابة انطلاقة جديدة في أبحاث أخرى تثري تاريخ المغرب الأوسط الحضاري في العصر الوسيط.و أن تكون لبنة من اللبنات التي يتم بها البناء.

مدخل:

أهمية كتب الرحلات و الجغرافيا كمصدر من مصادر تاريخ المغرب الأوسط

عرف الإنسان الرحلة و مارسها منذ أقدم العصور<sup>(1)</sup>، و كانت رحلته لأسباب و دواع مختلفة، منها ما هيأها المجتمع فيسرت و شجعت الرحلة لمن أراد أن يقوم بها، و هذا ما يسمى «ميسرات الرحلة»، و دواع شخصية دفعت بكل رحالة على حدة إلى أن يقوم برحلته، و هذا ما يسمى "أسباب الرحلة"<sup>(2)</sup> و كانت الرحلة فعلاً طبيعياً اعتنى بها المؤرخ و الجغرافي و الأديب و السفير و الحاكم و العالم و غيرهم<sup>(3)</sup> من خلال ما كُتب و دُون من أحداث و وقائع صادفت صاحبها أثناء رحلته و بالتالي ساهمت في أدب الرحلة.

و في هذا الصدد يذكر شوقي ضيف: «إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي، لسبب بسيط، و هو أنها خير رد على التهمة التي طالما أتهم بها هذا الأدب، و نقصد تهمة قصوره في فن القصة»<sup>(4)</sup> فالرحلة لون من الألوان التعبيرية الأولى التي تعتمد على سرد المعلومات، و هي أيضا لونا من الألوان القصصية التي توفر لقارئها المتعة و التشويق، و تمده بمعلومات كثيرة عن ما يجهل استنادا على ما يولده فعل السفر و التنقل من أحداث و مشاهدات و وصف للمكان و الزمان و واقع مليء بالإحساس عايشه الرحالة نفسه<sup>(5)</sup>

تعد كتب الرحالة و الجغرافيين من أهم المصادر التاريخية، التي تؤرخ لمختلف الجوانب السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و الجغرافية، و معلوماتها أوثق بالرغم من اقتضابها لأن الرحالة شاهدوا الموقع الجغرافي، و عايشوا الحدث التاريخي، و عاشوا ظروفه، و استفادوا من رواية الوقائع و المعلومات التي نقلت إليهم و كانت مصادرها أكثر وثوقا، و يبدو اعتمادها من طرف الباحثين قليلا إذا قيس بالمصادر التاريخية العامة لأن الوقائع التاريخية، أو المادة الخبرية عند الرحالة و الجغرافيين خليط من الأخبار السياسية و الاقتصادية و الجغرافية و العلمية و غيرها، مما يصعب فرزها<sup>(6)</sup> لكن الحاجة إليها تدفع بصاحبها إلى العناية و الاهتمام بها و بذل مجهودات بغية الاستفادة منها، و يبدو أن كتب الرحالة تناولت أحداثا موضوعية رغم البصمات الذاتية التي يتركها الرحالة أحيانا عند تدوين رحلته.

ارتبط فن الرحلة عند المسلمين بعلم تقويم البلدان أو علم الجغرافيا، ذلك أن الرحالة اهتموا بوصف المدن و البلدان و ذكر طرقها و شعابها<sup>(7)</sup> لذلك سميت التآليف الجغرافية التي كتبت في القرون الأولى، «المسالك و الممالك»، كما سموه أيضا «علم تقويم البلدان»<sup>(8)</sup> فالرحلة حركة طبيعية للإنسان اعتاد عليها بناء على معلومات جغرافية مسبقة، و منه كان لفن الرحلة علاقة متينة بعلم الجغرافية.

- 1- سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة و التطور و البنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص 5
- 2- حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، الطبعة 1، 1991، ص 4.
- 3- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 5.
- 4- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، الطبعة 4، 1956، ص 6 .
- 5- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 6.
- 6- إسماعيل سامعي، الحركة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال صورة الأرض لابن حوقل القرن 4 هـ/10م، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ربيع الأول 1427 هـ/أفريل 2006 م، العدد 20، ص 171.
- 7- أحمد رمضان أحمد، الرحلة و الرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة و النشر و التوزيع، جدة، دون تاريخ، ص 35.
- 8- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، المطبعة العلمية، دمشق، 1995، ص 37.

و يبدو أن الخط الحقيقي للجغرافية الإسلامية هو خط «المسالك و الممالك» و «البلدان»، لأنه خط سليم قائم على الرحلة و المشاهدة و استفسار أهل البلاد و الأخذ مما يدلون به من معلومات و المقارنة بغيرها و دراسة الكتب السابقة و مراجعتها، فالرحالة بطبعه جغرافي منتقل توصف رحلته بالمصدر الموثوق إلى حد كبير للمعلومات الجغرافية. و إذا كان الرحالة العربي دقيق الملاحظة متفتح الذهن فإنه من الطبيعي أن يوفق المسلمون في أدب المسالك و الممالك و البلدان حتى أصبحت بعض مؤلفاتهم من معالم الأدب العالمي<sup>(1)</sup> و كانت الرحلة عوناً كبيراً للمؤرخ و الجغرافي على حد سواء، و تكمن أهميتها في صقل المنهج و تأكيد المشاهدة و المعاينة، الأمر الذي وثق المرئيات و أكد حدوث الوقائع<sup>(2)</sup>.

و قد استفاد علماء العرب و المسلمين من مؤلفات سابقهم من علماء اليونان و الرومان في مجال الجغرافيا الفلكية، لكنهم أبدعوا في علم الجغرافيا ليس فقط في الجانب الفلكي و لكن أيضاً في الجانب الوصفي، و استطاعوا أن يضيفوا أفكاراً و مفاهيم جديدة في مجال علم الجغرافية و من أهم المصادر التي نهلوا منها<sup>(3)</sup>:

- 1- الشعر العربي القديم، حيث إنه غني بأعلام و أماكن جغرافية كانت معروفة عند البدو و الرحل.
  - 2- علماء اللغة العربية، إذ بقيت الصلة متينة بين اللغويين و الجغرافيين، و يظهر ذلك من المعاجم العربية.
  - 3- القرآن الكريم و الأحاديث النبوية تناول كثيراً من المعلومات الجغرافية الفلكية الوصفية.
  - 4- قصص تناولها اليهود و النصارى تحتوي على معلومات جغرافية ثمينة.
  - 5- المصادر الفارسية و المصرية و الفينيقية و الهندية و اليونانية و الرومانية و غيرها.
  - 6- الرحلات التي قام بها علماء العرب و المسلمين محاولين معرفة المسالك و الممالك.
- قدم أبو القاسم ابن حوقل النصيبي (ت 362 هـ) في كتابه «صورة الأرض» شرحاً مفصلاً للخريطة التي رسمها لأرض بلاد المغرب<sup>(4)</sup> و تبرز أهمية خريطته عند تحديده المنطقة التي أراد دراستها، محاولاً شرح الخرائط التي عادة ما تتبع نص كتابه مقدماً أهم خصائصها و الخطوط العريضة المتعلقة بها، كالمسافات الموجودة بين مدنها و نوع المنتج الذي تشتهر به، محدداً كل ذلك بالمقاسات كالميل<sup>(5)</sup> و الفرسخ<sup>(6)</sup> و غيرهما و قد ورد ذكر هذه المقاسات في كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين.

---

1- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، الطبعة 2، 1986، ص ص 8 - 9.

2- مشعل نايف عايض الدهاس، الحجاز من خلال كتب الرحالة المشاركة خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين، أطروحة لنيل درجة ماجستير، كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2008، ص 14.

3- علي بن عبد الله الدفاع، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، الطبعة الثانية، 1993، ص 47.

4- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ص ص 62 - 85.

5- الميل: يساوي ألف باع و يساوي 615 متر. ينظر: أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 61.

6- الفرسخ: يساوي ثلاثة أميال و يساوي 1840 متر. ينظر: أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 61.

تناولت كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين أحوال المغرب الأوسط من خلال ما قيده من مشاهدات خلال زيارتهم له، و قدموا لنا صورة واضحة عنه في مختلف المجالات، فكثيرا ما تحدثوا عن أحواله السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية، لذا برزت أهمية مؤلفاتهم كمصادر هامة لا يمكن الاستغناء عنها في كتابة تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط و تراثه الثقافي. و يمكن تلخيص أهميتها في ما يلي:

#### أ- الأهمية الثقافية و العلمية:

تبرز القيمة العلمية للرحلات فيما تحتويه من معارف كثيرة جغرافية، تاريخية، اجتماعية، اقتصادية و غيرها، مما يدونه الرحالة في غالب الأحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة و بالناس و بالحياة خلال رحلته، فان الرحالة و هو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض، فهو يعمل في خدمة الجغرافيا علما و منهاجا من حيث وصف البلدان و المسالك و الأقاليم، و المدن، و المناخ و الطبيعة و عن ظاهرات توزيع السكان و غير ذلك<sup>(1)</sup>، و استخدم الرحالة المغاربة و الأندلسيين مقاييس علمية لقياس المسافات كالميل... الخ، لتقدير المسافة، مما عكس صورة واضحة عن المغرب الأوسط.

بدأ الرحالة المغربي العبدري تدوين رحلته في مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط و ذكر فيها: «و هذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان، و لم يمكنني إظهارها هنالك، و أظهرتها بعد خروجنا منها، و وقف شيوخنا بمصر و غيرها... و قد أكملتها - و الحمد لله - منتظمة على نسقها، و مستتة في سننها، جاريا معها حسبما جرت، مستمليا لها فيما قدمت و أخرت، حتى استوفي الغرض المطلوب، و حصل المراد منه و المرغوب، و بالله أعتصم و أستعين...»<sup>(2)</sup> و قدم لنا العبدري تصوراً عن واقع الحياة العلمية و الثقافية للحواضر التي زارها خلال القرن 9 هـ/15 م.

لم يقدر لابن خلدون أن يستقر طويلا في موضع ما فعند رجوعه إلى افريقيا أخذ ينتقل بين المدن مثل بجاية و بسكرة و تلمسان و فاس ثم رجع إلى الأندلس. و قد استطاع مرة أخرى أن يخلو إلى نفسه بضعة أعوام و ذلك ابتداء من عام 776 هـ/1375 م في قلعة بني سلامة من أعمال وهران بالمغرب الأوسط، انقطع فيها للقراءة و التأليف عاملا دون كلل في تحضير مقدمته<sup>(3)</sup> الشهيرة لموسوعته التاريخية « كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». تناولت مؤلفات الرحالة المغاربة و الأندلسيين الأوضاع الثقافية للمغرب الأوسط، فمنهم من وصف المؤسسات التعليمية و المستوى العلمي، و منهم أيضا من وضع ترجمة للعلماء و الفقهاء، و قد خصص أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي في رحلته تراجم لشيوخه بمدينة تلمسان و تخصص كل واحد منهم مع ذكر تاريخ الوفاة.

1- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الثانية، 1983، ص 6.

2- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، رحلة العبدري، تح علي إبراهيم كرومي، دار سعد الدين للطباعة و النشر و التوزيع، ط2، دار سعد الدين للطباعة و النشر و التوزيع، 2005، ص 39.

3- أغناطيوس يوليانونفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ج1، جامعة الجامعة الدول العربية، ص 440.

تحدث الحسن الوزان في كتابه «وصف إفريقيا» عن المدارس الهامة التي كانت موجودة ببلاد المغرب الإسلامي و في إفريقيا جنوب الصحراء، و تناول الحياة الطبيعية فيها من حيث المناخ و الأشجار المثمرة و النباتات، و قدم معلومات عن العملة و سبكها، و تحدث أيضا عن القرى الآمنة و عن الصحاري و عن المسافات و غيرها<sup>(1)</sup> و وضح مصدر معلومات في ختام كتابه قائلا: «...و قد أثبت بعناية يوماً فيوماً كل ما رأيته يستحق الذكر كما شهدته و ما لم أشاهده أخبرني به من يوثق إخباراً صحيحاً كاملاً»<sup>(2)</sup> يبدو توثيقاً صادقاً للأمانة العلمية.

### ب- الأهمية الاقتصادية و الاجتماعية:

اشتهرت مدن المغرب الأوسط بتنوع ثروتها الطبيعية و وفرة إنتاجها، و قد أبرزت كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين قيمته الاقتصادية مع الإشارة إلى تركيبته الاجتماعية.

وصف ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا أحوال المغرب الأوسط الاقتصادية، حيث تطرق إلى الزراعة و مختلف المنتجات الزراعية و الصناعة بأنواعها و المواد الأولية كالمرجان بمرسى الخرز [القاله]، و الحرف، و قد ساهمت الأسواق الداخلية و الخارجية عن طريق شبكة الطرق البرية و الموانئ البحرية في تصريف الإنتاج و تبادل السلع مع مناطق مجاورة للمغرب الأوسط و أخرى بعيدة عنه.

و من المدن الهامة التي كانت تتجمع فيها القوافل التجارية من المغربين الأوسط و الأقصى باتجاه السودان الغربي، مدينة سجلماسة<sup>(3)</sup> حيث قال عنها أبو عبيد الله البكري: «و مدينة سجلماسة في أول الصحراء لا يعرف في غربها و لا في قبليها عمران... و من مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة، و بينها و بين مدينة غانة مسيرة شهرين في صحراء غير عامرة إلا بقوم ظاعنين لا يطمئن بهم منزل، و هم بنو مسوفة من صنهاجة، ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة، و بين سجلماسة و وادي درعة مسيرة خمسة أيام»<sup>(4)</sup>

1- عبد القادر زبادية، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010، ص 137.

2- الحسن بن محمد الفاسي الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، و محمد الأخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة 1983، ص 284.

3- سجلماسة: في صحراء المغرب، بينها و بين البحر خمس عشرة مرحلة، و هي على نهر يُقال له زيز، و ليس بها عين و لا بئر، و زرعهم الدخن و الذرة و لهم النخيل الكثير.

ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة 1، 1975، ص 503.

4- أبو عبيد الله البكري، المسالك و الممالك الجزء الخاص ببلاد المغرب، دراسة و تحقيق زينب الهكاري، مطبعة الرباط نات، المغرب، 2012، ص 267.

تناولت كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين الأوضاع الاجتماعية لمناطق حلوا بها، مما أعطى صورة واضحة عن مجتمعات البلدان التي زاروها<sup>(1)</sup>، و وصف الشريف الإدريسي قبائل بطون زناتة من حيث العادات و التقاليد قائلا: «...و هم قوم رحالة طواعن ينتجعون من مكان إلى مكان غيره لأنهم متحضرون و أكثر زناتة فرسان يركبون الخيل و لهم عادية لا تؤمن و لهم معرفة بارعة و حذق و كياسة و يد جيدة في علم الكتف و لا يرى أن أحدا من الأمم أعلم بعلم الكتف من زناتة و هم منسوبون إلى جانا و هو أبو زناتة كلها و هو جانا ابن ضريس ابن لوى بن نفاو و نفاو هو أبو نفاوة كلها و نفاو ابن لوى الأكبر بن برا بن قيس بن الياس بن مضر و زناتة في أول نسبهم عرب صرح و إنما تبربروا بالمجاورة و المحالفة للبرابر من المصاميد.»<sup>(2)</sup> و وصف سكان مدينة تاهرت: «...بها ناس وجمال من البرابر...»<sup>(3)</sup>

تميزت رحلة العبدري بالاهتمام و التدقيق في الآثار القديمة و التصوير الدقيق للحالة الاجتماعية و الدينية التي كانت عليها البلاد الإسلامية في زمانه، فكان يدرك بالنظرة الواحدة ما لا يدركه غيره بالتأمل الطويل<sup>(4)</sup> و كانت أوصافه دقيقة لأحاديثه عن المدن و من وجده، وكان الرجل بطبيعته الريفية الجبلية السليمة قادرا على يستبين ما تقع عينه عليه من المناظر ما لا يستبينه غيره من أهل المدن، و هو يصف ما يراه وصفا ساذجا واضحا ينقل فيه للقارئ ما رآه، في حين كانت غالبية الجغرافيين في تلك العصور تنقل من الكتب<sup>(5)</sup> و هو ما أدى بالكثير من الدارسين للنظر إلى الرحلات على أنها مدونات، و وثائق مفيدة من الجانب الجغرافي أو التاريخي أو الاثنوغرافي<sup>(6)</sup> و هذا ما عالجه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته تحت عنوان «العمران البشري».

اشتمل كتاب «وصف إفريقيا» للحسن الوزان على تفاصيل اجتماعية كثيرة شملت العادات و التقاليد و أسماء القبائل و أماكن توزيعها في بلاد المغرب و خاصة المغرب الأوسط أين استقرت به أعداد كبيرة من بني هلال و بني عامر، قائلا: «ينتمي العرب الذين دخلوا إفريقيا إلى ثلاث قبائل: حكيم، و هلال، و معقل... و تنقسم هلال من جهتها إلى أربعة فروع: بني عامر و رياح و سفيان و هوازن و ينقرع بنو عامر إلى عروة، و عقبة، و هبرة، و مسلم...»<sup>(7)</sup>، كما تحدث أيضا عن البربر سكان بلاد المغرب: «و يعرف سكانها البيض بالبربر، وهي كلمة مشتقة، حسب رأي بعضهم، من الفعل العربي بربر. بمعنى همس، لأن اللهجة الإفريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجماء...»<sup>(8)</sup>، لكن كلمة بربر اختلف فيها المؤرخون.

- 1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع و الثامن الهجريين - دراسة تحليلية مقارنة-، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص ص 92 - 93.
- 2- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق/ مج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 257
- 3- نفسه، ص ص 255 - 256
- 4- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية...، المرجع السابق، ص 120.
- 5- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية...، المرجع السابق، ص 523
- 6- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 5.
- 7- الحسن بن محمد الفاسي الوزان، المصدر السابق، ج1، ص ص 48 - 49.
- 8- المصدر نفسه، ص ص 34 - 35.

## ج- الأهمية السياسية:

قامت كيانات سياسية مستقلة بالمغرب الأوسط كانت من عواصمها تيهرت، قلعة بني حماد، بجاية و تلمسان و أصبحت بذلك هذه العواصم مشهورة سياسياً و اقتصادياً بفضل علاقاتها السياسية و التجارية مع مختلف الجهات، و هذا ما تناولته كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين من خلال ما سجلوه من ملاحظات عن الأحوال السياسية للمغرب الأوسط أثناء نزولهم به للاستراحة و قضاء حوائجهم قصد التزود للسفر.

اشتهر سكان المغرب الأوسط عبر تاريخهم القديم بمقاومتهم للغزاة الرومان و الوندال و البيزنطيين، و كان البربر من الحريصين على الحفاظ على سلطانهم و عن جبل أوراس المشهور يقول الجغرافي ابن سعيد المغربي: «كانت فيه الكاهنة<sup>(1)</sup>، و سكانه... لا يدخلون تحت طاعة سلطان لامتناع جبلهم العريض الطويل، و لما عندهم من الحيل و الرجالة و الأسلحة»<sup>(2)</sup>، لكنهم تفهموا الهدف النبيل المتمثل في نشر دين الإسلام و الذي قدم من أجله العرب المسلمين الفاتحين الأوائل خلال القرن الأول الهجري/السابع الميلادي.

تولى عبد الرحمن بن خلدون مناصب هامة في كل من المغرب الأقصى (الدولة المرينية) و المغرب الأوسط (الدولة الزيانية)، و بعد ذلك تولى قضاء المالكية في مصر<sup>(3)</sup>، و في رحلته [التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا] عرض رحلاته و الأحداث التي شهدها، و تناول فيها الأحوال السياسية التي عرفتھا بلاد المغرب، فكان رحلته مصدرا مهما ضمن رحلات المغاربة و الأندلسيين، باعتباره عايش أحداثها خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي.

تحدث الحسن الوزان في كتابه «وصف إفريقيا» عن الممالك الموجودة آنذاك ببلاد المغرب، منها «مملكة تلمسان»<sup>(4)</sup> التي شملت المغرب الأوسط، و «مملكة بجاية»<sup>(5)</sup> و البلاط الملكي و حاشيته من وزراء و تقاليد الموظفين لكل مملكة، و طبيعة العلاقات بين هذه الممالك، فأصبح كتابه من المصادر الهامة في الجغرافيا و في دراسة الأحوال السياسية ببلاد المغرب استفاد منها الغرب المسيحي في حملاته الصليبية ضد العالم الإسلامي، حين أمدته بمعلومات استطلاعية.

1- الكاهنة: دها بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس و قومها من جراوة ملوك البتر.

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ج 6، بيروت، لبنان، 2000، ص 143.

2- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة 1982، ص 145.

3- عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 177.

4- الحسن بن محمد الفاسي الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 7 - 10.

5- المصدر نفسه، ص 49 - 66.

## الباب الأول

ترجمة ودراسة لكتب الرحالة والجغرافيين المغاربة والأندلسيين من

القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 .)

## الفصل الأول

تحديد المفاهيم والمصطلحات الأساسية للدراسة

المبحث الأول: تلمسان

المبحث الثاني: مفهوم الرحلة

المطلب الأول: في القرآن الكريم و السنة النبوية

المطلب الثاني: في اللغة

المطلب الثالث: في الاصطلاح

المبحث الثالث: فن الرحلة عند المغاربة و الأندلسيين – أنواعها، خصائصها

المطلب الأول: أنواعها

أ – الرحلات الدينية

ب – الرحلات العلمية

ج – الرحلات الرسمية

د – الرحلات الاقتصادية

هـ. الرحلات العامة

المطلب الثاني: خصائصها

أ – الخصائص العامة

ب. الخصائص الخاصة

يتطلب موضوع بحثي تخصيص باب لترجمة و دراسة كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين، و فيه خصصت الفصل الأول منه لتحديد المفاهيم و المصطلحات الأساسية للدراسة، و يتناول خمسة مباحث:

يتعرض المبحث الأول إلى مصطلح المغرب الأوسط و ذلك بالاعتماد على ما كُتب في مؤلفات الجغرافيين العرب، و ذلك من خلال التعرض إلى مصطلح بلاد المغرب و تحديد فترة ظهور مصطلح المغرب الأوسط و مجاله الجغرافي و السياسي.

أما المبحث الثاني فخصصناه لتلمسان بين التسمية و التأسيس عبر التاريخ، حيث تناولنا الكلمة بدءاً ببوماريا (*Pomaria*) في العهد الروماني، لكن يبدو أن تأسيس مدينة تلمسان أقدم من بوماريا الرومانية و ربما كانت تحمل اسم آخر بربري، ثم تطرقنا إلى تطور التسمية إلى تلمسان و شرح معناها من خلال ما جاء في بعض المصادر و المراجع منها أبو عبيد البكري في كتابه [المسالك و الممالك]، و ياقوت الحموي في كتابه [معجم البلدان]، و عبد الرحمن بن خلدون في موسوعته العبر، و مؤلف مجهول كتاب [الاستبصار في عجائب الأمصار]، و لسان الدين بن الخطيب في مؤلفه [معيان الاختيار في ذكر المعاهد و الديار]، و تناولنا المدن الثلاثة المكونة لتلمسان و هي: أغادير، تاجرارت و المنصورة.

و خصصنا المبحث الثالث لمفهوم الرحلة، ففي المطلب تناولنا مفهوم الرحلة في القرآن الكريم و السنة النبوية، و في المطلب الثاني تناولنا مفهوم الرحلة في اللغة، و في المطلب الثالث تناولنا مفهوم الرحلة في الاصطلاح.

أما المبحث الرابع فخصصناه لفن الرحلة عند المغاربة و الأندلسيين، و كيف برعوا فيها، و في المطلب الأول تطرقنا إلى علاقة الجغرافيا بالرحلة، ثم صنفنا أنواع الرحلات، و منها الدينية، العلمية، الرسمية، الاقتصادية و العامة. و كل نوع منها له خصائص تميزه عن غيره من الرحلات، أما الرحلات العامة فهي التي تأخذ من جميع الأنواع السابقة و قد نجدها خليطاً أو مزيجاً منها، مثل رحلة ابن بطوطة.

أما المطلب الثاني تناولنا فيه خصائص الرحلة، و قسمناها إلى خصائص عامة، و هي تلك الخصائص التي تشترك فيها بعض رحلات المغاربة و الأندلسيين خلال القرنين 7 و 9 الهجريين/ 13 و 15 الميلاديين. أما الخصائص الخاصة فتحدثنا فيها عن ما تتميز به بشكل عام كل رحلة من رحلاتهم المدروسة في هذا البحث.

## المبحث الأول: تلمسان

طالما بحث بعض المؤرخين عن اسم مدينة تلمسان في العصور القديمة، لكن يبدو أن كتب التاريخ لم تفيدهم إلا باسمها الروماني و هو "بوماريا" (*Pomaria*) باللاتينية تعني البساتين أو الحدائق<sup>(1)</sup>، لكن هذا الاسم لا يعني أن المدينة تأسس روماني، و مما لا شك فيه أنها أقدم من وجود الرومان بها و أنها كانت تحمل اسما بربريا آخر، لأن موقعها الطبيعي و الجغرافي الاستراتيجي الفريد جعل منها أرض مستقرة أهلة، فلا يمكن إذن أن تبقى بدون اسم، ولعل اسم " بوماريا " (*Pomaria*) ما هو إلا ترجمة للاسم البربري القديم<sup>(2)</sup> و من خلال الحفريات و الأبحاث التي قام بها باحثون غربيون على وجه الخصوص و التي أجريت على تلمسان و عثورهم على بقايا أثرية تعود إلى العصور الحجرية، أو فجر الحضارة الأولى لإنسان هذه المنطقة<sup>(3)</sup> المتجذرة منذ ما قبل التاريخ.

اتخذت مدينة تلمسان أسماء متعددة منذ نشأتها و عبر مراحلها التاريخية، لأنها تعتبر من أقدم مدن المغرب الأوسط<sup>(4)</sup> فإسم تلمسان في لغة زناطة مركّب من كلمتين : تلم سان و معناهما تجمع إثنين يعنون البرّ و البحر<sup>(5)</sup> و يذكر المقرئ صاحب نفع الطيب: «...و يقال (تلمشان) أو (تلشان)، و هو أيضا مركّب من (تلم) ومعناه لها، و (شان) أي لها شأن...»<sup>(6)</sup> و مما يُنسب للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها: «تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء و الريف، و وضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، و حوالبه من الدوحات حشمه و أعلاجه، عبادها يدها و كهفها كهفا، و زينتها زيانها، و عينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد، و هواؤها الممدود صحيح عتيد، و ماؤها بزود صريد، حجبها أيدي القدرة عن الجنوب...»<sup>(7)</sup>

و كلمة تلمست جمعها تلمسين و كلمة تلمست جمعها تلمسان و معناها واحد هو أرض تتعم بالمياه و الأعشاب و الأشجار، و على هذا فإن لفظة (تلمسان) و إنما تطلق على هذا النوع من المدن التي تقع في أرض تحيط بها الجبال و تتعم بالمياه و الأعشاب و الأشجار، و مهما يكون فإن كلمة تلمسان بربرية الأصل، و في لغة الأطلس كلمة تلمسين عند آيت عطا، بالمغرب الأقصى معناها أرض منبسطة بين الجبال<sup>(8)</sup> التي هي مصدر مياهها، و لهذا كان العامل الطبيعي من العوامل الهامة التي ساهمت في صناعة تسمية تلمسان.

1- Stéphane gsell, *histoire ancienne de l'Afrique du nord, tome 1, librairie hachette, paris, 1888, p 161.*

2- محمد الطمار، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 13.

3- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 88.

4- المرجع نفسه، ص 88.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 102.

ينظر كذلك : مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ت)، ص 444.

6- أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج 7، دار صادر، بيروت، 1968، ص 134.

ينظر كذلك: يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بيبير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903، ص 9

7- أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، ج 7، ص 135.

8- محمد الطمار، تلمسان عبر العصور...، المرجع السابق، ص 13.

أطلق الرحّالة و الجغرافيون العرب بعد ابن خردادبه و ابن الفقيه على المدينة اسم تلمسان و هو اسم يوافق المسمى كما وافقها اسم بوماريا في عهد الرومان، فان كلمة "بوماريا" (Pomaria) و كلمة تلمسان متقاربتان من حيث المعنى<sup>(1)</sup> و مما يلاحظ أن مرافق و آثار مدينة تلمسان لفت انتباههم في العصر الوسيط، و قد وصفها البكري: «و هي مدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز، و لها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة: باب الحمام و باب وهب و باب الخوخة، وفي الشرق باب العقبة، و في الغرب باب أبي قرة. و فيها آثار للأول قديمة... و أكثر ما يوجد الركاز في تلك الآثار...»<sup>(2)</sup> أي الكنوز المدفونة تحت التراب و التي تعود إلى فترات تاريخية بعيدة.

و قال عنها أيضا ياقوت الحموي: «تلمسان: بكسرتين، و سكنون الميم، و سين مهملة، وبعضهم يقول تلمسان، بالنون عوض اللام: بالمغرب و هما مدينتان متجاورتان مسورتان، بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة و الأخرى حديثة، و الحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب، و اسمها تافرت، فيها يسكن الجند و أصحاب السلطان و أصناف من الناس، و اسم القديمة أفادير، يسكنها الرعية... و منها إلى وهران مرحلة»<sup>(3)</sup>

و وصفها صاحب الاستبصار: «مدينة تلمسان، مدينة عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية تنبئ أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة، و هي في سفح جبل أكثر شجره الجوز، و كان لها ماء مجلوب من عمل الأوائل من عيون يسمى بوريط، بينها و بين المدينة 6 أميال، و لها نهر كبير يسمى سطفسييف...»<sup>(4)</sup> و الجغرافي الشريف الإدريسي: «... و مدينة تلمسان مدينة أزلية و لها سور حصين متقن الوثاقه و هي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور و لها نهر يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين و على هذا الجبل حصن بناه المصمودي قبل أخذه تلمسان و لم تزل المصامدة قاطنين به إلى أن فتحوا تلمسان و هذا الوادي يمر في شرقي المدينة و عليه أرجاء كثيرة...»<sup>(5)</sup>

وصف لسان الدين ابن الخطيب تلمسان و موقعها بقوله: «تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء و الريف، و وضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، و حواليه من الدوحات حشمة و أعلاجه عبادها يدها، و كهفها كفها، و زينتها زيانها، و عينها أعيانها... إلا أنها بسبب حب الملوك، مطمعة للملوك...»<sup>(6)</sup> و تقع تلمسان في أقصى غرب المغرب الأوسط، مما جعلها عرضة لهجمات جيرانها المرينيين.

1- محمد الطمار، تلمسان عبر العصور ...، المرجع السابق، ص 14.

2- أبو عبيد البكري، المسالك و الممالك، المصدر السابق، ص 172.

3- أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 1، المصدر السابق، ص 44.

4- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، الهامش 1، ص 176.

ينظر كذلك: ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج 1، ص 5 - 6.

5- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق...، المصدر السابق، مج 1، ص 248.

6- لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار، تح محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، 2002، ص ص 183 - 184.

تقع مدينة تلمسان على ارتفاع 830 م على سطح البحر، تحيط بها من الجنوب الجبال الصخرية، و تحدها من الشمال الغربي مرتفع ترارة، وجبل فلاوسن، و تحدها من الشمال الشرقي مرتفعات السبعة شيوخ و تاسلة، و تشرف من الناحية الشمالية على سهول الحناية الخصبة، ويتوفر موقعها على المسطحات المائية، فهي تقع فوق خزان من المياه الجوفية بالإضافة إلى وجود الأودية<sup>(1)</sup>، وقد حدد ابن سعيد المغربي موقع تلمسان بقوله: «و تقع تلمسان المشهورة حيث الطول أربع عشرة درجة و أربعون دقيقة و العرض ثلاث و ثلاثون درجة و اثنتان و أربعون دقيقة»<sup>(2)</sup>، و قد سماها القديم موريطانيا القيصرية، يحدها من الغرب مملكة فاس، و من الشرق الإقليم الذي يسمى إفريقية<sup>(3)</sup>

قام المؤرخ الفرنسي أن. جوتيه بدراسة موقع تلمسان بما عرف عنه من الصدق و دقة النظر، فقال " إنه يبدو أن الأوضاع الجغرافية استدعت أن تقوم في إقليم غربي المغرب الأوسط قاعدة إلى الغرب من الجزائر، لأن الطريق الذي يخترق التلول في منطقة الخانق الكبير الذي يمتد من توات إلى روسيون، و الخط الممتد من تلمسان إلى مصب التافنا، حيث قامت مدينة سيجا عاصمة سيفاكس ( الزعيم البربري التوحدي الكبير الذي حارب الرومان). و هذا الطريق لا يختلف كثيرا عن الطريق الممتد من أشير إلى المدينة، ثم إلى مليانة، ثم الجزائر. معنى هذا أنه كما قامت مدينة أخرى على الطريق الذي تحدثنا عنه و هو تلمسان "و يضيف: "و بعيدا عن تونس الحفصية في الطرف الآخر من البلاد يظهر شيء جديد يشرح لنا أهمية قيام تلمسان هنا. فقد قام مركز تجمع مدني يرث موقع بوماريا الرومانية، إن تلمسان الحديثة عاصمة الغرب وهي من إنشاء يغمراسن و بني عبد الواد"<sup>(4)</sup> و قد تشكلت مدينة تلمسان من ثلاث مدن متجاورة، تأسست في فترات تاريخية مختلفة و هي:

1- **أغادير:** تقع بالقسم الشرقي من تلمسان<sup>(5)</sup> و هي المدينة المحلية الصغيرة التي احتلها الرومان و بنوا على أنقاضها بوماريا و هي أقدم في النشأة و التأسيس، لأن سكانها عرفوا الاستقرار البشري فيها قبل مجيء الرومان<sup>(6)</sup> و في أول الدولة العباسية أقام بها بنو يفرن إمارة زناتية تحت إمرة أبي قرّة المنتري<sup>(7)</sup> ثم دخلها إدريس بن عبد الله و أسس بها مسجداً سنة 174 هـ/790 م<sup>(8)</sup> و أغادير هي النواة الأولى التي قامت عليها مدينة تلمسان.

1- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 87.

ينظر كذلك: Rozet et carette, l'univers ou histoire et description de tous les peuples, de leurs régions, mœurs, coutumes, etc. Firmin didot frères, éditeurs, imprimeur de l'institut, paris, 1850, p.126.

2- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 140

3- مارمول كارخال، إفريقيا، ج 2، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي و آخرون، الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، 1989، ص 291

4- ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تقديم وتحقيق و تعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر و التوزيع، ط 1، ص 14.

5- O.mac Cathy, ALGERIA.ROMANA. Recherche sur l'occupation et la colonisation de l'Algérie par les romains, 1<sup>er</sup> mémoire subdivision de Tlemcen, in revue africaine, vol.1, 1856, p 94.

6- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 91.

7- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص ص 24 - 25.

8- أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، المصدر السابق، ج 1، ص 69

تشير النصوص التاريخية إلى أن مدينة « أكادير » أو « أقادير » أو « أجادير » بنيت قبل الإسلام، و لهذا تكون نشأتها بعشرات أو بمئات السنين قبل المرحلة الرومانية و العهد الإسلامي، و بالتالي تعد أقدم من بوماريا (Pomaria)، لأن بعض النصوص تشير إلى تقدم نشأتها و أزليتها، بحيث تعود إلى عهد النبي موسى عليه السلام أي الألف الثانية قبل الميلاد، و أن اسمها فنيقي الأصل<sup>(1)</sup> حتى دفع بعضهم إلى أن زعموا أن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر و موسى عليهما السلام هو بناحية أغادير، غير أن عبد الرحمن بن خلدون ينكر ذلك باعتبار موسى عليه السلام لم يفارق المشرق، و أن بني إسرائيل لم يبلغ ملكهم لأفريقية و ما وراءها<sup>(2)</sup> ببلاد المغرب.

2- تاجرارت: أو تلمسان الحديثة، أنشأها يوسف بن تاشفين أمير الملتمين، لتكون مقرا للإدارة العسكرية للمنطقة و ليشرفوا منها على ما حولها من المناطق<sup>(3)</sup> سنة 473 هـ/1081 م و أطلق عليها اسم « تاجرارت » أو « تاجرارت » و تعني المحلة أو المعسكر بلسان صنهاجة و أسس بها المسجد الجامع إلى جانب القصر و سورا جديدا يحيط بالمدينة و يحميها<sup>(4)</sup> و قد تأثرت العمارة بمدينة تلمسان خلال عهد المرابطين بالإبداع الفني الأندلسي.

تغلب الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي (524 - 558 هـ/1130 - 1163 م) على المغرب الأقصى ، فتوجه نحو مسقط رأسه بالمغرب الأوسط و حاصر مدينة تلمسان و رغم كثرة جيوش تاشفين بن علي المرابطي، غير أنه انهزم أمام جيش الموحدين و قُتل بنواحي وهران، و دخل عبد المؤمن بن علي مدينة تلمسان منتصرا سنة 540 هـ/1145 م، و قتل الكثير من أهلها و خرب بعض عمرانها، ثم شجع الناس على تعمیرها و ترميم ما دمرته الحرب<sup>(5)</sup> و أصبحت تلمسان من بين المدن التي وجهت لها عناية الموحدين لأنها غير بعيدة عن مسقط رأس عبد المؤمن و هي من بين المدن التي أخذ فيها العلم عن شيوخها<sup>(6)</sup> بالإضافة إلى كونها كانت معقل عشيرته كومية و بطون قبيلة زناتة البربرية.

و هكذا ازداد توسع المدينة العمراني و تزايد نشاطها التجاري وانتشرت اللغة و الثقافة العربية الإسلامية، و أصبحت تاجرارت محل عنايتهم و أبقوها عاصمة لولاية المغرب الأوسط، و امتدت الدولة الموحدية إلى سائر أقطار المغرب الإسلامي، مما أدى إلى توثيق العلاقات بين مختلف الحواضر و الأقاليم فتكثفت الاتصالات بين سكانها و أصبح الكثير من الطلبة والعلماء يرتحلون إلى تلمسان للأخذ عن علمائها أو للتدريس و الاستقرار بها<sup>(7)</sup>

1- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص ص 91 - 92.

2- محمد الطمار، تلمسان عبر العصور...، المرجع السابق، ص ص 12 - 13. ينظر: القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية 77 و ما بعدها.

3- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس " عصر المرابطين و الموحدين"، مكتبة الخانجي، مصر الطبعة 1، 1980، ص 383.

4- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص ص 96 - 97.

ينظر كذلك: Marçais Georges, Tlemcen, Edition de Tell, Blida, 2003, p p.18-20

5- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 97.

6- مختار حساني، الحواضر و الأمصار الإسلامية الجزائرية، ج 4، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2011، ص 41.

7- عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 1، أبريل 1993، ص 37

ظهر يغمراسن بن زيان على مسرح الأحداث كزعيم سياسي لبني عبد الواد في سنة 633 هـ/ 1235 م<sup>(1)</sup> و استقل بنو زيان بتلمسان، اعتنوا بعمارتها و تحصينها و تجميلها و بذلوا جهودا عظيمة في تشييد مبانيها و توسيع خطتها و توفير مرافقها<sup>(2)</sup> و أصبحت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط<sup>(3)</sup> و مقرا لإدارة سلطتهم المركزية، الأمر الذي مكنها من النمو و الازدهار الثقافي من خلال بناء المؤسسات التعليمية و جلب مشاهير العلماء و الأدباء<sup>(4)</sup>، لكن تلمسان الزيانية أصبحت مطع جيرانها الحفصيين و المرينيين، و أشد التنافس بينهم من أجل توحيد و قيادة المغرب الإسلامي بعد سقوط الموحيدين.

3- المنصورة: بناها يوسف بن يعقوب المريني سنة 702 هـ/ 1303 م و هو محاصر لتلمسان، عزم منه على عدم رفع الحصار و مغادرة المنطقة إلا بعد سقوط تلمسان عاصمة الزيانيين، و اختط بها قصرا لسكانها، و اتخذ بها مسجدا جامعا لصلاته و شيد له مئذنة رفيعة و تبعه الناس في تشييد المنازل و القصور، و اتخذوا البساتين و أجرؤا المياه و شيد بها الحمامات و المارستان و سماها المنصورة، و استبحر عمرانها و هالت أسواقها، و رحل إليها التجار بالبضائع من كل صوب بعيد<sup>(5)</sup> فتحوّلت مدينة المنصورة إلى قوة اقتصادية و مالية كبيرة مستحوذة على مكانة تلمسان، خاصة و أصبحت عاصمة للمغربين الأوسط و الأقصى معا<sup>(6)</sup> و من أعظم مدن بلاد المغرب.

و بالرغم من أن المرينيين رفعوا الحصار و رجعوا إلى فاس سنة 708 هـ/ 1309 م، فإنهم عادوا مرة أخرى سنة 735 هـ/ 1335 م و ذلك على يد السلطان أبي الحسن علي بن عثمان ليحتلوا تلمسان بعد سنتين من الحصار (735 - 737 هـ/ 1335 - 1337 م)، و نزل السلطان في مدينة المنصورة التي بناها جده أبو يوسف، و أصلح المدينة إصلاحا شاملا و رممها و حلاها بمنشآت جديدة، و اتخذها عاصمة له للمرة الثانية و منها اتصل بمعظم الدول الإسلامية في المشرق و المغرب و الأندلس، و ظلت مدينة المنصورة عامرة حتى سنة 756 هـ/ 1355 م، عندما أخلاها أبو عنان فارس بن أبي الحسن<sup>(7)</sup> ثم تعرضت للتخريب على يد الزيانيين، و لم يبلغ أواخر الربع الثالث من القرن 8 هـ/ 14 م حتى كانت مدينة المنصورة قد تحولت إلى قوقعة فارغة، بعدما كانت هي المدينة الثالثة التي تشكلت منها تلمسان بعد أغادير و تاجررات الواقعتان إلى الغرب منها<sup>(8)</sup>

1- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 51.

2- رابح بونار، المغرب العربي تاريخه و ثقافته، ط 3، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2000، ص 282.

3- Richard L. Lawless, Tlemcen, capitale du maghreb central. Analyse des fonctions d'une ville islamique médiévale, *in revue de l'occident musulman et de la méditerranée*, N° 20, 1975, p.50.

4- عبد الحميد حاجيات، تلمسان...، المرجع السابق، ص 39.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص ص 292 - 293.

ينظر كذلك: عبد العزيز محمود لعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان دراسة تاريخية أثرية في عمرانها و عمارتها و فنونها، زهراء الشرق، ط1، 2006، ص 7.

6- المرجع نفسه، ص 7.

ينظر كذلك: Marçais Georges, Tlemcen, op.cit, p.52.

7- عبد العزيز محمود لعرج، المرجع السابق، ص ص 7 - 8.

8- المرجع نفسه، ص 8.

## المبحث الثاني: مفهوم الرحلة

## المطلب الأول: في القرآن الكريم والسنة النبوية

كانت القبائل العربية في الجاهلية تنظر إلى قبيلة قريش نظرة إكبار واحترام، فوعدها بحماية بيت الله المقدس، مما سهل عليها عقد أحلاف تجارية مع القبائل التي كانت تقع على طرق القوافل التجارية لضمان أمن و سلامة هذه القوافل من الاعتداءات التي كانت تتعرض لها من قبل تلك القبائل. وقد سميت تلك الأحلاف التجارية بالإيلاف لأنها على شكل حلف يضمن الحماية للقوافل في رحلاتها التجارية<sup>(1)</sup> وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأحلاف التي عقدتها قريش مع هذه القبائل في قوله تعالى: ﴿لِيَلَافِ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾<sup>(2)</sup> و نجح أبناء عبد مناف - و هم كل من: هاشم والمطلب وعبد شمس و نوفل في مطلع القرن السادس الميلادي في الحصول على موافقة حكام بلاد الشام و العراق و اليمن و الحبشة بالسماح لقبيلة قريش للتجارة في بلادهم<sup>(3)</sup>، فكانت رحلة قريش التجارية في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام فانعكست آثارها بالإيجاب على أوضاعها الاقتصادية<sup>(4)</sup>، و لم تصدر في القرآن الكريم كلمة رحلة إلا مرة واحدة.

أخبرنا القرآن الكريم عن كثير من الأنبياء الذين اعتنوا بالرحلة لقضايا مختلفة منها التربية و التعليم والجهاد و الدعوة إلى الله و تطبيق شرعه في الأرض و من هؤلاء الأنبياء الذين ذكر أسفارهم في القرآن الكريم: إبراهيم و إسماعيل و لوط و إسحاق و يعقوب و موسى و هارون و داود و سليمان و عيسى و ذي القرنين و العبد الصالح عليهم السلام<sup>(5)</sup>، و عن رحلة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام ليتعلم منه، جاء في قوله ﷺ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ لَا تَأْخُذْ بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزهِقْنِي مِنْ أَمْرِي غَسْرًا﴾<sup>(6)</sup>

و جاء مفهوم الرحلة في القرآن الكريم بمعنى السير منها ما جاء في قوله ﷺ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾<sup>(7)</sup>، كما وردت مفردات مرادفة للرحلة و منها الظعن، الإسراء، السفر، الحج، الهجرة و السير، بينما لفظة «الظعن» ذكرت مرة واحدة في قوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْنَافِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾<sup>(8)</sup>

1- هاشم يحي الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة 2008، ص 277 - 278

2- سورة قريش، الآيتان: 1 - 4 .

3- هاشم يحي الملاح، المرجع السابق، ص 277.

4- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 30.

5- سميرة أنساع، المرجع السابق، ص ص 15 - 16.

6- سورة الكهف، الآيتان: 71 - 73

7- سورة النمل، الآية: 69

8- سورة النحل، الآية: 80.

كانت رحلة الإسراء و المعراج من أشهر الرحلات في الإسلام، فقد سير الله ﷺ نبيه محمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى و الذي لا يبلغ إلا برحلة مسيرتها أربعين ليلة<sup>(1)</sup> فجاء في قوله ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>(2)</sup> كما ورد لفظ "رحل" أي بمعنى البعير<sup>(3)</sup> في قوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَنْزَلَ مُؤَدِّنَ آيَتِهَا الْعَيْرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾<sup>(4)</sup> مما يدل على الرحلة بالقافلة.

حث الإسلام على الهجرة بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، و أشهرها هجرة المسلمين الأولى و الثانية إلى الحبشة فرارا من ظلم قريش، ثم هجرة الرسول عليه الصلاة و السلام من مكة إلى المدينة فرارا بالدين و خوفا من الفتنة<sup>(5)</sup> فقال ﷺ: ﴿يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ﴾<sup>(6)</sup> و بشر القرآن الكريم المهاجرين في سبيل الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(7)</sup>، كما روي عن النبي ﷺ قوله: ﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ﴾<sup>(8)</sup>، فالهجرة تكون لدوافع ما اضطرارية تُجبر الفرد أو الجماعة على ترك المكان و أخذ وجهة أخرى.

أشار الرسول ﷺ في أحاديثه إلى فضل بلاد الشام من الناحية الدينية و الاقتصادية، و ركز على مناطق أكثر من غيرها، و في مقدمتها القدس الشريف التي تأتي في الدرجة الثانية بعد الحجاز بالنسبة للمسلمين<sup>(9)</sup>، و من الأحاديث النبوية التي تحض على زيارة المسجد الأقصى و الصلاة فيه: ﴿وَلَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَسْجِدِي﴾<sup>(10)</sup> و الرجل ما يوضع على البعير للركوب، ثم يعبر به تارة عن البعير، و يتضح ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾<sup>(11)</sup>

1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 42.

2- سورة الإسراء، الآية: 1

3- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 17.

4- سورة يوسف، الآية: 70

5- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 23.

6- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، "صحيح البخاري"، ج 1، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، 2004، ص ص 12- 13 .

7- سورة النحل، الآية: 41

8- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المصدر السابق، ج 1، ص 5

9- علي أحمد، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، الطبعة 1989، ص 95.

10- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المصدر السابق، ج 1، ص 260

11- سورة يوسف، الآية: 62

تمتعت مكة المكرمة بمكانة عظيمة، خاصة بعد انتشار الإسلام، فتوافد الناس عليها، وكانت الرحلة لأداء فريضة الحج استجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله ﷺ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾<sup>(1)</sup>، وقد تكرر لفظ الحج في مواضع عديدة من القرآن الكريم منها: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(2)</sup>

كان الحديث النبوي هو المصدر الثاني للإسلام، و قد أعطاه العلماء غاية الاهتمام، و بذلوا كل ما في وسعهم من أجل الحديث و أسانيده، حتى رحلوا و قطعوا المسافات البعيدة، على بعد الشقة و عظم المشقة، طلبا للحديث و بحثا عن أسانيده بل حتى عن إسناد الحديث الواحد، و يبدو أثر الرحلة للناظر في أسانيد الأحاديث واضحا، في أي إسناد منها و نجد في أغلب الأحيان أنهم ينتمون إلى أكثر من موطن، بل ربما وجدنا كل واحد منهم من بلدة، لكن الرحلة في طلب الحديث جمعت شتاتهم و قربت بُعد ما بينهم حتى تسلسلوا في قرن واحد في سند الحديث الواحد<sup>(3)</sup> و تتلخص أهداف الرحلة عند المحدثين فيما يلي<sup>(4)</sup>:

- 1- تحصيل الحديث.
- 2- التثبيت من الحديث.
- 3- طلب العلو في السند.
- 4- البحث عن أحوال الرواة.
- 5- مذاكرة العلماء في نقد الأحاديث و عللها.

و بعد وفاة الرسول ﷺ تواصلت الرحلات نظرا لتفرق الصحابة في البلدان المفتوحة و استقرارهم فيها، وعدم تدوين الحديث في مصنفات إلا في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، فكثرت الأسفار لمراجعة الأحاديث النبوية خوفا عليها من النسيان و الضياع<sup>(5)</sup>، و تروي كتب علم الحديث و كتب طبقات المحدثين قصصا كثيرة عن المحدثين الذين قاموا برحلات شاقة في سبيل جمع الأحاديث<sup>(6)</sup> و في المسألة النازلة<sup>(7)</sup>، وكانت الرحلة في أوائل العصر الإسلامي من أهم الوسائل لطلب العلم، و كانت تستدعي معرفة الأماكن و المناطق<sup>(8)</sup> نظرا لتعدد المراكز الثقافية، فكان طلاب العلم ينتقلون عبر الحواضر الإسلامية للدراسة على مشاهير العلماء.

1- سورة الحج، الآية: 27

2- سورة آل عمران، الآية: 97

3- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الإمام الحافظ، الرحلة في طلب الحديث، تح نور الدين عتر، سلسلة روائع تراثنا الإسلامي، ط 1، 1975، ص ص 16- 17.

4- المصدر نفسه، ص ص 17- 23.

5- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص ص 44- 45

6- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 12.

7- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المصدر السابق، ج1، ص 31.

8- زيدان جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، تقديم إبراهيم صحراوي، ج2، موفم للنشر، 1993، ص 257.

## المطلب الثاني: في اللغة

ربط العرب في لغتهم بين الدواب التي يرحلون عليها و بين مفهوم الرحلة بصورة عامة، فأخذوا كلمة «الرحلة»<sup>(1)</sup>، و من هذا المعنى جاء في معجم العين: رحل: الرَّاحِلَةُ: المركب من الإبل ذَكَرًا كان أو أنثى. و رَحَلْتُ بغيري أَرْحَلُهُ رَحْلًا، و ارْتَحَلَ البعير رُحْلَةً أي سارَ فَمَضَى. ثم جَرَى في المنطق حتى يقال: ارتَحَلَ القَوْمُ. و الرَّحِيل: اسم الارتحال للمسير، و المُرْتَحَل: تَقْيِضُ المَحَلِّ<sup>(2)</sup> و الرَّحْلُ مسكن الرجل وما يستصعبه المسافر من الأثاث والأوعية، جمعه رحال و الرَّحْلُ أيضا مركب للبعير... والجمع الرَّحَالُ و ثلاثه أُرْحُلُ و رَحَلَ البعير شد على ظهره الرحل وبابه قطع و رَحَلَ فلان و ارتَحَلَ و تَرَحَّلَ بمعنى والاسم الرَّحِيلُ و الرَّحْلَةُ بالكسر الإِرتِحَالُ يقال دَنَّتْ رِحْلَتُنَا و أُرْحَلُهُ أعطاه راحلة و الرَّاحِلَةُ الناقة الصالحة لأن تركب و قيل الراحلة المركب من الإبل ذكرا كان أو أنثى<sup>(3)</sup>

ورد في لسان العرب لابن منظور: الرَّحْلَةُ وَ الرَّحْلَةُ وَ الرَّحْلَةُ: اسمٌ لِلإِرتِحَالِ لِلْمَسِيرِ. و رَحَلَ فلانٌ وَ ارتَحَلَ وَ تَرَحَّلَ. و قَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّحْلَةُ الإِرتِحَالُ، وَ الرَّحْلَةُ، بِالضَّمِّ، الوَجْهُ الَّذِي تَأْخُذُ فِيهِ وَ تُرِيدُهُ، تَقُولُ: أَنْتُمْ رِحْلَتِي أَي الَّذِينَ أَرْتَحِلُ إِلَيْهِمْ<sup>(4)</sup> و يذكر المجابي صاحب الرحلة «و ارتحلنا بعد جر مسيرنا فنزلنا بحمد الله في خير بقعة»<sup>(5)</sup> و الرحلة: من الإِرتِحَالِ تعني الإِنتِقَالِ من مكان الى آخر لتحقيق هدف معين، ماديا أو معنويا، أما الحركة خلال الرحلة بقطع المسافات فهي السَّفَرُ، و جمعه: أسفار<sup>(6)</sup>، و منه قوله ﷺ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ الآية<sup>(7)</sup>.

جاء مفهوم الرحلة في المعجم الوسيط: رَحَلَ عن المكان- رَحْلًا، و رَحِيلًا و تَرَحَّلًا، و رِحْلَةً: سار و مضى<sup>(8)</sup> و الرَّحَالَةُ: الكثير الرحلة. و الرَّحْلَةُ: الارتحال جمع رَحَلَ. و الرَّحُولُ: كثير الإِرتِحَالِ. و الرَّحِيلُ: الإِرتِحَالُ و القوي على الارتحال و السير، و الرَّحْلَةُ كتابٌ يصف فيه الرَّحَالَةَ ما رأى<sup>(9)</sup> من مشاهد خلال رحلته و قد تكون مفيدة جدا للمتطلع على الرحلة. و الرَّحْلَةُ كتاب يسرد و يصف فيه الرَّحَالَةَ ما رآه، و منها رحلة ابن جبير و ابن بطوطة و غيرهم. و ما نخرج به من معنى للرحلة في المعاجم العربية القديمة هو الإِرتِحَالُ، ولعل من يعود إلى الشعر الجاهلي يجد الشعراء قد خصصوا حيزا هاما لموضوع الرحلة في المعلقات خاصة، حيث يكشف الدارس أن الشعر الجاهلي قد تناول موضوعات جديدة من بينها: موضوع الوقوف على الأطلال، موضوع الرحلة، التغزل، المدح... الخ.

1- فاضل اسماعيل خليل، الرحلة في طلب الحديث، مجلة آداب البصرة، العدد 38، 2005، ص 32.

2- الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة 2003، ص 1، ص 106.

3- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، طبعة جديدة، بيروت، 1995، ص 100.

4- محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، دار المعارف، (د ت)، ج 17، ص 1611.

ينظر كذلك: ابراهيم مصطفى و آخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة للطبع و النشر و التوزيع، الاسكندرية، (د ت)، ص 380

5- عبد الرحمن بن خروب المجابي، رحلة المجابي، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 1564، بالميكروفيلم، الورقة 1.

6- عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام أنواعها و آدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 1، 1996، ص 15.

7- سورة سبأ، الآية: 19

8- ابراهيم مصطفى و آخرون، المرجع السابق، ص 380.

9- نفسه، ص 381.

## المطلب الثالث: في الاصطلاح

لا يختلف كثيرا مفهوم الرحلة اصطلاحا عن مفهومها لغة، فهما يشتركان في الصفة اللازمة بفعل الإرتحال و هي الحركة، غير أننا نلمس من خلال عرض أقوال بعض الأعلام، الإشارة إلى الفوائد الكثيرة التي يجنيها الإنسان من وراء الرحلة<sup>(1)</sup>، و الرحلة تجربة فريدة من نوعها في مختلف أطوار حياته، و الإنسان عرف الرحلة منذ عهود قديمة و كان بطبعه يتحرك من مكان لآخر لدواعي و أسباب مختلفة.

و الرحلة اصطلاحا هي: «لون من التأليف الذي يجمع بين الدافع العميق و التأمل الدقيق في رصد المشاهدات و الظواهر بأداة دقيقة و البحث عن الأسباب و النتائج ببصيرة واعية»<sup>(2)</sup>، و قد يأخذ مفهوم الرحلة اصطلاحا معاني لمفردات و مصطلحات قريبة منها [الرحلة]، و هي تعني الانتقال من مكان إلى آخر بدوافع معينة لتحقيق أهداف محددة، و منها: السفر و التجوال، و الذهاب و الإياب... الخ.

و قد تأخذ الرحلة معنى الركوب<sup>(3)</sup>، فابن بطوطة و ابن خلدون ذكرا في رحلتيهما، أنهما ركبا في النيل إلى مصر<sup>(4)</sup> و قد يعني الركوب أيضا الخروج و السير، و يذكر ابن بطوطة أنه سار حتى وصل مدينة غزة، و هي أول بلاد الشام مما يلي مصر<sup>(5)</sup>، و الرحلة أيضا وسيلة هامة لاكتشاف العالم و الإنسان وتوسيع الخبرات و المعارف<sup>(6)</sup>، و في هذا الصدد يقول الفيلسوف الانجليزي فرانسيس بيكون: «إن السفر تعليم للصغير، و خبرة للكبير»<sup>(7)</sup>، و لعل القاسم المشترك بين الدليل و الرحلة و الإستطلاع هو قاسم السفر، و قد تختلف الدوافع و المقاصد لهذه الخطابات و تلتقي في الإرتحال<sup>(8)</sup>

و يبدو أن لفظ الرحلة سواء في القرآن الكريم أو اللغة العربية و اصطلاحا متقارب إلى حد كبير، نظرا أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب، كما جاء في قوله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>(9)</sup>. و مما سبق نخلص أن لفظ الرحلة بمعنى السير و الانتقال و الوجهة أو اقتراب وقت الرحيل و كل معانيها تعني الانتقال من مكان إلى آخر أو من بلد إلى آخر.

1- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 20.

2- محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تح و تع محمد علي، المركز الجامعي للبحث العلمي، د ط، الرباط، 1965، ص 1 من المقدمة.

3- مؤلف مجهول، كتاب عن رحلة إلى المغرب الأقصى، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3164، بالميكروفيلم، الورقة 4.

4- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، مؤسسة الحسني، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة 2006، 1، ص 24.

ينظر كذلك: عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2004، 1، ص 209.

5- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 41.

6- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 22.

7- حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1989، ص 22 (سلسلة عالم المعرفة).

8- عبد الرحيم مودن، الرحلة في الأدب المغربي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص 71.

9- سورة يوسف، الآية: 2.

**المبحث الثالث: فن الرحلة عند المغاربة و الأندلسيين- أنواعها و خصائصها**

فن الرحلة قديم في الأدب العربي، من خلاله و في قلبه عبر الأديب العربي عما أحس به و هو يجوب الآفاق مكتشفاً و متعلماً، و قد توسل إلى التعبير عن ذلك تارة بالشعر و أخرى بالنثر، و رغم أن كل ما دونه الأديب العربي من رحلات لم يصلنا إلا القليل، إما إنه ضاع أو لم نسلك الطريق إليه بعد، غير أن الاطلاع على القليل من هذه الرحلات يعطي صورة واضحة على قدمها و تنوع اتجاهاتها و طرقها و اختلاف أهدافها و غنى مضامينها، إلا أن هذا الفن يرق إلى القمة و الإبداع و يزداد خصوبة في الغرب الإسلامي عند المغاربة و الأندلسيين بما عرف عنهم من رغبتهم في الأخذ عن الشيوخ و زيارة الأماكن المقدسة و بجولاتهم من أجل الاطلاع و البحث عن الحقيقة<sup>(1)</sup> و من هنا يصعب الإمام بكل الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين الذين قاموا برحلات عبر أزمنة و أمكنة مختلفة.

يعتبر فن الرحلة من فنون الأدب العربي، فهو يجمع في أساليبه فنون القصة و الشعر و المسرحية أو المقالة الأدبية<sup>(2)</sup>، فالتأليف عن الرحلة عند المسلمين بدأ في القرن 3 هـ/9 م، غير أنهم نادراً ما دونوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات<sup>(3)</sup>، إذ برع و تخصص فيه الرحالة المغاربة و وضعوا فيه مؤلفات<sup>(4)</sup>، و اشتهروا بكثرة ما كتبوه عن رحلاتهم إلى المشرق، منها رحلة العبدري في القرن 7 هـ/13 م و ابن رشيد السبتي (ت 711 هـ/1312 م)، و غيرهم و قد عنوا في رحلاتهم بأخبار الأدباء و العلماء في كل بلد زاروه، و يمكن أن ندخل ما كتبه عبد الرحمن بن خلدون باسم (التعريف بابن خلدون و رحلته غرباً و شرقاً)<sup>(5)</sup> التي هي بمثابة سيرة ذاتية له، تناول فيها أحداثاً سياسية كثيرة في المغرب الإسلامي.

كان أدب الرحلة في الأندلس و المغرب، تصويراً للحضارة، بما فيها من طريف الأخبار، و نادر الحكايات، و عجائب المخلوقات و عادات الأمم و أخلاقهم، و بما فيها من فوائد تاريخية، و جغرافية، و نمو للثروة الأدبية، و وصف للحوادث و البلاد، فمثلاً رحلة ابن بطوطة أفادت الجغرافية الطبيعية و البشرية و العادات و التقاليد الاجتماعية، و المأثورات الشعبية<sup>(6)</sup>، و يظهر ذلك من خلال قول ابن جزى<sup>(7)</sup>: « لا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر و من قال: رحّال هذه الملة لم يبعِد، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحّلة»<sup>(8)</sup>

1- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج 1، منشورات عكاظ، 1990، ص 47.

2- حسين محمد فهميم، المرجع السابق، ص 13.

3- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 45.

4- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 71.

5- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 67.

6- نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2008، ص 52.

7- ابن جزى: هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم ابن جزى الكلبي (الشاعر الكاتب)، حظي بمكانة عند السلطان أبي عنان. و هو الذي أملى عليه ابن بطوطة رحلته بأمر أبي عنان. ينظر: نواف عبد العزيز الجحمة، رحالة الغرب الإسلامي و صورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، دار السويدية للنشر و التوزيع، ط 1، 2008، الهامش 3، ص 92.

8- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 491 - 492.

كان من أهم الأسباب التي دفعت بالمغاربة و الأندلسيين إلى تدوين رحلات المغاربة الحاجة إلى معرفة الطرق الكبرى، و من ثم ألفت كتب كثيرة في وصف المسالك و الممالك لأداء فريضة الحج<sup>(1)</sup> و التعريف بالبلدان و أماكن المياه و الأسواق، و معرفة مواقع الخطر و المشقة حتى لا يقع فيها رحالة آخرون<sup>(2)</sup>، وقد شاع هذا النوع من الرحلات في المغرب و المشرق على السواء، و لم تلبث أن تأصلت في المغاربة و أصبحت فنا قائما بذاته بأسلوب مميز و وصف مفصل<sup>(3)</sup>، زاد مؤلفاتهم قيمة علمية و مصادر ذات أهمية في الكتابات التاريخية و الأدبية.

لم تكن رحلة المغاربة دائما نحو الشرق، بل منهم من اتجه نحو العدو الأندلسية إما للعمل أو لزيارة الأصدقاء أو للأخذ عن الشيوخ أو الإقامة الدائمة أو للسفارة، و هكذا اشتهر بعض المغاربة بانتسابهم إلى الأندلس أكثر من شهرتهم بالنسبة لبلاد المغرب، و ليس من السهل إحصاء كل من رحل إلى الأندلس أو استوطنها، فلقد ترجم لسان الدين بن الخطيب في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) لأكثر من أربعين من هؤلاء الرحالين المغاربة نحو الأندلس، ففيهم السفير، و العالم، و الفقيه، و القاضي، و الشاعر... و من هؤلاء السفير إبراهيم التسولي، و أبو العباس القباب، و الرحالة ابن رشيد، و ابن بطوطة، و الشاعر عبد العزيز الملزوزي و غيرهم<sup>(4)</sup> و عني صاحب نفع الطيب بالعديد من التراجم الأندلسية التي رحلت إلى بلاد المشرق، إذ بلغت ثلاثمائة و سبعة ترجمة<sup>(5)</sup> و هكذا تفوق المغاربة عن المشاركة في تأليف كتب الرحلات التي اكتست أهمية كبيرة في رصد الحياة الثقافية و الاجتماعية للشعوب و معرفة حضارتهم و طرق عيشتهم<sup>(6)</sup> و أصبحت الرحلة بمثابة سجل يدون فيه صاحبه كل ما شاهده خلال مراحل رحلته.

و بالرغم من العدد الكبير من الرحالة المغاربة و الأندلسيين، إلا أن رحلات كثيرة دونوها لكن لم يتم العثور عليها لافتراضين كل منهما له أهميته، الأول يكون إما أن جل الرحلات أو أغلبها قد ضاع، أو ما زالت أيدي الباحثين لم تصل إليها، و ما وصلنا من هذه الرحلات لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من هذا العدد الهائل، أما الثاني أن هؤلاء الرحالة أحجموا عن التدوين، فلم يسجلوا ما شهدوه في تلك البلدان، ولم يقيدوا ما سمعوه من أخبار و علوم و أسانيد عالية، لكن هذا يبدو غريب لما نعرفه عن العلماء المغاربة على حصولهم علة علو السند، و اعتزازهم بلقاء العلماء، فكيف يُعقل ألا يسجل كل ذلك خوف النسيان و الضياع<sup>(7)</sup>، فمهما يكن الافتراض فإن فكرة التأليف و التدوين كانت حاضرة عند الرحالة المغاربة و الأندلسيين، لأنهم قطعوا مسافات طويلة مما شجعهم على الإبداع في أدب و فن الرحلة.

1- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ص 8 - 9 .

2- سميرة أنساع، المرجع السابق، ص 35.

3- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 71.

4- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 51 - 52.

5- ينظر: أحمد بن محمد المقري، نفع الطيب...، المصدر السابق، ج 2.

6- سميرة أنساع، المرجع السابق، ص ص 23 - 36.

7- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 52 - 53.

انتهجت رحلات المغاربة إلى المشرق فنا جديدا في الأدب الجغرافي، هو أدب الرحلات الذي بدأ مع ابن جبير و بلغ ذروته مع ابن بطوطة و العبدري و البلوي و قد أوردت كتب التراجم أسماء كثيرة لرحالة مغاربة وفدوا إلى المشرق لدوافع مختلفة، فمنهم من عاد و منهم من استقر<sup>(1)</sup>، و من المغاربة الذين من استقروا و طاب لهم المقام بالمشرق أبي الخطاب بن دحية و أخيه أبي عمر و محي الدين بن عربي نزيل دمشق<sup>(2)</sup>، و منهم من رحل مثل ابن الرهيبيل أبا جعفر الحسن محمد بن الحسن الأنصاري الذي حج و أقام بالإسكندرية حتى 572 هـ/1177 م، فكان الطلبة يتزاحمون عليه لسماع التيسير لأبي عمرو المقرئ، ثم رجع إلى موطنه ببجاية<sup>(3)</sup> و كثيرا ما لجأ الرحالة المغاربة و الأندلسيين إلى سرد أحداث رحلاتهم، و تتلخص أسباب ذلك في:<sup>(4)</sup>

- 1- تلبية طلب الآخرين من حُكام و أصدقاء و أقرباء بتدوين الرحلة وفق منهج دقيق.
  - 2- إفادة القراء بتقديم معلومات عن المعارف و العلوم، و التعريف بالأعلام و بمؤلفاتهم.
  - 3- التعريف بالبلدان، و وصف الطرق و المسالك، و مصادر المياه و الأسواق، و تبيين مواقع الخطر و المشقة حتى لا يقع فيها الآخرون.
  - 4- ذكر أخبار الأمم، و الأقوام، و الجماعات البشرية.
  - 5- التأريخ للأحداث المتنوعة، و تقديم معلومات هامة عن الأحوال السياسية، و الاقتصادية، و الاجتماعية، للبلدان التي شملتها الزيارة.
  - 6- دعوة الرحالة قومهم إلى التغيير من أحوالهم، و توعيتهم.
  - 7- رغبة المشاركة في أدب الرحلات عند الرحالة و تدوين أخبار رحلته على غرار ما دونه سابقه من الرحالة أمثال المسعودي، المقدسي، ابن جبير، و ابن بطوطة و غيرهم.
- تراوح الوعي بالرحلة عند الرحالة الذين نقلوا تجاربهم بشكل فردي أو جماعي، برغبة أم بدونها، في مهمة الغير أم لحسابهم الخاص، ضمن مؤلفات مُستقلة بين الوضوح و الالتباس في المعرفة بالشكل الذي سيسجل فيه رحلته<sup>(5)</sup> و تكشف الرحلات ما لا يكشفه التاريخ، فالتاريخ العام يشتمل على تصوير حياة البلدان الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية، و نظم الحكم لشعب من الشعوب، و هذا ما حقّقه الرحّلات غير أنها أعطت كلّ ذلك بعده المناسب، و تطرقت إلى تحليل جوانب تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية، فقامت الرحّلات بوضع كل ذلك في دائرة الإشعاع التي توجّه إليها لاستجلاء الواقع، و إخراج التاريخ عن حدوده الضيقة<sup>(6)</sup>

1- عز الدين عمر أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، الطبعة 1983، ص 41-42.

2- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان و أنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج7، دار الثقافة، بيروت، 1968، ص 11

3- أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، ج1، دار الفكر، بيروت، 1995، ص 211.

4- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 34-35.

5- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2003، ص 32.

6- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 52

## المطلب الأول: أنواعها

عرف الإنسان الرحلة منذ أن عرف الحياة على الأرض، و و جوده على اليابسة، و ارتبط بها و أحبها لما وفرته له من أمن و استقرار، إلا أنه قد يتعرض لدافع يجبره على هجرة وطنه، بحثا عن الكأ و الماء، و فرارا من مصيبة كظلم حاكم أو أمير، أو حروب و نزعات محلية، أو ظروف اجتماعية قاسية، أو ويلات و نكبات<sup>(1)</sup> و يمكن تقسيم دواعي الرحلة إلى قسمين: دواع هيأها المجتمع فيسرت الرحلة و شجعت من يريد أن يقوم بها، و هذه تسمى «ميسرات الرحلة»، و دواع شخصية دفعت كل واحد من الرحلة إلى القيام برحلته، و هذه نسميها «أسباب الرحلة»<sup>(2)</sup> و كانت دواعي الرحلة عند المغاربة و الأندلسيين تملئها الضرورة. و قد تعددت الدوافع التي تحمل الإنسان للرحلات، و نجدها تختلف من زمن لآخر و من شخص إلى آخر، و من قوم لقوم، إلا أنها في أغلب الأحيان لا تخرج عن أن تكون<sup>(3)</sup>:

- 1- دوافع دينية: كان الحج و لال من الأماكن المقدسة التي ارتحل اليها المغاربة و الأندلسيون
- 2- دوافع علمية و تعليمية: الغرض منها الاستزادة من العلم من منطقة أخرى من العالم، اشتهر أبناؤها في العلوم كالفقه و الطب و الهندسة و العمارة و غيرها، و كثيرا ما ذكرت كتب الحديث و السير فقهاء و علماء منهم من كان يقطع القفار و يعبر الأنهار طلبا لحديث نبوي سمع به، أو لمجرد التحقق من كلمة فيه.
- 3- دوافع سياسية: منها الوفود و السفارات التي يبعث بها الملوك و الأمراء و الحكام الى نظرائهم في الدول الأخرى، لتبادل الرأي و تطبيع العلاقات أو لمناقشة مسائل الحرب و السلم أو تمهيدا لفتح أو غزو.
- 4- دوافع سياحية و ثقافية: يتكون برغبة في السفر و الترحال، و حب التنقل و تغيير الأجواء و المناظر، و معرفة الجديد من خلق الطبيعة و البشر، لاكتساب الخبرة بالمسالك و الطبائع و التعرف بالمعالم الشهيرة كالآثار و المنارات و الأبراج و الغرائب و العجائب.
- 5- دوافع اقتصادية: للتجارة و تبادل السلع مع بلاد أخرى، و قد يكون هربا من غلاء و سعيا وراء الرخص و اليسر و الوفرة.
- 6- دوافع صحية: كالسفر للعلاج أو الاستشفاء، أو إراحة النفس من العناء و تخليصها من الهمم و الغم كالارتحال إلى الأرياف، و قد يكون هربا من طاعون أو وباء أو تلوث.
- 7- دوافع أخرى: قد نجد أسباب أخرى للارتحال، كالسخط على الأحوال و ضيق العيش، أو الهروب من عقوبة. و من أهم الأسباب التي أجبرت الأندلسيين على النزوح عن أراضيهم، هي الفتن و الحروب الداخلية و الخارجية<sup>(4)</sup>

1- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 21

2- حسين نصار، المرجع السابق، ص 4

3- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002، ص ص 19 - 20.

4- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 26

ينظر كذلك: صلاح الدين الشامي، الرحلة عين على الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف الإسكندرية، 1999، ص ص 22 - 23.

وردت رحلات مختلفة بين الأمم، كان قد دونها كبار علمائها و فلاسفتها و أدبائها، سجلوا فيها مشاهداتهم منهم العرب، ومن هؤلاء الرحالة الفيلسوف أبي الريحان البيروني الفارسي من إقليم خوارزم، الذي توفي سنة 440 هـ/1049م، فقد خص برحلته الهند و استقر بها لمدة أربعين عاما، استطاع خلالها أن يتعلم لغتها القديمة السنسكريتية<sup>(1)</sup> و قد عرفت الرحلات عند العرب أنواعا كثيرة، غير أن الدارسين لها اختلفوا في تصنيفها نظرا للتداخل بينها فهناك من حصر أنواع الرحلات في الحجازية و السياحية و الرسمية و الدراسية و الأثرية و الاستكشافية و الزيارية و السياسية و العلمية و المقامية و البلدية و الخيالية و الفهرسية و العامة و السفرية و يبدو التداخل واضحا على هذه الأنواع<sup>(2)</sup> و قد قسّم الأستاذ محمد الفاسي الرحلة إلى خمسة عشر قسما<sup>(3)</sup>، و هناك من يرى أن أنواع الرحلة يتعدى ذلك<sup>(4)</sup> و يمكن تقسيم رحلات المغاربة و الأندلسيين إلى رحلات برية و أخرى بحرية، و هناك منها ما كان يحمل الصبغتين معا. و على العموم تُصنف الرحلات على الشكل التالي:

### أ- الرحلات الدينية:

يمثل هذا العامل الديني السبب الرئيسي لأغلبية المتوجهين إلى المشرق الإسلامي، فهو العامل الذي يقضي بشدّ الرحالة المغاربة و الأندلسيين إلى الحجاز و الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج، و يقتضي أيضا هذا العامل زيارة الرسول ﷺ، و المزارات الدينية الأخرى، كالمسجد الأقصى و قبور الأنبياء و الصحابة في كل من بغداد و دمشق و القاهرة و غيرها<sup>(5)</sup> مما بعث في نفوس المغاربة و الأندلسيين التلهف على زيارة هذه الأماكن المقدسة.

و قد حث الإسلام على السياحة لأسباب متعددة، منها التأمل في المخلوقات، و الاتعاظ من آثار الأمم<sup>(6)</sup>، و كانت الفتوحات الإسلامية نقطة البداية في التأليف عند العرب، رغم أن عرب الجاهلية كان لهم رحلات تجارية إلى بلاد العراق و الشام و اليمن و غيرها، و كان لبعض شعرائهم رحلات داخل الجزيرة العربية و خارجها، و مع أن هذه الرحلات لم يدون منها شيء أكثر مما ورد في مضامين الشعر و كتب اللغة، إلا أنها أفادت العرب في فتوحاتهم التي انطلقوا فيها إلى البلاد المجاورة لهم، مثل رحلات البدو<sup>(7)</sup> و كان الحج و طلب العلم من أهم بواعث الرحلات و كان أصحابها يعرفون بشيوخهم و العلماء الذين التقوا بهم و وصف دور العلم و المكتبات التي زاروها<sup>(8)</sup> و كثيرا ما غادر المغاربة و الأندلسيون ديارهم نحو المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج و استغلال ما تبقى من الوقت في طلب العلم.

1- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 65.

2- سميرة أنساع، المرجع السابق، ص 23 .

3- الرحلة الحجازية، السياحية، الرسمية، الدراسية، الأثرية، الاكتشافية، الزيارية، السياسية، العلمية، المقامية، الدليلية، الخيالية، الفهرسية، السفرية و العامة. ينظر: حسين نصار، المرجع السابق، ص 20

4- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 11.

5- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 27

6- حسين نصار، المرجع السابق، ص 4

7- حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 9-10

8- المرجع نفسه، ص 14

كان الحج و العمرة من أغنى الينابيع التي زودت الرحالة المغاربة بالمعلومات، إذ صاحب عودتهم إلى بلادهم سرد كثير من القصص و الأخبار التي سمعوها في طريقهم<sup>(1)</sup>، كما أسهم المغاربة مساهمة واضحة في كتابة الرحلات، من خلال بعض رحلاتهم الحجازية التي هي وسيلة من وسائل التواصل بين المسلمين<sup>(2)</sup> نتيجة شوق روعي نحو الحرمين و زيارة البقاع المقدسة، فالحجاز قي نظر المغاربة بقعة جغرافية مقدسة، لذلك سجلوا عواطفهم المتأججة لرؤية الحجاز<sup>(3)</sup> و كان للحكام و الأمراء الفضل في تيسير الرحلة إليه لكل الحجاج<sup>(4)</sup> يبدو أهمها حماية القوافل و تأمين مسالك الحج.

كانت رحلة المغاربة و الأندلسيين إلى المشرق على وجه العموم أكثر من رحلة المشاركة إلى المغرب، نظرا لوجود مركز الحج في المشرق و مدن العلم الأولى، لذا كان من الطبيعي أن يزور المغاربة المشرق أكثر من زيارة المشاركة لبلادهم<sup>(5)</sup>، فالرحلة الحجازية هي التي يضعها صاحبها بعد رجوعه من قضاء فريضة الحج<sup>(6)</sup> كما كانت رحلاتهم إلى الحجاز لتلقي العلوم الدينية على كبار علمائه و من علماء المذهب المالكي الذي رسخت قواعد مذهبه، و كثرة طلابه في المدينة و مكة، و ارتحلوا كذلك للأخذ عن علماء العلوم الشرعية الأخرى كعلماء الحديث و التفسير و القراءات و كان احترامهم للمدرسة العلمية الحجازية واضحا، و كثيرا ما كانت رحلاتهم إلى الحجاز مباشرة<sup>(7)</sup> و كان الشوق إلى الحجاز يشد المغاربة و الأندلسيين فكما حجوا أو اعتمروا عادوا بعدها ليشدوا الرحال إلى الحجاز رغم بعد ديارهم عنه.

كانت رحلة العبدري (الرحلة المغربية)، وهي رحلة حجازية قيمة، تتميز بأنها تمت عبر البر، وهذا يعطينا صورة حية عن قوافل الحج البرية، و كيف كانت تسير عبر الطرقات و المسالك و المحطات التي كانت على امتداد الرحلة، و يتوقف فيها الركب طلبا للراحة، أو التزود بالماء و المؤن، كما وصف العبدري البلاد التي مر بها موضّحا الحالة الاجتماعية و العلمية و الثقافية السائدة في تلك البلدان في القرن السابع الهجري<sup>(8)</sup>، فتتوعدت مجالات الرحلة مما زاد من قيمتها العلمية و جعلها مصدرا مهما للباحثين.

- 1- أحمد العدوي، ابن بطوطة في العالم الإسلامي، دار المعارف، مصر، 1954، ص 8.
- 2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 - 20 م)، ج 2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1401هـ - 1981م، ص 395.
- ينظر: عواطف محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر الهجريين، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2008، ص 26.
- 3- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 401.
- ينظر كذلك: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 11.
- 4- سميرة أنساع، المرجع السابق، ص 23.
- 5- نقولا زيادة، الجغرافية و الرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، 1987، ص 167.
- 6- حسين نصار، المرجع السابق، ص 17 - 18.
- ينظر: أحمد ابن عمار، نخلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2757، بالميكروفيلم، الورقة 3.
- 7- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح و حتى منتصف القرن الخامس الهجري، جامعة أم القرى، ج 1، 2000، ص 119 - 120.
- 8- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 29.

و يذكر ابن بطوطة في بداية رحلته سبب خروجه من وطنه إلى المشرق «معتدا حج بيت الله الحرام، و زيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة و السّلام»<sup>(1)</sup> و لعل هذا العامل ينطوي على عامل نفسي، تمثل في شدة تعلق المغاربة و الأندلسيين بزيارة الأماكن المقدسة و المجاورة بها، إلى أن تحضرهم الوفاة فيدفنون في أرض طيبة بجوار الصحابة و التابعين و أرض الأنبياء، و من اللافت للانتباه أن بعض الرحالة اتخذ رحلته الحجازية لغاية الوعظ و التّعلم، فالرحلات أكثر المدارس تثقيفا للإنسان و إغناء لفكره، و تأملاته عن نفسه و عن الآخرين، مهما اختلفت و تباينت دوافعها و وسائل السفر فيها و تنوعت مادتها<sup>(2)</sup>. كانت رحلة المتصوفة للبحث عن شيوخ التصوف و أخذ طريقتهم من المسائل الهامة التي كانت تدفع بالمريد إلى البحث عن شيخ من أجل معرفة الحقيقة و تعلم الطريقة الصوفية، جعلت رحلة المتصوفة ضرورة و دائمة، و لهذا تكثر في كتب تراجم التصوف عبارات تفيد الرحلة المستمرة مثل ساح في الأرض، صاحب الشيخ في رحلته، رحل طلبا للحقيقة...<sup>(3)</sup> و هذا ما نجده في أنس الفقير و عز الحقيير.

### ب- الرحلات العلمية:

يعتبر العامل العلمي ذو صلة بالعامل الديني أو هو نتيجة له، لأن طلب العلم مرغوب فيه مثاب عليه في الإسلام، و من هنا اهتم طلبة العلم لابتغاء أنواره قاطعين الصحارى بحثا عن الفائدة أو رجاء لقاء عالم، أو رغبة في تصحيح مسألة، حتى أصبحت الرحلة ملازمة للعلم<sup>(4)</sup> و قد تحدث عبد الرحمن بن خلدون عن الرحلة العلمية بقوله: «أن الرحلة في طلب العلوم و لقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم... فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد و الكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال...»<sup>(5)</sup>، كما كانت الرحلة من عوامل تمتين العلاقات و الروابط الثقافية بين المشرق و المغرب، و قد وصف ابن خلدون العلم بالمشرق آنذاك: «و أما المشرق فلم ينقطع سندُ التعليم فيه، بل أسواقُهُ نَافِقَةٌ و بُحُورُهُ زَاخِرَةٌ لاتصال العُمرانِ الموفور و اتصال السِّنْدِ فيه.»<sup>(6)</sup>

لم تعد الرحلة العلمية عند المغاربة و الأندلسيين بدافع الحج و حسب، بل أصبحت هي نفسها ضرورة، و قد كانوا يمتازون بالإقبال على العلم للعلم ذاته<sup>(7)</sup> و اشتهروا بكثرة ما كتبوا من رحلاتهم إلى المشرق، مثل رحلة العبدري في القرن 7 هـ/ 13 م، و ابن رُشيد السبتي (ت 711 هـ)، و خالد بن عيسى البلوي (ت 780 هـ)<sup>(8)</sup>، و علي القلصادي الأندلسي (ت 891 هـ)، و كانت رغبتهم في ذلك معرفة العالم المحيط بهم من آداب و علوم.

1- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 11.

2- نوال عبد الرحمن الثوابكة، المرجع السابق، ص ص 29 - 30.

3- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 66.

4- المرجع نفسه، ص 78.

5- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 618.

6- المصدر نفسه، ص 471.

7- نوال عبد الرحمن الثوابكة، المرجع السابق، ص ص 34 - 35.

8- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 67.

و يرجع محمد بن تاويت الطنجي فوائد الرحلة في طلب العلم إلى أمرين<sup>(1)</sup>:

**الأول:**ضمان سلامة المنهج النقل، و ذلك عندما يقع تصحيح المتن المروية و وصل أسانيدھا بأصحابها، لتكون أساسا صالحا للبحث و الدرس و بناء الأحكام عليها.

**الثاني:**تصحيح منهج التفكير و بناؤه على أثبت القواعد، و من الأقوال المأثورة:(إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره).و من العوامل التي شجعت الرحلة العلمية بين أرجاء العالم الإسلامي في العصر الوسيط:

1- لم تكن الحدود السياسية أو الجغرافية تشكل عائقا أمام طلاب العلم من المسلمين في اختيار المركز العلمي الذي يختار للتحصيل العلمي، فكانوا يتوافدون على المراكز العلمية البارزة، و يجولون بحرية في العالم الإسلامي و قد يستقرون بهذه المراكز أو يعودون إلى مواطنهم الأصلية<sup>(2)</sup>

2- استقرار الأوضاع السياسية<sup>(3)</sup>، بالرغم من التجزئة السياسية التي عرفتها الأقطار الإسلامية آنذاك<sup>(4)</sup> التي نتج عنها ظهور دويلات مستقلة أحيانا.

3- تشجيع ولاية الأمر للعلم و العلماء<sup>(5)</sup> و قد حرص سلاطين بني زيان بالمغرب الأوسط و فقهاء مدينة تلمسان على تمتين العلاقات مع أهل المغرب خاصة، و المشرق و الأندلس عامة، و تضاعف الاتصال عن طريق النشاط الدبلوماسي و الرحلة العلمية و الحجازية، فكانت فرصة للتلاقح الفكري و دعم الروابط الثقافية بين علماء تلمسان، و حواضر المشرق و المغرب و الأندلس<sup>(6)</sup>

4- الصلة الوثيقة بين المغرب و الأندلس<sup>(7)</sup> و حواضر المشرق الإسلامي.

5- رغبة الكثير من أبناء بلاد المغرب في طلب العلم<sup>(8)</sup>، منهم التلمسانيون حتى صاروا شيوخا علماء، ساهموا بقسط كبير في إثراء النهضة الفكرية و التعليمية بالمغرب الأوسط في العهد الزياني، و اشتهرت عائلات تلمسانية كثيرة بالعلم منها آل مرزوق، آل التنسي و آل الإمام و آل المقري و آل الشريف التلمساني و آل النجار و بنو أبي الحسن و بنو أبي العيش و آل زاغو و السراغنة و غيرهم، و أنجبت العديد من العلماء و الفقهاء و الأدباء<sup>(9)</sup>

6- وفرة المؤسسات التعليمية، منها المساجد و المدارس و الزوايا و المرافق الملحقة بها كالإقامة و توفر مصادر المعيشة و الظروف الملائمة بها للتحصيل العلمي.

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، دراسة و تحقيق محمد أبو الأجان، دار ابن حزم 1432 / 2011 ، ص 62.

2- عبد الواحد ذنون طه، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي و المشرق، دار المدار الإسلامي، الطبعة 2005، ص 1، ص 31.

3- حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 443.

4- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 2، ص 327.

5- حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 444.

6- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 2، ص 327.

7- حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 445.

8- المرجع نفسه، ص 446.

9- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 2، ص 329.

- 7- عدم التمييز الجنسي و المذهبي بين طلاب البلاد و الوافدين عليها من الأمصار الأخرى.
- 8- تسهيل اللقاء بين الشيوخ و طلاب العلم الوافدين عليهم مثلما فعله محمد بن مرزوق المعروف بالحفيد مع القلصادي أثناء رحلته العلمية إلى تلمسان<sup>(1)</sup>، و دراسة القلصادي على شيوخ تلمسان<sup>(2)</sup>.
- 9- حسن معاملة أهل المشرق الإسلامي لطلاب العلم للمغاربة، و هذا ما ذكره ابن بطوطة: «و أهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس و المشاهد و هم يحسنون الظن بالمغاربة، و يطمئنون إليهم بالأموال و الأهلين و الأولاد، و كل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيء عليه فيه رزقه، أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة»<sup>(3)</sup> و قد أضافت الرحلة على التعليم بالغرب الإسلامي طابع الترحال، إذ كان جل أصناف المتعلمين، من فقهاء و شعراء و متصوفة و غيرهم، يرحلون في طلب العلم، و ساهمت الرحلة في تشجيع المبادلات الثقافية بشكل كبير، و انتقال الأفكار<sup>(4)</sup> و كان من أهدافها جلب الكتب و المؤلفات العلمية من كتب و مصادر و الاطلاع على مكتبات المشرق و ما يوجد فيها من كنوز علمية، و يُعد ابن رشيد السبتي أول من جلب من مصر كتاب البدر المنير في علم التعبير، تسلمه من مؤلفه أبي العباس أحمد بن سرور المقدسي الحنبلي<sup>(5)</sup> و مغاربة آخرون ساهموا في تزويد مكتبات المغرب الإسلامي بأمهات الكتب المشرقية.

تحتل الرحلة في طلب العلم أهمية كبيرة، و تشكل سمة بارزة في حياة المجتمع المغربي و الأندلسي، و تؤكد التواصل العلمي و الفكري و الثقافي و الاجتماعي، فالمصادر المغربية و الأندلسية و المشرقية تزخر بأخبار هذه الرحلات، و أسماء كثيرة من الراحلين إلى المشرق، لطلب العلم و جلّ أمّنتهم أن يجلسوا إلى عالم مشرق مشهور، و ابتداءً من القرن السابع الهجري أصبح طلب العلم يطغى على نمط الرحلة<sup>(6)</sup> و مع مرور الأيام بدأت رحلة المغاربة و الأندلسيين تنقلص نظراً لتفوقهم العلمي و هذا ما أشار إليه عبد الرحمن بن خلدون: «فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل، و في سائر الصنائع. حتى أنه ليطن كثير من رحّالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، و أنهم أشدّ نباهة و أعظم كَيْساً بفطرتهم الأولى. و أن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب. و يعتقدون التفاوت بيننا و بينهم في حقيقة الإنسانية و يتشيعون لذلك، و يولعون به، لما يرون من كَيْسِهِمْ في العلوم و الصنائع و ليس كذلك.»<sup>(7)</sup>

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 96 - 97.

2- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرّ و العقيان في بيان شرف بني زيان، تح و تع محمود أغا بوعباد، موف للنشر (تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية)، 2011، ص 15.

3- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 67.

4- *De prèmare (Alfred-Louis), Maghreb et Andalousie au XIV<sup>e</sup> siècle. Les notes de voyage d'un Andalou au Maroc 1344-1345, Presses universitaires de Lyon, 1981, p 94.*

5- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 92 - 93.

6- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 40.

7- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 471.

## ج- الرحلات الرسمية:

بدأت رحلات المسلمين الأوائل متخذة صيغة رسمية، قام بها مبعوثون و سفراء من قبل السلطات المركزية الإسلامية ببغداد لوصف الطرق و الممالك التابعة لها<sup>(1)</sup>، وقد يكون هذا النوع من الرحلات التكليفية، و الإدارية، و السفارية بدوافع عديدة منها تفقد أمر الرعية، أو رحلة تجسسية أو استطلاعية<sup>(2)</sup> كرحلة سلام الترجمان عام 227 هـ/842 م التي كانت بأمر من الخليفة الواثق لمعرفة حقيقة سد الصين الكبير<sup>(3)</sup>، و نالت هذه الرحلة انتشارا و شهرة واسعة مما جعل الجغرافيين المسلمين يصفونها بالأخبار المشهورة<sup>(4)</sup> جلب إليها الشك الكبير رغم أن هذه الرحلة وقعت فعلا، كما تعرض لها الكثير من الرحالة و الجغرافيين العرب.

إن السفارة نوع من الرحلات الرسمية، يُوكل بها الرحالة من قبل الحكام، و مهمة يتنافس في أدائها من يكلفون بها، مهما كلفهم الأمر من تضحيات، و كانت تقتزن في نفوسهم برفعة و علو شأن الدولة الإسلامية، فالسفير ممثل دولته<sup>(5)</sup> و تكون رحلة السفارة بموجب التكليف من ولي الأمر بالمسؤولية، و وضع التعليمات موضع التنفيذ، و قد تخرج هذه الرحلة في البر أو في البحر، و تعمل لمصلحة عامة مشرعة لحساب الإسلام و المسلمين، و عموما تولى هذا النوع من الرحلات أمر العلاقات الخارجية مع غير المسلمين و حسن الجوار و التفاهم و نقل، و إبلاغ التعليمات و التكليف بشأن البريد<sup>(6)</sup> و من رحلات البعوث أو السفارية رحلة ابن فضلان التي كانت برغبة ملك الصقالبة و قومه في فهم الإسلام، فراسل الخليفة العباسي المقتدر بالله طالبا منه انتداب بعض من رجاله لتلك المهمة<sup>(7)</sup> و بدأت الرحلة في سنة 309 هـ/922 م، و عادت بالفائدة الكبيرة على المعرفة الجغرافية.

نشطت حركة السفراء بين الأندلس و دول أوربا طوال مدة الوجود الإسلامي في الأندلس، فكان الأندلسيون يتبادلون السفراء مع القسطنطينية و دول كثيرة من أوربا، و كان كلا الطرفين حريصا على اختيار سفراء ذوي ثقافة عالية، و حنكة و دهاء و ذكاء، و فطنة و كان عاملا مهما من العوامل تساعد على انجاز المساعي الموكلة إليهم إلى جانب التقارب الثقافي بين الطرفين من خلال إعجاب الملوك بثقافة من يفد إليهم من هؤلاء السفراء، و خاصة أن بعضهم كان يقيم شهور عديدة و ربما سنة أو أكثر

1- أحمد العدوي، المرجع السابق، ص8.

2- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص30.

3- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص9.

4- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص49.

5- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص40. ينظر كذلك: أبو الخطاب مجد الدين عمر بن الحسن بن علي ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري و حامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1954، ص ص 130 - 139.

6- صلاح الدين الشامي، المرجع السابق، ص ص 114 - 115.

البريد: كلمة فارسية، يراد بها في الأصل التعلُّ، و أصلها (بريده دم)، أي محذوف الذنب، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذنان، كالعلامة لها، فغُرِبَت، و يقصد به المسافة بين كل منزلين من منازل الطريق، و هي أميال اختُفِّ في عَدِّهَا.

ينظر: علي جمعة محمد، المكابيل و الموازين الشرعية، القدس للإعلان و النشر و التسويق، القاهرة، الطبعة 2، 2001، ص 55.

7- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص ص 51 - 52.

في بلاط الملك الذي ينتدب إليه، ولعل أكثر هذه السفارات شهرة، تلك التي قام بها شاعر الأندلس يحيى الغزال<sup>(1)</sup> و اختلفت المصادر القديمة و الدراسات الحديثة حول سفارة الغزال أكانت للقسنطينية أم إلى بلاد المجوس، و منهم من نظر إليها بشك كبير، لكن هذا لن يغير من الواقع شيئاً، فالرحلة وقعت و أكدها المقرئ<sup>(2)</sup> و إن ضاعت الرحلة فهذا يشكل خسارة كبيرة للأدب الأندلسي و المغربي.

و الرحلة الرسمية هي التي يوافق الرحالة فيها الملوك و رجال الدولة في أسفار رسمية<sup>(3)</sup>، بحيث نجد فيها الرحالة لا يهتم بذاتيته إلا بقدر محدود و تتكون الغاية منها تدوين كل مراحل هذه الرحلة الرسمية، و من ضمنها (أخبار المهدي بن تومرت) لأبي بكر البيهقي الذي سجل كل الوقائع و الأحداث عند عودته من المشرق في طريقه إلى مراكش، و هو يتحضر لإعلان الدولة الموحدية، و (الدرر الثمينة في خبر القل و فتح قسنطينة) لأبي الحسن علي ابن رزين التيجيبي الأندلسي حين رافق ولي العهد الحفصي الأمير أبا فارس عبد العزيز في رحلاته و حركاته أثناء زحف جيشه على قسنطينة، و (خطرة الطيف في رحلة الشتاء و الصيف) للسان الدين بن الخطيب، و هي تسجيل لخروج الרכب السلطاني من غرناطة متجها نحو الشرق الأندلسي<sup>(4)</sup> و نجد أيضا من بين الرحلات الرسمية رحلة ابن الحاج النميري (قيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب) الذي رافق فيها السلطان أبي عنان فارس المريني إلى الزاب لتأديب الأعراب لخروجهم عن طاعة السلطان حسب قول النميري، لكن يبدو أن السلطان المريني كان قصده من هذه الرحلة فرض سيطرته على المغرب الإسلامي.

أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى سفارته عن الغني بالله<sup>(5)</sup> سنة 765 هـ/1364 م إلى ملك قشتالة بطرقة بن الهنش بن أدفونش قائلا: «و سفرت عنه سنة خمس و ستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ، بطرقة بن الهنش ابن أدفونش، لإتمام عقد الصلح ما بينه و بين ملوك العُدوة، بهديّة فاخرة، من ثياب الحرير، و الجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة، فلقبت الطاغية بإشبيلية، و عاينت آثار سلفي بها، و عاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، و أظهر الاغتباط بمكاني، و علم أولية سلفنا بإشبيلية...»<sup>(6)</sup>

1- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 41.

يحيى بن حكيم الغزال: الملقب بالغزال لجماله، شاعر أديب حكيم، عمر أربعاً و تسعين سنة، و لحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس أولهم عبد الرحمن بن معاوية و آخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم، أرسله عبد الرحمن الأوسط إلى صاحب القسنطينية. ينظر ترجمته: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ج 2، دار المعارف، القاهرة، ط 4، ص 57، 58. - مجد الدين عمر بن الحسن بن علي أبو الخطاب، المصدر السابق، ص 130 - 131.

- أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب...، المصدر السابق، ج 2، ص 254-261.

2- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 42 - 43.

ينظر كذلك: أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب...، المصدر السابق، ج 2، ص 257.

3- حسين نصار، المرجع السابق، ص 18

4- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 98 - 99.

5- الغني بالله (739-793 هـ / 1339 - 1391 م): هو محمد بن يوسف أبي الحجاج بن اسماعيل، ثامن ملوك بني نصر بن الأحمر في الأندلس. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ج 7، الطبعة 2002، ص 153.

6- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 85.

## د- الرحلات الاقتصادية:

كانت التجارة منذ القديم أمراً يقتضي القيام بالرحلة و السفر البعيد و السعي في سبيل الكسب براً و بحراً، وبحكم توسط موقع العالم العربي القديم، مما جعله مركز التقاء الطرق التجارية، كما انفصال الماء و تداخله في اليابس في المنطقة العربية، جعله يحتل موقعا تجارياً هاماً في تطور الحضارة العربية في العصور الوسطى، و جسراً تعبر منه الثقافة، و ليس فقط لنقل السلع و البضائع<sup>(1)</sup> و مع امتداد الفتوحات العربية الإسلامية اتسعت الرقعة الجغرافية و السياسية للعالم الإسلامي من السند و ما وراء النهر شرقاً بفضل التجارة و حسن معاملة المسلمين للغير، حتى الأندلس غرباً.

كانت التجارة من أهم الأسباب التي أدت إلى تدوين الرحلات لمعرفة طرق التجارة البرية و البحرية، و أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان و المسالك و الممالك، لوصف الطرق و المناخ و أمور أخرى عديدة، وذلك لمعرفة الطرق إلى مكة للأداء مناسك الحج، و تسهيل التجارة في مختلف البلدان، وكانت التجارة في موسم الحج من ضرورات الحاج و المسافرين، و منه لا بد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة التي قد تتجاوز المدة المحددة لها<sup>(2)</sup> و كان الرحالة المغاربة و الأندلسيون على دراية كبيرة بمشقة و تكاليف رحلاتهم نحو المشرق الإسلامي.

اتسع نطاق الرحلة من أجل التجارة عند المسلمين في العصور الوسطى فتوسع الارتحال برا و عبر الصحاري إلى البحار، فلم يعد هول البحر يخيفهم للتجار عبر الشواطئ و الموانئ<sup>(3)</sup>، وكانت التجارة تشمل نقل السلع و البضائع و المنتجات الفائضة عن الحاجة<sup>(4)</sup>، واتسع نطاقها إلى دول أخرى غير إسلامية، و تعد رحلات ياقوت الحموي (ت 626 هـ) من أشهر الرحلات التجارية و بفضلها ألف كتابه «البلدان»<sup>(5)</sup> و قد لعبت الموانئ دور كبير في تنشيط التبادل التجاري، مما جعل من التجارة نشاطاً اقتصادياً هاماً آنذاك.

كانت الطرق بين البلاد الإسلامية آهلة بالركاب، إلى جانب قوافل التجار التي انتشرت بين هذه الأقطار محملة بمنتجاتها و خيراتها، فسافر ابن بطوطة في ركب تجاري أو مع قافلة حجاج، متجنباً بذلك أن يضل الطريق<sup>(6)</sup>، فقد روى المسعودي أخبار تاجر من سمرقند خرج من بلاده بمتاع كبير حتى وصل العراق و انحدر إلى البصرة و ركب البحر حتى وصل عمان<sup>(7)</sup>، وكانت القوافل التجارية تعتمد في سيرها على كتب الجغرافيين و الرحالة.

1- نوال عبد الرحمن الشولبة، المرجع السابق، ص 46.

2- المرجع نفسه، ص 47.

3- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 13.

4- إسماعيل سماعي، معالم الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 137 (سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية و الاجتماعية)

5- سميرة أنساع، المرجع السابق، ص 29.

6- أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 9.

7- نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 149.

أبدى ابن جبير استيائه الشديد من الطريقة التي عوملوا بها من أصحاب الجمارك الذين أنزلوهم من مراكبهم مع أمتعتهم و أخضعوهم للتفتيش بقوله: «و ببلاد هذا الصعيد المعترضة في الطريق للحجاج و المسافرين، كإخميم و قوص و منيه ابن الخصيب من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها و البحث عنها و إدخال الأيدي إلى أوساط التجار، فحسا عما تأبطوه او احتضنوه من دراهم أو دنانير، ما يقبح سماعه وتشنع الأحداث عنه، كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها، حسبما ذكرناه في ذكر الاسكندرية من هذا المكتوب.»<sup>(1)</sup> و كانت المكوس<sup>(2)</sup> التي تعترض الحاج المغربي و الأندلسي من العوائق التي تعترض طريقه إلى الحجاز، و التاجر خلال نقل سلعه و بضائعه، و أحيانا كان يُطالب بدفع الزكاة أثناء عبور المسالك و الممالك.

و رغم ما أصلحه صلاح الدين في أواخر القرن 6 هـ / 12 م، و ما كان له من الأثر الطيب والذكر الحسن، إلا أن المغاربة ظلوا يتعرضون من حين لآخر لمضايقات كثيرة، و قد وصف الرحالة العبدري ما لقيه الحاج المغاربة بالإسكندرية من الأذى التي تمثلت في انتهاك الحرمات و انتزاع الأموال من أصحابها بقوله: «و من الأمر المُستغرب، و الحال الذي أفصح عن قلة دينهم و أعرب، أنهم يعترضون الحجاج... فمدّوا في الحجاج أيديهم، و فتشوا الرجال و النساء و ألزموهم أنواعا من المظالم، و أذاقوهم ألوانا من الهوان...»<sup>(3)</sup> و قد يقع لقافلة تجارية أكثر مما يقع لأخرى حجازية من خلال تعرضها إلى مخاطر قطاع الطرق و اللصوص.

و لعل بعض الإشارات الواردة في كتب الرحلات عن وجود الفنادق<sup>(4)</sup> بكثرة في البلاد التي يزورها الرحالة، تدل على أنه، قد خصصت أماكن لإقامة التجار و الحجاج و المسافرين<sup>(5)</sup> و نجد ابن جبير يصف أحد فنادق جدة فيقول: «و جدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص، و فيها فنادق مبنية بالحجارة و الطين و في أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر.»<sup>(6)</sup> و تحدث ابن بطوطة عن فنادق الصالحية: «بكل منزل منها فندق، و هم يسمونه الخان، ينزله المسافرون بدوابهم. و بخارج كل خان ساقية للسبيل، و حانوت يشتري منه المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته... و بها تُؤخذ الزكاة من التجار و نفيس أمتعتهم و يبحث عما لديهم أشد البحث. و فيها الدواوين و العمال والكتاب والشهود و مجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب...»<sup>(7)</sup>

1- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار القصة للنشر، الجزائر، ص 31.

2- المكوس: مكس، المكس: الجباية، و المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية. ينظر: محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، المصدر السابق، ج 48، ص 4248.

3- أبو عبد الله محمد بن محمد بن جبير، المصدر السابق، ص 216.

4- الفنادق: الفندق،: الخان، فارسي، حكاة سيبويه، و الفندقُ بلغة أهل الشام خان من هذه الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن.

ينظر: محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، المصدر السابق، ج 39، ص 3473.

5- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 50.

6- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، المصدر السابق، ص 43.

7- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 38.

## هـ- الرحلات العامة:

يعتبر هذا النوع من الرحلات، التي تأخذ من كل الأنواع السابقة الذكر، و تجمع كثيرا من الأغراض السابقة<sup>(1)</sup> كرحلة ابن بطوطة حيث قام بثلاث رحلات، زار في الأولى بلاد المشرق بما فيها الهند والصين، و زار في الثانية بلاد الأندلس، و في الثالثة بلاد السودان الغربي<sup>(2)</sup>، و كانت رحلته من أعجب الرحلات امتدت أكثر من خمس و عشرين سنة، و كان ابن بطوطة يستقر في عدد من المدن و يتزوج و يتولى عددا من المناصب و الأعمال، و قد شملت رحلته أخبار كثيرة موثوقة برغم غرابتها، و قد كان ابن بطوطة يكتب مذكرات خلال رحلته و لكن مذكراته هذه ضاعت في بحر الزنج<sup>(3)</sup> و سار على منوال سابقه من الرحالة العرب الآخرين أمثال ابن حوقل و المسعودي و ابن جبير و غيرهم<sup>(4)</sup> و حملت رحلته الكثير من الغرائب و العجائب وصلت إلى حد الأساطير.

لم تخطر ببال ابن بطوطة فكرة الرحلة الواسعة، و لم تكن في مخططه و هو يغادر طنجة إلا بعد أن أوعز إليه بها في مصر الشيخ الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج<sup>(5)</sup> فقال له: «أراك تحب السياحة و الجولان في البلاد» فرد عليه ابن بطوطة: «نعم إني أحب ذلك»، و لم يكن حينئذ بخاطر ابن بطوطة التوغل في البلاد القاصية من الهند و الصين، فقال الشيخ برهان الدين الأعرج لابن بطوطة: «لابد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، و أخي ركن الدين زكريا بالسند، و أخي برهان الدين بالصين، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام». فعجبت من قوله، و ألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد<sup>(6)</sup> فتشجع ابن بطوطة و أصبحت لديه رغبة و أرادة قوية من أجل زيارة الهند و الصين.

خرج ابن بطوطة مع الركب الحجازي من دمشق متجها إلى مكة، و وقف الركب عند مدينة بصرى مدة أربعة أيام ليلحق به من تخلف بدمشق لقضاء مآربه، فانتهاز هذه الفرصة، فزار الآثار الموجودة بهذه المدينة<sup>(7)</sup>، و شاهد الكثير، و وصف ما شاهده وصفا دقيقا، و قد جعلت منه الأقدار جغرافيا، و صنعت منه لونا من الرحالة نادرا عند العرب، ذلك الرحالة الذي استهدف الرحلة لذاتها و ضرب في مجاهل الأرض رغبة في التعرف على الأقطار و الشعوب، و لم يجمع مادته من الكتب كما فعل سابقه من الجغرافيين العرب، بل جمعها عن طريق تجربته الشخصية و من محادثاته مع شخصيات تعرف عليها خلال رحلته<sup>(8)</sup> و تقرب من الملوك و الأمراء فأعجبوا بمغامرته الشخصية و قدموا له الهدايا و الأموال لتسيير رحلاته، فكان ذلك من عوامل نجاحها.

1- حسين نصار، المرجع السابق، ص 19

2- حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 35

3- عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، دار العلم للملايين، 1983، ص 522.

4- عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 111.

5- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 77.

6- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 17- 18.

7- أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 4.

8- أغناطيوس يولييانوفتش كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ج1، ص 431.

كشفت رحلة ابن بطوطة عن طبيعة العالم الإسلامي آنذاك في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي<sup>(1)</sup>، واشتهرت أيضا رحلته بلقاءاته المتكررة مع علماء كل بلد حل بها، و مكث بمكة المكرمة فترة طويلة من الزمن تتلمذ خلالها على يد كبار فقهاء العلوم الشرعية<sup>(2)</sup>، كما لعبت الرحلة عموما و التجارية خصوصا، دور فعال على مستوى التواصل اللغوي، فمن التجار من جال في الأرض و دخل بلاد العجم و غيرها من البلاد البعيدة و كان يتكلم بالسنة شتى، و قد تجاوز دورهم إلى تعميق الحضارة العربية الاسلامية لدى الأمم المجاورة، و مد إشعاعها بعيدا نحو هوامش العالم في العصر الوسيط<sup>(3)</sup>

جال ابن بطوطة بأنحاء المعمورة، و جمع معلومات جغرافية نادرة في رحلته (تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار)، و صار كتابه من المصادر الهامة للباحثين في ميدان الرحلات الجغرافية، و غامر في سبيل العلم و المعرفة لاكتشاف المجهول، فتحمل مشقة السفر في القوافل و في المراكب التي سارت بين الأمواج و العواصف<sup>(4)</sup>، و عدد ابن بطوطة أنواعا كثيرة من السفن و المراكب التي سواء رآها أو ركبها منها المراكب النهرية المستعملة في الصين المعروفة بأجفان<sup>(5)</sup> قائلا: «... و ركب في النهر في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياما و جميعهم في وسط المراكب و الركاب في المقدم و المؤخر... و سافرنا في هذا النهر سبعة و عشرين يوما...»<sup>(6)</sup> فتتنوع الرحلة من حيث وسائلها بين البرية و البحرية.

تتجلى أهمية رحلة ابن بطوطة من خلال ما ذكر عنها في المصادر و الدراسات، فالمستشرق الروسي كراتشكوفسكي يعتبر ابن بطوطة «آخر رحلة كبير انتظم محيط رحلاته العالم الإسلامي بأجمعه»<sup>(7)</sup>، و من الذين ذكروا ابن بطوطة في مؤلفاتهم، عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته المشهورة قائلا: «ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلهما إلى المشرق و تقلب في بلاد العراق و اليمن و الهند، و دخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند»<sup>(8)</sup>، و مما زاد من أهمية الرحلة ترجمتها إلى لغات عديدة منها البرتغالية و الفرنسية و الانجليزية و التركية و الألمانية و اللاتينية و الإيطالية و اعتمدت جامعات الغرب كتابه عن رحلته في دراسة علم الرحلات<sup>(9)</sup>، مما أعطى إلى حد بعيد لرحلته صبغة العالمية، و أنصب عليها اهتمام أدب الرحلة.

1- حسين محمد فهميم، المرجع السابق، ص 23.

2- نفسه، ص 209.

3- أحمد الطاهري، الرحلة التجارية الأندلسية من خلال كتب التراجم و الطبقات، "أدب الرحلة و التواصل الحضاري"، سلسلة الندوات 5، مطبعة فضالة، 1993، ص ص 126 - 127.

4- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 210.

5- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 375.

6- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 423.

7- أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ج 1، ص 421

8- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 214.

9- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 210.

## المطلب الثاني: خصائصها

انفرد الرحالة المغاربة و الأندلسيين في كتابة رحلاتهم بخصائص ميزتهم عن غيرهم، و أصبحت رحلاتهم سمة بارزة من سمات أدب الرحلات المغربية و الأندلسية، و انفرد كل رحلة بخصائص في رحلته، و يمكن تقسيم هذه الخصائص إلى عامة و خاصة<sup>(1)</sup>

## أ- الخصائص العامة:

و هي الخصائص التي قد تشترك فيها رحلات المغاربة و الأندلسيين، أو قد تتوفر فيها بشكل عام، و قد يعود هذا إلى دوافع الرحلة ذاتها، و من هذه الخصائص العامة:

## ● الملاحظة من خلال المشاهدة المباشرة:

يرتكز نوع الرحلة على المشاهدة المباشرة للأقاليم و البلدان و الآثار و المجتمعات. لكن هذه المشاهدة لا تخلو من النزعة الذاتية، إذ أنّ الوصف في الرحلة لا يعدو أن يكون ثمرة الالتقاء بين بلد ما بعاداته و تقاليده و ثقافته و رؤية شخص ما، فهو نتيجة لعلاقة المُشاهدِ بالمُشاهدِ في إطار زمني محدد<sup>(2)</sup>، و كان تدوين الرحالة المغاربة و الأندلسيين لملاحظتهم بمثابة شهادة حية حول ما شهده من أحداث و مختلف المظاهر، و أصبحت من خلالها كتاباتهم بمثابة تجربة مميزة.

سجل الرحالة المغاربة و الأندلسيون مشاهداتهم حول الطرق و الدروب التي مروا بها و سلوكها، و الأحداث التي عاشوها في مصنفات عرفت بكتب الرحلة<sup>(3)</sup>، و تتفاوت قيمة ملاحظات الرحالة و أهميتها تبعا لاهتمام صاحب الرحلة. و تعدّ هذه الملاحظات على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تمثل رواية من شاهد عيان حقيقي<sup>(4)</sup>، و المتمعن في كتب الرحلات يجد أن هؤلاء الرحالة يتفاوتون في درجة ملحوظاتهم و اهتماماتهم ببعض النواحي دون البعض، و هذا ما يلزم دراسة الرحلات وحدة واحدة متسلسلة للوصول إلى النتيجة الصحيحة<sup>(5)</sup>

تميز عبد الرحمن بن خلدون بسعة إطلاعه على ما كتبه علماء العرب و المسلمين الأوائل حول أحوال البشر، بالإضافة إلى خبرته الكبيرة و الواسعة في الحياة السياسية و الإدارية و القضائية و أسفاره المتعددة و المترامية في العالم العربي و الإسلامي<sup>(6)</sup> و قد سجل أحداث هامة عاشها في كتابه و رحلته غربا و شرقا، غير أن ما سجله في رحلته كان تاريخا أكثر منه مشاهدات رحالة، فكانت رحلته في أغلب الأحوال تحت قسر الأحداث<sup>(7)</sup>، و يبدو أن المناصب السياسية التي اعتلاها ببلاد المغرب جعلته يركز في تدوين رحلته على الأحوال السياسية.

1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 76 - 91.

2- علي بن سالم الورداني التونسي، الرحلة الأندلسية، تح الحبيب العوادي، مطبعة فن الطباعة، ط 1، تونس، 2008، ص 40.

3- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 13.

4- عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 75.

5- عواطف محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى...، المرجع السابق، ص 25.

6- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 217.

7- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 223.

• تحديد مسار الرحلة مع ذكر أسماء البلدان حسب زيارته :

كان الرحالة المغاربة و الأندلسيون يكتبون حسب ترتيب الأماكن التي زاروها، مع وصف الطرق التي مروا بها، و تحديد الأماكن و المدن و الطرق، مما للرحلة طابعها الواقعي و التاريخي، و توفرت في رحلاتهم خاصية الدقة في ضبط أسماء الأماكن التي مر بها، و وسيلة النقل المعتمدة في التنقل من مكان إلى آخر<sup>(1)</sup> و كانت بداية رحلاتهم تنطلق من مكان معين يدون في الأوراق الأولى من رحلاتهم، و نجد في أوراقها الأخيرة إشارة واضحة إلى المكان الذي انتهت به الرحلة.

• تحديد التواريخ باليوم و الشهر و السن :

يتقيد الإطار المكاني في الرحلة بإطارها الزمني المحدد، فمن الزمن يستمد المؤرخ القيمة التاريخية لمشاهدات الرحالة للمكان الواحد في فترة زمنية واحدة أو متقاربة أو متباعدة، من أجل الوقوف على مظاهر التطور و التحول في الأقاليم و المجتمعات و الثقافات و العادات و التقاليد و السياسة<sup>(2)</sup>، فالرحالة العبدري المغربي يذكر تاريخ خروجه حين قال: « كان سفرنا - تقبله الله تعالى - في الخامس و العشرين من ذي القعدة، عام ثمانية و ست مائة، و مبدؤه من حاحة<sup>(3)</sup> »<sup>(4)</sup>

ذكر ابن الحاج النميري الأندلسي صاحب رحلة فيض العباب، تاريخ تحرك السلطان المريني أبي عنان فارس: «و في ضحى يوم الخميس الموفى عشرين لجمادى الأولى من عام ثمانية و خمسين و سبعمائة كان خروج مولانا أمير المؤمنين أيده الله و نصره من المدينة البيضاء في طالع السعود المتتالية الأضواء»<sup>(5)</sup> و يذكر ابن بطوطة أنه خرج من طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام خمسة و عشرين و سبعمائة<sup>(6)</sup> و في رحلة ابن قنفذ القسنطيني تاريخ واضح لبداية رحلته الزيارية التي كانت في شهر رمضان المعظم من عام سبعة و ثمانين و سبعمائة بقسنطينة و التي سماها بالنقييد<sup>(7)</sup>، بينما نجد رحلة (أنساب الأخبار و تذكرة الأخيار) للحاج عبد الله بن الصبّاح خالية من أي تاريخ، فليس فيها ذكر لأي يوم أو شهر أو سنة، و لهذا فإننا لا نملك إلا الاستئناس بمن ذكر فيها من الأسماء للدلالة على زمن صاحبها الذي لم يُعَنَّ بتواريخ تنقلاته<sup>(8)</sup>

1- علي بن سالم الورداني التونسي، المصدر السابق، ص 41.

2- المصدر نفسه، ص 41.

3- حاحا: هي إقليم يحده من الغرب و الشمال المحيط الأطلسي، و من الجنوب جبال الأطلس، و من الشرق نهر أسيف نوال. و يشتمل على مدن كثيرة الحسن بن محمد الفاسي الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 95.

4- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 40.

5- ابن الحاج النميري، فيض العباب و إفاضة قذاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب، دراسة و إعداد الدكتور محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، الطبعة 1990، ص 223.

6- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 11.

7- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقيير، نشر و تصحيح محمد الفاسي و أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، دون تاريخ، ص 2.

8- الحاج عبد الله بن الصبّاح المدجن، أنساب الأخبار و تذكرة الأخيار، تح محمد بنشريف، دار أبي رقرق، للطباعة و النشر، ط 1، 2008، ص 29.

## • لغة الرحلة :

يشترط أن تكتب الرحلة نثرا عند المغاربة و الأندلسيين، لما يقتضيه وصف المشاهدات من دقة و موضوعية، لكن الارتباط بالواقع في الوصف لا يعني فقدان الجانب الشعري و الفني في اللغة ضمن جنس الرحلة، إذ يمكن أن تتخلل فقرات الوصف و السرد في الرحلة بعض الشواهد من الشعر أو القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة<sup>(1)</sup>، فمثلا رحلة ابن جبير مكتوبة بلغة بسيطة<sup>(2)</sup> لتمكين القارئ من فهمها و الاستفادة منها، و مما يُلاحظ أحيانا أن الرحالة المغاربة و الأندلسيون أثناء تدوين رحلاتهم، استخدموا كلمات متداولة في لهجاتهم المحلية، فهمها المشاركة من خلال الاحتكاك بهم و الاندماج معهم.

## • الأساليب الفنية في الرحلة : منها:

1-السرد:يشكل السرد نسبة هامة من نص الرحلة، و قد اعتمد عليه الرحالة المغاربة و الأندلسيون، خاصة عند ذكر ظروف التنقل من مدينة إلى أخرى أو عند تقديم معلومات حول المناخ و الزمن...الخ<sup>(3)</sup> و الرحلة سرّد، إنها حكاية انتقال الرحالة من مكان إلى آخر، أو بمعنى آخر إنها حركة تفاعل الزمان بالمكان، و المكان بالزمان، و ليست كل رحلة سردا<sup>(4)</sup>، و السرد في نص الرحلة هو لغة وسيطة<sup>(5)</sup> بين الرحالة و قارئ الرحلة.

2- الوصف:احتل الوصف في رحلات المغاربة و الأندلسيين نسبة هامة أيضا، و قد اعتمدوا عليه لنقل مشاهداتهم و تصويرها تصويرا فنيا، حتى إن بعض مقاطع الوصف في الرحلة ترتقي إلى مراتب اللوحة الفنية جمالا و إبداعا، و خلافا للسرد فإن فقرات الوصف طويلة لأنها تشتمل جزئيات و دقائق لها صلة بالموصوف<sup>(6)</sup>، بدءا بالرحالة ذاته و ما يحيط به من وصف جغرافي و عمراني.

## أ - وصف مشاعر النفس و المخاطر:

برع الرحالة المغاربة في وصف مشاعرهم و أحاسيس أنفسهم سواء عند الفرح أو الخوف و الغضب، منها على سبيل المثال لحظة دخولهم لمكة المكرمة<sup>(7)</sup> فالعبدري وصف عواطفه عند وصوله مكة المكرمة: « بلد كأن نفوس الخلق عُجنت من طينته، فالخواطر مشغولة بتصور زينته، انزعج نحوه عاقل طالما سار على هيئته، و ابتدل بالسعي بدن نشأ على سكينته، يقطع إليه ميلا بعد ميل»<sup>(8)</sup> و كان العبدري يتمنى العودة ثانية إلى مكة المكرمة و هو نفس الشعور و الاحساس الذي لازم المغاربة و الأندلسيين، لأنه ليس من السهل أن يتحقق لهم ذلك مرة أخرى.

1- علي بن سالم الورداني التونسي، المصدر السابق، ص 43.

2- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، المصدر السابق، ص 6. ينظر كذلك: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 4

3- علي بن سالم الورداني التونسي، المصدر السابق، ص 44.

4- عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1996، ص 28.

5- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص ص 147- 148.

6- علي بن سالم الورداني التونسي، المصدر السابق، ص 44.

7- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 83.

8- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 359.

و في وصف أحاسيسه عن مكة المكرمة يذكر ابن بطوطة: «و من عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثل بمعاهدها الشريفة، و جعل حبها متمكنا في القلوب، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجاميع قلبه، ولا يفارقها إلا أسفا لفراقها، متولها لبعاده عنها، شديد الحنين إليها ناويا لتكرار الوفاة عليها»<sup>(1)</sup>، و غادر ابن بطوطة الشرق الأقصى مسرعا قاصدا العودة، و أختار طريق الشام و مصر، حيث عمد على استطلاع أخبار أهله من بعض أصدقائه بتلك البلاد، حتى علم أن ابنه توفي منذ اثني عشرة سنة، فشدده الحنين إلى مسقط رأسه<sup>(2)</sup>

كان الإحساس بالخوف عند عبور البحر خوفا من أهواله، و هذا ما عبر عنه ابن جبير الأندلسي: «و طرأ علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم، عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البر، فأخرجنا عنه، و الحمد لله على ذلك. و قام علينا نوءٌ هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور...»<sup>(3)</sup>، و هذا ما أوضحه التيجيبي أثناء عبوره البحر الأحمر إلى جدة<sup>(4)</sup>، أو الخوف من اللصوص و قطاع الطرق الذين ألحقوا الأذى بحجاج بيت الله مثل الأعراب القاطنين قرب المدينة<sup>(5)</sup>، و ذكر ابن بطوطة عند عودته بالقرب من أزغنغان: «خرج علينا رجل و فارسان، وكان معي الحاج ابن قريعات الطنجي و أخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر. فعزمنا على قتالهم و رفعنا علما، ثم سالمونا و سالمناهم و الحمد لله»<sup>(6)</sup> و نجد ابن بطوطة يؤكد صحة ما قاله بوجود شاهدين في تلك الحادثة.

تعتبر الرحلة الأندلسية (أنساب الأخبار و تذكرة الأخيار) التي قام بها الحاج عبد الله بن الصباح أحد المدجنين (*Les modejares*)<sup>(7)</sup> من الرحلات المتميزة، عاش صاحبها زمنا بين المدجنين لعدم الاستطاعة، و هي أول رحلة يخرج فيها مدجن أو مدجنين للحج<sup>(8)</sup> متحدّين الصعوبات و العقبات اعترضت طريق رحلتهم.

1- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 87.

2- أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 131.

3- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، المصدر السابق، ص 6.

ينظر كذلك: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 369

4- القاسم بن يوسف التيجيبي السبتي، مستفاد الرحلة و الاعتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 395 هـ / 1975 م، ص ص 212- 214

5- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 201.

6- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 447 .

7- يبدو أن هذا الاسم يتضمن معنى الذلة و الصغار أطلق على المسلمين الذين أقاموا تحت حكم النصارى و ذلك من لدن إخوانهم الذين هاجروا إلى ديار الإسلام، و قد وردت كلمة مدجن و كذلك أهل الدجن في نصوص من القرن السابع الهجري و من المعروف أن عددا من الفقهاء في هذا القرن و ما بعده أفتوا بوجود الهجرة من البلدان التي غلب عليها النصارى و قد جمع أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي فتاوى في الموضوع سماها أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى و لم يهاجر .

ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 11.

ينظر كذلك: أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، ج 2، تح محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981، ص 119.

8- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 9.

و وصف الحاج ابن الصباح وصوله مكة المكرمة بقوله: «...دخلت مكة شرفها الله و هل علينا الهلال و نحن طائفون بالكعبة الشريفة فله الحمد كثيرا كما هو أهله و الحمد لله الذي سلمنا من تلك المفاز و القفار المهلكة و الجبال الموحشة، و كم من حاج ينتظرونه أهله و هو قد مات عطشا و كم ممن سلكها و لم يبلغ حجه و كم ممن أنفق ماله و لم ينلّه و كم من سلطان يتمنى النظر في تلك الكعبة الشريفة و لم يرها و كم من أمير و وزير يريد المشي و لا يحتمل و كم من تاجر يريد أن يصلها بالمال و لا يصل لها و كم من مذنب يريد أن يطهر ذنبه بالوقوف على عرفة و لا يعطى و كم من متمنى يتمنى الوصول إليها و لا يصل، و كم واصل إلى نصف الطريق و لم يبلغ و كم من بالغ إلى يوم منها و لم يبلغ وكم من زعيم بماله و رجاله و لم يتحمل، و كم من غني زعيم بغناه و لم ينفعه غناه و كم من فقير ايس فبلغ و كم من حقير حقر لفقره و بلغ مراده و كم من أموال كسبت و جمعت بالقناطير المقنطرة و لم يبلغ صاحبها ذلك الموضع الشريف و كم من قليل المال بلغ بالعناية من عند الله و لم يحتج إلى مال و لا إلى زاد و لا ركوب إلا أنه حملته العناية، و من قال إن ذلك الموضع لا يبلغ إلا بالمال و الجمال و الزاد و الرواحل فقد نكر نعمة الله و عنايته...»<sup>(1)</sup>

عبر القلصادي عن شعوره المشحون بالعواطف و الايمان عند قيامه بمناسبة العمرة حين قال: «و حين أشرفنا على الكعبة الشريفة ، رأينا ما يدهش الناظر، و يحير الفكر و خاطر، بما خصّها الله تعالى به من الهيبة و التعظيم، فطفنا بها سبعا، و صلينا الركعتين في مستقر الأمن و الأمان: مقام أبينا إبراهيم عليه السلام، ثم خرجنا من باب الصفا إلى الصفا، و سعينا سبعا. و قد تمت العمرة بالحاق. و وقفنا في أثناء هذه العبادة للاجتماع مع بعض أصحابنا... و لم نعرف كيف ذهبت تلك الليلة من السرور و الفرح، إلى أن لاح الفجر، و قرب الصباح...»<sup>(2)</sup> و غالبا ما كان الوصول إلى مكة المكرمة بعد شوق طويل و مشاق الطريق عبر عنه الرحالة المغاربة و الأندلسيين بإحساس عميق عند بلوغهم مبتغاهم.

### ب- الوصف الجغرافي و العمراني:

عني الرحالة المغاربة و الأندلسيون بالجانب الوصفي، لا سيما الجغرافي و العمراني منه الذي كان القاسم المشترك بينهم، و أختصت كتابتهم بالوصف الجغرافي لكل مكان وصلوا إليه و عاينوه بالمشاهدة، فمنهم من أكثر في الوصف كابن جبير، و منهم المُقل كابن رشيد، و منهم من لم يتطرق للوصف الجغرافي كالرعييني و ابن جابر الوادي آشي اللذين كانت كتابتهما على شكل برنامج، و شمل الوصف الجغرافي كل مكان وصلوا إليه و أحواله الجوية، و أماكن وجود المياه و الجبال و الصحراء، و شمل الوصف العمراني المدن، المساجد، المباني، القلاع، الحصون، الطرق و الآثار التاريخية القديمة<sup>(3)</sup>، و لا تكاد رحلة تخلو من الوصف حتى تتضح الصورة بشكل واضح لدى المطلع على الرحلة.

1- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 135-136.

2- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 138.

3- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 77-82.

## • الرحلة للحج و طلب العلم:

تنوعت أسباب رحلات المغاربة إلى المشرق بين أداء لفريضة الحج وطلب العلم<sup>(1)</sup>، و لعل من أهم بواعث الرحلة و أعظمها شأنًا عند المغاربة تأدية فريضة الحج<sup>(2)</sup>، و قد صرح العبدري مرارا بأنه كان ينوي الإقامة بمكة و المجاورة بها، و بأنه اكرتري المنزل و جهّز لوازمه، و صرف الركب إلى المغرب، لولا حدوث فتنة هناك أرغمته على الرّحيل عن مكة<sup>(3)</sup>، و كان مقصده واضحًا من هذه الرحلة، كما وصل ابن بطوطة في الربع الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي إلى الحجاز<sup>(4)</sup>، و قد عرف رفاقه في السفر تبخره في العلوم الشرعية و ذلك في طريقهم إلى مصر، فنصبوه قاضيا عليهم<sup>(5)</sup>، و رغم أن بداية رحلته كان القصد منها الحج، إلا أن رحلته طال أمدها نحو ثلاثين سنة جاب خلالها أقطار المعمورة.

احتل الحجاز المرتبة الثانية بعد مصر، في عدد زواره من رحالة المغرب الأوسط، كونه يكتسي مكانة خاصة في قلوبهم و نظرا لقيمه الدينية و التاريخية، و لما يشمل عليه من أماكن مقدسة، و قد اعتمدوا على مشاهدتهم الشخصية<sup>(6)</sup>، و كانت رحلة بعض من علماء المغرب الأوسط إلى المشرق العربي للحج و رغبة في المزيد من العلوم، فالحجاز جمع بين الحج و طلب العلم.

بدأت حركات المغاربة العلمية و الثقافية نحو المشرق منذ بداية القرن (3 هـ/9 م) بصورة ضئيلة، لكنها نشطت و تطورت خلال القرنين (4-5 هـ/10-11 م)، بينما كانت بداية القرن (6 هـ/12 م) الانطلاقة الحقيقية للإبداع العلمي و الثقافي، و خلال القرن (7 هـ/13 م) تضاعف عدد علماء المغرب الإسلامي<sup>(7)</sup>، و يذكر العلامة عبد الرحمن بن خلدون سبب رحلته إلى المشرق: « كانت الرحلة إلى المشرق لاجتناء أنواره وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره، فزدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار...»<sup>(8)</sup>

دأب الأندلسيون على الرحلة في طلب العلم منذ العهود الأولى للفتح، إذ كان طلب العلم الطريقة المثلى لتعبيرهم عن ارتباطهم بالمركز، و قد ترتب عن ذلك عدد لا يحصى من الرحلات لم يدون منها إلا القليل، و كانت أهمها رحلة القلصادي، التي رصد فيها أهم المراكز العلمية في عصره، و قد حظيت تلمسان بأهمية في رحلته<sup>(9)</sup>.

- 
- 1- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق ص 10.
  - 2- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب...، المصدر السابق، ج1، ص 41
  - 3- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق ص 391.
  - 4- إبراهيم أحمد سعيد، الحجاز في نظر الأندلسيين و المغاربة في العصور الوسطى، الطبعة 1، الأوائل للنشر و التوزيع، 2004، ص 10 .
  - 5- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 369 .
  - 6- سميرة أنساع، المرجع السابق، ص 159.
  - 7- عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية ما بين القرنين الثالث والتاسع عشر الميلاديين (3/19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص ص 235-238.
  - 8- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 38.
  - 9- أحمد بوعلا، الرحلة الأندلسية الأنواع و الخصائص، دار أبي رزق للطباعة و النشر، ط 1، 2008، ص ص 235-237.

## • إبراز الأوضاع الدينية:

اتسمت الرحلة المغربية بسمة دينية نلمسها في مضمونها، و لا غرابة في ذلك كون المغاربة تشبعوا بتربية إسلامية متينة، كما أنها أيضا سجلت عبارات دينية منها آيات قرآنية و أحاديث نبوية صيغت بطريقة عفوية في سياق الكلام<sup>(1)</sup>، و يذكر التجيبي السبتي أنه قرأ على الشيخ الفقيه القاضي الفاضل جمال الدين أبو عبد الله الزواوي بمدرسة المالكية بدمشق<sup>(2)</sup> مما عكس مدى تعايش المذاهب الإسلامية في المشرق.

و يذكر ابن بطوطة أن الأوقاف لا تحصر أنواعها و مصارفها لكثرتها بدمشق، و أهل المدينة يتنافسون في عمارة المساجد و الزوايا و هم يحسنون الظن بالمغاربة و يطمئنون إليهم<sup>(3)</sup>، و في رحلته زار كنائس مدينة القسطنطينية الكثيرة التي لا تحصى<sup>(4)</sup>، و كان ابن بطوطة دقيق الوصف لعادات و آداب و معتقدات الشعوب التي زارها<sup>(5)</sup>، و أشار إلى أن أهل اليمن كانوا متدينين، حريصين على الفرائض و العبادات، كثير منهم زهاد<sup>(6)</sup>

## • الاهتمام بالناحية التعليمية و الثقافية:

تميز فن الرحلة عند المغاربة بالاهتمام بالناحية التعليمية، و كان الهدف من الرحلة تنمية المعلومات و النهوض بالمستوى الثقافي عن طريق الاتصال بكبار العلماء و الفقهاء و الشيوخ، و كان سعي الرحالة و هو ينتقل من مكان إلى آخر مجالسة العلماء و الأخذ عنهم<sup>(7)</sup> من شتى العلوم. شملت كتابات الرحالة المغاربة و الأندلسيين الترجمة للعلماء و أماكن حلقات العلم و ذكر المدارس و الزوايا و أسماء الكتب و المؤلفات المتداولة في ذلك الوقت و العلوم بأنواعها<sup>(8)</sup>، فالرحلات التي كتبت في عصرهم حافلة بذكر أسماء العلماء و المشايخ و كبار الفقهاء و المحدثين و الصلحاء و كذلك التراجم لكبار الشخصيات قد لا توجد أحيانا في المؤلفات الضخمة<sup>(9)</sup>، و من خلال هذه التراجم التي تزخر بها الرحلات المغربية يمكن الوقوف على نوع الثقافة السائدة آنذاك، و هي تتجلى في الثقافة الدينية ثم اللغوية و الأدبية، و اهتم المغاربة بالعلوم الدينية و اللسانية و كُتب الفقه على مذهب الإمام مالك<sup>(1)</sup> منها الموطأ، و قد ترسخ مذهبه بشكل كبير ببلادهم.

1- محمد بن أحمد ابن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ - 1985م، ص 176-177.

2- القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، المصدر السابق، ص 282.

3- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 67.

4- نفسه، ص 233.

5- Abdelaziz Khelil Lacene Yahyaoui, *Les grands savants arabes*, Edit distribution HOUMA, Alger, 1999, p.18.

6- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 160. ينظر: عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 204.

7- محمد بن أحمد بن شقرون، المرجع السابق، ص 183.

8- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 87.

9- نفسه، ص 183.

1- نفسه، ص 184.

## • تضمنن لأبيات شعرية:

يحضر الشعر تعبيراً عن ثقافة الرحالة، و سعة علمه أو مقدرته على النظم، و قد يكون من نظم الرحالة نفسه، أو مستشهداً به من محفوظات الرحالة، و اذا كان الشعر يعتبر عنصر ضمن بنية الرحلة فإنه لا يحضر في بعض الرحلات مثل رحلة ابن فضلان أو رحلة أوقاي أو بعض الرحلات الجغرافية و السفارية، و لكنه يحضر في الرحلات الحجازية و العلمية و غيرهما<sup>(1)</sup>، و الرحلة في أدب الرحلة نوعان: رحلة شعرية و رحلة نثرية<sup>(2)</sup> وكان الرحالة المغاربة و الأندلسيون يتخذون من أشعارهم سواء أكانت قصائد أو أبياتاً للتعبير عن ما يجول بأعماقهم.

لابن سعيد ديوان شعر رتبته على حروف المعجم، إلا أن هذا الديوان لم يصل إلى قارئه، و لكن المقري أخبرنا عنه و حفظ قدراً لا بأس به منه، و كانت علاقة ابن سعيد بمجال الشعر و هو شاب في حوالي العشرين من عمره، يصحب والده في تجواله بين مدن الأندلس و يلاحظ أن الإحساس بالغربة عنده مبكراً، يمكن تلمسه في شعره<sup>(3)</sup>، كما نظم ابن الحاج النميري قصائد شعرية لأغراض متعددة، أهمها المدح الذي شغل حيزاً كبيراً من إنتاجه ثم الوصف، أما الهجاء فيبدو أنه لم يكن له نصيب<sup>(4)</sup>

نظم العبدري قصيدة بالحجاز مدح فيها رسول الله ﷺ و حضر لسماعها ناس، و قيد عليها طبقة السماع بخطه، و ذلك بحرم رسول الله ﷺ تجاه الروضة المعظمة، و رأى اثبات القصيدة بجملتها في هذا الموضوع، لأنه أليق المواضع بها<sup>(5)</sup> و قد جاء في مطلعها:

فَوْقَ إِلَى غَرَضِ الْفَلَاةِ وَ سَدِّدِ	سَهْمَ السُّرَى تَقْصِدُ وَ تَحْظُ بِمَقْصِدِ
أَوْتِرَ قِسِيًّا مِنْ مَطِيٍّ إِنْ رَمَتْ	رَنْتَ كَمَا رَنْتَ قِيسِي الْمَقْصِدِ
شِمِ سَيْفَ عَزَمَ لَا يَفْلُ ذُبَابَهُ	قُرْعُ الزَّمَانِ، وَ لَا قِرَاعُ الْفَدْفَدِ
هَمَّ بِالْعَلَاءِ بِهَمَّةٍ تَعْلُو عَلَى	سَمَكِ السَّمَكِ وَ سَامِ السَّامِي الْفَرْقِدِ
أَجِبِ النَّدَاءَ وَ جَبِّ بِكُلِّ تَنَوُّفَةٍ	قَفْرًا تَتَكَّرُ لِلدَّلِيلِ الْمُرْشِدِ
رَافِقُ رَفِيقِ الْعَزْمِ وَ انْتَرِكْ مَنْ وَنَى	حَلْفَ الْبَطَالَةِ نَائِمًا فِي مَرْقِدِ
شَمَّرْ ثِيَابَكَ لِلثَّوَابِ فَقَدْ بَدَا	أَمَّا لَهُ أَمَّ الْبَصِيرِ الْمُهْتَدِي <sup>(6)</sup>

1- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص 46.

2- حسين نصار، المرجع السابق، ص ص 97-103.

3- محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق في آثار ابن سعيد المغربي و رحلاته المشرقية و تحولات عصره، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1992، ص ص 253-259.

4- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص ص 54-58.

ينظر: أحمد بن محمد المقري، نفع الطيب...، المصدر السابق، ج7، ص112.

5- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 431.

6- ينظر القصيدة: أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص ص 431-441.

امتازت الرحلة المغربية بتضمنها لأبيات شعرية من نظم الرحالة نفسه، أو من إنتاج غيره، و أول من برز في هذا المجال العبدري الذي أكثر من النظم في رحلته، فكان شاعرا مجيدا، صدر عن تذوق للفن الأدبي، فالعبدري كان يتوفر على ثقافة أدبية و لغوية متينة مكنته من نظم القصائد الطوال في مواضيع مختلفة<sup>(1)</sup>، و أورد في رحلته قصائد لآخرين منهم ابن الفكون القسنطيني، و قصيدة ابن جبير في مدح صلاح الدين، و قصيدة السخاوي في ذكر خلفاء بني العباس و غيرهم.

يبدو أن ابن بطوطة لم يقل شعرا إلا بمناسبة اتصاله بملك الهند، فكان قد استدان مالا من التجار للتكفل بنفقات الطريق و حضر منه هدية للسلطان، فلما أراد التجار السفر إلى بلادهم ألحوا على طلب ديونهم، فمدح السلطان بقصيدة طويلة لم يدون في رحلته إلا أبياتها الأولى<sup>(2)</sup>.

إليك أمير المؤمنين المبجلا	أتينا نجد السير نحوك في الفلا
فجئت محلا من علائك زائرا	ومغناك كهف للزيارة أها
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة	لكنت لأعلاها إماماً مؤهلا
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذي	سجاياه حتماً أن يقول ويفعلا
ولي حاجة من فيض جودك أرتجي	قضاها وقصدي عند مجدك سهلا
أذكرها أم قد كفاني حياؤكم؟	فإن حياكم ذكره كان أجملا
فعجل لمن وافى محلك زائرا	قضا دينه إن الغريم تعجلا

نظم لسان الدين بن الخطيب قصيدة مدح فيه السلطان أبا سالم المريني هنا بمناسبة فتح تلمسان، كانت بدايتها<sup>(3)</sup>:

أطاع لسانني في مديحك إحساني	و قد لهجت نفسي بفتح تلمسان
فأطاعتها تقتر عن شنب المني	و تُسفر عن وجه من السعد حسان
كما ابترسم النوار عن أدمع الحيا	و حف بخد الورد عارض نيسان
كما صفت ربح الشمال شمولها	فبان ارتياح السكر في غصن البان
تهديك بالفتح الذي معجزاته	خوارق لم تُدخر سواك لإنسان
خفت إليها و الجفون ثقيلة	كما خف شئ الكف من أسد خفان

1- محمد بن أحمد بن شقرون، المرجع السابق، ص 186.

2- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص 342 - 343.

3- لسان الدين بن الخطيب، فاضة الجراب في غلاة الاغتراب، تح أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص 94-95. ينظر الملحق رقم (01)، ص 307 - 310.

ينظر كذلك: أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب...، المصدر السابق، ج5، ص 32-37.

عرض ابن خلدون قدراته الأدبية في الشعر و في بعض القصائد و الرسائل النثرية التي أوردها في كتابه بمناسبة مديح أو تشفع لدى بعض السلاطين أو وزراءهم، مما يدل على تحليه بملكة أدبية عرضها إلى جانب قدرته في التأريخ<sup>(1)</sup>، و خلال النكبة التي وقعت له مع السلطان أبي عنان، فقد بادر السلطان بالقبض عليه و وضعه بالسجن، فخاطب السلطان، مستضعفاً بقصيدة جاء فيها<sup>(2)</sup>:

على أيِّ حالٍ لليالي أعاتبُ      و أيِّ صُرُوفٍ للزَّمان أغالِبُ  
كفَى حَزناً أنيَّ على القرب نازحٌ      و أنيَّ على دعوى شُهودي غائبُ  
و أنيَّ على حُكمِ الحوادث نازلٌ      تسالمني طَوَّراً و طَوَّراً تُحاربُ

أورد ابن قنفذ القسنطيني قصصاً غريبة و أشعاراً عن صلاح و كرامات أولياء الله الصالحين، و منهم أبو مدين، فذات يوم جاء رجل يعترض مجلسه العلمي و يحمل في كفه المصحف الشريف، فقال له أبو مدين شعيب : أخرجته و أفتحه و أقرأ أول سطر منه فإذا فيه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>(3)</sup> فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا ؟ و أنشد له<sup>(4)</sup>:

يَا مَنْ تَوَقَّفَ جَهلاً فِي كَرَامَتِهِمْ      حَقَّقْ وَ صَدِّقْ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ صَدَفُوا  
لَا يَسْتَوِي مَتَانٌ فِي بَطَالَتِهِ      وَ حَازِمٌ نَحْوَ بَابِ الْقُرْبِ مُنْطَلِقُ

ارتحل ابن سعيد المغربي طلباً للعلم و الحجَّ إلى المشرق، لكن لم تتسيه الرحلة الأندلس، فقال: « و لما قدمت مصر و القاهرة أدركتني فيها وحشة، و أثار لي تذكُّر ما كنت أعهده بجزيرة الأندلس من المواضيع المبهجة، التي قطعت بها العيش غضاً خصيباً و صحبت بها الزَّمان غلاماً و لبست الشباب قشيباً»، و كان الرحالة المغاربة و الأندلسيين كثيري الشوق إلى أوطانهم، و قد حاول ابن سعيد هو في غربته رسم صورة لوطنه في مخيلته ليظل قريباً منه<sup>(5)</sup>، و نظم أبياتا عندما ورد الديار المصرية جاء فيها<sup>(6)</sup>:

أصبحتُ أعترض الوجوه و لا أرى      ما بيئها وجهاً لمن أدريه  
عُودي على بدئي ضاللاً بينهم      حتَّى كأتني من بقايا التَّويه  
ويح الغريب توحيشتُ الحاظه      في عالم ليسوا له بشييه  
إن عادَ لي وطني اعترفتُ بحقّه      إن التغرُّب ضاعَ عمري فيه

1- حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 62.

2- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر نفسه ص 73.

3- سورة الأعراف، الآية: 92

4- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقيير ، المصدر السابق، ص 90.

5- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 26

6- أحمد بن محمد المقري، نفع الطيب...، المصدر السابق، ج2، ص 262.

## • الأخذ بالآراء العلمية:

تميزت كتابات الرحالة المغاربة في التدوين بأسلوب علمي، بتسجيل ملاحظاتهم بدقة و تواريخ الأحداث مع الاطلاع على مؤلفات الرحالة السابقين، و تصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء، مما أدى إلى ازدهار فن الرحلة المغربية و وصل ذروته في القرنين السابع الهجري و الثامن الهجري<sup>(1)</sup>، و حرص ابن سعيد المغربي على نقل الكثير من الرحلات و الأسفار التي قام بها الرحالة المشهور ابن فاطمة الذي قام برحلات بحرية طويلة في غرب إفريقية، و قد جاء في أخباره أن السفينة التي كان يستقلها قد غرقت<sup>(2)</sup>

اتبع ابن سعيد المغربي منهج يمتاز عن غيره بسلامة الوصف و متانة الأسلوب و دقة التعبير، و عرف بغزارة المادة و رسوخ العلم، و هو علم من أعلام الفكر العربي و الإسلامي تجاهلته الكثير بعض المصادر العربية، بينما اهتم به المستشرقون اهتماما بالغاً<sup>(3)</sup>، و إذا كانت مؤلفات ابن سعيد ذات أهمية للباحثين، فان المصنفين القدامى لم يجدوها أقل فائدة أو أهمية، في طليعتهم أبو الفداء و العمري و ابن دقماق و المقرئ و القلقشندي و المقرئ<sup>(4)</sup> كما أن ابن سعيد المغربي اعتمد على ابن فاطمة في تدوين كتابه "الجغرافيا" من خلال الإشارة إليه في أكثر من موضع.

قام كل من العبدري البلنسي و التجيبي السبتي بقياس طول و عرض المسجد الحرام<sup>(5)</sup> فأثبتا نفس القياس و أرجعا نسبته إلى الأزرق<sup>(6)</sup> و وصف ابن بطوطة المسجد الأموي قائلاً: «...و ذرع المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة، و هي ثلاثمائة ذراع، و عدة شمسات الزجاج الملونة التي فيه أربع و سبعون، و بلاطاته ثلاث مستطيلة من شرق إلى غرب، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة. و قد قامت على أربع و خمسين سارية، و ثمان أرجل حصينة تتخللها، و ست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون... و تستدير بالصحن بلاطات ثلاث من جهاته الشرقية و الغربية و الجوفية، سعة كل بلاط منها عشر خطوات. و بها من السواري ثلاث و ثلاثون، و من الأرجل أربعة عشر، و سعة الصحن مئة ذرع... و في هذا الصحن ثلاث من القباب...»<sup>(7)</sup> و قد أخذ ابن بطوطة بالرأي العلمي و أكدده.

- 1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص ص 87-88.
- 2- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 192.
- 3- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 191.
- 4- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 198.
- 5- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص ص 416-417.
- ينظر: القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، المصدر السابق، ص 242.
- 6- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص ص 416-417. ينظر: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 88.
- الأزرق: هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق المكي الأزرق (أبو الوليد) مؤرخ، جغرافي من أهل مكة، يمني الأصل. من تصنيفاته: مكة و أخبارها و جبالها أوديتها.
- ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 6، ص 222.
- ينظر كذلك: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ج 3، مؤسسة الرسالة، دون تاريخ، ص 429
- 7- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 58 - 59.

## ب- الخصائص الخاصة:

تميزت رحلات المغاربة و الأندلسيين بمميزات خاصة في تدوين رحلاتهم، فكل رحلة أكمل ما نقص في بعض مميزات الرحلات السابقة و أضاف إلى فن الرحلة لبنات جديدة أعطته صفته و ميزته عن باقي الرحالة المسلمين في العالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال نجد ابن جبير قد جمع في رحلته بين الخصائص العامة و الخاصة، و لم يرق بالترجمة للأعلام الذين التقى بهم<sup>(1)</sup> و يمكن اعتبار الرحلة نمطا من أنماط الفهرسة كما يسميها المغاربة، أو البرنامج<sup>(2)</sup> كما يسميها الأندلسيون أو التبت كما يسميها المشارقة، لأنها تتحدث بالتفصيل عن الأساتذة و الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الرحالة<sup>(3)</sup> و ذكر العلماء و الكتب المتداولة و المناقشات و المناظرات العلمية مع الحرص على إصلاح الأخطاء التي وقعت في الأسانيد و الآداب<sup>(4)</sup>، بالإضافة إلى الكتب و المصنفات التي أخذها الرحالة المغاربة عن طريق السمع، أهمها الحديث النبوي الشريف.

تميزت محاولات ابن سعيد المغربي في علم الجغرافية بأنه استطاع أن يوظف خطوط الطول و العرض في تحديد الأماكن بطريقة علمية<sup>(5)</sup>، و تحدث في كتابه [الجغرافيا] عن الأقاليم و المدن المعروفة عند المسلمين في ذلك الوقت، و ذكر لكل إقليم أو مدينة موقعه على خطوط العرض، و تجدر الإشارة إلى أن ابن سعيد سافر مرتين إلى المشرق العربي، و كانت له اتصالات بالعلماء و المفكرين<sup>(6)</sup>، و مما يلاحظ عنه أنه أستطاع الجمع بين التاريخ و الجغرافيا و الفلك و الشعر و الأدب.

بدأ العبدري في كل مراحل الرحلة صاحب تكوين علمي ممتاز و ثقافة واسعة، و يمكن من خلال رحلته الحكم على ثقافته بالتنوع و العمق و الشمولية، و يتجلى ذلك في اهتماماته العلمية و مشاركته في الفنون و العلوم المختلفة، و الأخذ عن العلماء في رحلته كان متنوعا في الكتب و المعارف، و كانت مناقشاته و مناظراته للعلماء موضع التقدير و الاجلال لعلو كعبه في العلم و الأدب، و كان محترما أينما حل و ارتحل، و كانت ملاحظته أحيانا في النقد و الأدب و الفقه و العروض و في الحديث و التفسير<sup>(7)</sup> و كان كلما حضر درسا في حلق العلم زاد انتباهه إلى ذلك و قدّر المستوى العلمي للحواضر التي مرا بها.

1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 88.

2- البرنامج يقابل معنى الفهرسة فهو كتاب يجمع فيه الشيخ أسماء شيوخه و أسانيد من مروياته و قراءته على أشياخه و المصنفات و نحو ذلك فلفظ البرنامج يستعمله أهل الأندلس كثيرا و البرنامج يرادف المشيخة و الفهرسة و المعجم و التبت.

ينظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس و الأتبات و معجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982، ص 15 .

3- بويوزان بنعيسى، فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، 1426هـ، ص 250.

4- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 88-89.

5- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 191.

6- عبد القادر زبادة، المرجع السابق، ص 149-152.

7- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 180-181.

تأرجحت رحلة العبدري بين الرحلة الوصفية و العلمية، إذ إشتملت على قسط كبير من الوصف سواء للمراحل أو المدن أو الآثار بالإضافة إلى عنايته الفائقة بشرح النواحي السياسية و الحضارية في حين حظي الجانب العلمي بالقليل من اهتمامه، لكن العبدري قام بتصحيح الأخطاء الشائعة، معتمدا في ذلك على الموازنة بين الكتب التي تناولت الموضوع و إبراز الصحيح فيها مع بيان رأيه، و بذلك يكون حكمه صادرا من عالم بحقيقة الأمور بدقة، مع إصلاح الأخطاء الموجودة في تلك المصادر عند رجوعه إليها، مما ميّز العبدري عن غيره، و إضافة لخصائص الرحلة المغربية و الأندلسية<sup>(1)</sup>

تعتبر رحلة ابن رُشيد أقدم رحلة مغربية، ذكرت في كثير من المصنفات و المعاجم التي تحدثت عن الرحالة المغاربة و الأندلسيين، و امتازت كتاباته بمعلومات غزيرة عن الأحوال الاجتماعية للبلاد التي زارها، خاصة مكة المكرمة و المدينة المنورة و ضمت رحلته الكثير من تراجم العلماء و الفقهاء<sup>(2)</sup> و كان لابن رُشيد مكتبة زاخرة بكثير من النوادير التي لا يحصيها العد، و ذلك بحكم أنه كان على اتصال وثيق بمكتبات شيوخه، و كان يستنسخ منها و يخبرونه فيما شاء من نوادرها<sup>(3)</sup> العلمية و الفنية، و زادت شهرته حين ألف رحلته [ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيبة إلى الحرمين مكة و طيبة].

تميزت الرحلة الأندلسية بحضور الهوية الأندلسية عبر اعتزاز بها و الحنين إليها، و كان التنوع هو السمة البارزة في الرحلة الأندلسية، و يرجع ذلك إلى تعدد المقاصد التي كانت موجها للرحلات، و تباين طرق الكتابة باختلاف شخصيات الرحالة و نوع الرحلة، دون إغفال سياقها العام (الثقافي و التاريخي و السياسي) الذي طبعها بسماوات مشتركة تؤثر على الخصوصية الأندلسية<sup>(4)</sup>، و كانت الرحلة ضرورية في حياة المغاربة و الأندلسيين، فرضتها عليهم مساحة الأندلس الواسعة، و بعدها الشّاسع عن المشرق، و تكاليف الأعداء عليها لاحتلالها<sup>(5)</sup>، لذا كثرت الرحلات بين العدة المغربية و الأندلسية بسبب فقدان الجزئي أو الكلي للأندلس و القرب الجغرافي بينهما.

ذاع صيت الجغرافي الأندلسي عبد المنعم الحِميرِي في فن المعاجم، فهو الذي جدد و عين معالم هذا العلم المفيدة، و الحِميرِي يمثل القمة التي وصل إليها علماء العرب و المسلمين في التأليف الجغرافي، و يتضح ذلك جليا في كتابه [الروض المعطار في خبر الأقطار]، الذي صار من أهم المصادر للباحثين في تاريخ و جغرافية الأندلس، و لم يكن الحِميرِي معروفاً للجغرافيين إلا بعد أن قام ليفي بروفنسال (*Lévi - provençal*) بنشر الجزء الخاص بالأندلس من كتابه، مع التعليقات عليه باللغة الفرنسية<sup>(6)</sup>، و زيادة على المعلومات الجغرافية، تناول عبد المنعم الحِميرِي معلومات أخرى تاريخية في معجمه الجغرافي سلّط من خلالها الضوء على أحداث مهمة.

1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 89.

2- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 344 - 345.

3- أحمد حدّادي، رحلة ابن رُشيد السبتي، ج 1، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، 2003، ص 194.

4- أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص 264 - 265.

5- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 25.

6- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 228.

خصّص ابن الحاج النميري كتاب رحلة، لوصف رحلة السلطان المريني أبي عنان فارس إلى قسنطينة و الزاب و إفريقية، لإعادة توحيد بلاد المغرب الإسلامي، و احتوت معلومات هامة عن مظاهر حضارة بني مرين، منها وصف المدارس و الزوايا التي شيدها أبو عنان و يعتبر ابن الحاج النميري مؤلفها أو كاتبها، أما مبدعها ومخططها و منفذ جميع مراحلها فهو الملك أبو عنان المريني (729-759 هـ)<sup>(1)</sup> فشملت الرحلة أماكن خاصة بالمغرب الأوسط و الزاب.

و تبرز في رحلة ابن الحاج النميري شخصيته كرئيس لديوان الإنشاء بقصر بني مرين، خادم وفي للسلطان، و صاحب ثقافة عربية اسلامية واسعة، و حرصاً واضح على مجارة التقاليد الإنشائية التي تملي من شأن البلاغة و الأسجاع، فالرحلة انطلقت من فاس عاصمة الدولة المرينية، حتى وصلت إلى قسنطينة المكان المخصوص بالرحلة، و اهتمت الرحلة بوصف المؤسسات السلطانية بدءاً بالسلطان أبي عنان فارس و موكبه، و المحلة السلطانية، و منجزات السلطان المعمارية، و وصف المدن و الآثار التي محاها السلطان<sup>(2)</sup> و وُصفت رحلة ابن الحاج النميري بالحركة<sup>(3)</sup>، لأن الهدف منها فرض الطاعة و اخضاع الأماكن المتمردة عن السلطان المريني.

إذا كانت رحلة ابن الحاج النميري قد أعلنت من شخصية السلطان المريني من بدايتها حتى نهايتها، فقد أمكن لها ذلك بفعل السرد و جعل شخصية السلطان الرئيسية فيها هي السلطان و أعطاه صفات بطولية، و قصر في حضور شخصيات أخرى في الرحلة، خصوصاً الأعداد، و هكذا قدم لنا صورة منتقصة من الآخر<sup>(4)</sup> و يبدو أن ابن الحاج في رحلته بالغ في وصف السلطان حين قال: «...و برز وجهه [السلطان] الجميل كالشمس التي ردت الطرف كلياً، و أبدت صفرتها للمولى الذي رأيناه في الملوك أصيلاً، و قعد مجلس ملكه فأفاء ظل الأمن ظليلاً، و رأى سبيل الرشده فاتخذة سبيلاً...»<sup>(5)</sup> و وصف موكب السلطان: «و برز [السلطان] في موكب و دت الثرى لو تكون ثراه، و الشعراء العبور لو عبرت عليها سراياه. و السماك الرامح لو صحب رماحه، و أخوه الأعزل لو صافح صفاحه، و النسر الطائر لو جاءه سبياً، و أخوه الواقع لو وقع حقاً.»<sup>(6)</sup>

1- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 16 ينظر: أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب...، المصدر السابق، ج 1، ص 353

2- أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص ص 206-218

3- الحركة: بسكون الراء مصطلح مخزني، و تعني ما يشبه الغزوة أو المسيرة العسكرية. و المشارك فيها يسمى الحارك، و قد احتفظت الكلمة في اللسان الدارج بمعنى يرتبط بالفارس و الركوز به، و ربما أول من استعمل مصطلح الحركة هو ابن صاحب الصلاة في كتابه المن بالإمامة عندما تحدث عن فتوحات الموحدين بإفريقيا و الأندلس، و ظل مفهوم الحركة يحمل مفهوم الجهاد و الفتح من العصر المرابطي إلى العصر المريني، و ابتداء من القرن 10 هـ / 16 م. لم تعد الكلمة تعني أعمال الفتح و الجهاد خارج البلاد، بل أصبحت تعني تلك العمليات الداخلية التي تنظمها السلطة المركزية لإثبات سيادتها على جهة ما من البلاد.

ينظر: أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص 205.

4- أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص 222

5- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 152.

6- المصدر نفسه، ص 223.

ينظر كذلك: أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص ص 215-216.

امتازت رحلة ابن بطوطة (تحفة النظائر في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار) عن الرحلات الأخرى بالمعلومات الجغرافية الوصفية للبلاد و المسالك و المظاهر الطبيعية و غيرها، و لكنها تهتم في نفس الوقت بالعادات و التقاليد لسكان البلاد التي ورد ذكرها، فرحلته سجلا دقيقا و شاملا لحياة اجتماعية عايشها أثناء رحلته<sup>(1)</sup>، قضى كل حياته تقريبا في الترحال<sup>(2)</sup>، غير أن هناك من المبالغات التي قد يجدها القارئ لكتاب رحلته مثل ما ذكره من أنه وصل إلى مدينة البلغار من القرن الذهبي في خلال ثلاثة أيام، مع العلم أن المسافة بين هذين الموقعين، مما لا يمكن قطعها للراجلين أو على الخيول و غيرها في ثلاثة أيام فقط<sup>(3)</sup>، لكن ابن بطوطة نال شهرة واسعة، حتى سمي بشيخ الرحالين<sup>(4)</sup> و شجعت رحلته كثيرا ما بعده من الرحالة و الجغرافيين على الترحال، و هذا ما أدى إلى ازدهار فن الرحلة و تدوينها عند المغاربة و الأندلسيين.

تشكل الأساطير و الخرافات في رحلة ابن بطوطة مادة تراثية شعبية، فهي بالإضافة إلى كثرتها و تنوعها تأتي ضمن مداخل غير غريبة على المشاهدات و ترتبط عضويا بالأماكن التي يزورها، و يعيد ابن بطوطة مشاهدات الرحلة و يرويها، و هذا ما يجعلها متميزة، و يبدو أن ابن بطوطة كان يستند في جمع الأخبار إلى العامة، و العامة مولعون بتصديق الغرائب و الأكاذيب، و مما تجدر الإشارة إليه هو أن ابن بطوطة يروي حكايات غريبة معتمدا على فعل السمع: «سمعت»، «و ذكر لي»، «يحكى»، أو فعل الرؤية: «رأيت». و في جميع هذه الحالات يقوم بالتعليق على ما ينقله، أو يلتزم الصمت الموهوم بالرفض أو القبول، و كثيرا ما يقدم حكاياه دون إبداء رأي، بل ينتقل من حكاية إلى أخرى و كأن الأمر عادي لا يحتاج إلى تمحيص<sup>(5)</sup>

تشكل السجلات الاجتماعية في نصوص الرحلة رافدا أساسيا لإغناءها و توسيع أبعادها و تنويعها، خصوصا و أن جل الرحلات لا تخلو من وصف طبائع الناس و عاداتهم و تقاليدهم و مذاهبهم و جزء من خصوصيات ثقافتهم، و يجيء الجانب الاجتماعي في نص الرحلة سجلا يرصد بعض أخبار السكان، و يتضح ذلك على الخصوص في الرحلات المتجهة لغير العالم الإسلامي كرحلة ابن بطوطة الحافلة بسجلات مرجعية<sup>(6)</sup> و نجد ابن بطوطة نموذجا فريدا للرحالة المغاربة و الأندلسيين، و على يديه أخذت الرحلة المغربية و الأندلسية شكلها النهائي، و من بين سطور رحلته يظهر لنا ابن بطوطة الفقيه، و عالم الاجتماع و الاقتصادي و الجغرافي، و ربما يعود ذلك إلى كثرة تنقلاته و اتصالاته بالناس<sup>(7)</sup> و معاشرته لهم، و كثيرا ما تعجب ابن بطوطة في طبائع بعضهم و كانت غريبة عليه.

1- على بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 149 - 150.

2- عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص 111.

3- نفسه، ص 111.

4- نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 187.

5- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 48 - 49.

6- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص 44 - 45.

7- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 90.

لم تتجاوز رحلة لسان الدين بن الخطيب حدود بلاد الأندلس و المغرب، و قد صاحب في رحلته الأندلسية السلطان يوسف بن الحجاج، و ذلك سنة 748 هـ/1348 م، و دَوّن هذه الرحلة بعنوان «خطرة الطيف في رحلة الشتاء و الصيف»، كما أُلّف في رحلته المغربية كتابه «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، و قد لاحظ ابن سودة أن هذه الرحلة من أفيد تواريخ المغرب في عصر ابن الخطيب<sup>(1)</sup>، و مما يلاحظ أن رحلة «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، ناقصة غير كاملة، إذ يبدأ مقدمات بالصعود إلى جبل هنتانة و هو جبل ناء بمنطقة جبال الأطلس، و لا شك أن بداية هذه الرحلة تقع في الجزء المفقود من هذا الكتاب، كما سجل لنا ابن الخطيب الرسائل و القصائد التي بعث بها إلى سلطان المغرب في ذلك الوقت أبي سالم المريني، و معظمها يدور حول مدحه و مدح آبائه و الترحم عليهم، إذ أمر السلطان المريني بصرف لابن الخطيب من مجيء مدينة سلا مرتب شهري له و لولده مبلغ خمسمائة دينار، و أن يعفى من كل ضريبة<sup>(2)</sup>، فأكرمه السلطان المريني و أحسن ضيافته و حصل بذلك ابن الخطيب على مكانة تليق به، غير بعيدة عن تلك التي كان فيها بالأندلس.

و قد دَوّن ابن الخطيب ما رآه و سمعه في جميع رحلاته، فأمدّنّا بمادة غنية عن حضارة الغرب الإسلامي في تلك الفترة، و تمثلت مشاهداته في أماكن متفرقة من كتبه، و إذا تمعنا في جغرافية ابن الخطيب نرى أنها غير مقصودة لذاتها، فهي تأتي كخط جانبي في نشاطاته الأدبية و التاريخية، و هي نتيجة لخبراته في الحياة العملية، و هي إما مقدمات جغرافية تاريخية أو شذرات أدبية في رسائله، و لهذا تتضاءل نسبة الجغرافيا فيها، و كلّها تدور إمّا حول الأندلس أو حول المغرب، لكن الدقة في الملاحظة، و أوصافه النشيطة و مشاهداته، تدلّ على أنه رحّالة من الطراز الأول<sup>(3)</sup>.

تروم السيرة الذاتية تحقيق نوع من الترجمة و التأريخ لحياة الفرد المؤلف عن طريق حكي يخص فترة سفره، و يتعلق الأمر بتدوين كتابة مذوّنة، و صف للنفس المتأججة بشكل ملفت للانتباه، تتحد فيها شخصية الرحالة بالمؤلف الراوي، و هو ما يشجع على التأكيد بأن السير الذاتية هي رحلات حياتية و فكرية، كما هو الأمر عند ابن خلدون<sup>(4)</sup>، و التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا، فهي قصة حياته إلى قبيل وفاته، ذكر فيها أصله و أحداثه هو و أحداث أسرته، وثقافته، و أسانذته، و تحدث عن صلته بالملوك، و الأمراء، و تنقله في القصور، و ذكر اعتقاله و تشريده، و ذكر أيضا رحلته إلى الأندلس و اتصاله بملك غرناطة، و وزيره لسان الدين بن الخطيب و سفارته إلى ملك قشتالة، ثم عودته إلى تونس، و رحيله إلى مصر<sup>(5)</sup> حتى وفاته بها سنة 808 هـ/1406 م.

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 65. ينظر كذلك: نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 68.

2- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب...، المصدر السابق، ص ص 10 - 11.

ينظر: لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف في رحلة الشتاء و الصيف، تح أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبو ظبي، 2003، ص ص 113 - 149

3- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص ص 69 - 70.

4- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص 37.

5- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص 70.

قام أبو العباس أحمد بن علي الخطيب القسنطيني الشهير بابن قنفذ (ت 810 هـ / 1408 م) برحلة طويلة زار خلالها المدن المغربية و أريافها، و على الرغم من أن صاحب الرحلة جعل موضوعه الأساسي ذكر مناقب الولي الصالح أبي مدين شعيب دفين تلمسان (ت 594 هـ / 1198 م)، إلا أنه أفادنا كثيرا في نواحي كثيرة كإشارته إلى الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط، فذكر رجالات الفكر على عهدي أبي الحسن و أبي عنان، و من بينهم شيوخ و أساتذة المدارس و الجوامع و الزوايا و الكتاتيب و المهم في كتاب أنس الفقير هو ما شاهده بنفسه، هو اتصالاته برجال التصوف و ذكر أخبارهم و مجاهداتهم و الإشارة إلى ما تمتاز به سيرة كل واحد منهم<sup>(1)</sup> فكانت رحلته غنية بتراجم التصوف.

أبرز القلصادي مقصده من تدوين الرحلة حين قال: «أما بعد: فالمقصود من هذا الموضوع أن يكون معرّفًا بأشياخي، من أهل العلم الذين أخذت عنهم رضي الله عنهم و أرضاهم، و برحلة من «بسطة»<sup>(2)</sup> مسقط رأسي، و موضع أول أنفاسي، مقر الألفة و الأُنس، من جزيرة الأندلس، أدامها الله للإسلام، و حماها من عبدة الأصنام.»، و ما يوضح هذا القصد من الكتابة هو عنوان الرحلة بقوله: «و سمّيته: تمهيد الطالب، و منتهى الراغب، إلى أعلى المنازل و المناقب»<sup>(3)</sup>، مما يؤكد تجربة القلصادي في الرحلة العلمية و دور شيوخ العلم في تكوين المُتعلّم.

يندرج اهتمام القلصادي بترجمته لشيوخه ضمن الاعتراف بالجميل و التقدير لجهودهم و الامتنان بفضلهم و حسن صنيعتهم، و إعطاء أهمية لتكوينه العلمي، إذ كان ذلك مدعاة للمباهاة و الافتخار، مما يجعل البعد التعليمي حاضرا بقوة في الرحلة، و قد اتبع طريقة نموذجية للترجمة للشيخ أو للعالم ترتكز على المقومات التالية<sup>(4)</sup>:

- **المكانة العلمية للشيخ:** يقول مثلا عن الشيخ أحمد بن زاغو، أعلم الناس في وقته في التفسير، و افصحهم في التعبير، أخذ بمذهب الإمام مالك، و فاق على نظرائه و أقرانه في دليل السبل و المسالك إلى سبق في الحديث و الأصول، و قدم راسخة في التصوف، مع الذوق السليم و الفهم المستقيم<sup>(5)</sup>، و كان القلصادي يلجأ إلى أسلوب التفضيل، و هو مبرر نفسي لسبب الأخذ عنه، فمثلا يقول عن الشيخ أحمد القلشاني: «لم أر أعرف منه بمذهب الإمام مالك ﷺ، و لا من يستحضر النوازل و الأحكام مثله»<sup>(6)</sup>

1- أبو العباس أحمد بن علي الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الفقير، المصدر السابق، ص 7.

2- بسطة: مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش، و هي متوسطة المقدار حسنة الوضع عامرة أهلة حصينة ذات أسوار و بها تجارات و فعلة بضروب الصناعات و بينها و بين جيان ثلاث مراحل.

ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 113.

3- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 86 - 87.

4- أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص 242 - 244.

5- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 108.

6- نفسه، ص 120.

- **تحصيله و سنده العلمي:** يقول عن الشيخ أحمد المنستيري: «كان ممن أدرك الشيخ ابن عرفة رضي الله عنه»<sup>(1)</sup>
- **المكانة الاعتبارية و الرمزية للشيخ:** يقول عن الشيخ محمد بن عقاب: «خصَّه الله في دخر عمره بامامة المسجد الأعظم جامع الزيتونة»<sup>(2)</sup>
- **الأخلاق:** يقول عن عيسى الرثيمي: «و كان له مقصد حسن في التعليم، مع خلق رضية و تسليم»<sup>(3)</sup>
- **مآخذه على بعض العلماء:** يقول مثلاً عن عيسى الرثيمي مشيراً إلى سبب عدم شهرته: «و لم يكن يحسن تعليم المبتدئ، و لذلك لم يشتهر عند جميع الناس كغيره»<sup>(4)</sup>
- **ما بعد الوفاة:** يقول عن قاسم العقباني: «توفي ﷺ في شهر ذي القعدة من عام 854 هـ/ ديسمبر 1450 م أو أوائل جانفي 1451 م، و صُلي عليه بالجامع الأعظم و دفن بغريبة بالروضة هناك، قرب الشيخ سيدي أبي عبد الله محمد بن مرزوق، و كانت له جنازة عظيمة حضرها السلطان فمن دونه»<sup>(5)</sup> و هذه الطريقة خص بها علماء تلمسان دون غيرهم ليرز مكانتهم العلمية.
- اتخذ ابن الصبَّاح الأندلسي رحلته الحجازية للوعظ و التَّعلم، فالرحلات أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان و إغناء لفكره، و تأملاته عن نفسه و عن الآخرين، فنجده يسرد أخبار رحلاته للمسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها في يد النصارى، و كان قصده التعريف بأرض الإسلام و تعزيز الروح الدينية في نفوس المدجنين بالأندلس، متبعاً بذلك منهج تلقيني تعليمي، مستشهداً بالآيات القرآنية و السنَّة النبوية، و التذكير بواجبات المسلم الدينية منها الصلاة و الزكاة و الحج، و تعرض في رحلته إلى بعض القضايا الدينية، منها قضية الجهاد و العبادة و قضية بقاء المسلم تحت حكم النصارى. و لا تخلو رحلة ابن الصبَّاح من فوائد كثيرة تتعلق بالعمران و الاقتصاد و الثقافة في القرن 9 هـ/ 15 م<sup>(6)</sup>.
- لم يكن القلصادي آخر أندلسي قام بمناسك الحج، فقد أتى بعده أندلسي من المدجنين الذين أخذت اللغة العربية تغيب عنهم و أصبحوا يشعرون بأنهم في طريقهم إلى ترك دينهم الذي أعتنقه أجدادهم، و نجد هذه الرحلة الغريبة و العجيبة تتميز بأسلوب خاص بها، و هي رحلة طويلة لا نعرف عن صاحبها إلا أنه الحاج عبد الله بن الصبَّاح، و لم نتمكن من معرفة تاريخ رحلته بالضبط على الرغم من تتبعها عبر المراحل التي قطعها انطلاقاً من حديثه عن الأندلس و مملكة بني الأحمر، و مروراً بسبته و فاس و مراكش في عهد بني مرين و تلمسان أيام بني عبد الواد و تونس أيام الحفصيين، و مصر في عهد بقية المماليك<sup>(7)</sup> و قد رتَّب الدكتور عبد الهادي التازي ابن الصبَّاح بعد القلصادي.

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 122.

2- نفسه، ص 124.

3- نفسه، ص 104.

4- نفسه، ص 104.

5- نفسه، ص 113.

6- نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص ص 30-31.

7- عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات.. مكة في مائة رحلة مغربية و رحلة، ج 1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2005، ص 165.

## الفصل الثاني

التعريف بالرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين

من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 .)

المبحث الأول: أبو الحسن بن سعيد المغربي (ت 685 هـ/1285 م)

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: تعليمه وشيوخه

المطلب الثالث: رحلاته

المطلب الرابع: عوامل تكوين شخصيته

المطلب الخامس: وفاته

المبحث الثاني: العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد (توفي بعد سنة 700 هـ/1300 م)

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: تعليمه وشيوخه

المطلب الثالث: رحلته

المطلب الرابع: وفاته

المبحث الثالث: ابن الحاج النميري (ت 768 هـ/1367 م)

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: مراحل حياته

المطلب الثالث: تعليمه وشيوخه

المطلب الرابع: رحلاته و المهام التي كلف بها

المطلب الخامس: صفاته الجسمية و الخلقية

المطلب السادس: وفاته

المبحث الرابع: لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ/1374 م)

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: تعليمه وشيوخه

المطلب الثالث: رحلاته

المطلب الرابع: حياته السياسية

المطلب الخامس: وفاته

المبحث الخامس: ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 779 هـ/1377 م)

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: تعليمه وشيوخه

المطلب الثالث: أخلاقه و طباعه

المطلب الرابع: رحلاته

المطلب الخامس: وفاته

المبحث السادس: الحاج عبد الله بن الصباح ( النصف الثاني من القرن 8 هـ/ 14 م )

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

المطلب الثالث: رحلته

المطلب الرابع: وفاته

المبحث السابع: ابن خلدون عبد الرحمن( ت 808 هـ/ 1406 م )

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

المطلب الثالث: رحلته

المطلب الرابع: حياته السياسية

المطلب الخامس: وفاته

المبحث الثامن: ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب( ت 810 هـ/ 1047 م )

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

المطلب الثالث: رحلته في طلب العلم

المطلب الرابع: عودته إلى قسنطينة

المطلب الخامس: وفاته

المبحث التاسع: الحميري محمد بن عبد المنعم ( ت 866 هـ/ 1463 م )

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

المطلب الثالث: مشاركته في الحياة السياسية

المطلب الرابع: رحلاته

المطلب الخامس: وفاته

المبحث العاشر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي( ت 891 هـ/ 1486 م )

المطلب الأول: مولده ونشأته

المطلب الثاني: المطلب الأول: تعليمه و شيوخه

المطلب الثالث: رحلته و نشاطه العلمي

المطلب الرابع: وفاته

خصصت هذا الفصل للتعريف بالرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م)، و تناولت في المبحث الأول أبي الحسن بن سعيد المغربي (ت 685 هـ - 1285 م)، و تحدثت في المطلب الأول عن مولده و نشأته. أما المطلب الثاني تناولت فيه تعليمه و شيوخه، و في المطلب الثالث تحدثت عن رحلاته المختلفة. أما في المبحث الرابع عوامل تكوين شخصيته، أما المبحث الخامس وفاته.

تحدثت في المبحث الثاني عن الرحالة العبدري (توفي بعد سنة 700 هـ/1300 م)، وقسمته إلى أربعة مطالب، ففي المطلب الأول تحدثت عن مولده نشأته المغربية، و في المطلب الثاني عن تعليمه و شيوخه، و في المطلب الثالث رحلته، و في المبحث الرابع وفاته.

و في المبحث الثالث خصته لابن الحاج التميمري صاحب رحلة فيض العباب، ففي المبحث الأول تحدثت فيه عن مولده و نشأته، أما في المطلب الثاني مراحل حياته المختلفة، و في المطلب الثالث عن تعليمه و شيوخه. أما المطلب الثالث فقد خصصته لرحلاته و المهام التي كُلف بها، و في المطلب الخامس تحدثت عن صفاته الجسمانية و الخلقية، و في المطلب السادس وفاته.

أما المبحث الرابع، فخصصته للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ/1374 م)، ففي المطلب الأول تناولت فيه مولده و نشأته، و في المطلب الثاني تعليمه و شيوخه، و في المطلب الثالث رحلاته، و في المطلب الرابع حياته السياسية، و في المطلب الخامس وفاته.

و في المبحث الخامس تناولت فيه ابن بطوطة (ت 779 هـ/1377 م)، فالمطلب الأول تحدثت فيه عن مولده و نشأته، و في المطلب الثالث أخلاقه و طباعه، و في المطلب الرابع رحلاته، أما في المطلب الخامس وفاته.

أما المبحث السادس خصصته للحاج المدجن عبد الله بن الصباح (الصف الثاني من القرن 8 هـ/14 م)، ففي المطلب الأول تناولت فيه مولده و نشأته، و في المطلب الثاني تعليمه و شيوخه، أما المطلب الثالث رحلته، و في المطلب الرابع وفاته.

و في المبحث السابع فقد خصصته لعبد الرحمن بن خلدون، ففي المطلب الأول تناولت مولده و نشأته، و في المطلب الثاني تعليمه و شيوخه، و في المطلب الثالث رحلته، و في المطلب الرابع وفاته.

خصصت المبحث الثامن لابن قنفذ القسنطيني (ت 810 هـ/1047 م)، فالمطلب الأول تناولت فيه مولده و نشأته، و في المطلب الثاني تعليمه و شيوخه، أما المطلب الثالث رحلته في طلب العلم، أما المطلب الرابع تحدثت فيه عن وفاته.

و المبحث التاسع خصصته للحميري عبد المنعم (ت 900 هـ/1495 م)، ففي المطلب الأول تناولت مولده و نشأته، و المطلب الثاني تعليمه و شيوخه، و في المطلب الثالث مشاركته في الحياة السياسية، و في المبحث الرابع رحلاته، أما في المطلب الخامس تحدثت عن وفاته.

أما المبحث العاشر خصصته للقصادي (891 هـ/1486)، فقد تناولت في المطلب الأول مولده و نشأته، و في المطلب الثاني تعليمه و شيوخه، و في المطلب الثالث رحلته، أما المطلب الرابع خصص رحلته و نشاطه العلمي، أما المطلب الخامس تناولت فيه وفاته.

### المطلب الأول: مولده ونشأته

هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسين بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر العنسي، يكنى بأبي الحسن و هي كنية تطلق على كل من يتسمى علياً في المشرق و هو من ضمن الألقاب التي كان يتيمن بها أهل المشرق بإطلاقها مقرونة بلفظ «الدين» كشمس الدين و ضياء الدين، و من استقراء تاريخ أسرة ابن سعيد يتبين أن محمد بن عبد الملك بن سعيد، والد موسى، كان متولياً أعمال غرناطة قبل حوالي عشرين سنة من مولد علي<sup>(2)</sup> و يبدو من خلال هذا التعريف أن نسبه يتصل بالصحابي الجليل عمار بن ياسر، و هذا ما ذكره كل من لسان الدين بن الخطيب و المقري التلمساني<sup>(3)</sup>

وُلد أبو الحسن علي بن سعيد المغربي في 22 رمضان 610 هـ/فبراير 1214 م في قلعة يحصُب من أعمال غرناطة، و قد ظلت هذه القلعة مقراً لإمارة بني سعيد تحمل أيضا قلعة بني سعيد<sup>(4)</sup> و تذكر بعض الروايات أنه وُلد ليلة الفطر سنة 610 هـ/1214 م، و أن أول من حل بهذه القلعة [قلعة يحصُب] قبيلة من اليمن إثر فتح الأندلس<sup>(5)</sup>، و مهما كان الأمر فإن تاريخ ميلاد علي بن سعيد المغربي نجده يختلف من مصدر لآخر. تميزت حياة ابن سعيد بدورين بارزين متميزين، و رغم أن الدور الثاني غطي الدور الأول من حيث الامتداد الزمني و المكاني و النشاط العلمي، فإنه لا يفوقه من حيث التأثير العميق في تكوين ابن سعيد النفسي و العلمي<sup>(6)</sup>

**الدور الأول:** شمل إقامته في بلده و ينقسم هذا الدور إلى ثلاث فترات: فترة مولده و طفولته في غرناطة، وفترة صباه و شبابه و دراسته في أشبيلية، ثم فترة تجوله في أرجاء الأندلس رفقة والده لجمع المادة العلمية لمؤلفاتهما<sup>(7)</sup>.

**الدور الثاني:** تمثل في دور الرحلة و الاغتراب، فينقسم هذا الدور إلى خمس فترات: فترة إقامته مع والده في تونس، و فترة رحلته المشرقية الأولى التي زار خلالها مصر و بلاد الشام و العراق و بعض مدن فارس و الديار الحجازية للحج، ثم فترة عودته إلى تونس، ثم فترة رحلته المشرقية الثانية التي ربما امتدت إلى أقصى خرسان متجاوزة حدود رحلته الأولى، و أخيراً فترة رجوعه الأخير إلى تونس و وفاته بها<sup>(8)</sup>.

1- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 79.

2- المرجع نفسه، ص ص 82 - 83.

3- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، ج 4، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص 152.

ينظر: أحمد بن محمد المقري التلمساني، نوح الطيب... المصدر السابق، مج 2، ص 270.

4- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 5

ينظر كذلك: شكيب أرسلان، الحل السندوسية في الأخبار و الآثار الأندلسية، المطبعة الرحمانية، ج 1، ط 1936، ص 298

5- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 69. ينظر كذلك: شكيب أرسلان، المرجع السابق، ج 1، ص 298

6- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 81.

7- المرجع نفسه، ص 81.

8- المرجع نفسه، ص ص 81 - 82.

كانت أشبيلية من أهم المراكز العلمية خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري، و امتازت بكثرة معاهدها و إقبال الطلاب عليها من سائر أنحاء الأندلس للدراسة فيها، و توجه رجال العلم نحوها لإظهار علمهم و نبوغهم، فبرزت مصنفات كثيرة لعلماء و فقهاء و شعراء أشبيليين، و تألفت أشبيلية في عصر ابن سعيد مركزاً ثقافياً و حضارياً في بلاد الأندلس و المغرب الإسلامي. فأشبيلية مركز حضاري عريق أخذ ينمو تدريجياً مع حركة التاريخ حتى شهد كامل نموه في العصر الموحدى<sup>(1)</sup>، و كان من الطبيعي أن يشجع موسى بن سعيد ابنه علياً على الدراسة لما عُرف عن أسرة بني سعيد من ميل إلى العلوم و التأليف، ثم أن موسى اتجه إلى أشبيلية للإقامة فيها عندما كان سن ابنه بين العاشرة و الرابعة عشرة، و في أشبيلية قضى ابن سعيد عهد صباه<sup>(2)</sup>

### المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

نال ابن سعيد المغربي حظه من التربية و التعليم حيث نشأ في غرناطة التي كانت مسرح أحداث طفولته المبكرة، ففيها تلقى مبادئ القراءة و الكتابة، و في غرناطة التقى بأبي بكر بن عمار كاتب المتوكل بن هود سلطان الأندلس و كان له حظ في الأدب، كما التقى أيضاً بأبي بكر يحيى التطيلي أحد أعيان غرناطة، و ذوي النباهة فيها، ثم انتقل ابن سعيد إلى إشبيلية و اتصل بعدد كبير من علمائها، و كانت إشبيلية المركز الذي انطلق منه للتعرف و الاتصال بالشيوخ و الوفود<sup>(3)</sup> و رجال الأدب و العلم و منهم:

- والده موسى بن محمد بن سعيد: لا نستطيع الحديث عن أساتذة ابن سعيد دون البدء بأبيه موسى. فلم تقتصر علاقته العلمية على التوجيه و الإرشاد فحسب، بل كان أبوه موسى أسنأذا بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة، ولعله هو أول من فكر في تصنيف الكتب، و يمكن إجمال العلاقة العلمية الوطيدة بين ابن سعيد و أبيه موسى فيما يلي<sup>(4)</sup>:

- 1- رسم له إلى حد كبير خطة كتابي المغرب و المشرق و أناط به إكمالها.
- 2- أطلعه على سائر السجلات العلمية الموجودة لدى أسرة بني سعيد و أورثه إياها سواء كانت من مؤلفاته هو أو تعود لمن سبقه.
- 3- صحبه في كثير من رحلاته و لقاءاته العلمية و أتاح له الفرصة الاستماع لكبار علماء الأندلس.
- 4- كان مثلاً حياً أمامه لتقدير العلم و احترام الجهد العلمي و التمسك بالهدف.
- 5- كان ينتهز الفرص و المناسبات لتبصير ابنه بطبع الناس و الأشياء.
- 6- سجل موسى لابنه علي نصائحه في وصية جامعة ليسير له هديها بعد مماته.

1- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص ص 61- 64.

2- المرجع نفسه، ص 84.

3- المرجع نفسه، ص 218.

4- نفسه، ص ص 154- 155.

- أبو يحيى أبو بكر بن هشام القرطبي: من أعلام النشر البارزين في عصر ابن سعيد، له أشعاراً و موشحات ذكر ابن سعيد أنه انتفع بكتبه و أدبه و محاضرتة، كما قرأ عليه أصلاً من الأصول الهامة في تاريخ الأدب الأندلسي، ألا و هو كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام<sup>(1)</sup>، و هو من أهم المصنفات الأدبية و الجغرافية في ذلك الوقت.

- الأعم البطليوسي: هو ابن إسحاق إبراهيم بن قاسم. يعو لقبه الى،، مسقط رأسه بطليوس<sup>(2)</sup>، تخرج في أشبيلية و اشتهر بقراءة كتب الأدب و له شروح في كتابي «الكامل» للمبرد و «الأمالي» للقالبي كما ألف كتاباً في آداب أهل بلده بطليوس. ذكر ابن سعيد أنه وقف على جملة من مصنفاته، و كان يجالسه و يتحدث معه فيما حل بأشبيلية من محن في ذلك الوقت<sup>(3)</sup>

- أبو علي عمر بن محمد الشلوبيني: إمام النحو في المغرب خلال عصر ابن سعيد، من أشهر مؤلفاته «شرح الجزولية»، كان من قارئى كتب الأدب الجليلة و له شعر يعده ابن سعيد في نهاية التخلف. كان ابن سعيد يحضر مجلسه بأشبيلية و كان الشاعر ابن سهل الإسرائيلي يحضر مجلسه<sup>(4)</sup>، و لا نعرف كيف تجرأ ابن سعيد أن ينقد أشعار شيخه الشلوبيني.

- أبو الحسن علي بن جابر الدباج الأشبيلي: جمع بين قراءة الأدب و الإمامة، و كان أمتن الناس ديناً حتى أن أهل أشبيلية اختاروه إماماً لجامع العدبس الذي كان مركزاً هاماً للثقافة في ذلك الوقت و تروى للدباج أيضاً بعض الأشعار و الموشحات. ذكر ابن سعيد أنه قرأ عليه مدة و روى عنه عدة كتب، و يبدو أن الدباج وجه تلميذه ابن سعيد نحو الاهتمام بتذوق الشعر أثناء دراسته لمصنفات الأدب<sup>(5)</sup>

- أبو الحسن علي المشهور بابن عصفور: لم يترجم له ابن سعيد ضمن شيوخه، لكنه أشار إلى شرحه فابن عصفور من أهل أشبيلية و يبدو أنه غادر الأندلس في وقت مبكر حيث مر بالمغرب الأقصى ثم استوطن بجاية بأفريقية و درّس بها ثم رحل إلى الحاضرة تونس حيث أصبح من خواص الأمير الحفصي المستنصر، و قد تتلمذ عليه هذا الأمير قبل توليه الخلافة سنة 647 هـ، توفي بتونس في عشرة السبعين و ستمائة<sup>(6)</sup>

1- نفسه، ص ص 154-155.

2- بطليوس: بالأندلس من إقليم ماردة بينهما أربعون ميلاً، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي بإذن الأمير عبد الله له في ذلك، فأنفذ له جملة من البناء و قطعة من المال فشرع في بناء الجامع بالطين و الطابية و بنى صومعته خاصة بالحجر و اتخذ مقصورة و بنى مسجداً خاصاً بداخل الحصن و ابنتى الحمام الذي على باب المدينة، و أقام البناء عنده حتى ابنتوا له عدة مساجد، و كان سور بطليوس مبنياً بالتراب، و هو اليوم مبني بالكس و الجندل و بني سنة 421 هـ. و من بطليوس إلى أشبيلية ستة أيام، و منها إلى قرطبة ست مراحل.

ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 93.

3- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 156.

4- المرجع نفسه، ص 157.

5- نفسه، ص 157.

6- المرجع نفسه، ص ص 158-159.

ينظر كذلك: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رايح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ص ص 266 - 268.

- الهيثم بن أحمد بن أبي غالب: وصفه ابن سعيد بحافظ أشبيلية، و قال عنه: «لم ألق بها [أشبيلية] أحفظ منه، و كان والدي يتعجب منه.»<sup>(1)</sup>

- أبو الحسن علي بن جدر: كان زجّالاً، صاحب موسى والد ابن سعيد مدة، لقيه ابن سعيد بأشبيلية<sup>(2)</sup>

### المطلب الثالث: رحلاته

انتقل ابن سعيد المغربي بين المدن الأندلسية مثل مالقة و الجزيرة الخضراء و قرمونة و ألف كتباً عنها، ثم قصد بلاد المغرب في صحبة والده و كان ذلك من ( 636 - 639 هـ / 1239 - 1242 م )، ثم انتقل إلى المغرب الأوسط حيث مدينة تلمسان، ثم المغرب الأدنى و كان في ذلك الحين تحت إمرة السلطان أبي زكريا يحيى الحفصي الذي أرسى دعائم الدولة الحفصية إثر خلافته ( 625 - 647 هـ ) و اتصل ابن سعيد ببلاطه<sup>(3)</sup> و تولى منصب قراءة المظالم عند السلطان إلا أن الوشاة زوّروا عليه الأقاويل المختلفة، فاستعطف ابن سعيد السلطان لكن ذلك لم ينفذ عنده، و سمع ابن سعيد أن أبا عبد الله محمد بن الحسين ابن عم السلطان يسعى في حقه لدى السلطان فخاف ابن سعيد من الأمر فطلب من السلطان أن يسرجه إلى الحج<sup>(4)</sup> فتخلص ابن سعيد المغربي من المكيدة التي كادت أن توقع بينه و بين السلطان أبي زكريا يحيى الحفصي. و إثر مفارقتة حدود إفريقية أخذته الحسرة بعد أن قضى فيها فترة هادئة البال رغم الدسائس و الحساد الذين وشوا به لدى السلطان، ثم اتجه ابن سعيد إلى مصر و لكننا لا نعرف الطريق الذي سلكه في رحلته أهو الطريق البحري أم البري، و لكننا نجده في الإسكندرية بصحبة والده قاصداً الحج 638 هـ / 1240 م، لكن تعذر عليه ذلك بعد أن قطع المسافات الطويلة، فبقي والده في أحد الثغور يكتب وصيته<sup>(5)</sup> و رحل ابن سعيد إلى القاهرة التي كانت آنذاك مركز الحركة الثقافية النشطة و دار السلطة، إلا أنه اضطر إلى العودة إلى الاسكندرية بسبب مرض أبيه في شوال سنة 640 هـ / 1242 م، و عاد الابن أدراجه إلى القاهرة و أجل حجه، و كانت السنوات الثلاث التي أمضاها في مصر فترة حاسمة في حياته، تميزت بفقدانه لوالده، و واجهه و لأول مرة مجتمعاً مشرقياً تختلف عاداته و تقاليدته عن طبائع أهل المغرب<sup>(6)</sup>.

1- أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج1، المصدر السابق، ص 263.

2- المصدر نفسه، ص 267.

3- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 70

4- أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، مج 2، ص ص 277- 278.

5- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 71.

6- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 94، 95.

استطاع ابن سعيد أن يكون صداقة قوية مع ابن العديم الحلبي<sup>(1)</sup> و ذكر له أخبار سلطان حلب الناصر حفيد صلاح الدين و مدى حبه للعلم و تشجيعه للعلماء، مما شجع ابن سعيد على الرحلة من جديد، و حلّ ضيفا في بلاط الملك الناصر حاملاً معه قصيدة نظمها في مدحه على عادة الشعراء، و أصبح من مجالسيه في خلواته العلمية و الشعرية، و في طريقه من القاهرة إلى حلب مرّ ببيت المقدس حيث التقى ببعض الأندلسيين كانوا في رحلة حجهم<sup>(2)</sup> و مرّ أيضاً بمدينة الخليل حيث اجتمع إلى أحد نقباء الطالبيين<sup>(3)</sup>

و من حلب رحل ابن سعيد إلى دمشق التي كانت حلماً من أحلامه منذ أن كان يلتقي بالرحّالين الأندلسيين العائدين من المشرق و قد وصفوا له جمال المدينة و روعتها، و في دمشق التقى ابن سعيد بسلطانها توران شاه المعظم و حضر مجلس خلوته، كما التقى أيضاً بأهل الأدب و العلم و نظم في منتزهاتها و ملاعبها قصائد جميلة و كانت زيارته لدمشق بين سنتي 647 - 648 هـ، لأن توران شاه الذي رثاه ابن سعيد، قتل في تلك السنة الأخيرة. و يظهر أن ابن سعيد استغل فرصة انتقاله من حلب إلى دمشق فزار في طريقه كلاً من حمص و حماه من أجل البحث عن الخزائن العلمية و صداقات جديدة و التقى بالملك الصالح نور الدين صاحب حمص الذي اقترح عليه أن يكتب له بعض الأبيات على تفاحة عنبر أراد الصالح إهداءها لابن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك الديار المصرية<sup>(4)</sup>

و من دمشق توجه ابن سعيد إلى الموصل، و بقي فيها مدة قصيرة و التقى بعدد من شخصياتها الأدبية و سجل أشعار و أخبار كثيرة، و في طريقه إلى بغداد مرّ بالحلة و جمع فيها المادة العلمية لترجمة شاعرها سحيم الحلبي، و دخل ابن سعيد رفقة الناصر داود أحد سلاطين الأيوبيين بالشام إلى الخليفة المستعصم بالله حاكم بغداد الذي سيقنتله هولاكو سنة 656 هـ، لكن ظروف المستعصم السياسية لم تكن تسمح له بالتفرغ لرحالة مغربي، إلا أن ابن سعيد استطاع أن يوطد علاقته بزعماء دولة بغداد<sup>(5)</sup>، و تمكن ابن سعيد من متابعة دراساته بمكتباتها البالغ عددها 36 مكتبة التي وصفها بحماس و إعجاب كبيرين<sup>(6)</sup>، و استطاع ابن سعيد أن يجالس زعماء الدولة ببغداد في الشعر و الأدب على نهر دجلة.

1- ابن العديم الحلبي: هو عمر بن أحمد بن أبي جرادة، يُكنى أبا القاسم و يلقب كمال الدين من أعيان أهل حلب و أفاضلهم، مؤرخ، أديب، فقيه، قاض و محدث، رحل إلى دمشق و فلسطين و الحجاز و العراق، توفي بالقاهرة (588 - 660 هـ).

ينظر: ياقوت الحموي الرومي، معجم الأديباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح إحسان عباس، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ص ص 2068-2091.

ينظر كذلك: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 5، ص 40.

2- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 96. ينظر: ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 12

3- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، تقديم حسن حُسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1981، ص ص 308-309.

4- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص ص 97-98.

5- نفسه، ص ص 98-99.

6- أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، ج 1، المرجع السابق، ص 356.

استأنف ابن سعيد رحلته حتى وصل إلى البصرة في دجلة، ثم قصد بلاد فارس و من مدنها التي زارها خلال رحلته مدينة أرجان<sup>(1)</sup>، ثم واصل رحلته إلى الحجاز و استطاع الوصول إلى مكة بعد حوالي خمسة عشر عاما من مغادرته الأندلس، و كان من الطبيعي أن يشتاق إلى المغرب بعد هذه الغيبة الطويلة، و كان لزوماً عليه خلال عودته أن يمر بالملك الناصر صاحب حلب الذي كان له نعم النصير في تلك الغيبة<sup>(2)</sup>

عاد ابن سعيد من حلب إلى تونس و لقي الترحيب الحار من أصدقائه القدامى، و كانت الإمارة الحفصية في ذلك الوقت قد توطدت و ازدهرت في عهد الحاكم أبو عبد الله المستنصر الذي ذاع صيته في حقل السياسة و العلم بالنظر لاتساع نفوذه و تشجيعه للعلم و العلماء، و يبدو أن ابن سعيد أقام بتونس أربعة عشر عاماً (652 - 666 هـ) شعر فيها بنوع من الرقابة التي لم يعتد عليها، و ربما بقيت في نفسه أمور منذ رحلته الأولى لم يستطع الوصول إليها من اطلاع على بعض المصادر و مشاهدة بعض المدن، مما أجبره على الارتحال ثانية إلى المشرق سنة 666 هـ، و هناك من المصنفين المشاركة من توهم أن ابن سعيد توفي أثناء رحلته هذه، لكنهم تأكدوا من وجوده في المشرق في تلك الفترة<sup>(3)</sup> التي شهد فيها المشرق الإسلامي الفتن بين الأيوبيين في الشام و بقايا العباسيين في بغداد بعد اكتساحها من هولاكو سنة 656 هـ/1258 م.

تملك ابن سعيد حب السفر فخرج سنة 666 هـ/1267 م في رحلة أخرى نحو الشرق فمرّ بالإسكندرية، و كانت له رغبة شديدة في السؤال عن الملك الناصر فأخبروه عما جرى له مع التتارو قتلهم له، و قد سرد ابن سعيد كلاما عن دخول هولاكو مدينة حلب و ما خلفته حملته من آثار التخريب و التدمير و الجرائم بها مما أدى إلى قتل علماء كثيرين، و ألف أشعارا تغنى بها ثم رحل إلى أرمينية، حيث دفعه فضوله ليرى بعينيه رأسه هولاكو الجبار، و في هذه المرحلة دخل ابن سعيد إيران و أوغل نحو الشرق، ثم رجع بعدها إلى تونس ما بين سنة 675 - 679 هـ في خلافة الأمير المولى أبي زكريا يحيى الواثق الذي أهدى إليه كتاب «القدح المعلى في التاريخ المحلي»<sup>(4)</sup>.

1- أرجان: يسمونها عامة العجم أرغان، مدينة كبيرة و هي بيرة بحرية بينها و بين سيارز ستون فرسخا، و بينها و بين سوق الأهواز ستون فرسخا. ينظر: أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 1، المصدر السابق، ص 142، 144.

2- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 100.

3- المرجع نفسه، ص ص 101 - 103.

4- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 73.

### المطلب الرابع: عوامل تكوين شخصيته

و الرحالة ابن سعيد هذا الرجل وسط عقد بيته، و علم أهله، و درة قومه، المصنف الأديب، العجيب الشأن في التجول في الأقطار، المتمتع بالخزائن العلمية، و تقييد الفوائد المشرقية و المغربية<sup>(1)</sup>، و هي صفات ساهمت عوامل كثيرة متداخلة في تكوين شخصيته، مما سهل له الاندماج بالناس و الظهور في المجتمعات و التفاعل مع بيئاتها الاجتماعية المختلفة إلى مدى بعيد، و من بين العوامل التي يمكن ذكرها<sup>(2)</sup>:

- **العامل الجسماني:** لا تسعفنا المصادر بوصف هيئة ابن سعيد و مظهره الخارجي، و لكن نستطيع أن نتصور ابن سعيد الفتى في صغر سنّه، الغرناطي المولد، الأشبيلي النشأة و التربية سليل الأرسنقراطية الأندلسية العريقة من أمراء و مجالسي الملوك و الشعراء و العلماء، بالإضافة إلى ذلك يبدو أن ابن سعيد كان حسن الصوت مجيدا للإلقاء، و قد تنبه إلى هذه الميزة الملك الناصر الأيوبي سلطان حلب في أول لقاء شخصي معه.

- **بيئته العائلية و شخصية والده:** انحدر ابن سعيد من أسرة أندلسية عريقة من أصل عربي معروف، و كان أجداده من الشخصيات المرموقة في عهدي المرابطين و الموحدين، فمنهم من كان وزيراً أو شاعراً أو البحاثة المصنف، و قد فتح ابن سعيد عينيه و قرأ تاريخ أسرته السياسي و العلمي و هذا ما دفعه لمواصلة العمل فنظر إلى أبيه أقرب أفراد أسرته الذي لمس فيه الميل الأدبي فشجعه و كوّن لديه الإحساس بالمسؤولية منذ سن مبكرة.

- **بيئة أشبيلية الاجتماعية و الثقافية:** تأتي البيئة الاجتماعية بعد البيئة العائلية، و لقد قضى ابن سعيد سنوات شبابه في أشبيلية التي كانت تميزت بجوها الطبيعي و مبانيها الأنيقة و لطف سكانها و أخلاقهم العالية، و خصب الحياة الثقافية فيها و كونها المركز الأكبر للعلم و السياسة في الأندلس آنذاك.

- **ثقافته العامة و علاقتها بشخصيته:** كان للعوامل المكونة لشخصية ابن سعيد بعضها ببعض أثر كبير في تشكيل ثقافته و بلورتها، فالبيئة الأندلسية الغنية بمقومات الثقافة ساهمت في إطلاعه على آفاق المعرفة السائدة، و يمكن أن نلمس ثقافة ابن سعيد في نواح عدة من خلال آثاره و شخصيته و منهج تفكيره.

- **كثرة اتصالاته و رحلاته:** جال ابن سعيد المغربي أقطار كثيرة مختلفة في مظاهرها الطبيعية و العمرانية و احكتكَّ بشعوب مختلفة الطبائع و الملامح و الأسماء، قد أكسبته رحلاته و اتصاله بالعالم المحيط به خبرة فريدة في التأليف في علم الجغرافيا.

1- العباس بن إبراهيم السُمّالي، الإعلام بمن حل مراکش و أغمات من الأعلام، ج 9، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1993، ج 9، ص 159.

2- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص ص 110 - 124.

### المطلب الخامس:وفاته

وردت روايات مختلفة حول زمان و مكان وفاة ابن سعيد المغربي، فالمقري نقل عن ابن الخطيب أوثق من يمكن أن أرخ لابن سعيد أنه توفي بتونس في حدود 685 هـ/1285م<sup>(1)</sup>، وهي نفس الرواية التي ذكرها ابن فرحون<sup>(2)</sup>، و ذكر أيضا المؤرخ المصري جلال الدين السيوطي ما رواه ابن فرحون و ابن الخطيب<sup>(3)</sup>، غير أن بعض المؤرخين المشاركة و على رأسهم ابن شاکر الكتبي جعل دمشق مكان الوفاة و سنة 673 هـ زمانها، و اتفق معه ابن تغزي في مكان الوفاة و حدد تاريخ الوفاة بيوم السبت 11 شعبان 673 هـ، و يبدو أن الرواية الأولى هي الأقوى من حيث قوة المصادر<sup>(4)</sup> و قد تكون حالة الترحال التي عاشها ابن سعيد من الأسباب التي صعبت على المؤرخين تحديد تاريخ و مكان وفاته.

1- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب...، المصدر السابق، مج 2، ص 274.

ينظر كذلك:العباس بن إبراهيم السملالي، المصدر السابق، ج 9، ص 161.

2- إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح علي عمر، مج 2، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2003، ص 102.

3- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 1، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1968، ص 555.

4- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص ص 105- 106.

### المطلب الأول: مولده ونشأته

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري صاحب الرحلة، تكون ولادته حوالي سنة (643 هـ/ 1245 م)<sup>(1)</sup>، فالعبدري الحاحي ينتمي إلى بلاد حاحا جنوب المغرب الأقصى، و من المؤلفين من يقول الحاحي، و منهم من يقول الحيجي<sup>(2)</sup> و ينسب إلى عبد الدار و اسم العبدري مرتبط ببلنسية من حيث أصل أسرته و بالصويرة (على مقربة من مغادور) بمراكش من حيث سكنى هذه الأسرة، و لعل ذلك كان في طفولة العبدري أو صباه<sup>(3)</sup>

و قد أهمل ذكر العبدري في المصادر القديمة، فلم يشر إليه أحد من القدماء و لم يخصه مؤلف بترجمة وافية، رغم كثرة النقل عن رحلته التي اشتهر بها و الاستفادة مما ورد فيها، لذلك كانت رحلته هي المصدر الوحيد، اعتمد عليه كل من ترجم أو استفاد من معلوماته<sup>(4)</sup>. و رغم وجود كُتُب الطبقات و التراجم و الفهارس إلا أننا لا نكاد نعلم عن سيرة العبدري إلا القليل، فقد ترجم له أحمد ابن القاضي المكناسي في جذوة الاقتباس، ترجمة لا نكاد تعكس شخصية العبدري لكونها مختصرة جداً لم يتناول فيها تاريخ ولادته و وفاته و حتى نشأته<sup>(5)</sup>، و هي لا تعكس المقام اللائق لشخصيته.

أشار الكتاني صاحب «فهرس الفهارس» إلى العلامة المحدث المسند الرحالة العبدري المعروف بأبي البركات في حاحة، و روى «فهرسة العبدري» من طريقين مختلفين<sup>(6)</sup>، و لا نظن أنه عنى بالفهرسة الرحلية، لأنه ضرب من التأليف يختلف بيناً عن التأليف في الرحلات<sup>(7)</sup>، بينما نرى رحلة العبدري تتعدى ذلك فهي تتناول شيوخ تتلمذ عنهم، أو سمع منهم و مشاهدات متنوعة عن جوانب و مجالات مختلفة.

و يبدو أن الأمر اختلط عند خير الدين الزركلي صاحب موسوعة الأعلام عندما جعل للرحالة العبدري ترجمتين مختلفتين<sup>(8)</sup>، و من جهة أخرى لا ينبغي الخلط بين العبدري صاحب الرحلة المغربية و بين أبي بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي<sup>(9)</sup> الذي تميز بمؤلفات عديدة و أشعار كثيرة، لكنه يبدو لم يشتهر بالرحلة أو التأليف فيها.

1- أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 7-8.

ينظر كذلك: العباس بن إبراهيم السملالي، المصدر السابق، ج 4، ص 287.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج 1، الهامش 1، ص 81.

3- نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 170-171.

4- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 173.

5- أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج 1، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1973، ص 286-288. ينظر كذلك: أغناطيوس يوليانيوتش كراتشكوفسكي، ج 1، المرجع السابق، ص 367.

6- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، المصدر السابق، ج 2، ص 809.

7- أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 9.

8- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 7، ص 32.

9- محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري: المفسر و الفقيه و الأديب و صاحب شرح أبيات الإيضاح للفارسي، و شرح مقامات الحريري، و شرح معشراته الغزلية، و مكفّراته الزهدية، و شرحان على الجمل للزجاجي في النحو الكبير و الصغير، توفي سنة 567 هـ

ينظر: إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون، المصدر السابق، مج 2، ص 265-266

و إذا كان كل من ترجم للعبدري بعد ابن القاضي اعتمد على رحلته في استخلاص ما تعلق بحياة صاحبها و مستواه العلمي و مكانته في عصره فإنه وقع الكثير من الخلط و الارتباك في هذه التراجم لأن المؤلف في هذه الرحلات أن أصحابها لا يهتمون غالباً بشؤونهم و أوضاعهم في رحلاتهم، لأن الاهتمام ينصب على كل ما يشاهدونه في الرحلة، و ما يجدون في طريقهم من رواية أو استماع، أو إجازة، أو شعر... الخ، مما يجعل الرحلة قاصرة عن إعطاء صورة واضحة عن مستوى صاحبها في الثقافة و العلم، لهذا وقع التضارب بين الذين ترجموا العبدري<sup>(1)</sup>، لكن ابن عبد الملك المراكشي أشار إلى عدد من أصحابه في كتابه «الذيل و التكملة»، و كان يقصد بهم أقرانه الذين اشتركوا معه في الأخذ و الرواية عن الشيوخ، فمنهم العبدري صاحب الرحلة<sup>(2)</sup>، فقد وصفه العبدري «بصاحبنا الفقيه الأديب الأوحده»<sup>(3)</sup>، و يعني هذا أن العبدري عاصر ابن عبد الملك المراكشي و كان يجمعهما اتصال الوثيق.

اشتهر العبدري بابن المعلم لأن والده كان معلماً و لا نعرف من أحداث حياته إلا ما أشار إليه في ثنايا رحلته<sup>(4)</sup>، و هناك اختلاف بين الذين ترجموا للعبدري في موطنه، هل هو من من بلنسية أو حاحة أو مراكش أو من فاس، كما نجد اختلاف في تحديد تاريخ ولادته و وفاته، و ينفرد شوقي عطا الله برأي هو أن العبدري من مواليد فاس و زوجته هي التي تنتمي لإحدى قبائل حاحة، و يبدو هذا غريب، إذ لم يشاطر هذا الرأي أحد<sup>(5)</sup>، و مما لا شك فيه أن محمد العبدري عربي مغربي صميم رحالة خدم علم الجغرافية برحلته<sup>(6)</sup> من خلال المعلومات التي دونها عن المواقع الجغرافية، و المعالم الأثرية و عادات سكان البلاد التي مرَّ بها.

و يتكرر الاختلاف في كنيته «أبو محمد أبو عبد الله»، و وضَّح الأستاذ الفاسي هذا التضارب و بيَّن أن كُنْيته هي أبو عبد الله و اسمه محمد، و هذا ما ورد في غالب النسخ المخطوطة الموجودة في رحلته، و ربما يرجع هذا الخطأ لكونه يلقب كذلك بإبن الحاج العبدري الفاسي<sup>(7)</sup>، و ظنَّ البعض أن هذا الابن كان يرافق أباه في هذه الرحلة، استناداً إلى النصوص التي ضمنها وصاياه و نصائحه له<sup>(8)</sup>، و قد يكون سبب هذا الخلط هو الرِّحْلَة التي صَعَّبَت التمييز بينهما، و كلمة «العبدري» المشتركة بينهما.

1- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 174.

2- محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، السفر الثامن من كتاب الذيل و التكملة، تح محمد بن شريفة، القسم 1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، ص 42.

3- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 302.

ينظر كذلك: العباس بن إبراهيم السَّمْلالي، المصدر السابق، ج 4، ص 287.

4- عمر فرُّوخ، تاريخ الأدب العربي، ج 6، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص 401.

5- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص ص 83- 84.

6- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 192. ينظر كذلك:

Jean-Charles ducène, la situation du Maghreb au travers de la relation de voyage d'AL-ABDARI (VIIe/XIIIe S), CRAI (Comptes rendus des séances de l'Académie) 2012, p 682.

7- محمد بن الحاج العبدري: فقيه صوفي، كنيته أبو محمد و هو صاحب (المدخل)، من أهل مدينة فاس، توفي سنة 737 هـ. ينظر: أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تح محمد الأحمدى أبو النور، ج1، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص 228.

8- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 84.

## المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

لا يذكر العبدري شيئاً عن دراسته الأولى، و لا تقدم لنا المصادر معلومات كافية عن بداية تكوينه الثقافي، و لا يُستبعد أن يكون تتلمذ على والده المعلم، و دخل الكُتّاب كما كانت العادة في حاحة فحفظ القرآن، و تعلم على طريقة التدرج من حفظ المتن، و تعلم الحساب، ثم ارتقى إلى أن أصبح من طلاب العلم، عندما انتقل إلى مراكش التي كانت آنذاك مركزاً علمياً مرموقاً، فأخذ عن مجموعة من علمائها أمثال محمد بن علي بن يحيى الشَّريف الفقيه، قاضي الجماعة بحضرة مراكش، الذي كان شيخه و شيخ صاحبه ابن عبد الملك المراكشي<sup>(1)</sup>

و إذا لم تسعنا كُتب التراجم و الأخبار بتفصيل عن حياة العبدري، فإنه لا يخفى علينا معرفة البيئة الثقافية و العلمية التي نشأ فيها، فالرحالة العبدري من عائلة علم و أدب و تدريس، حيث ورد في ترجمة أبيه في أحد مخطوطات الرُّحلة بالرباط بأنه الشيخ الصالح الخطيب. أما أخوه يحيى الذي صاحبه في رحلته فهو من أهل العلم<sup>(2)</sup>، فقد قرأ العبدري رفقة أخيه في تونس على الشيخ الصالح أبو العباس أحمد البطراني<sup>(3)</sup>، و حصل منه على الإجازة العلمية<sup>(4)</sup>، و استفاد الرحالة العبدري من شيوخ و أعلام كثيرون.

كان يحيى أخه الذي رافقه في رحلته، هو الآخر من أهل العلم لكنه لم يكن في مستوى العبدري صاحب الرحلة لأنه لا يوجد له ذكر في المناقشات و المواقف المختلفة، لكن من خلال إشارتين وردتا في الرحلة يتبين أنه كانت له مشاركات علمية أبدى فيها وجهة نظره و آرائه فيها<sup>(5)</sup>، فلا يعقل أن يكون لأخيه يحيى آراء في مسائل علمية دون إطلاع عليها، و هذا يدل على أن يحيى نشأ هو الآخر في بيئة علمية.

أفاد العبدري من تنوع مشايخه، و تنوع مشاربهم الثقافية، مما أهله إلى إتقان فنون كثيرة، ظهرت واضحة في رحلته التي بدأ فيها المؤلف حافظاً للقرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف، مطلعاً على الأدب العربي نثره و شعره، و خطبه و رسائله، عارفاً بأيام العرب و غزواتهم، و خطبائهم من الفصحاء، كما كان على دراية كبيرة بالأسماء و الألقاب و الكنى، و أسماء الأماكن و ضابطاً لمصطلحات علوم الأدب و البلاغة و العروض<sup>(6)</sup>

1- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 8.

ابن عبد المالك المراكشي: هو محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي الأنصاري الأوسي، مؤرخ و قاض و أديب، مفتى مقرئ، مولده ليلة الأحد 10 ذي القعدة 634 هـ، توفى سنة 703 هـ و دفن بتلمسان. ينظر: العباس بن إبراهيم السَّمْلالي، المصدر السابق، ج 4، ص 355-356. ينظر كذلك: إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون، المصدر السابق، مج 2، ص 305.

2- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 84-85.

3- أبو العباس أحمد البطراني: هو أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي الفتح الأنصاري البطراني: الفقيه، المقرئ، الأستاذ الراوية المكثر من أهل تونس، ضرير البصر، دين، صالح، مُعْتَن بالعلم و الرواية، مواظب على أفعال الخير. توفي يوم السبت 20 ربيع الأول 710 هـ. ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 557.

4- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 180.

5- المرجع نفسه، ج 1، ص 180.

6- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 8.

### المطلب الثالث:رحلته

قام العبدري برحلته في الخامس و العشرين من ذي القعدة عام ثمانية و ثمانين و ستمائة، و مبدؤها من حاحة في اتجاه بلاد القبلة<sup>(1)</sup> و كان عندها في مقتبل عمره عندما قال له شيخه أبو زيد الدبّاغ<sup>(2)</sup>: «أنت أولى بها منّي، فإنّي شيخٌ على الوداع، و أنت في عنفوان عمرك، و من حين رأيتك انغرزَ حُبُّك في قلبي»<sup>(3)</sup>، فإذا افترض أنه كان أنذاك في الخامسة والأربعين، بدليل قوله عن ابن خميس التلمساني<sup>(4)</sup> الذي كان - حين لقبه بتلمسان في الثامنة و الثلاثين من عمره بأنه «فتيّ السن»<sup>(5)</sup>، و يبدو أن الرحالة المغاربة كانوا يحبذون الرحلة في سنّ الشباب أو الكهولة لتحمل مصاعب الرحلة.

كان من وراء رحلة العبدري سببان حملاه على المُضي فيها، الأول ديني تمثل في القيام بفريضة الحج و زيارة الأماكن المقدسة، و الاتصال بالمتصوفة و الصّالحين.و الثاني هو رغبته في لقاء المشايخ و الأخذ عنهم، و كانت رحلته ذات هدف مزدوج كمعظم الرحلات الحجازية.أما مدة الرحلة فيبدو أنها استمرت أكثر من سنتين<sup>(6)</sup>.

### المطلب الرابع:وفاته

وردت اختلافات بين المؤرخين حول تاريخ وفاة الرحالة العبدري، بل نجد منهم من لم يقف عند تاريخ وفاته<sup>(7)</sup>، فقد قدّره عمر فرُّوخ أن تكون نحو سنة (725 هـ/1325 م)<sup>(8)</sup> و ذكر صاحب معجم المؤلفين أن العبدري كان حياً سنة (688 هـ/1289 م)<sup>(9)</sup>، و هناك من يرى أن العبدري مجهول تاريخ الميلاد و الوفاة، و يحتمل أن تكون وفاته قريبة بعد عودته من المشرق لأنه لو عمّر طويلاً لظهرت له مؤلفات قيمة و مشاركات في العلوم التي أبدع فيها<sup>(10)</sup>، لكن أغلب الظن أن وفاته كانت بعد سنة (700 هـ/1300 م)<sup>(11)</sup>، و مهما يكن الأمر فإن العبدري يبقى من أشهر الرحالة المغاربة الذين عاشوا خلال القرن 7 هـ/13 م و خلفوا آثاراً واضحة في فن الرحلة و آدابها.

1- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 40.

2- أبو زيد الدبّاغ: الفقيه، المحدث، الرّواية المتقنّ، و هو عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري الأسيدي من ولد أسيد بن حُضير الصحابي الجليل رضي الله عنه. ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 164.

3- المصدر نفسه، ص 164.

4- ابن خميس التلمساني:(نحو 645 - 708 هـ/1247 - 1309 م) أبو عبد الله محمد عمر بن محمد بن عمر الحجري الرعيّني، شاعر فحل، عالم بالعربية، ولد بتلمسان، و بها نشأ و أخذ عن مشيخها، ولاه السلطان أبو سعيد بن يغمراسن ديوان الإنشاء و أمانة سرّه.

ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر، بيروت، لبنان، ط 3، 1983، ص 135.

5- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص ص 7- 8.

6- المصدر نفسه، ص ص 10- 11.

7- ينظر: أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس...،المصدر السابق، ج1، ص 288.

ينظر كذلك:محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع،( د ت)، ص 217.

8- عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج6، ص 402.

9- عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ص 658.

10- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 118.

11- المصدر نفسه، ص ص 7- 8.

### المطلب الأول: مولده ونشأته

هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي النميري، و يُعرف بابن الحاج الغرناطي<sup>(2)</sup>، نسبة إلى مسقط رأسه غرناطة. و شهرتهم بنو أرقم الواد يآشيون و كان سكناه بجهة وادي آش<sup>(3)</sup> و لقومه اختصاص ببعض جهاتها، و كان جده الأقرب إبراهيم رجلاً خيراً، كتب للرؤساء من بني شقيلولة عند انفرادهم بوادي آش و اختص بهم. كان مليح الدعابة طيب الفكاهة<sup>(4)</sup> أجمع جلاً من مترجميه على أن ولادته كانت في سنة 713 هـ/ 1313 م باستثناء مؤلف واحد هو الصفدي صاحب الوافي بالوفيات الذي قدمها بسنة واحدة و أرجعها إلى سنة 712 هـ/ 1312 م، و ذلك على أثر اجتماعه به سنة 738 هـ/ 1338 م بالقاهرة في طريقه إلى الحج فسأله عن مولده و أفاده بسنته الحقيقية هذه<sup>(5)</sup> ثم أنشده أبياتاً شعرية كون ابن الحاج كان مولعاً بالشعر.

قال عنه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة: «نشأ على عفاف و طهارة... و بلغ الغاية في إجادة الخط، و حاضر بالأبيات، و أرسم في كتابة الإنشاء عام أربعة و ثلاثين و سبعمائة، مُستحقاً حسن صحة، و براءة خط، و جودة أدب، و إطلاق يد، و ظهور كفاية، و في أثناء هذا الحال، يُقيد و لا يفتر، و يروي الحديث... مشتملاً على الطهارة... كان مليح الدعابة، طيب الفكاهة، أثر للشرق فانصرف عن الأندلس في محرم عام سبعة و ثلاثين و سبعمائة... فحجَّ و تطوّف، و قيّد و استكثر، و دون رحلة سفره،... و قفل إلى إفريقية، و كان علق بخدمة بعض ملوكها فاستقرَّ ببجاية لديه، مضطعاً بالكتابة و الإنشاء، ثم انتقل إلى خدمة سلطان المغرب...»<sup>(6)</sup> و صاحب أبي عنان المريني في رحلته إلى قسنطينة و الزاب.

و قال عنه أيضاً في الكتيبة الكامنة: «نار على علم، و بدر في ظلم... أحميا من آثار السلف ما سلف، و وجبت عليه اليمين أنه الذخر الثمين فحلف، ما شئت من لسان ثرثار، و بحر نظام و نثار، و جواد يقتحم كل نقع مثار، غير مبال بعثار، إلى خط و شارة، و إفصاح و إشارة، و أبهة تقيد الطرف، و تستبعد الظرف، و تستتبع الشذا و العرف، رحل و الشباب ضافي الأذيال... و طلع على جهته المغربية طلوع الصباح السافر...»<sup>(7)</sup>

1- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 49.

2- أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب...، المصدر السابق، مج7، ص ص 108- 110.

3- وادي آش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة تطرد حولها المياه و الأنهار، و هي كثيرة التوت و الأعناب و أصناف الثمار و الزيتون، و القطن بها كثير، و كان بها حمامات، ولها بابان شرقي على النهر و غربي على خندق، و قصبتها مشرفة عليها، و عليها سور حجارة، و هو في ركنها الذي بين المغرب و القبلة. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 604.

4- أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ج1، ص 91.

5- صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي، المصدر السابق، ج 6، ص ص 28- 29.

6- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ص ص 343- 344.

7- لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ص 260.

و يبدو أن عدم الاستقرار السياسي الذي عرفه المغرب الإسلامي بين الحين و الآخر، كان من وراء ارتحال ابن الحاج النميري بين الأندلس و المغرب و المشرق من جهة أخرى رغبة منه في أداء فريضة الحج ككل المغاربة و الأندلسيين.

### المطلب الثاني: مراحل حياته

كانت حياة ابن الحاج النميري حافلة بالأعمال و الجهود العظيمة، و الطموح و الإرادة القوية، و الرغبة الملحة في التحسن الدائم كما فعل أباه و أجداه و سائر أفراد عائلته، و بالرجوع إلى أعماله و الوظائف التي شغلها، و كانت حياته مليئة بالتقلبات و التطورات السياسية في سائر أقطار المغرب الإسلامي، و تميّزت حياته بالمراحل التالية<sup>(1)</sup>:

- 1- مرحلة الشباب: من 712 هـ/1312 م إلى 734 هـ/1334 م و هي المرحلة التي استكمل دراسته فيها، و حصل في نهايتها على درجة كاتب ديوان أبي الحجاج يوسف الناصري.
- 2- ابن الحاج في الشرق لأداء فريضة الحج حوالي سنة 737 هـ/1337 م. قضى بالديوان المذكور ثلاث سنوات انصرف على أثرها إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج.
- 3- ابن الحاج في خدمة بني حفص بقسنطينة (أبي عبد الله ابن أمير المؤمنين أبي يحيى الفضل) 739 هـ، و أبي زيد عبد الرحمن و الأمير الفضل (739 - 740 هـ)
- 4- ابن الحاج في خدمة بني مرين (أبي الحسن المريني 743 - 747 هـ)
- 5- ابن الحاج مرة أخرى في الشرق لأداء فريضة الحج حوالي سنة 747 هـ
- 6- ابن الحاج مرة أخرى في خدمة بني حفص، و بصفة خاصة الأمير أبي عبد الله محمد 750 - 752 هـ
- 7- ابن الحاج في العباد بتلمسان في خلوته 752 - 757 هـ
- 8- ابن الحاج في خدمة بني مرين (السلطان أبي عنان ثم أبي زيان السعيد 757 - 758 - 760 هـ)
- 9- ابن الحاج في خدمة بني نصر محمد الخامس العلي بالله سفيراً و قاضياً إلى أن فارق الحياة بعد سنة 774 هـ.

و من خلال مراحل حياة ابن الحاج النميري يتبين أنه تقلد وظائف سياسية هامة في الأندلس و المغرب الإسلامي، من شأنها أن تشغله و تصرفه عن الاهتمام بالتأليف و التدوين، لكنه استطاع أن يترك مصنفات كثيرة و متنوعة.

1- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص ص 26-27.

### المطلب الثالث: تعليمه و شيوخه

روى ابن الحاج النُميري عن مشيخة بلده (غرناطة) و استكثر، و أخذ في رحلته عن ناس شتى<sup>(1)</sup> و اكتسب ثقافة عربية إسلامية عميقة، واسعة و متنوعة غلب عليها طابع المشاركة و الموسوعية. ثقافة أصولية و فروعية و حديثة و لغوية و منطقية و تاريخية إلى غير ذلك من جوانب المعرفة المتعددة و المجتمعة في شخصية ابن الحاج نفسه أو شخصيات أخرى كابن الخطيب و ابن مرزوق و ابن خلدون، و رغم موسوعيته و تضلّعه في العلوم فابن الحاج النُميري ذو ثقافة أدبية ممتازة راقية، عُرف و تميّز بها<sup>(2)</sup>، و أصبح في زمانه من الأديباء و الكتّاب المشهورين بالأندلس و بلاد المغرب.

1- أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، مج7، ص 109.

ينظر كذلك: محمد بن محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ص 229.

2- ابن الحاج النُميري، المصدر السابق، ص 39. ينظر كذلك: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، مج1، ص 346.

## المطلب الرابع: رحلاته و المهام التي كلف بها

ارتسم ابن الحاج النُميري في كتاب الإنشاء سنة 734 هـ/1334 م، مع حسن سمت، و جودة أدب و خط، و ظهور كفاية، يقيد و لا يفتر<sup>(1)</sup>، تقدم للكتابة حين وفد على الحضرة باستدعاء من مدينة قسنطينة، و كان كاتباً للأمير أبي عبد الله ابن الأمير أبي يحيى<sup>(2)</sup>، رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج و أخذ في رحلته عن أئمة كالذهبي<sup>(3)</sup> و البرزالي<sup>(4)</sup> و المزي<sup>(5)</sup> و غيرهم<sup>(6)</sup> و عاد إلى إفريقية فخدم بعض ملوكها و استقر ببجاية، ثم خلص للسلطان أبي عنان المريني، فنقدم لمشيخة الكتابة و كتابة السر عندما تأخر كاتبهم الفقيه القاسم بن رضوان<sup>(7)</sup>، ثم انتهى قفلاً إلى الأندلس فاستعمل في السفارة إلى الملوك و ولى القضاء. و ركب البحر من المرية سنة 768 هـ/1367 م رسولا من قبل محمد الخامس ابن الأحمر سلطان غرناطة إلى السلطان أحمد بن موسى الزياني صاحب تلمسان، فلما وصلت سفينته إلى مقربة من وهران تعرض لها أسطول القرصنة فاستولى الفرنج على المركب و أسروه مدة سنّة عَشْرَ يَوْمًا، ففداه سلطان غرناطة بمال كثير<sup>(8)</sup> أو قد يكون أرسل له أسطولاً فخّصه من أسره.

شغل ابن الحاج النُميري منصب الكتابة و وظائف سياسية (سفارة الملوك) و أصبح ذو خبرة، وصفها ابن الخطيب: «كتب عن الملوك و كتم، و طبع و ختم، ثم قفل قفول اللواء الظافر، بالغنم الوافر، و طلع على جهته المغربية طلوع الصباح السافر و استلقى صريح، اعتبار، متحمل روايات و أخبار، و فجر المشيب قد فضح ليله، فمال ميله، و احتشد البياض رجله و خيله، و هو يدافع بزنج الخضاب سيله، حتى نال منه نيله، مهدت لقدمه فراش التجله، و نظمته في سلك القضاة الجلة، و أدبه طم و رم، و حدث و هم، معمل التخير، يرمي بالتحير، لكثرة عيونه، و غزارة عيونه، و تعدد فنونه، و تعاقب زهره و جونه...»<sup>(9)</sup>

- 1- أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، مج7، ص 109.
- ينظر كذلك: محمد بن محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ص 229.
- 2- العباس بن إبراهيم السُمّالي، المصدر السابق، ج 1، ص 178.
- 3- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي (673 - 748 هـ/1274 - 1348 م): إمام الحفاظ زينة المحدثين و إمامهم الحكم العدل في الجرح و التعديل. ألف مؤلفات عظيمة في سائر فنون الحديث و علومه. ينظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، المصدر السابق، ج 1، ص ص 417-421.
- 4- أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني البرزالي (738 - 841 هـ/1337 - 1438 م): فقيه تونس و مفتيها، قيرواني النشأة و الأصل. ينظر: أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي البرزالي، فتاوى البرزالي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين و الحكّام، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ج 1، ط 1، 2002، ص ص 5-7.
- 5- جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف الفضايعي (654 - 742 هـ/1256 - 1341 م): نشأ بالمزة قرب دمشق و حفظ القرآن و تفقه، ثم أقبل على الحديث و برع في علومه. ينظر: أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، كتاب تذكرة الحفاظ، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دت)، ص 1498.
- 6- محمد بن محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ص 229. ينظر كذلك: أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، مج 7، ص 110.
- 7- العباس بن إبراهيم السُمّالي، المصدر نفسه، ج 1، ص 178.
- 8- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 1، ص 49. ينظر كذلك: عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج 6، ص 484.
- 9- لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة...، المصدر السابق، ص 260، 261.

و يبدو أن ابن الحاج النُميري كان كثير الخدمة في دواوين دول الأندلس و المغرب، و قد تحدث عبد الرحمن بن خلدون في رحلته عن المهام التي كُلف بها ابن الحاج النُميري: «و أفرد ابن رضوان بالكتابة، و جعل إليه العلامة، كما كانت لأبي عمرو، فاستقلَّ بها، موَفَّر الإقطاع، و الإسهام، و الجاه، ثم سَخِطه آخر سبع و خمسين، و جعل العلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مَدَّين، و الإنشاء و التوقيع لأبي إسحاق إبراهيم ابن الحاج الغرناطي»<sup>(1)</sup>

### المطلب الخامس: صفاته الجسمية و الخلقية

لم تزودنا المصادر التاريخية القليلة أو غيرها بما من شأنه أن يطلعنا على بنية ابن الحاج النُميري الجسمية، من وصف لقامته و ملامح وجهه، و لون بشرته و صحَّته و مناعة بدنه، أو ضعفه أو نحالة جسمه، و مظهره الخارجي، و حتى ابن الخطيب الذي يعتبر من أصدقائه الأوفياء الذي احتك به احتكاكاً خاصاً، و كان شديد الاهتمام بسائر جوانب شخصيته، لم يعرِ هذه الناحية العناية الكافية رغم أنه أفادنا ببعض المعلومات المتعلقة بأخلاقه، و ملابسه: فهو عفيف، نبيل - أبيّ، مترفع عن الدنيا، و قور يسعى إلى كسب المجد و الجاه و الفضل عن طريق العلم و السلوك الحسن و خدمة الأمراء و الملوك<sup>(2)</sup>، فعاش في بلاطهم و ربما اكتسب و قلَّد عاداتهم.

كان ابن الحاج النُميري حَسَن المنظر و الهيئة، جميل الوجه حسن الشارة، يرتدي أفخر الملابس، شديد العناية بمظهره الخارجي، فيبدو متأنقاً متألِّفاً، له سلوك الأدباء الظرفاء ذوي الحشمة و الوقار رغم ما يوحون به من لهو و عبث و استهتار. و تحدث عنه ابن الخطيب قائلاً: «كان صدرًا من صدور النظر و أعيانه... مع الترخيص للباس الحرير و الخضاب بالسواد و مصاحبة الأبهة و الحرص على التجلَّة»<sup>(3)</sup>، لكن صاحب نفح الطيب يذكر أن ابن الحاج النُميري انقطع زاهداً و عاكفاً بتربة الشيخ أبي مدين<sup>(4)</sup> الغوث بتلمسان قصد الابتعاد عن خدمة الملوك و هموم السياسة.

و من خلال رحلته «فيض العُباب و إفاضة قدام الأداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب» يتضح لنا في سلوكه هو رزاقته و ثباته و استقرار طبعه و هدوءه و أنزَان وجدانه و محافظته على توازن و أنسجام شخصيته بصفة عامة، فهو ليس من النفوس الشديدة الانفعال السريعة التأثير بأدنى العوامل فتفرح و تغضب، و تندفع و تخرج عن الجادة ثم تتطفئ و تتراجع فتهدأ إلى حين. و ليس من النفوس الداخلية الباطنية التي تتحرك و لا تتزعج، و لا تقلق و لا تتسرَّع إلا بعد جهد و انتظار، إذ لم يبد منه أثناء رحلته ما يخلُّ بهذا التوازن و الانضباط لا في الطبع و لا في الأخلاق. و لم يكن له ردود فعل تتم عن حقد مكين أو ضغينة دفينية، و لم يشذ عن هذه القاعدة إلا نادراً و في ظروف خاصة لم يستطع فيها كبت عواطفه و إخفاء سخطه، و السكوت عن منكر شنيع أرتكب بمحضره و جريمة تسببت في قتل شخصيات كثيرة كانت شديدة

1- ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 56.

2- ابن الحاج النُميري، المصدر السابق، ص 35.

3- المصدر نفسه، ص ص 35-36.

4- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج7، ص 109.

ينظر كذلك: محمد بن محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ص 229.

الوفاء لسيده السلطان أبي عنان الذي خفي عنه الأمر<sup>(1)</sup>، و هذا يعكس تلك المؤامرات التي جيكمت ضد شخصيات هامة كان مبتغاها التخلص منها، و قد يكون ابن الحاج النميري نفسه تعرض إليها لكنه استطاع أن يفلت منها نظراً لخبرته و مكانته المميزة.

برهن ابن الحاج النميري أثناء رحلته عن جَد و قوة و صبر و صمود و مجاهدة و مناعة بدنية و صحة جيدة. فتحمل شدة العطش في تنقلاته عبر صحراء الزاب و صحراء أفريقية، و تعرض للرياح و العواصف الهوجاء و السيول الجارفة، و سهر الليلي، و تحمل الأهوال، و تعرض للأخطار، و تغلب على الصعاب، فكان صبوراً صامداً، على أتم الاستعداد و كان أيضاً يميل إلى التصوف و المتصوفة و التعاطف مع علماء الحقيقة أسوة بعلماء الشريعة<sup>(2)</sup>

### المطلب السادس: وفاته

تناولت مصادر كثيرة ترجمة لحياة ابن الحاج النميري لكن بعضها لم يحدد تاريخ وفاته<sup>(3)</sup>، و يذكر صاحب النور الزكية أنه لم يقف على وفاته<sup>(4)</sup>، و حدد صاحب المنهل الصافي تاريخ الوفاة بـ 765 هـ/1363 م<sup>(5)</sup>، بينما حدده الزركلي بـ 768 هـ/1367 م<sup>(6)</sup>، غير أن الدكتور محمد ابن شقرون محقق رحلة «فيض العُباب و إفاضة قذاح الأداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة و الزاب» ذكر أن ابن الحاج النميري فارق الحياة بعد سنة 774 هـ/1373 م<sup>(7)</sup> و لم يحدد بتاريخ عينه، و ما يلفت الانتباه أن المصادر و المراجع ركزت بشكل واضح على أعمال ابن الحاج النميري و أشعاره.

- 1- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص ص 36-37.
- 2- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص38.
- 3- ينظر: صلاح الدين خليل بن ابيك الصفي، المصدر السابق، ج 6، ص ص 28-29.
- أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، مج7، ص ص 108-133.
- أحمد بابا التبتكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط 1، 1989، ص ص 46-47.
- لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة...، المصدر السابق، ص 260-269.
- العباس بن إبراهيم السملالي، المصدر السابق، ج 1، ص 178.
- 4- محمد بن محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ص 229.
- ينظر كذلك: أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ج1، ص 96.
- 5- يوسف بن تغرى بردى الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن، المنهل الصافي و المستوفى في بعد الوافي، تح محمد أمين، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص 96.
- 6- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 49.
- 7- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 27.

### المطلب الأول: مولده ونشأته

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد، بن عبد الله، بن عبد الله، بن سعيد، بن علي، بن أحمد، السلماني، نسبة إلى سلّمان، و هي بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية، و كانت أسرة ابن الخطيب إحدى هذه القبائل، و من اليمن وفدت الأسرة إلى الأندلس، حيث اتخذت قرطبة مقراً لها<sup>(1)</sup> إذ كانت قرطبة من الحواضر المهمة بالأندلس.

هاجرة أسرة ابن الخطيب إلى طليطلة عام 202 هـ/817 م، و هو العام الذي حدثت فيه ثورة أهل الرض بقرطبة، ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام، حيث حرّض الفقهاء أهل الرض ضد الأمير، غير أن الحكم استطاع أن يقضي على الثورة في موقعة الرض المشهورة، و شتت شمل القائمين بها، ونفى و شرد بعضهم، و غادر قرطبة جمهور من المعارضين و العلماء، كان من بينهم أسرة ابن الخطيب، حيث قصدت طليطلة و مكثت بها نحو قرن و نصف، ثم نزحت بعدها إلى مدينة لوشة<sup>(2)</sup> مسقط رأس ابن الخطيب في 25 رجب 713 هـ/16 نوفمبر 1313 م بعد شعورها بالخطر الأسبان<sup>(3)</sup> خلال حروب الاسترداد. و يبدو أن أسرة ابن الخطيب استقرت في نهاية المطاف بغرناطة فنشأ بها.

و وردت ترجمته له مكتوبة بقلمه في كتابه الأحاطة في أخبار غرناطة: هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحمد السلماني. قرطبي الأصل، ثم طليطليهم ثم غرناطيه، يكنى أبا عبد الله، و يُلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين<sup>(4)</sup>، و كان كثير من العلماء يلقبونه بألقاب منها جلال الدين و سراج الدين و خير الدين، و لقب الخطيب نسبة إلى أسرته التي عرفت باسم (آل خطيب) لكون جده سعيد كان خطيباً بمدينة لوشة و لقب (بذي الوزارتين) لأنه جمع بين الوزارة و الكتابة<sup>(5)</sup>

تربى ابن الخطيب في أسرة عُرِفَت بالأصالة و الجاه و العلم، و كان أبوه عبد الله من اكابر العلماء، و قد أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه حين ترجم لأبيه في كتابه (الأحاطة في أخبار غرناطة) فروى أنه ولد عام 683 هـ/1272 م و استقر حيناً في غرناطة، ثم عاد إلى لوشة مقر الأسرة، ثم رجع إلى غرناطة حيث إلتحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة (713 هـ/1313 م)<sup>(6)</sup>

1- لسان الدين بن الخطيب السلماني، معيار الاختيار...، ص11.

2- لوشة: من أقاليم البيرة بالأندلس، بينهما ثلاثون ميلا و بها جبل فيه غار يصعد إليه، و على فمه شجرة، و هو في حجر صلا عمقه نحو قامتين. ينظر: عبد المنعم الجميري، المصدر السابق، ص 513.

3- لسان الدين بن الخطيب السلماني، معيار الاختيار...، المصدر نفسه، ص12.

4- لسان الدين بن الخطيب السلماني، الأحاطة...، المصدر السابق، ص 439.

5- ساجد مخلف حسن، لسان الدين بن الخطيب حياته و منهجه في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، مجلة جامعة تكريت للعلوم، مج 20، العدد 1، كانون الثاني 2013، ص 245.

ينظر كذلك: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 6، ص 235.

6- لسان الدين بن الخطيب السلماني، الإشارة إلى أدب الوزارة، دراسة و تحقيق محمد كمال شبانه، مكتبة الثقافة الدينية، ط2004، ص1، ص12.

### المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

استقر لسان الدين بن الخطيب منذ حدثته في غرناطة التي انتقلت إليها أسرته، لكنه لم ينس أبدا لوشة مسقط رأسه و مرتع طفولته، فكانت دائما في قلبه في منزلة «الأم»، و كان يتغنى بها في شعره، و يسميها «بنت الحضرة» أي بنت غرناطة، و أحيانا «فتية غرناطة». و كانت غرناطة يومئذ أعظم مركز للدراسات الإسلامية في الغرب الإسلامي، و مجمع جمهرة كبار العلماء و الأدباء، و كان الطب و الأدب من أبرز ما تفوق فيه ابن الخطيب منذ حدثته<sup>(1)</sup>

قرأ لسان الدين بن الخطيب القرآن على الشيخ الصالح أبي عبد الله العواد، و القرآن و العربية على أبي الحسن القيجاطي و أبي القاسم بن جزري<sup>(2)</sup> و تلقى علومه في غرناطة على نفر من العلماء منهم: الوزير أبو الحسن علي بن الجيَّاب (ت 749 هـ)، و أبو عبد الله محمد بن الفخَّار الإلبيري النحوي (ت 754 هـ)، و المحدث أبو القاسم محمد بن أحمد الحسن السبتي التلمساني (ت 760 هـ)، و القاضي أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البُلْفَيْقي (ت 771 هـ)، و المحدث الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق التلمساني (ت 781 هـ) و كان قد وَفَدَ على غرناطة سنة 753 هـ، و عُيِّن خطيبا لمسجد الحَمراء فتصدر فيه التدريس. و من شيوخه أيضا شمس الدين بن جابر الوادي آشي و الطبيب الفيلسوف أبو زكريا يحيى بن هذيل<sup>(3)</sup> و آخرون صاحبهم ابن الخطيب و نهل منهم مختلف العلوم.

### المطلب الثالث: رحلاته

أتاحت الظروف العلمية و السياسية التي تقلَّب فيها ابن الخطيب له الفرصة في الطواف بأنحاء مملكة غرناطة و بلا المغرب الأقصى، و حينما تولى الوزارة، رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الأول في رحلته التفتيشية بمقاطعات غرناطة الشرقية عام 748 هـ، و زار ابن الخطيب كذلك بلاد المغرب الأقصى كسفير لسلطان غرناطة خلال عامي 749 هـ و 755 هـ ثم التجأ إليها مرة ثالثة عندما نفي مع سلطانه المخلوع الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر عام 760 هـ. و استمرت مدة النفي ما يقارب الثلاث سنوات عاد بعدها ابن الخطيب مع سلطانه إلى مقر حكمه مرة أخرى<sup>(4)</sup> و كانت رحلته هذه إضطرارية .

لم يقبع ابن الخطيب طوال مدة نفيه في مدينة فاس عاصمة بني مرين كما فعل سلطانه و بقية الحاشية و اللاجئين السياسيين، بل عكف على زيارة البلاد المغربية لمشاهدة آثارها و لقاء العلماء و الصالحين فيها، و لقد سجل ابن الخطيب كل ما رآته عيناه، و سمعته أذناه في جميع هذه الرحلات، فأمدنا بذلك بمادة خصبة<sup>(5)</sup> حيث دون فيها مشاهدته أثناء تنقلاته في المغرب و الأندلس.

1- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 1، ص 21.

2- أحمد بابا التبتكي، المصدر السابق، ص 445.

3- المصدر نفسه، ص 21. ينظر كذلك: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت)، ص 469.

4- لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف، المصدر السابق، ص ص 13- 14.

5- المصدر نفسه، ص ص 13- 15. قام لسان الدين بن الخطيب بأربع رحلات في المغرب و الأندلس: 1- خطرة الطيف. 2- مفاخرة مالقة و سلا. 3- معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الآثار. 5- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

### المطلب الرابع: حياته السياسية

انتقل عبد الله أبو لسان الدين بن الخطيب إلى غرناطة و استخدم عند السلطان أبي الوليد إسماعيل أحد ملوك بني الأحمر، و استعمل على مخازن الطعام<sup>(1)</sup>، لكنه تقدم فيما بعد و أصبح في الخدمة السلطانية، و خدم في ديوان الإنشاء مع الرئيس أبي الحسن بن الجيّاب، و كان بارعاً في النظم و النثر، ثم قُتل في موقعة طريف مع والده الأكبر في سنة 741 هـ. و قد تأثر لسان الدين بن الخطيب منذ صباه، بهذا الأفق السلطاني الذي عاش فيه والده، و تطلع إلى غزوه، و لما تُوفي والده، دُعي للخدمة مكان أبيه، و كان وقتها في الثامنة و العشرين من عمره<sup>(2)</sup> و هو في ريعان شبابه و قوته.

تولى لسان الدين بن الخطيب أمانة سر أستاذه الرئيس أبي الحسن بن الجيّاب وزير و كاتب السلطان أبي الحجاج. و تلقى في ديوان الإنشاء على يد أستاذه الكاتب الشاعر المبدع ابن الجيّاب أرفع أساليب النظم و النثر في عصره، و ظهرت براعته في تدبير الرسائل السلطانية. و لما تُوفي ابن الجيّاب في الطاعون الجارف سنة 749 هـ/1349 م خلفه لسان بن الخطيب في الوزارة و رئاسة ديوان الإنشاء، و منحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة و ألقابها<sup>(3)</sup> و كان الحاجب أبو نعيم رضوان. و لما قُتل أبو الحجاج و خلفه ابنه محمد (الخامس) الغني بالله، سنة 755 هـ/1354 م استمر رضوان في الحجابة و لسان الدين في الوزارة. سافر لسان الدين إلى الغني بالله إلى السلطان المريني أبي عنان فارس المتوكل على الله (749 - 759 هـ) تأكيداً للمودة و استجدادا على ملك قشتالة، مما أدى إلى عظمة ثقة الغني بالله في ابن الخطيب فلقبه «ذا الوزارتين»: «الأدب و السيف»<sup>(4)</sup> و أصبح من المحبوبين و المقربين إلى مجالسه و رجل مُهم من رجال دولته.

لكن الغني بالله خُلع في 28 رمضان 760 هـ و قُتل حاجبه رضوان، ففر الغني بالله إلى فاس و نزل عند السلطان أبي سالم إبراهيم بن علي. و رغم أن لسان الدين جعل يُصانع السلطان الجديد إسماعيل (الثاني) بن يوسف (760 - 761 هـ)، فإن السلطان الجديد لم يطمئن إليه، بتحريض من حاشيته، أن نكبه و صادر أمواله و أملاكه، غير أن لسان الدين بن الخطيب هرب و لجأ إلى فاس و التقى في بلاط بني مرين بابن خلدون. و في منتصف سنة 763 هـ/1361 م استطاع الغني بالله أن يسترد ملكه و عاد إلى غرناطة فاستدعى لسان الدين من فاس و ردّه إلى الوزارة فعلت مكانته من جديد و عظم نفوذه، و غاض ذلك خصومه و حساده كالوزير الشاعر ابن زمرك تلميذ لسان الدين، و قاضي الجماعة في غرناطة أبي الحسن علي بن عبد الله الجُدّامي المالقي النُبّاهي (713 - 798 هـ) الذين اتهموه بالانحراف في ولائه و بالالحاد، و أدرك حينها لسان الدين ضرورة مغادرة الأندلس، فاستأذن بالذهاب إلى الحج ثم ذهب إلى فاس<sup>(5)</sup>

1- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 1، ص 21.

2- المصدر نفسه، ص 22.

3- نفسه، ص 22.

4- عمر فرّوخ، المرجع السابق، ج 6، ص 504.

5- المرجع نفسه، ص 504-505.

و في ربيع الثاني من سنة 774 هـ/1373 م تُوفي عبد العزيز و خلفه ابنه أبو زيان محمد السعيد، و كان طفلاً صغيراً<sup>(1)</sup> و غادر بلاط المغرب، تلمسان إلى فاس و سار ابن الخطيب صحبة الوزير أبي بكر بن غازي القائم بأمر الدولة، و نزل بفاس في كنف و رعاية الوزير، متمتعاً بمكانة لائقة و نفوذ و جزيل الصلات، و طاب عيشه بفاس. و حاول ابن الأحمر سلطان الأندلس أن يحمل الوزير ابن غازي على طرد ابن الخطيب و نفيه، لما كان يعتقد أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على غزو الأندلس، لكن ابن غازي رفض<sup>(2)</sup>، فساعت الأحوال بين بني الأحمر و بين بني مريم فقام بنو الأحمر بفتنة في المغرب ذهبت بمحمد السعيد و جاءت بأبي العباس أحمد المستنصر بن إبراهيم في 6 محرم 776 هـ/ 17 جوان 1374 م، و جاء ابن زمرك إلى فاس يُطالب أبا العباس أحمد بثن الوصول إلى العرش على ما كان قد جرى الاتفاق بشأن لسان الدين<sup>(3)</sup> و استدعي ابن الخطيب لمناقشة و مواجهة التهم المنسوبة إليه المتمثلة في الإلحاد و الزندقة، استناداً إلى ما ورد في بعض كتاباته، و لا سيما بعض آرائه وردت في كتابه «روضة التعريف بالحب الشريف»<sup>(4)</sup>، فحُوكم عليه بالسجن.

و عن اعتقال لسان الدين بن الخطيب قال ابن خلدون: «و لما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين و سبعمائة واستقلَّ بسطانه و الوزير محمد بن عثمان مستبد عليه، وسليمان بن داود رديف له، و قد كان الشرط وقع بينه و بين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب و إسلامه إليه لِمَا نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز لملك الأندلس. فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة و لقي الوزير أبا بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه، فلما استوف السلطان على البلد الجديد أقام أياماً، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن...»<sup>(5)</sup>

### المطلب الخامس: وفاته

و حين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كتابه و وزيره أبو عبد الله ابن زمرك، فقدم على السلطان أبي العباس، و أحضر ابن الخطيب بالمشور [مجلس المشورة] في مجلس الخاصة، و عرض بعض الكلمات وردت في كتابه المحبة، فعظم النكير فيها، فوبَّخ و نكَّل، و امتحن بالعذاب أمام الملاء، ثم نُقل إلى سجنه<sup>(6)</sup> و بقي فيه أيام قليلة، لكن بعض القتلة طرَقوا باب السجن و خنقوه، و كان ذلك سنة 776 هـ.

1- عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ص 505.

2- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، مج 1، ص 41.

3- عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ص 505.

4- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، مج 1، ص 42.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 452.

6- شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح مصطفى السقا و آخرون، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1358 هـ - 1939 م، ص 230.

قال عنه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم و النثر، و المعارف و الأدب، لا ساجل مَدَاه، و لا يهتدي فيها بمثل هُذَاه.»<sup>(1)</sup>

قال عنه كذلك محمد عبد الله عنان محقق الإحاطة في أخبار غرناطة عن مقتله: «...عزَّر ابن الخطيب و عذب أمام الملاء، و أفتى بعض الفقهاء المتعصبين بقتله، و دس عليه الوزير سليمان و بعض الأوغاد من حاشيته، فطرقوا سجنه ليلاً و معهم بعض الخدم الأندلسيين، الذين جاءوا مع سفراء ابن الأحمر، و قتلوه خنقاً في سجنه، و أخرجوا جثته في الغد، و دفنت بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحروق، أحد أبواب فاس القديمة. ثم أخرجت جثته في اليوم التالي، و طرحت فوق القبر، و أضرمت حولها النار، فاحترق شعر الرأس، و اسودت البشرة. ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحترق... و وقعت هذه المأساة الأليمة، في ربيع الأول أو ربيع الثاني سنة 776 هـ (أغسطس أو سبتمبر 1374 م)... و يقول مؤرخه المقري إنه زار قبره مراراً، أثناء إقامته بفاس، في أوائل القرن الحادي عشر الهجري (سنة 1011 - 1027).»<sup>(2)</sup>

ذكر صاحب نيل الابتهاج أن لسان الدين بن الخطيب توفي مقتولاً عام 776 هـ في خبر طويل نقلاً عن ابن خلدون و غيره<sup>(3)</sup> و أورد صاحب جذوة الاقتباس أن ابن الخطيب توفي مخنوقاً بسجن فاسب تحيل ابن زمرك الكاتب سنة 776 هـ<sup>(4)</sup> و أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى مأساة صديقه ابن الخطيب في مقدمته: «الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه»<sup>(5)</sup>

1- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 135.

2- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، مج 1، ص ص 42-43.

3- أحمد بابا التتكتي، المصدر السابق، ص 446

ينظر: أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، تحقيق و تعليق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 4، 1983، ص 7.

4- أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ج 1، ص 311.

5- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 643.

للإطلاع على الخبر عن مقتل ابن الخطيب، ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص ص 452-454.

## المبحث السادس: ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله (703 - 779 هـ / 1304-1377 م)

## المطلب الأول: مولده ونشأته

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، الرحالة، المؤرخ<sup>(1)</sup> وُلد في طنجة يوم الاثنين 17 من رجب سنة 703 هـ / 24 فيفري 1304 م ، يُلقب بشمس الدين و يُعرف بابن بطوطة<sup>(2)</sup>، و ينتسب إلى قبيلة لواتة البربرية<sup>(3)</sup> التي انتشرت بطونها على طول ساحل إفريقية حتى مصر، و ينحدر من أسرة عالية كان لها إسهامات فكرية و علمية، إذ اشتغل أفرادها بالقضاء و التدريس<sup>(4)</sup> و هذا ما ذكره في رحلته عندما اختير لمنصب القضاء بالهند: «أما الوزارة و الكتابة فليست شغلي، و أما القضاء و المشيخة فشغلي و شغل آبائي.»<sup>(5)</sup>، و ذكر ابن بطوطة في رحلته ابن عمه القاضي الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة عند دخوله إلى مدينة رندة بالأندلس<sup>(6)</sup> و يبدو أن عائلة ابن بطوطة كانت تعيش ظروف بسيطة لكن اهتمام المغاربة بالقضاة و المُدرسين حسّن من وضعها الاجتماعي.

يعتبر ابن بطوطة من أشهر الرحالة العرب المسلمين و أطولهم نفساً في الترحال و اختراق الآفاق<sup>(7)</sup>، لكن من المؤسف أن المعلومات عن نشأته و بيئته قليلة جداً، لأن كتب التراجم لم تقدم لنا شيئاً شافياً عنه، وُلد في درب صغير يحمل الآن اسمه في طنجة تلك المدينة الجميلة، و هي جوهرة من جواهر بلاد الإسلام جمالاً و إشراقاً، أما اسم «ابن بطوطة» فليس جزءاً من اسمه و إنما هو شهرته إلى اليوم<sup>(8)</sup> لم ينافس أحد في القيام بالرحلات الطويلة التي شملت أرجاء واسعة من العالم القديم.

يقول المستشرق يوليانوفتش كراتشكوفسكي: «و لا علم لنا بسنى حياته الأولى و لا بسيرة حياته بوجه عام خلاف ما ذكره هو عرضاً في سياق رحلته، و يبدو أنه قد حصل على ما تيسر من العلم بمسقط رأسه مع ميل واضح إلى الفقه وفقاً للمذهب المالكي السائد بشمال إفريقيا.»<sup>(9)</sup>، لكن الأمر الواضح أن ابن بطوطة شبّ و ترعرع في مدينة طنجة في حضن أسرة كريمة مُهتمة بالعلوم الشرعية و اللغوية، فنبغ في علم الفقه و هو شاب في مقتبل عمره، لذا احتل مكاناً مرموقاً في القضاء، إذ أسند إليه هذا المنصب مرات عديدة خلال رحلته<sup>(10)</sup>

1- محمد بن عبد الله بن بطوطة، المصدر السابق، ص 7.

2- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 90. ينظر كذلك:

*Lotfi Akalay, Ibn Battouta prince des voyageurs, éditions le fennec, Casablanca, 3e édition, mars 2004, p 7.*

3- لواتة: بطن عظيم متسع من بطون البربر ينتمون إلى لواء الأصغر بن لواء الأكبر بن زحيك. و لواء اسم أبيهم، و البربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف و التاء فصار لوات.

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج6، ص 152.

4- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 91.

5- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 340.

6- المصدر نفسه، ص 453.

7- عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 111.

8- حسين مؤنس، ابن بطوطة و رحلته، دار المعارف، القاهرة، (د ت)، ص ص 16 - 17.

9- أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ج1، ص 422.

10- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 208.

### المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

اعتنت أسرة ابن بطوطة بالعلوم الشرعية، و عُرِفَت بالبَسْطَة في العيش و السعة و اهتم أبوه بتربيته، فدرس الفقه و الأدب<sup>(1)</sup> و لا نكاد نعرف من أخبار عائلة ابن بطوطة و مكانتها سوى ما أشار به في رحلته، فهو مالكي المذهب تلقى علومه الأولى على مشايخ طنجة، و أصبح ذا معرفة كبيرة أهلته لتولي قضاء الركب الحجازي، و استمر ابن بطوطة في طلب العلم و لم يكن يخالط إلا العلماء و القضاة<sup>(2)</sup>

درس أبو عبد الله محمد بن بطوطة في طنجة على طريقة أمثاله من الشبان عصره، حيث حفظ القرآن الكريم، شرع في الدراسة أيضا على الشيوخ لكي يكون فقيهاً مثل أبيه و اهل بيته، و لكنه لم يتم دراسته لأن سن الحادية و العشرين التي خرج فيها للرحلة تدل على أنه لم ينتظر حتى يستكمل دراسة الفقه، و هذه الدراسة كانت تطول وقتها فلا يفرغ الشاب من دراسته لها إلا في حدود الثلاثين. و الواضح أن رغبته في السفر و الجولان عطلته عن الدراسة، فخرج في رحلة و هو في الثانية و العشرين من عمره و أكمل دراسته على الطريق على غرار بقية طلبة العلم التقليديين، و من ناحية أخرى نجده لم يخرج للدراسة على شيوخ بعينهم، و إنما سمع ما تيسر له سماعه دون حرص كبير على إتمام الدراسة، لأنه لم يريد أن يكون فقيهاً بل كانت له مطالب و اهتمامات أخرى في الحياة<sup>(3)</sup> و كانت رحلته تجربة فريدة من نوعها شملت مجالات مختلفة من مشاهداته اليومية.

### المطلب الثالث: أخلاقه و طباعه

كان ابن بطوطة كثير الحب لوالديه، شديد التعلق بوطنه و أهله و يظهر ذلك في مقدمته قائلاً: «فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث و الذكور، و فارقت وطني مفارقة الطيور للطور. و كان والديّ بقيد الحياة، فتحملت لبعدهما وصبا، و لقيت من الفراق نصيباً...»<sup>(4)</sup>، و حزن حزناً شديداً عند سماعه خبر وفاة والده، فترك حاشية الملك أبي عنان و عاد إلى طنجة قاصداً زيارة قبر والدته<sup>(5)</sup> للترحم على روحها، ثم زيارة المدينة و استطلاع أحوال أهلها.

كان ابن بطوطة، رقيق الشعور، سريع التأثر، متديناً تقياً، كريماً، محباً لوالديه، وقد حفظ كل هذه العواطف في كل أسفاره، فكان يذكر من شاهدتهم من مشايخ و زاهدين و فقراء و متعبدين، و يثني عليهم طالباً بركتهم، كذلك يورد ما يسمعه من أعمال الخير و منشآت الصالحين من أوقات و ملاجئ و غيرها... و كان يتبرك بقبور الأولياء و مزارات الصالحين، و يبني في الزوايا، و لا يكاد يضيف إنسان إلا أصبح أعز صديق له، حتى إذا دخل مدينة فلم يسلم عليه أحد لعدم معرفتهم به، أصابه الملل و أشدَّ بكاؤه إلى أن يشعر بحاله بعض الحجاج فيقبلون عليه بالسلام و الإيناس<sup>(6)</sup>

1- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 95 .

2- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 130.

3- حسين مؤنس، ابن بطوطة و رحلاته...، المرجع السابق، ص 17.

4- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 11.

5- المصدر نفسه، ص 453.

6- عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص 561.

لقد كان ابن بطوطة شديد الاندماج و التأقلم مع أهل المدن و البلدان التي زارها و ألف عاداتها نظراً لطول مدة سفره، و هو بهذا عكس الرحالة العبدري. كما كان شديد الحرص على التمسك بتعاليم الدين الإسلامي فلا يكاد يسمع برجل صالح أو عالم إلا و سارع إلى لقائه و التبرك بدعائه و في كل بلد حط رحاله به تزوج عازماً على أن تكون زوجته معه و لكن لا يلبث أن يفارقها لعدم قبول الزوجة مفارقة وطنها<sup>(1)</sup> و لأهلها و يذكر ابن بطوطة في رحلته وفاة بنت له بالهند قائلاً: «و لما كان بعد شهر و نصف من مقدمنا توفيت بنت لي، سنها دون السنة. فاتصل خبر وفاتها بالوزير، فأمر أن تُدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القونوي، فدفنها بها.»<sup>(2)</sup>

كان ابن بطوطة خلال رحلته يتحرى أحوال عائلته، شديد التعلق بوطنه يتحسس أخبار أهله كلما التقى فرد أو جماعة من الديار المغربية و يبدو أن الحنين و الشوق لم يفارق مشاعره و كلما ابتعد عن وطنه زاد تلهفه إليه و فكر في المصاعب المقبل عليها و عواقبها، و أورد عن طنجة مسقط رأسه عبارة: «طنجة بلدي حرسها الله»<sup>(3)</sup> داعياً لها بالأمن و العافية من الوباء لأنه كان يجهل ما حل بها.

كانت لابن بطوطة بعض المعرفة بالطب و الأعشاب التي كان الناس يتداوون بها من الأمراض، فكان شديد الحرص على أن يكون له منها زاد، و كان يداوي نفسه بنفسه، و ربما داوى غيره فكان مهيباً نفسياً و جسدياً للمطلب العسير الذي أراده<sup>(4)</sup> و لا شك أنه حذق فنون الفروسية و القتال ففي رحلته ما يدل على اشتراكه في بعض المعارك التي حدثت أثناء تنقلاته<sup>(5)</sup>

### المطلب الرابع: رحلاته

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات تمت ما بين 726 - 750 هـ / 1325 - 1354 م زار فيها معظم البلاد التي كانت معروفة آنذاك<sup>(6)</sup> و يقول الدكتور عبد الهادي التازي في شهادته عن ابن بطوطة: «لا أعتقد أن رحالة من الذين قصدوا الحجاز استطاع أن يكتب مثل ما كتبه ابن بطوطة عن مكة المكرمة كماً و كيفاً، شكلاً و مضموناً، فقد ظلت مكة المكرمة شاخصة في مذكراته عند كل منعرج من تحركاته حتى أرج الحجاز... و يكفي أن له أربع رحلات إلى مكة، و سبع حجرات، و أنه صام فيها ثلاث رمضان، و هذا ما لم يتيسر لغيره، و هو ما ضرب به ابن بطوطة الرقم القياسي»<sup>(7)</sup>، و هناك من يرى أن ابن بطوطة قام بثمان رحلات<sup>(8)</sup> و يبقى عدد الرحلات التي قام بها ابن بطوطة غير مضبوط بشكل دقيق، بل يختلف من مؤرخ لآخر.

1- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 131.

2- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 336.

3- المصدر نفسه، ص 156.

4- حسين مؤنس، ابن بطوطة و رحلاته، المرجع السابق، ص 20.

5- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع نفسه، ص 131.

6- محمد محمود محمد، المرجع السابق، ص 159.

7- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج1، ص 138.

8- عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 111.

## الرحلة الأولى:

استمرت أربعاً و عشرين سنة كانت بدايتها بخروجه من طنجة للبحر سنة 725 هـ/1325 م فمرَّ بساحل إفريقيا الشمالي ثم توجه إلى عيذاب<sup>(1)</sup> على البحر الأحمر، لكنه لم يتمكن من عبور البحر بسبب الحرب التي نشبت بين الممالك و البجاة فاضطر إلى العودة للفسطاط ثم توجه إلى بلاد الشام و منها إلى الحجاز فحجَّ حجته الأولى، و خرج من مكة إلى العراق، ثم اتجه إلى إيران فبلاد الأناضول، ثم إلى الكوفة فبغداد و مكة حيث حجَّ حجَّته الثانية، و أقام بمكة حوالي سنتين حتى عُوفي من مرضه الشديد، و في مكة تعرف ابن بطوطة على بعض العلماء المقيمين بها و تناقش معهم كثير من الأمور الدينية<sup>(2)</sup> التي شغلت ذهنه و كان بحاجة إلى الاستفسار فيها حتى يعرف آراء العلماء فيها.

غادر ابن بطوطة مكة المكرمة إلى جدّة و منها عبر البحر الأحمر إلى الساحل الأفريقي ثم عاد منه إلى جنوبي الجزيرة العربية حتى الخليج العربي، فزار عمان و البحرين و الإحساء، ثم زار مكة و حجَّ حجَّته الثالثة، و خرج من مكة ماراً بخراسان و تركستان و أفغانستان، و تولى القضاء في دلهي خمس سنوات على المذهب المالكي، و خرج رفقة وفد إلى الصين ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة و مرَّ بجزيرة سرنديب<sup>(3)</sup> و زار بلاد العجم ، و العراق، و الشام ثم اتجه إلى مكة و حجَّ حجَّته الرابعة، ثم عاد إلى المغرب الأقصى سنة 750 هـ/1349 م و أقام بمدينة فاس<sup>(4)</sup>

## الرحلة الثانية:

سافر فيها ابن بطوطة إلى الأندلس، و في طريقه إليها مرَّ بطنجة و زار قبر أمّه، و أقام بغرناطة و فيها تعرف بمحمد بن جُزّي الكلبى الذي تولى كتابة ما أملاه عليه الشيخ ابن بطوطة فيما بعد، و عاد ابن بطوطة إلى المغرب الأقصى<sup>(5)</sup>

## الرحلة الثالثة:

خرج فيها ابن بطوطة في محرم سنة 753 هـ/18 فبراير 1352 م و فيها كلّفه السلطان أبو عنان المريني بزيارة أواسط أفريقيا، حيث بدأ ابن بطوطة بزيارة سجلماسة، ثم تغازي و تمبكتو في مملكة مالي و اخترق هضبة «هكار» ثم عبر جبال الأطلس في ظروف طبيعية قاسية (فصل الشتاء) و وصل إلى مدينة فاس نهاية سنة 754 هـ/1353 م، و ظل بمدينة فاس أكثر من أربعة و عشرين عاماً إلى أن توفي<sup>(6)</sup>

1- عيذاب: مدينة في أعلى الصحراء المنسوبة إليها في ضفة البحر الملح، و منها المجاز إلى جدّة، و عرضه مجرى يوم و ليلة. و مرسى عيذاب جزيرة ليست بكبيرة و مساكنها من حجارة، و الماء العذب يجلب إليها على مسيرة يوم، و هي محط السفن من جدّة من التجار و غيرها، و هي تقابل من الصعيد الأعلى مدينة قوص و فقط، و بينها و بين فقط في البر خمس مراحل. لا ماء فيها إلا في موضعين.

ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 423.

2- محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص 159.

3- جزيرة سرنديب: جزيرة بالهند في بحرهم المسمى هركد، و هي جزيرة كبيرة مشهورة الذكر، و هي ثمانون فرسخاً في ثمانين فرسخاً.

ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 312-313.

4- محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص 159.

5- المرجع نفسه، ص 160.

6- نفسه، ص 160.

### المطلب الخامس:وفاته

إختلف الباحثون حول تاريخ وفاة ابن بطوطة، فابن حجر نقل من خط ابن مرزوق بأن ابن بطوطة بقي إلى سنة سبعين و سبعمائة<sup>(1)</sup> بينما يحدد أكثر الباحثين وفاته بسنة 779 هـ/1377 م<sup>(2)</sup> بمراكش<sup>(3)</sup> و تلقبه جمعية كمبردج في كتبها و أطالسها بأمرير الرحالين المسلمين ( *Prince of moslems travellers* )، و توجد الآن في نابلس بفلسطين أسرة، تدعى «بيت بطبوط» و تعرف ببيت المغربي و بيت كمال، تقول إنها من نسل ابن بطوطة<sup>(4)</sup>

- 
- 1- شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج 3، ص 481.
  - 2- إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين و آثار المصنفين، مج 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ت)، ص 169. ينظر كذلك: علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 207.
  - محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم للطباعة و النشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1999، ج3، ص 160
  - 3- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص 236.
  - ينظر كذلك: جورج زيدان، المرجع السابق، ج 3، ص 239.
  - عمر فُروخ، المرجع السابق، ج6، ص 522.
  - 4- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص 236.

**المبحث السادس: الحاج عبد الله بن الصباح (النصف الثاني من القرن 8 هـ / 14 م)**

**المطلب الأول: مولده ونشأته**

لم يكن القلصادي آخر أندلسي قام بمناسك الحج، فقد جاء بعده رجل أندلسي من المدجنين الذين أخذت اللغة العربية تغيب عنهم، و أخذوا يشعرون بأنهم في طريق نسيان أو ترك دينهم، و هكذا نجد رحلته غريبة و عجيبة و طويلة لا نعرف عن صاحبها إلا أنه الحاج عبد الله بن الصباح الذي أكد أنه يماني الأصل من ذرية أبرهة بن الصباح<sup>(1)</sup>، لم نقف على أي ذكر له في المصادر المظان و من حسن الحظ أن الرحلة تشتمل إشارات وردت في ثناياها تفيد في التعرف على صاحبها، و هو فيما يبدو وُلد و نشأ في مدينة شاطبة<sup>(2)</sup> التي كان قد استولى عليها و على مدن شرق الأندلس خايمي الأول<sup>(3)</sup> في منتصف القرن 7 هـ / 13 م، و يذكر المؤرخون أن دخول خايمي الأول إلى شاطبة وقع 644 هـ / 1256 م<sup>(4)</sup>

أكثر ابن الصباح من الفخر بنسبه اليمني و تحدث عن انتشار هذا النسب في مشارق الأرض و مغاربها، و من المعروف أن هذا النسب كان سائداً في شرق الأندلس عامة و في شاطبة خاصة، إذ يظهر من الموجدين في كتب التراجم أن معظمهم من أصول يمنية<sup>(5)</sup>، و لعل مما يؤكد انتساب صاحب الرحلة إلى شاطبة، أنه شبّه بها بعض المدن التي زارها، كقوله عن القدس: «و مدينة القدس مدينة منيعة على مثال مدينة شاطبة في كبرها»<sup>(6)</sup> و هي مقارنة قد لا تكون إلا لشخص رأها أو عاش بهما قسط من الوقت. و قد استدل محمد بنشريفة - مُحقق الرحلة - على أن ابن الصباح من شاطبة بما يلي<sup>(7)</sup>:

- تشبيهه في رحلته لتلمسان و مدينة القدس لشاطبة.

- كان صاحب الرحلة يحمل خلال رحلته نقود من الأندلس و استعمل في مكان من رحلته كلمة فلرين و هي كلمة إسبانية (Florin) و في تكلمة المعاجم لدوزي (Florin de aragon) أي أنها عملة أرغونية قديمة.

- كان ابن الصباح يعرف اللغة القطلانية لم يعرفها نصارى القسطنطينية.

- حفظه لقصيدتي الإمام الشاطبي و تعريفه به و تنويهه ببركة هذا الشيخ المبارك و بقصيدته.

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج1، ص 165.

يرى محمد بنشريفة مُحقق الرحلة أن الحاج عبد الله بن الصباح قام برحلته في النصف الأخير من القرن الثامن الهجري بعد ابن بطوطة بقليل.

ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، الوجه الخلفي من الغلاف.

2- شاطبة: مدينة جلييلة بالأندلس متقنة حصينة لها قصبان ممتعتان، و هي كريمة البقعة كثيرة الثمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، و هي قريبة من جزيرة شقر، و هي حاضرة أهلة بها جامع و مسجد و فنادق و أسواق، و قد أحاط بها الواد.

ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 337.

3- خايمي الأول: يأتي نسله من ألفونسو الأول دوق براجانزا ابن الغير شرعي جواو الأول ملك البرتغال وأمّه هي ابنة فرناندو دوق فيسو ابن دوارتي الأول. يذكر المؤرخون أن دخول خايمي الأول إلى شاطبة وقع سنة 644 هـ / 1256 م.

ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 11.

4- المصدر نفسه، ص 11.

5- المصدر نفسه، ص 12.

6- نفسه، ص 12.

7- نفسه، ص 12 - 14.

قال ابن الصباح: «وطنت من الأقاليم السبعة خمسة أقاليم فلم أر بعد الشام أطيب من جزيرة إصبانية (إسبانية) في كثرة الإمكان مثل إشبيلية و قرطبة و جيان و الكرس و مرسية و وادي رقوط. و نولي مع كربيان و مدينة بلنسية مع شاطبة و نظر قنذية مع دانية و سرقسطة و طرطوشة إلى تركونة.»<sup>(1)</sup>، فمسقط رأس ابن الصباح شاطبة وُلد و نشأ بها، و قد يكون عاش بأقاليم الأندلس بدافع الرغبة و الميل إلى الترحال.

### المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

نعت محمد بن شريفة-مُحقق الرحلة-الحاج عبد الله بن الصباح بالمدجّن من خلال إشارات متعددة إليه في الرحلة يقول في ختامها: «و أعلم أن بلادنا المدجلة [المدجّنة] من عمائر الأندلس لا فيهم شيخ تعلم من شيخ إلا من النسخ و الكتب و هي صماء بكما»<sup>(2)</sup> و هي صورة عكست الأوضاع السيئة التي كان يعيشها المسلمون في الأندلس و الصعوبات و العراقيل التي كانت تعترضهم في تحصيلهم العلمي بالأندلس في ذلك الوقت، نظراً لضغط النصارى و محاولتهم استرداد الأندلس من المسلمين.

تحدث ابن الصباح عن الأحوال السياسية المضطربة بالأندلس و عن مملكة غرناطة التي كانت قائمة في وقته بقوله: «فلما جئت مُلك الملك الأحمر الحميري و هو ملك الأندلس اليوم في زماننا و جئت مدينة غرناطة و هي كرسي ملك»<sup>(3)</sup>، أشار إلى بعض الوقائع كانت بين الغرناطيين و القشتاليين بقوله: «كم من وقعة نصرروا فيها الأعداء و كفى بوقعة فجّ خين على زماننا و هذا دليل الخير و فضيلة على ساير البلاد لما جرى فيها بين الفئة الكثيرة من الروم و الفئة القليلة من المسلمين...»<sup>(4)</sup>

### المطلب الثالث: رحلته

لم نتمكن من معرفة تاريخ الرحلة بالضبط على الرغم من تتبع غضوننا عبر المراحل التي قطعها الرحالة انطلاقاً من حديثه عن الأندلس و ملك بني الأحمر، و مروراً بسبتة و فاس و مراكش أيام المرينيين، و تلمسان أيام بني عبد الواد الزيانيين، و تونس أيام بني حفص، و مصر أيام بقية المماليك<sup>(5)</sup> و قُدر تاريخها بالنصف الثاني من القرن الثامن الهجري.

### المطلب الرابع: وفاته

صعب على المؤرخين ضبط تاريخ صاحب الرحلة، لكن ابن الصباح أشار إلى كبر سنه أثناء كتابة رحلته عندما قال: «و أعلم أن كاتب هذا الكتاب الحاج المذكور هو شيخ كبير من أعمار الستين إلى السبعين كتبه بالأمرية من ضعف البصر...»<sup>(6)</sup>، و هي عبارات توضح أن صاحب الرحلة كان مُسنّاً في نهاية عمره، لذا قد تكون وفاته بعد رحلته هذه و لا نعرف مكانها بالتدقيق.

1- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 57.

2- المصدر نفسه، ص 188.

3- نفسه، ص 67.

4- نفسه، ص ص 73-74.

5- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج 1، ص 165.

6- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 229.

**المبحث السابع: ابن خلدون عبد الرحمن (732- 808 هـ/ 1332- 1406 م)**

**المطلب الأول: مولده ونشأته**

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم الحضرمي الأشبيلي ابن خلدون، المالكي، يرجع نسبه الى حضرموت في اليمن، و إلى الصحابي الجليل وائل بن حجر<sup>(1)</sup>، لُقّب بولّي الدّين<sup>(2)</sup>، وُلد في تونس في غرة رمضان سنة 732 هـ/ 1332 م، ينحدر من أصل أندلسي أشبيلي<sup>(3)</sup>، و من أسرة ذات مكانة و نفوذ بسبب المناصب التي تولّاها بعض رجالها في إدارة الدولة و كذلك بسبب اهتمام البعض الآخر و منهم والده(ابن خلدون)أبو عبد الله محمد بالدراسات الشرعية و اللغوية<sup>(4)</sup> و نجد ابن حزم الأندلسي يذكر أن نسب عائلة ابن خلدون يعود إلى الصحابي الجليل وائل بن حُجْر و هو من أصل يمّني حضرمي<sup>(5)</sup>، و عن نشأته و مشيخته و حاله يقول ابن خلدون: «أما نشأتي فإني وُلدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنين و ثلاثين و سبعمائة، و ربيت في حجر والدي رحمه الله»<sup>(6)</sup>

انتقلت أسرة عبد الرحمن بن خلدون من اليمن إلى الأندلس أثناء الفتح الإسلامي و استقروا به، و شارك أجداد عبد الرحمن بن خلدون في حكم و إدارة الأندلس في فترات مختلفة، و كانت أسرته تعيش في مدينة أشبيلية، لكنها اضطرت لمغادرتها بعد ضعف المسلمين فيها، فنزحوا إلى تونس و أقاموا فيها حوالي سنة 620 هـ/ 1223 م خلال حكم الحفصيين، و قد تولى جد الثاني أبو بكر محمد شؤون دولتهم بتونس، كما ولي جده الأول محمد بن أبي بكر شؤون الحجابة لحاكم بجاية من الحفصيين<sup>(7)</sup>.

**المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه**

تلقى ابن خلدون تعليمه الأولي في تونس و حفظ القرآن الكريم على يد أبيه و بعض الشيوخ، ثم درس علوم اللغة من نحو و صرف و بلاغة على يد عدة أساتذة في مقدمتهم أبو عبد الله بن العربي الحصائري، و أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي، و أبو العباس أحمد بن القصار، و أبو عبد الله محمد بن بحر، و درس الحديث على يد شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر الوادياشي، و الفقه على يد شيوخ منهم:أبو عبد الله محمد الجبائي، و أبو القاسم محمد القصير. كما درس العلوم العقلية و الفلسفية، و هي المنطق و ما وراء الطبيعة و العلوم الطبيعية و الرياضية و الفلكية على يد عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي، و كان شديد الإعجاب به<sup>(8)</sup>، كما أخذ عن علماء كثيرون آخرون في علوم شتى.

1- عبد الرحمن بن خلدون، شفاء السائل و تهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، 1996، ص 24.

2- عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 177

3- عبد الرحمن بن خلدون، العبر ... المصدر السابق، ج1، ص 03.

4- هاشم يحي الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 126 .

5- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق و تعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د ت)، ص 460.

6- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 36.

7- هاشم يحي الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ، المرجع السابق، ص 126.

8- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 36- 40.

و من العلوم المختلفة التي تشعب بها ابن خلدون خلال مساره الدراسي، علوم الدين و اللغة و تفسير القرآن الكريم، و الحديث النبوي و الفقه الإسلامي على مذهب الإمام مالك، و درس علم أصول الفقه و علم الكلام و العلوم اللسانية من لغة و نحو و صرف و بلاغة و أدب المنطق و الفلسفة و العلوم الطبيعية و الرياضية<sup>(1)</sup>

### المطلب الثالث:رحلته

يعد عبد الرحمن بن خلدون من المؤرخين الذين ترجموا لأنفسهم ذاتية (Autobiographie)<sup>(2)</sup> و يمكن أن ندخل في هذا الباب من خلال ما كتبه باسم (التعريف بابن خلدون و رحلته غرباً و شرقاً)، و هو يعطينا تعريفه بنفسه و برحلته كثيراً من المعلومات السياسية و التاريخية عن عصره و البلدان<sup>(3)</sup> و المدن التي زارها منها تلمسان.

### المطلب الرابع:حياته السياسية

أمضى ابن خلدون ما يقارب 15 عاما في طلب العلم، و قد اضطرت الظروف القاسية التي أعقبت الطاعون الجارف الذي اجتاح بلاد المغرب في سنة 749 هـ و أودى بحياة والده و معظم شيوخه إلى التحول عن طلب العلم و العمل في الادارة السلطانية و غاص غمار الأحوال السياسية المضطربة في بلاد المغرب، فعمل في دولة الحفصيين في تونس و دولة بني عبد الواد في تلمسان و مع بني مرين في فاس<sup>(4)</sup> و فيها اتصل ابن خلدون بالوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب عندما نفي مع سلطانه إلى المغرب و توطدت بينهما صداقة قوية و نجد ابن الخطيب خصه بترجمة دقيقة في كتابه (الاحاطة في أخبار غرناطة)<sup>(5)</sup> بعد عودته إلى الأندلس.

امتد عمل ابن خلدون بالأندلس إلى دولة بني الأحمر في غرناطة بعد أن سدت في وجهه قصور المغرب و أصبح موضع ريبة فيها. و في سنة 763 هـ/1363 م سافر ابن خلدون إلى اسبانيا في مهمة رسمية تمثلت في توطيد صلح بين ملك المغرب و ملك قشتالة(بدرو القاسي) الذي كان مقيما في أشبيلية مقر أجداد ابن خلدون، و بعدها عرض عليه ملك قشتالة البقاء في اشبيلية مع الرد عليه أمك أسرته، لكن ابن خلدون اعتذر للملك شاكرًا ثم رحل إلى غرناطة التي التقى فيها بصديقه ابن الخطيب، و بعد إقامة قصيرة عاد ابن خلدون إلى المغرب و انشغل بالسياسة<sup>(6)</sup>، قال ابن خلدون عن نكبة صديقه ابن الخطيب: « و بعث إليّ ابن الخطيب من محبسه مستصرخا بي، و متوسلا، فخطبت في شأنه أهل الدولة، و عوّلت فيه منهم على و نَزَمَار، و ابن مَاسَاي، فلم تنجح تلك السَّعاية، و قُتِل ابن الخطيب بمحبسه»<sup>(7)</sup>

1- هاشم يحي الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ، المرجع السابق، ص 127.

2- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 221. ينظر: حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 55.

3- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 67 .

4- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص 65. ينظر: هاشم يحي الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ، المرجع السابق، ص 127.

5- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 222.

6- المرجع نفسه، ص 222.

7- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص 187.

تأثر ابن خلدون لمقتل صديقه لسان الدين تأثراً بالغاً حتى أنه كره الحياة السياسية و فضل الاعتزال و الانطواء عن الحياة العامة كلياً مدة أربع سنوات من 776 هـ حتى 780 هـ 763 هـ قضاها في قلعة (تاوغروت) أو قلعة بني سلامة بالمغرب الأوسط للكتابة و التدوين، و في هذا الصدد يقول ابن خلدون: «... و أنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين... فأقمت بها أربعة أعوام، متخلياً عن الشواغل كلها، و شرعت في تأليف هذا الكتاب، و أنا مقيم بها، و أكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسألت فيها فيها شأبيب الكلام و المعاني على الفكر، حتى امتحصت زبدتها، و تألفت نتائجها، و كانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس...»<sup>(1)</sup>

استطاع ابن خلدون أن يتخلص من عزلته ليصبح رحالة فعاش قرابة ثلاثين عاماً قضاها متنقلاً بين المشرق و المغرب، و سجل أحداثها في كتابه (رحلته غرباً و شرقاً)، غير أن ما سجله في كتابه كان تاريخياً أكثر منه مشاهدات رحالة، و كانت رحلته متضمنة للأحداث التي عاشها و التي أخذت عليه جل اهتمامه و معظم عنايته<sup>(2)</sup> و ربما كانت الظروف القاسية التي كان يعيشها و المصاعب التي كان يتلقاها أحياناً ابن خلدون، من أسباب ارتحاله بين المغرب و المشرق.

لم يقتصر نشاط ابن خلدون على المغرب و الأندلس و حسب، و إنما امتد كذلك إلى مصر مع حكم الظاهر قلاوون، فتولى التدريس في الأزهر الشريف و في بعض المدارس الكبيرة فيها، و تولى قاضي قضاة المالكية مرات عديدة، و عاصر غزو المغول أيام تيمورلنك لبلاد الشام، و شارك في مقابلته في دمشق في وفد من العلماء<sup>(3)</sup>، و وصف تيمورلنك و في ذلك يقول: «و هذا الملك تيمور من زعماء الملوك و فراعنتهم، و الناس ينسبونهم إلى العلم، و آخرون إلى اعتقاد الرفض، لما يرون من تفضيله لأهل البيت، و آخرون إلى انتحال السحر، و ليس من ذلك كله في شيء، إنما هو شديد الفطنة و الذكاء، كثير البحث و اللجاج بما يعلم و بما لا يعلم، عمره بين الستين و السبعين، و زكبه اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني، فيجرها في قريب المشي، و يتناولها الرجال على الأيدي عند طوال المسافة، و هو مصنوع له، و الملك لله يؤتية من يشاء من عباده.»<sup>(4)</sup> فكان شاهد عيان على هذه الأحداث التي دونه في رحلته.

### المطلب الخامس: وفاته

توفي عبد الرحمن بن خلدون بالقاهرة في 26 رمضان 808 هـ / 16 مارس 1406 م في الستة و السبعين من عمره، و هذا أطفئت سرج حياة وثابة مليئة بالنشاط و حافلة بجليل المآثر و روائع التفكير و الابتكار، و قد ذكر السخاوي: «أنه دفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر.»<sup>(5)</sup>، و يبدو أن قبره بقي مجهولاً حتى الآن في انتظار البحث عنه من قبل علماء الآثار.

1- المصدر نفسه، ص ص 187 - 188.

2- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 222.

3- حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 57.

4- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص 299.

5- علي عبد الواحد وافي، عبد الرحمن بن خلدون حياته و آثاره و مظاهر عقيدته، مكتبة مصر، (د ت)، ص 131.

المبحث الثامن: ابن قنفذ القسطنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب ( ت 810 هـ / 1047 م )

المطلب الأول: مولده ونشأته

هو أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الشهير بإبن الخطيب و بابن قنفذ القسطنطيني، يُحتمل أن يكون نسبه إلى قبيلة بني قنفذ و هي بطن من قبيلة أشجع العدنانية، و هم بنو قنفذ بن حلاوة بن سبيع بن أشجع، و هو اسم لجدّ له لقب بهذا اللقب لوجود لفظة ابن قنبل. اشتهر بلقب ابن القنفذ [تعريف] أو ابن قنفذ [تتكير]، و الأقرب إلى الصواب هو الأول لأنه لما ذكر وفاة جده علي في الوفيات ذكره بهذه الصيغة: علي بن حسن بن القنفذ كما في نسختين خطيتين تغلب الصحة عليهما<sup>(1)</sup>. و قد تكون شهرة عائلته بابن قنفذ قديمة لا نعلم لها سببا<sup>(2)</sup> أما القسطنطيني فهي نسبة إلى مسقط رأسه مدينة قسطنطينة.

و شهرته بابن الخطيب ظاهرة السبب لأن والده تولى الخطابة و جدّه تولّاها مدة ستين سنة كما جاء في كتابه أنس الفقير أو خمسين سنة حسب ما جاء في كتابه الوفيات و كأنّ هذا اللقب أخذ به والده من قبل تأسيا بأهل المشرق الذين ينعنون بابن الخطيب أو الخطيب من تولى سلفه هذه الخطة أو تولّاها الملقّب به<sup>(3)</sup>. لم يذكر ابن قنفذ تاريخ ولادته في أي من مصنفاته الكثيرة، لكن أحمد بابا التتبعتي صاحب نيل الابتهاج جعلها في حدود سنة 740 هـ / 1339 م انطلاقا من قول ابن قنفذ نفسه<sup>(4)</sup>:

مضت ستون عاماً من وجودي و ما أمسكت عن لعب و لهو  
و قد أصبحت يوم حلول إحدى و ثامنة على كسل و سهو

كان والده و جده من خطباء قسطنطينة كما أن جده لأمه يوسف الملاي المتوفى سنة 764 هـ كان من مشاهير الصوفية و المرابين الروحانيين، وقد كان له أثر عميق على حفيده أبي العباس، كما يظهر ذلك في أنس الفقير. و كان أبوه أديبا مرموقا مع اتجاه صوفي كذلك مما جعل ابن قنفذ ينشأ في وسط يسوده الاهتمام بالعلم و الأدب و التصوف<sup>(5)</sup>.

أما جدّه لأمه فهو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب الملاي من مشاهير الصوفية، وُلد سنة 680 هـ، و تربي على يد والده، و كانت له مكانة مرموقة عند الحفصيين. و ذكر ابن قنفذ بعض أخباره في كتابه أنس الفقير و عز الحقيير، توفي سنة 764 هـ / 1363 م صاحب زاوية ملارة الغوتية بفرجيو و خطيب مسجد القصبة أيضا بأمر من السلطان الحفصي<sup>(6)</sup>، و قد نشأ ابن قنفذ القسطنطيني في وسط عائلي علمي ساعده على أن يصبح من مشاهير مثقفي عصره.

1- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسطنطيني، الفارسية في مبادئ الحفصية، تقديم و تحقيق محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 39.

2- عادل نويهض، المرجع السابق، ص 268.

3- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسطنطيني، الفارسية في مبادئ الحفصية...، المصدر السابق، ص 40.

4- أحمد بابا التتبعتي، المصدر السابق، ص 110

ينظر كذلك: أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسطنطيني، الوفيات...، المصدر السابق، ص 7.

5- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسطنطيني، أنس الفقير و عز الحقيير...، المصدر السابق، ص ت.

6- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسطنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص 7.

ينظر كذلك: أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسطنطيني، الفارسية في مبادئ الحفصية...، المصدر السابق، ص 50 - 52.

## المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

بدأ ابن قنفذ القسطنطيني دراسته على والده و على جده لأمه، و لما أنهى المرحلتين الأوليين من تعلمه توجه إلى فاس للأخذ من علماء جامعها الشهيرة و كان سنه آنذاك حوالي 19 سنة و قد ظهرت نجابته في كل العلوم التي درسها قبل سفره و التي أهلته للاستفادة من الأساتذة الكبار الذين تتلمذ لهم بفاس. و قد ترك لنا مترجموه قائمة بهؤلاء الشيوخ كما ذكر هو نفسه الكثيرين منهم في مؤلفاته خصوصا في أنس الفقير و عز الحقيير<sup>(1)</sup> و من بين شيوخ مدينته قسنطينة الذين أخذ عنهم:

1- الحسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس القيسي القسنطيني<sup>(2)</sup>، فقيه مالكي، قاض، خطيب، من أهل قسنطينة، نشأ و تعلم بها، أخذ عن محمد بن محمد ابن غريون البجائي و ابن عبد السلام و غيرهما، توفي سنة 784 هـ و هو على قضاء قسنطينة<sup>(3)</sup> أخذ عنه ابن قنفذ الحديث و غيره من العلوم<sup>(4)</sup>النقلية.

2- الحسن بن أبي القاسم بن باديس<sup>(5)</sup>، فقيه مالكي، قاضي و محدث من مدينة قسنطينة تعلم بها و ببجاية، و أخذ عن ناصر الدين المشذالي و ابن غريون البجائي و ابن عبد الرفيق القاضي و غيرهم، رحل إلى المشرق و أخذ عن صلاح الدين العلائي المقدسي و خليل المكي و ابن هشام النحوي و غيرهم، أدرك في حداثة سنه من المعارف العلمية ما لم يدركه غيره في كبر سنه. توفي سنة 787 هـ<sup>(6)</sup>

## المطلب الثالث: رحلته في طلب العلم

و لما بلغ ابن قنفذ القسطنطيني سن التاسعة عشرة من عمره سنة 759 هـ، انتقل إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى للأخذ عن شيوخها و علماء جامعها و غيرهم من علماء المغرب الإسلامي للاستزادة من المعارف و العلوم. و من أشهر هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم في رحلته<sup>(7)</sup>:

1- أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الشهير بالقباب، الإمام الحافظ العلامة الزاهد، أحد محققي المتأخرين من الحفاظ المشهورين بالدين و الصلاح و التقدم في العلوم، تولى الفتيا بفاس، و له فتاوى مشهورة مجموعة، و هو أول من نقل الونشريسي عنه في المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، توفي سنة 778 هـ أو 779 هـ<sup>(8)</sup>، و قد ذكره ابن قنفذ قائلاً: حضرت مجلسه في الحديث و الفقه و أصول الدين<sup>(9)</sup>

1- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، المصدر السابق، ص ت.

2- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص 7- 8.

3- المصدر نفسه، ص 376. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 27- 28.

4- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، المصدر السابق، ص 92.

5- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، ص 8.

6- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، ص 376- 377.

7- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، ص 8.

8- أحمد بابا التتبيكتي، المصدر السابق، ص 102- 103. ينظر: محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 235.

أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس، المصدر السابق، ج2، ص 123.

9- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، المصدر السابق، ص 70.

2- أبو عمران موسى العبدوسي الفاسي، المدرس و العالم و المفتي، مجلسه بفاس أعظم المجالس يحضره الفقهاء و المدرسون و الصلحاء و حافظ المدونة يحضره من نسخها بيد الطلبة نحو أربعين، و له أدلال عجيب في إقراء التهذيب<sup>(1)</sup> توفي سنة 776 هـ قال عنه ابن قنفذ في كتابه أنس الفقير و عز الحقير و قال عنه: لازمته في المدونة و الرسالة بفاس ثمان سنين<sup>(2)</sup>

3- أبو محمد عبد الله الونغيلى الضرير مفتي فاس و عالمها الفقيه الأصولي المحقق الشهير، انفرد بمعرفة كتاب ابن الحاجب في الأصول و الفروع. أخذ عن أبي الربيع اللجائي الآخذ عن القرافي، و أخذت عن الونغيلى جماعة منهم ابن الخطيب القسنطيني، توفي سنة 779 هـ<sup>(3)</sup> و قد ذكره ابن قنفذ القسنطيني في الأنس و قال: و قد انفرد الونغيلى بفهم كتاب ابن الحاجب في الفروع و الأصول و عليه ختمت الأصلين بفاس بمدرسة الوادي<sup>(4)</sup>

4- أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي من أهل مدينة فاس، أخذ بها عن أحمد بن البنا الأزدي المراكشي علومه التعليمية، و أخذ عنه هو أحمد بن الخطيب (ابن قنفذ)، و والده سليمان هو الذي أدخل مختصر ابن الحاجب الأصلي مدينة فاس، توفي سنة 771 هـ و قيل في التي تليها بعدها<sup>(5)</sup> قال عنه ابن قنفذ في الأنس: كان شيخنا في العلوم السماوية، و ممن قرأ عليه يحدث عنه بالغرائب... و كان اللجائي آية في فنونه و ممن بعض أعماله أنه اخترع اسطرلابا ملصوقا في جدار و الماء يدير شبكته على الصحيفة، فيأتي الناظر فينظر إلى ارتفاع الشمس كم هو و كم مضى من النهار و كذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل، و هو من الأعمال الغربية<sup>(6)</sup> و كان عبد الرحمن بن سليمان اللجائي باخترعه هذا، كان فلكيا عبقريا في عصره.

5- أبو القاسم محمد بن أحمد الحسيني السبتي المعروف بالشريف الغرناطي، ولي قضاء غرناطة، عظيم الهيبة، قليل الناقد، ثم عُزل عن القضاء من غير زلة تُحفظ، فتحيز إلى التحليق لتدريس العلم، و تفرغ لإقراء العربية و الفقه، ثم أعيد إلى القضاء، و توفي قاضيا بغرناطة سنة 760 هـ<sup>(7)</sup> كتب لابن قنفذ بالإجازة العامة بعد التمتع بمجلسه. كان إماما في الحديث و الفقه و النحو<sup>(8)</sup> و يظهر أن ابن قنفذ أخذ عنه عندما كان في زيارته الأخيرة بفاس لأبي القاسم لها قبل وفاته، لأن ابن قنفذ لم يدخل المغرب إلا في سنة 759 هـ<sup>(9)</sup>، ثم قصد جامع القرويين بفاس و أخذ يتعمق و يوسع في دراسة مختلف العلوم، منها التصوّف.

1- أحمد بابا التبتكتي، المصدر السابق، ص 604

2- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقير، المصدر السابق، ص 78.

3- أحمد بابا التبتكتي، المصدر السابق، ص 223. ينظر كذلك: محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 235.

أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس، المصدر السابق، ج2، ص 424.

4- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقير، المصدر السابق، ص 78.

5- أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي الفاسي، جذوة الاقتباس، المصدر السابق، ج2، ص 403

6- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقير، المصدر السابق، ص 68.

7- إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون، المصدر السابق، مج 2، ص 248

8- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص 362.

9- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقير، المصدر السابق، ص 78.

6- محمد بن أحمد ابن مرزوق التلمساني، شمس الدين أبو عبد الله الشهير بابن مرزوق الخطيب و الجد، من أكابر علماء المالكية في عصره، له مشاركة في فنون الأدب و الدين و العلم، تولى عدة مناصب كالخطبة و القضاء و السفارة للمرينيين إلى ملوك قشتالة بالأندلس<sup>(1)</sup>، أخذ عنه ابن قنفذ الحديث وصحيح البخاري و غيرها<sup>(2)</sup> من العلوم النقلية.

7- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي، المعروف بالشريف التلمساني، قال الإمام ابن مرزوق الحفيد هو شيخ شيوخنا أعلم أهل عصره بإجماع، قال ابن خلدون هو صاحبنا الإمام الفذ، فارس المعقول و المنقول صاحب الفروع و الأصول<sup>(3)</sup>. كان لسان الدين ابن الخطيب كلما ألف كتابا بعثه إليه و عرضه عليه، توفي سنة 771 هـ<sup>(4)</sup>

8- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الـورغمي التونسي، الإمام العلامة المقرئ الفروعى الأصولي البياني المنطقي شيخ الشيخ، أخذ عن الفقيه القاضي أبي عبد الله بن عبد السلام، و عن الفقيه المحدث أبي عبد الله محمد بن محمد بن حسين بن سلمة الأنصاري، وتفقه على الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، و أبي عبد الله محمد بن هارون، و محمد بن حسن الزبيدي، و أبي عبد الله الأيلي، تخرج على يديه جماعة من العلماء الأعلام، و قضاه الإسلام، توفي سنة 803 هـ<sup>(5)</sup> في سن شيوخته.

9- أبو علي حسن بن أبي القاسم ابن باديس القسنطيني، الفقيه القاضي الشهير المحدث، روى عن ناصر الدين المشدالي و ابن غريون البجائي و ابن عبد الرفيق القاضي و صلاح الدين العلائي و خليل المكي و ابن هشام النحوي و غيرهم، له تقايد علمية منها: شرح مختصر ابن فارس في السير، و أدرك في حادثته من المعارف العلمية ما لم يدركه غيره في سنة<sup>(6)</sup> توفي سنة 787 هـ و سنة يقرب من تسعين سنة<sup>(7)</sup>

10- محمد فتح بن ابراهيم النفزي الفاسي، شيخ العلماء و الزهاد و إمام الصلحاء و العباد الفقيه المتقن العارف بالله المحقق ذو العلوم الباهرة و المحاسن الفاخرة و الكرامات الظاهرة. كان والده خطيبا نجيبا فصيحاً، و ذا عقل و سكون و زهد و بالصلاح مقرون، له كلام عجيب في التصوف و صنف فيه<sup>(8)</sup> المعروف بابن عباد المتوفى سنة 792 هـ و هو شارح الحكم العطائية و قد أورد عنه ابن قنفذ في الأنس معلومات قيمة<sup>(9)</sup>، بالإضافة إلى أعلام أخرى اشتهروا بالعلوم و الآداب و الفنون.

1- أحمد بابا التتكتي، المصدر السابق، ص ص 450-455. ينظر كذلك: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء و

العلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص ص 184-189. عادل نويهض، المرجع السابق، ص ص 289-290.

2- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقير، المصدر السابق، ص 93.

3- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، المصدر السابق، ص ص 164-174.

4- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، ص 8.

5- إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون، المصدر السابق، مج 2، ص ص 211-212.

6- أحمد بابا التتكتي، المصدر السابق، ص 160

7- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقير، المصدر السابق، ص 50

8- محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص ص 238-239.

9- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير و عز الحقير، المصدر السابق، ص ص 472-476.

أقام ابن قنفذ 18 عام في المغرب (759 - 776 هـ)، و خلال هذه الفترة المليئة بالنشاط العلمي، طاف ربوع المغرب و لقي عددا من المتصوفة، و زار أضرحة الصالحين، و من المدن التي زارها: أسفي، سلا، دكالة، أزموور، و غيرها، و يستفاد مما ذكره في كتابه أنس الفقير و عز الحقير أنه ولي القضاء بدكالة سنة 769 هـ حيث قال: «و قد حضرت مع جملة من هذه الطوائف زمان قضائي بدكالة، و كان الاجتماع في شهر ربيع الأول سنة 769 هـ»<sup>(1)</sup>

### المطلب الرابع: عودته إلى قسنطينة

عاد ابن قنفذ إلى بلده قسنطينة سنة 776 هـ، و هي السنة التي قتل فيها ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب و عمّ الجوع كافة أنحاء المغرب، فمرّ بمدينة تلمسان و زار ضريح أبي مدين التلمساني، و قد أشار إلى ذلك حين قال: «و آخر زياراتي له عند اجتيازي عليه في ارتحالي من المغرب إلى بلد قسنطينة و ذلك في سنة ست و سبعين و سبعمائة. و في هذه السنة كانت المجاعة العظيمة في المغرب، و عم الخراب به. فوردت تلمسان و الحالة هذه و أقمت بها قرب شهر غير و اجد للطريق.»<sup>(2)</sup>

و بعد رجوعه إلى قسنطينة بنحو عام واحد نجده بمدينة تونس حيث قرأ على أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي، صاحب «المختصر الكبير» في فقه المالكية. و قد ذكره في وفيات سنة 803 هـ من هذا الكتاب و قال: «قرأت عليه بعضه (أي المختصر) و انعم بمناولته و إجازته، و ذلك سنة سبع و سبعين و سبعمائة بدويرة جامع الزيتونة»، ثم عاد إلى قسنطينة فولي الخطبة و الافتاء و القضاء، و عكف على التدريس و التأليف إلى أن تُوفي بها<sup>(3)</sup>

### المطلب الخامس: وفاته

أجمعت كُتب الطبقات و التراجم على أن وفاة ابن قنفذ كانت سنة 810 هـ/1407 م، و أول من ذكر ذلك ابن القاضي في جذوة الاقتباس<sup>(4)</sup>، أما في درة الحجال فقد أثبت أولا أنه كان على قيد الحياة سنة 807 هـ و ثانيا أنه توفي سنة 810 هـ<sup>(5)</sup>، و ذكر وفاته مثل ذلك معاصر ابن القاضي و أحمد بابا التتبكتي في نيل الابتهاج<sup>(6)</sup>، و نجد الكثيرين ممن ترجموا لابن قنفذ بعد التتبكتي اعتمدوا على مؤلفه نيل الابتهاج في ترجمته.

انفرد الزركشي في تاريخ الوفاة و جعله 809 هـ عندما قال: «و في ليلة الجمعة الثانية عشر لربيع من سنة تسع توفي قاضي قسنطينة الفقيه أبو العباس أحمد بن الخطيب شارح رسالة الشيخ ابن أبي زيد و شارح جمل الخونجي و غيرها.»<sup>(7)</sup>

1- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص 10 - 11.

2- المصدر نفسه، ص 11.

3- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، المصدر السابق، ص 11 - 12.

4- ينظر: أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ج1، ص 155.

5- أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج1، ص 123.

6- أحمد بابا التتبكتي، المصدر السابق، ص 110.

7- أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، تح محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص 123.

### المطلب الأول: مولده ونشأته

هو محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، يكنى أبا عبد الله و يعرف بابن عبد المنعم، أندلسي من أهل سبتة الأستاذ الحافظ<sup>(1)</sup>، يلقب بابن عبد المنعم الحميري و أيضا بالشيخ العمدة، لا نعرف كثيراً عن نشأته و لكن الثابت أنه من علماء القرن التاسع الهجري<sup>(2)</sup>، و لا يُعرف إذا كان الحميري قد وُلد بها أو أنه وُلد بإحدى المدن الأندلسية و عاش بها ثم قضى الجزء الأخير من عمره في سبتة، أما كنيته التي عرف بها فهي (أبو عبد الله)<sup>(3)</sup>، ذكر أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي أنه وُلد بمدينة سبتة كبقية أفراد أسرته<sup>(4)</sup>، و قد تميزت مدينة سبتة بموقعها الجغرافي و مرفئها القريب المقابل لبلاد الأندلس.

و قد نسب المقري صاحب «نفح الطيب» الحميري إلى الأندلس عندما قال: «و لنرجع إلى كلام صاحب الروض المعطار فإنه أقعد بتاريخ الأندلس إذ هو منهم، و صاحب البيت أدري بالذي فيه»<sup>(5)</sup>، و يرجع ذلك إلى أن سبتة كانت في بعض السنوات التي عاش فيها الحميري جزءاً من الأندلس<sup>(6)</sup> و كانت في ذلك العصر أجزاء كثيرة من الأندلس تابعة لسلطين المغرب من بني مرين<sup>(7)</sup>، لكن اهتمام الحميري بجغرافية الأندلس و أحداثها في كتابه يجعل المرء يظن أنه أندلسي، فالخطأ هنا ليس خطأه[الحميري] الذي كان من سبتة دخل الأندلس، و إنما هو خطأ الذين ظنوا أنه أندلسي النسبة لإسرافه في الحديث عن الأندلس<sup>(8)</sup>، و أمام شح المعلومات في كتب التراجم عن حياة الحميري، يبقى مؤلفه «الروض المعطار في في خبر الأقطار» هو المصدر الذي قد يفى بترجمة مقبولة عن شخصية و حياته.

أنجبت مدينة سبتة أعلام كثيرين في مختلف العلوم و بالأخص علم الجغرافيا أمثال الشريف الإدريسي (ت 560 هـ) و يبدو أن الحميري نشأ في نفس البيئة الجغرافية التي نشأ فيها الإدريسي مما وُلد له ميول شجعه على الاهتمام بهذا العلم و البحث فيه.

أهم ابن الخطيب ذكر اشتغال محمد بن عبد المنعم الحميري بالجغرافيا لأن الناس كانوا لا يرون كتب الجغرافيا و الفلسفة و غيرها من الأعمال التي لا تستحق الذكر بين أعمال العلماء<sup>(9)</sup>

1- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص ز .

ينظر: عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج6، ص 652. ينظر كذلك: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج7، ص 35.

2- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 227.

3- عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 154.

4- أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، ج1، المرجع السابق، ص 447.

5- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج2، ص 362.

6- محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم للطباعة و النشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1999، ص 193.

7- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، المصدر السابق، ص 533.

ينظر كذلك: محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص 193.

8- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص ط.

9- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، المرجع السابق، ص 532.

## المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

أخذ الحميري ببلده عن الشيخ "أبي إسحاق الغافقي"<sup>(1)</sup> و لازم الشيخ "أبا القاسم ابن الشاط"<sup>(2)</sup> و انتفع به و بغيره من العلماء<sup>(3)</sup> قال عنه ابن الخطيب: « كان صالحاً كثيراً الحفظ يستظهر صحاح الجوهرى و كتاب سيبويه يسرده بلفظه غالبه فى الشطرنج بالغائب مشاركاً فى عدة فنون.»<sup>(4)</sup> كان أبو عبد الله الحميرى اجتماعياً يكره الوحدة و الانزواء، لذا اشتهر بلعبة الشطرنج حتى صار يشار إليه بالبنان، و هذه الهواية لم تحد من إحاطته النادرة النظير فى المكتبة العربية فى حقلى التاريخ و الجغرافية. و يعتبر بحق من كبار المفكرين فى علم الجغرافية الوصفية<sup>(5)</sup>

طبعت الثقافة شخصية ابن عبد المنعم الحميرى، فقد كان إلى جانب غير قليل من التدين، كما يمكن أن يتصوره من يقرأ كتابه «الروض المعطار»، مهتماً بإعراب كلامه، و فى هذا من المشقة عليه و على معاصريه، و فى كتاب «الروض المعطار» ما يشير من بعيد إلى ملامح من شخصيته، فهى من ناحية التقوى لا يدع أحداً من الصحابة دون أن يقرن اسمه بـ«رضي الله عنه»، و لو مرّ فى الصفحة الواحدة عدة مرات، و يعنى هذا أن الحميرى كان يحب أن يقف عند أمجاد المسلمين الأوائل، و لهذا أكثر من نقل أخبار الفتوح<sup>(6)</sup>، و ربما كان هذا تعبيراً عن مشاعره الذاتية أو تقليداً للمؤرخين و الجغرافيين المسلمين الأوائل الذين كتبوا مؤلفات فى التاريخ و الجغرافيا.

كان محمد بن عبد المنعم الحميرى رجل صدق، طيب اللهجة، سليم الصدر، تام الرجولة، صالحاً، عابداً، صادق اللسان. قرأ كثيراً، و سنّه تنيف عن على سبع و عشرين، و كان من صدور الحُفّاظ، لم يستظهر أحد فى زمانه من اللغة ما استظهره، فكان يستظهر كتاب التاج للجوهرى و غيره، آية تتلى، و مثلاً يضرب، اختبره الفاسيون فى ذلك غير ما مرة. طبقة فى الشطرنج، يلعبها محبوباً، مشاركاً فى الأصول آخذاً فى العلوم العقلية، مع الملازمة للسنة. يُعرب أبداً كلامه و يزينه<sup>(7)</sup>، و ذكر أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى أن الحميرى كان يعمل فى توثيق العقود لكنه لم يتحدث عن طبيعة هذه العقود<sup>(8)</sup>، و هى مهنة تتطلب من الشخص المؤكدة إليه أن يكون رجلاً متعلماً، ذو خبرة و كفاءة فيها.

1- **أبي إسحاق الغافقي**: إبراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي الاشبيلي، يُكنى أبا إسحاق، قاض، أستاذ الطلبة، و إمام الحلبة، أخذ عنه الكبير و الصغير، ولى القضاء بسبته، كان واحد عصره، و فريد قطره، و عمدة طلبته الموثوقين بما أُستفيد فى مجلسه من فنون العلوم.

ينظر: أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقي الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس، تح لجنة إحياء التراث العربي فى دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 5، 1983، ص ص 133-134.

2- **أبا القاسم ابن الشاط**: قاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري المعروف بابن الشاط، الفقيه الأجل المتقن الأعراف، كان عارفاً بالأصليين، و الفروع، و الفرائض، و الحساب. ينظر: ينظر: أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج 3، ص 270.

3- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 3، ص 135. ينظر كذلك: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 7، ص 35.

4- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج 4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 33.

5- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 228.

6- محمد بن عبد المنعم الحميرى، المصدر السابق، المقدمة ص ط.

7- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 3، ص 134.

8- أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى، ج 1، المرجع السابق، ص 447.

### المطلب الثالث: مشاركته في الحياة السياسية

**الأولى:** قدم غرناطة مع الوفد [الذين قدموا] من أهل بلده [سبتة] عندما صار إلى إيالة الملوك من بني نصر لما وصلوا بالبيعة، و قد كان انتماء سبتة إلى حكم بني نصر سنة 705 هـ، و عودتها إلى المرينيين سنة 709 هـ، و على هذا تكون الوفاة قد تمت في أوائل تلك المرحلة بين هاتين السنتين<sup>(1)</sup>

**الثانية:** زار الحميري سلطان المغرب بأحواز تازة فكان رفقة الوفد الذين استأصلهم الموت إثر وباء جارف<sup>(2)</sup> اجتاح البحر المتوسط بين سنتي 748 و 750 هـ / 1347 و 1349 م و الذي وصف المقرئ فاعليته في شرق المملكة الإسلامية، و فصل ابن الخطيب ما أنزله بالمغرب الأقصى و الأندلس<sup>(3)</sup>، و قد استبعد المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (*Lévi-Provençal*) أن يكون ابن عبد المنعم الحميري قد هلك في هذا الوباء.

عُرف الحميري بين أصحابه بالبلاغة و اللباقة و الرقة يحب الخير للجميع، و لهذا بقي محل تقدير جميع زملائه<sup>(4)</sup>، و تمتعت أسرته بنفوذ كبير على ممر قرون طويلة بمدينة سبتة<sup>(5)</sup> التي دخلت طاعة بني نصر فيما بين سنتي 705 و 709 هـ / 1306 و 1309 م<sup>(6)</sup>، و مما يجدر الإشارة إليه أن ثقافة ابن عبد المنعم الحميري الواسعة كسبت له تقدماً في مدينة سبتة، و لهذا نجده يشارك في حياتها السياسية مرتين:

### المطلب الرابع: رحلاته

ورد في مقدمة كتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) أن الحميري لم يرحل، و لم يكتب كتابه عن مشاهدة - أو حتى عن سماع - محوطاً بكثير من التوفيق<sup>(7)</sup>، غير أنه من الصَّعب على أي جغرافي مثل الحميري أن يكتب معجماً ضخماً عن أنحاء المعمورة في زمانه، دون جمع مادته العلمية من خلال الإطلاع على مؤلفات سابقه من المؤرخين و الجغرافيين المشاركة و المغاربة، أو القيام برحلة.

و رغم الظروف السياسية في الأندلس إلا أن ابن عبد المنعم الحميري استطاع و بكل جدارة أن يقدم لنا معارف جغرافية هامة مستنداً على رحلاته و مشاهداته الشخصية و المصادر الموثوقة بها، و استطاع كذلك أن يجني ثمار رحلته إلى مكة المكرمة التي قام بها لأداء فريضة الحج، حيث مكث هناك زمناً طويلاً للعبادة و الدراسة على يد المتبحرين و المتعمقين في مختلف العلوم في المشرق العربي الإسلامي<sup>(8)</sup>، و هي رحلة حجازية و علمية اعتاد عليها المغاربة و الأندلسيون.

1- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص ص ح، ي.

2- المصدر نفسه، المقدمة ص ي.

3- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، المصدر السابق، ص ص 533-534.

4- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص ص 227-228.

5- أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، ج1، المرجع السابق، ص 447.

6- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، المرجع السابق، ص 533.

7- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص ن.

8- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص ص 229-230.

## المطلب الخامس:وفاته

ذكر ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) في كتابه الدرر الكامنة أن الحميري توفي في ذي القعدة 727 هـ<sup>(1)</sup>، و أورد القلقشندي في صبح الأعشى، بأنه نقل عن الروض المعطار عندما تحدث عن مدينة دُنُقَلَة بلاد النوبة عندما قال:«الظاهر أنها بضم الدال المهملة و سكون النون و قاف مضمومة و لام مفتوحة و هاء في الآخر...و رأيتها في "الروض المعطار" مكتوبة(دَمَقْلَة) بإبدال النون ميما، مطبوعة بفتح الدال، و باقي الضبط على ما تقدم»<sup>(2)</sup> و قد انتهى من تأليف كتابه «صبح الأعشى» عام (814 هـ/1412 م).

ورد ذكر الروض المعطار في كشف الظنون مرتين، مرة على أن مؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم الحميري المتوفى سنة 900 هـ<sup>(3)</sup>، و في نسخة أخرى على أن المؤلف هو أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري دون ذكر لسنة الوفاة، و قد كان هذا محيراً للمستشرق ليفي بروفنسال (*Lévi-Provençal*) حين أقدم على نشر القسم المتعلق بالأندلس من الروض<sup>(4)</sup>، و من خلال إطلاعه على ختام إحدى النسخ التي اعتمد عليها فهم بروفنسال أن ابن عبد المنعم الحميري قد انتهى من تأليف كتابه سنة 866 هـ، و هذا يقوّي القول بأن يكون تاريخ وفاته سنة 900 هـ صحيحاً<sup>(5)</sup>، بينما يرى عمر فرّوخ أن وفاة الحميري كانت بُعيد 866 هـ/1462 م<sup>(6)</sup>، و مهما كان الأمر فإن التاريخين المذكورين متقاربين.

و يقول الدكتور إحسان عباس:«إن ذكر حاجي خليفة له(الحميري)مرتين يعني أنه اطلع على نسختين: إحداهما ذكرت اسمه كاملاً و الأخرى ذكرت اسمه موجزاً، و لما كان حاجي خليفة - و هو منسق ببليوغرافي - غير مسؤول عن تحقيق الفرق بين الاسمين، فإثباته ما أثبتته أمانة دقيقة منه في عمله.»، و قد حاول المستشرق الفرنسي غودقري - ديموميين أن يفسر ذكر حاجي خليفة سنة 900 هـ تاريخاً لوفاة المؤلف، بأن هذا يعود لخطأ شائع في المخطوطات العربية بسبب الخلط بين «تسعمائة» و «سبعمائة»، و وافقه على ذلك المستشرق رتزينانو، و لكن عام «سبعمائة» لا يصلح لتقرير سنة الوفاة<sup>(7)</sup>.

كان ابن عبد المنعم الحميري كثير القُرب و الأوراد في آخر حاله<sup>(8)</sup> و أكدَّ محمد بن القاسم الأنصاري السبتي أنه مقبور بمقبرة المنارة بسببته<sup>(9)</sup>، مما يرجح أن الحميري ينسب إلى مدينة سببته.

- 1- شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج 4، ص 33.
- 2- القلقشندي أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 5، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340 هـ/1922 م، ص 275
- 3- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، مج 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 920.
- 4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص 5.
- 5- المصدر نفسه، ص و.
- 6- عمر فرّوخ، المرجع السابق، ج 6، ص 652.
- 7- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص ز.
- 8- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 3، ص 134.
- 9- محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سببته من سني الآثار، تح عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983، ص ص 19، 20.

### المطلب الأول: مولده ونشأته

هو علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي أبو الحسن الشهير بالقلصادي الأندلسي العالم العامل، الشيخ الصالح الفاضل المؤلف الرحال المعتمني بلقاء الرجال خاتمة علماء الأندلس و حفاظه<sup>(2)</sup>، ولد بمدينة بسطة (Baza) الأندلسية الواقعة في الشمال الشرقي لغرناطة و التابعة لكورة "جيان"<sup>(3)</sup> و هي مدينة ذات مناخ جميل و طبيعة خلابة أحبها القلصادي من أعماقه<sup>(4)</sup> و وصفها و دعا لها بقوله: « بسطة مسقط رأسي، و موضع أول أنفاسي، مقر الألفة و الأئس، من جزيرة الأندلس، أدامها الله للإسلام، و حماها من عبدة الأصنام.»<sup>(5)</sup> و كان مولد القلصادي سنة 815 هـ / 1412 م<sup>(6)</sup> أو قبلها<sup>(7)</sup> أو بعدها بقليل. و في مدينة بسطة الأندلسية الجميلة نشأ أبو الحسن علي القلصادي.

### المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه

و تلقى علي القلصادي دراسته الأولى في مدينة بسطة على شيوخها<sup>(8)</sup>:

- الولي الصالح أبو الحسن علي بن عزيز المهتم بقراءة القرآن.
- أبو عبد الله محمد القسطلري الورع المشارك في كثير من علوم الشريعة و علوم العربية.
- المقرئ أبو بكر البياز.
- أبو عبد الله محمد بن محمد البياني.
- أبو أحمد جعفر بن أبي يحيى المتضلع في الفقه و الفرائض و الحساب.
- أبو الحسن علي اللخمي القرباقي الحاذق لعلوم عصره.

كانت دراسة القلصادي تتمحور حول مختلف العلوم في عصره و خاصة تجويد القرآن و تفسيره، و الحديث النبوي و فروع الفقه و قواعد العربية و الحساب الذي له صلة وثيقة بالفرائض، و كان منهج الدراسة يعتمد المنظومات و المتون و شروحها التي كانت سائدة في مدارس الأندلس و المغرب في ذلك العهد.<sup>(9)</sup>

1- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص 10.

2- محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 261.

3- جيان: مدينة بالأندلس بينها و بين بياسة و بين بياسة عشرون ميلا، و هي كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة اللحوم و العسل. كما تقع على بعد 97 كم شمالي غرناطة و تسمى اليوم جين (Jean). ينظر: محمد بن عبد المنعم الجُميري، المصدر السابق، ص 183.

ينظر كذلك: أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، مج 1، ص 165، هامش 3.

4- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي، دراسة و تحقيق محمد أبو الأجنان، دار ابن حزم، ط1، 1432 هـ / 2011 م، ص ص 31-32.

5- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 86-87.

6- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص 10.

7- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج6، دار الجيل، بيروت، ص 14.

8- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 32.

9- المصدر نفسه، ص 33.

### المطلب الثالث: رحلته ونشاطه العلمي

بدأ القلصادي رحلته و نشاطه العلمي سنة 840 هـ/1437 م، قاصدا المراكز الثقافية الشهيرة في عصره بالمغرب و المشرق للنهل و الاغتراف من ينابيعها الفياضة. اتجه أولا إلى مدينة تلمسان التي كانت تعيش في ذلك الوقت أزهى أيام حياتها الثقافية، فأخذ عن أشهر أعلامها<sup>(1)</sup>:

و كل هؤلاء الشيوخ كانت لهم شهرة علمية واسعة و لبعضهم رحلات في سبيل العلم و إنتاج في فنون شتى و اهتمام برواية الحديث. كما حضر القلصادي بعض مجالس العلم في تلمسان ، و استفاد منها دون أن يقرأ بنفسه على شيوخها، و أعلام هذه المجالس.

لم يكن القلصادي يقتصر في هذا الوقت على التلقي عن شيوخ تلمسان، بل كان يركز بعض جهوده في ميدان التأليف. و مما ألفه في هذه الفترة كتابه «التبصرة الواضحة في مسائل الأعداد»، و كان أيضا يعقد حلقات للدرس و يتولى الإقراء، فيحضر جمع غفير من الطلبة للقراءة عليه و الاستفادة منه، و كان يدرس بعض الكتب التي صنّفها بنفسه.

أقام القلصادي في مدينة تلمسان ثمانية أعوام و كان لهذه المدينة الحظ الأوفر من إقامته خلال هذه الرحلة، و لعل ذلك يعزى إلى ما ظفر به لدى طلبتها من حظوة و تقدير، ولدى علمائها من استفادة و مودة<sup>(2)</sup> ثم تركها إلى وهران كما جاء في رحلته: «ثم أجمعت أمري على السفر، و قطعت حرف الجزم عن التواني و الاستقرار، و ذلك عام ثمانية و أربعين و ثمانمائة، فقدمت وهران بعد مفارقة تلمسان، و أقمت بها برهة من الزمان، مع عدة من الأحباب و الإخوان»<sup>(3)</sup> و كان قصده دائما لقاء شيوخ العلم.

كانت تونس المركز العلمي الثاني الذي ارتحل إليه القلصادي للأخذ من مراكزها العلمية و مدارسها مختلف العلوم و الفنون من أعلام تونس و شيوخها<sup>(4)</sup>، و عبّر عن إعجابه به لما رأى فيه: «سوق العلم حينئذ نافقة و ينابيع العلوم على اختلافها مغدقة، فلا ترى مدرسة أو مسجدا إلا و العلم فيه يبيث و ينشر»<sup>(5)</sup> و أقام القلصادي بتونس مدة سنتين و نصف سكن خلالها بالمدرسة الجديدة بحي باب السويقة، و بالمدرسة المنتصرية القريبة من جامع الزيتونة و ذلك في رحلة الذهاب إلى البقاع المقدسة<sup>(6)</sup> للقيام بمناسك العمرة و أداء فريضة الحج.

كان القلصادي يعقد حلقات للدرس و يتولى الإقراء، فيحضر جم غفير من الطلبة للقراءة عليه و الاستفادة منه، وكان يدرس بعض الكتب التي صنّفها بنفسه<sup>(7)</sup> و كان كلما انتقل من حاضرة علمية إلى أخرى، زاد مستواه العلمي و ارتفعت مكانته في عيون شيوخه و طلابه.

1- ينظر الملحق رقم (04)، ص 286.

2- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 34-35.

3- المصدر نفسه، ص 116.

4- نفسه، ص 35 - 38.

5- نفسه، ص 120.

6- نفسه، ص 36.

7- نفسه، ص 34.

غادر القلصادي تونس قاصدا الديار المصرية و عن هذا يقول: « و إذ تجدد خاطر الرحلة إلى الديار المصرية، و الأخذ عن الأشياخ و العلماء الجلة الفضلاء، أجمعت أمري على ذلك، و استخرت الله في أن يهديني إلى أقوم المسالك، إلى أن تهيأ مركب برسم الإسكندرية، و كان سفرنا من مرسى تونس كلاًها الله 14 من شهر ربيع الأول عام 851 هـ / 30 ماي 1447 م »<sup>(1)</sup>

وصل القلصادي إلى مدينة القاهرة و زار بعض معالمها و وصف أحوالها قائلاً: «و دخلنا القاهرة... و رأينا فيها من الأمور و الأحوال، ما لا يعده الحصر و القياس، من كثرة الخلق و ازدحام الناس، و نزلت بجامع الأزهر، و وجدت هناك بعض الفضلاء و الأخيار من أهل المغرب»<sup>(2)</sup> و يبدو أن إقامة القلصادي بالقاهرة كانت قصيرة، فمنها انطلق القلصادي في رحلته إلى الحجاز.

و بعد رحلة استمرت حوالي خمس عشرة سنة، جنى فيها القلصادي أطيب الثمار العلمية و احتك ببعض أقطاب عصره في بلاد المغرب و المشرق، عاد إلى مسقط رأسه بسطة فترة من الزمن، انتقل بعدها إلى غرناطة لملازمة شيوخ الأندلس و علمائها، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن فتوح الذي قال عنه: «...كان اعتناؤه بالأصلين و المنطق و المعاني و البيان، و كان له تحقيق بتفسير الكتاب العزيز و حديث النبي عليه الصلاة و أفضل التسليم. و كان عالماً بالعربية حافظاً لكثير من اللغة و الأدب و الشعر وغير ذلك من العلوم...»<sup>(3)</sup> و الشيخ أبو عبد الله محمد السرقسطي الذي ذكره: «فأما سيدي السرقسطي فكان من أحفظ الناس لمذهب الإمام مالك رضي الله عنه... كان فصيحاً في كتبه و جيز العبارة، و كان له مشاركة في علوم الشريعة، و كان اعتكافه على قراءة المذهب...»<sup>(4)</sup>

#### المطلب الرابع: وفاته

أحس القلصادي بالخطر يتفاقم بالأندلس و الداعي لتفكيك هذه الرقعة الإسلامية التي عرفت قيام أزهى حضارة في ذلك العهد، فرحل إلى باجة بأفريقية و واصل نشاطه العلمي و ذلك سنة 888 هـ<sup>(5)</sup> و بها توفي في منتصف ذي الحجة من سنة 891 هـ / ديسمبر 1486 م و دفن بمكان يعرف عند أهل باجة بالمسيد<sup>(6)</sup> بضاحية سيدي فرج، على ربوة تشرف على المدينة، و يردد بعض الشيوخ أن القلصادي أُغتيل بيد آثمة توقع صاحبها أن يكون له ثروة ، و طمع في الاستيلاء عليها، فخاب ظنه، و من الناقلين لهذا الخبر المتواتر المرحوم محمد الماي الذي يروي عنه حفيده محمد العنابي ذلك، كما يروي ذلك عن الشيخ محمد الشواشي الباجي<sup>(7)</sup>، لكن الروايات المتضاربة في وفاة القلصادي صعبت من ضبط ظروف الوفاة بشكل دقيق.

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 127 - 128.

2- نفسه، ص ص 131 - 132.

3- نفسه، ص ص 172 - 173.

4- نفسه، ص ص 168 - 169.

5- أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق ، ص 393.

6- المسيد: تحريف لفظ المسجد. ينظر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، الهامش 3، ص 55.

7- المصدر نفسه، ص 55.

## الفصل الثالث

التعريف بمؤلفات الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين

من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 .)

المبحث الأول: أبو الحسن بن سعيد المغربي (ت 685 هـ/1285 م)

المطلب الأول: منهجه

المطلب الثاني: أسلوبه

المطلب الثالث: أهم مصنفاة

المطلب الرابع: مصادر دراسة جغرافيته

المطلب الخامس: أهمية مؤلفاته

المبحث الثاني: العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد (توفي بعد سنة 700 هـ/1300 م)

المطلب الأول: منهجه

المطلب الثاني: أسلوبه

المطلب الثالث: مؤلفاته

المطلب الرابع: أهمية الرحلة

المطلب الخامس: مصادره

المبحث الثالث: ابن الحاج النميري (ت 768 هـ/1367 م)

المطلب الأول: منهجه وأسلوبه

المطلب الثاني: رحلته

المطلب الثالث: آثاره

المبحث الرابع: لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ/1374 م)

المطلب الأول: منهجه وأسلوبه

المطلب الثاني: مكانته السياسية

المطلب الثالث: آثاره

المطلب الرابع: مصادره

المبحث الخامس: ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 779 هـ/1377 م)

المطلب الأول: تدوين رحلاته

المطلب الثاني: أسلوب الرحلة

المطلب الثالث: منهجه

المطلب الرابع: مؤلفاته

المطلب الخامس: القيمة العلمية للرحلة

المطلب السادس: اهتمام المستشرقين بتحفة النظار

المبحث السادس: الحاج عبد الله بن الصباح (النصف الثاني من القرن 8 هـ/14 م)

المطلب الأول: المطلب الأول: منهجه  
المطلب الثاني: المطلب الأول: أسلوبه  
المطلب الثالث: مصادره

المبحث السابع: ابن خلدون عبد الرحمن (ت 808 هـ/1406 م)

المطلب الأول: أسلوبه و منهجه  
المطلب الثاني: مشاركته في مختلف العلوم  
المطلب الثالث: مؤلفاته  
المطلب الرابع: مصادره

المبحث الثامن: ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب (ت 810 هـ/1047 م)

المطلب الأول: أسلوبه  
المطلب الثاني: مؤلفاته  
المطلب الثالث: مكانته العلمية  
المطلب الرابع: مشاركته في النقاش العلمي

المبحث التاسع: الحميري محمد بن عبد المنعم (ت 866 هـ/1463 م)

المطلب الأول: خطته و منهجه  
المطلب الثاني: أسلوبه  
المطلب الثالث: مصادره  
المطلب الرابع: أهم خصائص الروض المعطار  
المطلب الخامس: أثر الروض المعطار و قيمته

المبحث العاشر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي (ت 891 هـ/1486 م)

المطلب الأول: أسلوبه  
المطلب الثاني: مصنفاته  
المطلب الثالث: أهمية رحلته

خصصت الفصل الثالث للتعريف بمؤلفات الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى 9 هـ (13 - 15 م)، فالمبحث الأول تناولت فيه أبو الحسن بن سعيد المغربي (ت 585 هـ / 1285 م)، فالمطلب الأول تحدثت فيه عن منهجه، و في المطلب الثاني تناولت أهم مصنفاته، أما المطلب الرابع تحدثت فيه عن مصادر دراسة جغرافيته، أما المطلب الخامس تكلمت فيه عن أهمية مؤلفاته. أما المبحث الثاني جعلته للعبدي أبو عبد الله محمد بن محمد (توفي بعد 700 هـ / 1300 م)، فتناولت في المطلب الأول منهجه، و في المطلب الثاني تناولت أسلوبه، أما المطلب الثالث تحدثت فيه عن مؤلفاته، أما المطلب الرابع تكلمت فيه عن أهمية رحلته، و في المطلب الخامس تحدثت عن مصادره.

و في المبحث الثالث تناولت ابن الحاج النميري (ت 768 هـ / 1367 م)، فتناولت في المطلب الأول منهجه و أسلوبه، و في المطلب الثاني تحدثت عن رحلته، أما المطلب الثالث تناولت فيه آثاره. خصصت المبحث الرابع للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ / 1374 م)، فتناولت في المطلب الأول منهجه، و أسلوبه و في المطلب الثاني تناولت مكانته السياسية، أما المطلب الثالث تحدثت فيه عن آثاره، أما المطلب الرابع تحدثت فيه عن مصادره.

أما المطلب الخامس فتناولت فيه ابن بطوطة (ت 779 هـ / 1377 م)، فتناولت في المطلب الأول تدوين رحلاته، و في المطلب الثاني أسلوب الرحلة، أما المطلب الثالث تناولت فيه منهجه، و في المطلب الرابع مؤلفاته، أما المطلب الخامس فخصصته للقيمة العلمية للرحلة، و المطلب السادس خصصته لاهتمام المستشرقين بتحفة النظر.

و قد خصصت المبحث السادس للحاج المدجن عبد الله بن الصباح (النصف الثاني من القرن 8 هـ / 14 م)، ففي المطلب الأول تناولت منهجه، و في المطلب الثاني تناولت أسلوبه، أما المطلب الثالث تحدثت فيه مصادره. أما المبحث السابع فخصصته لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ / 1406 م)، فالمطلب الأول تحدثت فيه عن أسلوبه و منهجه، و في المطلب الثاني تناولت فيه مشاركته في مختلف العلوم، أما المطلب الثالث تحدثت فيه عن أهمية مؤلفاته، و في المطلب الرابع تناولت فيه مصادره.

و في المبحث الثامن تناولت ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب (ت 810 هـ / 1047 م)، فتناولت في المطلب الأول أسلوبه، و في المطلب الثاني مؤلفاته، أما المطلب الثالث مكانته العلمية، و في المطلب الرابع مشاركته في النقاش العلمي.

و قد خصصت المبحث التاسع لأبي الحسن علي القلصادي الأندلسي (ت 891 هـ / 1486 م)، ففي المطلب الأول تناولت أسلوبه، و في المطلب الثاني تحدثت عن مصنفاته، أما المطلب الثالث تحدثت فيه عن أهمية رحلته. أما المبحث العاشر فخصصته للحميري عبد المنعم (ت 900 هـ / 1495 م)، فالمطلب الأول تحدثت فيه عن خطته و منهجه، و في المطلب الثاني تناولت فيه أسلوبه، أما المطلب الثالث تحدثت فيه عن مصادره، و في المطلب الرابع أهم خصائص الروض المعطار، و في المطلب الخامس تناولت أثر الروض المعطار و قيمته.

**المبحث الأول: أبو الحسن علي بن سعيد المغربي (ت 685 هـ/1285م)**

يُعدُّ ابن سعيد المغربي من أخصب الكتاب إنتاجاً على الرغم من كثرة أسفاره التي لم تنقطع، فإنه انتقل في تجواله من الأندلس و بلاد المغرب و المشرق و التقى بأكابر العلماء و رأى أفضل الكتب، و كان شديد الميل نحو الأدب الفنّي، و خاصة الشعر الذي نال فيه حظاً وافراً من الشهرة<sup>(1)</sup> و يبدو أن رحلات ابن سعيد المغربي أكسبته تجربة استطاع من خلالها اكتشاف العالم المحيط به.

**المطلب الأول: منهجه**

تمكن ابن سعيد أن ينهج نهج والده و يسلك طريقته في الحياة، علماً بأن والده كان عالماً جليلاً، و هذا ما ذكره ابن سعيد بقوله: «و ممّا شهدته من عجائبه أنّه عاش سبعاً و ستين سنة و لم أره يوماً يخلي مطالعة كتاب أو كُتِب ما يخلده، حتى إن أيام الأعياد لا يخليها من ذلك...»<sup>(2)</sup>، و سار كذلك على نهج أسرته فأتم مؤلفات كان قد بدأها جده و أبوه، و هي تعالج تاريخ العرب و البلاد العربية منذ الجاهلية إلى العصر القريب من حياة المؤلف. أما نشاطه في علم الجغرافيا يُعد امتداد هام للمدرسة الإدريسية في الجغرافيا، بل إنه تلميذ الإدريسي<sup>(3)</sup>، لأنه تتبع خُطاه في البحث و اعتمد مؤلفاته كمصادر مهمة فيه.

فمنهج ابن سعيد دقيق متعدد الحلقات و مترابطها، فهو يراعي الناحية المكانية فيورد تراجم الرجال و أشعارهم حسب مُدْنهم، و يراعي الناحية الزمنية فيورد التراجم حسب تسلسل الزمن [كروولوجيا]، كما نجده من جهة أخرى يراعي الناحية الاجتماعية فيبدأ بالملوك و الأمراء فالأعيان فالعلماء فالشعراء. و الواقع أن ذلك مجرد ذكر للخطوط العامة في الكتاب، فمنهجه تفصيلي أكثر دقة من ذلك<sup>(4)</sup>، و من يرجع إلى مقدمة «المُشْرِق في حلى المَشْرِق» يجد علي بن سعيد يوضح منهج التأليف فيه و في المُغْرِب بقوله: «كل من التصنيفين مرتَّب على البلاد، متى ذُكر بلد ذُكرت كُورُه، و أتكلّم عليه و على كل كورة منه... و أبتدئ بكرسي مملكتها و قاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمي] من إعلام بمكانها من الأقاليم و مَنْ بناها و ما يحفُّ بها من نهر أو مَنزَه أو خاصة معدنية و نباتية، و مَنْ تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التي لا يجب إغفالها...»<sup>(5)</sup>

و يبدو منهج ابن سعيد في التأليف كأنه نقطة التقاء بين عدة مذاهب في التصنيف بل بين عدة فروع من المعرفة. ففيه التقى تيار التاريخ الأدبي الأندلسي بتيار التصنيف الجغرافي، و هكذا نرى ربما لأول مرة في تاريخ الثقافة الأندلسية عالماً يجمع بين الجهود الأدبية و الجغرافية و الرحلات فيؤلف كتاباً معتمدة في الأدب، و أخرى في الجغرافية، و وضع خطة قامت على دمج متين بين التاريخ الأدبي و التصنيف الجغرافي<sup>(6)</sup> دون نسيان ميوله الأدبي و مصنفاً فيه.

1- عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص 490.

2- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج 2، ص 333-334. ينظر كذلك: نواف عبد العزيز الجمعة، المرجع السابق، ص 69.

3- أغناطيوس بوليانوفتش كراتشكوفسكي، المرجع السابق، القسم الأول، ص 357. ينظر محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 17.

4- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 165.

5- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، المصدر السابق، ج 1، ص 9 - 10.

6- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 191، 193.

و يتصف منهج ابن سعيد على العموم بالخصائص التالية<sup>(1)</sup>:

- **تحديده لخطته و غرضه بوضوح:** عودنا ابن سعيد في كتبه التي وردت أن يحدد غرضه من تصنيف الكتاب و خطته في التصنيف، و هو في الأغلب يتبع ما يخطط بدقة.
- **دقته في التقسيم و التبويب:** و هي ميزة بارزة في مصنفات ابن سعيد حيث يقسم كتابه إلى أجزاء رئيسية ثم يقسم تلك الأجزاء إلى فصول و أبواب حسبما يتطلبه الموضوع.
- **حرصه على الإحاطة و الشمول:** حرص ابن سعيد على أن تكون مصنفاته محيطة شاملة حتى المختصرة منها و هو بهذه يمثل الإتجاه السائد في عصرنا الحالي. فلقد كان أمام المؤلفين مادة ضخمة تتوزع في عالم واسع يمتد خلال تاريخ طويل حافل، و كان لابد من الإحاطة و الشمول لإعطاء الصورة الكاملة. و هذا ما عبر عنه حين قال: «كلما شرعت في مصنف لم تسمح نفسي بأن أجعله صغيراً و آخذ في استيفاء ما اجتمع لي من مواده و أبخل أن أسقط منها...»
- **حرصه على ذكر مصادره:** يذكر ابن سعيد إما اسم الكتاب الذي ينقل منه أو اسم الشخص الذي يروي عنه، و نادراً ما تجد خبراً في مصنفاته غير مسند.
- **أمانته و حياده:** تتجلى أمانة ابن سعيد العلمية في ذكره للوقائع مجردة حتى و لو لم تكن في صالح بلده أو أسرته أو أصدقائه المقربين أو أساتذته.
- **ميله إلى التقييم و الحكم:** و لا يتبادر إلى أذهاننا أن ذلك مناقض لما أوردناه عن أمانة ابن سعيد العلمية و حياده، فهو يروي لنا كل شيء خيراً أو شراً، و لكنه في الوقت نفسه يحرص على أن ينقل لنا رأيه و انطباعه أو تقييمه للشعر أو الشخص أو الخبر فهو مثلاً يعلق على شعر أستاذه الشلوبيني بقوله: «و شعره على تقدمه في العربية في نهاية التخلف» و يصف خلق أستاذه البطلبيوس بقوله: «و لم أر في أشياخ الأدب أصعب خلقاً منه»

### المطلب الثاني: أسلوبه

كان ابن سعيد من الكُتَّاب القليلين الذين أُتيح لهم الجمع بين الموهبة الشعرية و عقلية العالم الباحثة، ففي تراثه الشعري نجده يمتاز بدقة الوصف و متانة الأسلوب و سلامة اللغة و غزارة المادة و سلاسة التعبير، مما جعله في طليعة شعراء الأندلس، و قد عُني ابن سعيد بجمع القصائد لشعراء الأندلس و غيرهم، لكن الأثر الذي ساهم به بحظ أوفر في الثقافة العربية هي مؤلفاته في التاريخ و الجغرافيا<sup>(2)</sup> و أخرى لم تلق العناية الكافية أو قد تكون ضاعت أو عبث بها عامل الزمن.

و علي بن موسى بن سعيد جغرافي ومؤرخ و أديب ناقدٌ نائرٌ. شعره وَسَطٌ مع أنه يتَّسم بالخصائص الأندلسية من التفنُّن في الوصف و التأنق في العبير<sup>(3)</sup> و على الرغم من الطابع النقلي الذي غلب على ابن سعيد إلا أنه يجب الاعتراف بأنه مصنف غني حافل<sup>(4)</sup>، و قد تميز ابن سعيد بأسلوب دقيق و شامل.

1- المرجع نفسه، ص ص 194 - 197.

2- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 14

3- عمر فَرُوح، المرجع السابق، ج6، ص 313.

4- أغناطيوس يوليانيوفتش كراتشكوفسكي، المرجع السابق، القسم الأول، ص 358.

**المطلب الثالث: أهم مصنفاته**

يعتبر ابن سعيد بصفة عامة من أخصب الكُتَّاب إنتاجاً على الرغم من أسفاره التي تكاد لم تنتقطع<sup>(1)</sup>، و قد كان كغيره من العلماء موسوعة في علوم عصره، فقد كان يجمع بين الأدب و المنطق و الجغرافيا و غيرها من العلوم، و قد انعكس ذلك فيما كتبه من مؤلفات<sup>(2)</sup> و منها:

**1- المغرب في حلى المغرب**

بدأه جده و عمل فيه أبوه و أتمه هو<sup>(3)</sup>، و ذكر علي بن سعيد في مقدمة هذا الكتاب أنه صنفه بالوراثة في مائة و خمس عشرة سنة أبو محمد الحجازي و عبد الملك بن سعيد و أحمد بن عبد الملك و محمد بن عبد الملك و موسى بن محمد ثم علي بن موسى الذي وضع صيغته النهائية سنة 647 هـ، و يبدو أن الطبعة الأولى من الكتاب قد ذاعت في المغرب و المشرق و حازت كثيرا من الإقبال في الأوساط الأدبية قبل خروج عليّ و والده من الأندلس و قبل أن يأخذ الكتاب شكله النهائي<sup>(4)</sup>، و مما يجدر الإشارة إليه أن كتاب «كتاب المغرب في حلى المغرب» بدأ تأليفه سنة 530 هـ و انتهى سنة 641 هـ<sup>(5)</sup>، و قد ضم كتاب «المغرب في حلى المغرب» في مجمله خمسة عشر سفراً، تتحدث الستة الأولى منها عن مصر، أما السابع و الثامن و التاسع فخصوصاً لإفريقية و بلاد البربر، و اختصت الستة الأخيرة بالأندلس<sup>(6)</sup>، و قد لفت انتباه بعض المستشرقين أمثال فولارز (Vollers) و تالكويست (K.tallquist) و عملا على نشر أجزاء منه.

**2- المشرق في حلى المشرق**

وضع موسى بن محمد قبل وفاته تصميماً له على غرار كتابه «المغرب في حلى المغرب»، و تناول فيه شؤون المشرق، و أوصى ابنه علي بن موسى بإنجاز الكتاب، و هذا ما قام به ابن سعيد فيما بعد بتأليف هذا الكتاب و أهده إلى الصاحب بن محي الدين الجزري، ثم رأى المؤلف أن يجمع الكتابين في كتاب واحد تحت عنوان «فلك العرب المحيط بلسان العرب، المحتوي على المشرق في حلى المشرق و المغرب في حلى المغرب»<sup>(7)</sup>، و قسم ابن سعيد الكتاب إلى ثمانية أقسام<sup>(8)</sup>:

**القسم الأول: جزيرة العرب.****القسم الثاني: في العراق و أرض فارس.**

1- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 74.

2- عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 150.

3- نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 169.

ينظر كذلك : أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، المصدر السابق، ج2، ص ص 172- 173.

4- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 16.

5- أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، مج 2، ص 328.

6- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 168.

7- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 17. أو « فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب»

ينظر: نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 74.

8- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 171.

القسم الثالث: في كور الموصل و الجزيرة و ديار ربيعة و ديار بكر و ديار مصر.

القسم الرابع: في الشامات.

القسم الخامس: بلاد الروم و أرمينية و الخزر.

القسم السادس: بلاد الديلم و أذربيجان و طبرستان و جرجان.

القسم السابع: في سائر العجم.

القسم الثامن: في السند و الهند.

### 3- المرزومة

ذكر المقرئ أن المرزومة يحتوي على حمل بعير من الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية و الأخبارية إلا الله تعالى<sup>(1)</sup>، و نظرا لحجم هذا الكتاب الضخم لم يكن يسمح بتداوله في الأسواق الأدبية، و هذا ما يفسر كيف اقتصر بعض الكُتَّاب الذين نقلوا و اقتبسوا عن ابن سعيد من كتبه، يكتفون بالإشارة إلى عنوانه<sup>(2)</sup>

### 4- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب

يتعرض فيه ابن سعيد لتاريخ العرب في الجاهلية، و قد نشر المستشرق تريمور (*Trumer*) ملخصا لهذا الكتاب<sup>(3)</sup>

### 5- عنوان المرقصات و المطربات

هو كتاب صغير الحجم و يشتمل على قطع من النظم و النثر<sup>(4)</sup> الشعراء العربية و كُتَّابها من العصر الجاهلي حتى عصر ابن سعيد، و هو كذلك أحد ثمار كتابي «المشرق» و «المغرب»<sup>(5)</sup>

### 6- لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام

يقع هذا الكتاب في جزئين، و هو يتعرض لتاريخ الأمم العجمية التي اعتنقت الإسلام<sup>(6)</sup>

### 7- الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد:

يشير إليه بعض المؤرخين أمثال المقرئ و السيوطي و حاجي خليفة بعنوان « الطالع السعيد في تاريخ قلعة بني سعيد»<sup>(7)</sup>، و هو تاريخ بيت ابن سعيد و بلده، و يبدو أن ابن سعيد لما أرَّخ في هذا الكتاب لرجال بني سعيد اتبع ذكرهم بذكر من مرَّ بقلعتهم من الشعراء و الأدباء و أصحاب النوادر<sup>(8)</sup>، فكان ابن سعيد شديد الاهتمام بتاريخ أجداده في قلعة بني سعيد بالأندلس.

1- أحمد بن محمد المقرئ، المصدر السابق، مج 2، ص 271.

2- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 19.

3- نفسه، ص 19.

4- نفسه، ص 19.

5- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص ص 175-176.

6- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 20.

7- نفسه، ص 20.

8- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص ص 186-187. ينظر كذلك: نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 170.

## 8- الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة

بعد أن أشار ابن سعيد إلى «ملوك الشعر» و أبيات الشهاب التلعفري<sup>(1)</sup> قال: «و التشفي من ذكر الشهاب و محاسن شعره له مكان بكتاب «الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة»<sup>(2)</sup>

## 9- القدح المعلى في التاريخ المحلى

يحتوي على تراجم لشعراء الأندلس في عصر ابن سعيد، و قد سلك فيه طريقة الفتح بن خاقان<sup>(3)</sup> في قلائد العقيان، و قلّد أسلوبه الوزير الخطيب المشهور في كتابه «التاج المحلى»<sup>(4)</sup>

## 10- النفحة المسكية في الرحلة المكية

يحتوي على وصف للرحلة التي قام بها ابن سعيد لأداء فريضة الحج<sup>(5)</sup>

## 11- كنوز المطالب في آل علي بن أبي طالب

ذكره التيجاني في رحلته، و نقل عنه اجتماع ابن سعيد بالشريف التاجوري [تاجورة بليدة في شرقي طرابلس] في حصن الخليل و مصر و الشام<sup>(6)</sup>

## 12- كتاب ملوك الشعر

يُقصد بملوك الشعر أبيات معينة يرى ابن سعيد أنها تستحق أن تكون بمثابة الملوك في دنيا الشعر، و هذا ما يتضح من خلال ما نقله المقري عن ابن سعيد قوله: «و لما جمعت للملك الناصر كتاب «ملوك الشعر» جعلت ملك شعر الشهاب التلعفري البيت الرابع من المقطوعة المقدمة»<sup>(7)</sup>، فإنه كان كثيراً ما كان ينشده و ينوه به و أورد المقري القصيدة هذا بيتها الرابع<sup>(8)</sup>:

و تفردت بالجمال الذي خُلاكَ . . . مستوحشاً بغـير رفـيق

1- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 189.

شهاب الدين التلعفري: هو محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الأديب البار، وُلد بالموصل سنة 93 هـ، اشتغل بالأدب و مدح الملوك و الأعيان، توفي سنة 675 هـ. ينظر: صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي، المصدر السابق، ج 5، ص 167.

2- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج 2، ص 295.

3- الفتح بن خاقان: هو أبو محمد الفتح خاقان بن أحمد بن غرطوج، أديب، شاعر، فصيح، كان في نهاية الفطنة و الذكاء. فارسي الأصل، من أبناء الملوك. اتخذه المتوكل العباسي أخاً له، و استوزره و جعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه. و كان يقدمه على جميع أهله و ولده، توفي سنة 247 هـ / 861 م.

ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 5، ص 133.

4- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 20.

5- المصدر نفسه، ص 21.

ينظر كذلك: أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج 2، ص 273.

6- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، المصدر السابق، ص 308 - 309.

7- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 188 - 189.

8- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج 2، ص 295.

## 13- المقتطف من أزهار الطرف

يشتمل على الحُكْم التي نطق بها بعض الأعلام و على نخبة من الموشحات الأندلسية<sup>(1)</sup>، و يشمل كذلك على أحاديث نبوية و حكماً و رسائل و حكايات و أشعاراً و أجزالاً<sup>(2)</sup>

## 14- نتائج القرائح في مختار المراثي و المدائح

و قد دلَّ على ما اشتمل عليه<sup>(3)</sup>

## 15- ريحانة الأدب في المحاضرة

جمع فيه ابن سعيد بين عيون الأخبار و مستحسنات الأشعار<sup>(4)</sup>

## 16- الغراميات

تناول فيه ابن سعيد قصائد من شعر الغزل.

## 17- حل الرسائل

ورد ذكره في « المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي » مُحَرَّفاً باسم حلى الرسائل<sup>(5)</sup>

## 18- عدة المستنجز و عقلة المستوفز

أورد فيه ابن سعيد غرائب و بدائع حسب ما ذكره المقري<sup>(6)</sup>، و يشتمل على وصف رحلة ابن سعيد الثانية من تونس إلى الشرق في سنة 666 هـ<sup>(7)</sup>.

## 19- كتاب المحلّي بالأشعار

ذكره المقريزي في كتاب الخطط<sup>(8)</sup>

## 20- حيا المحل و جني النحل

ذكره القلقشندي في كتاب صبح الأعشى، و تحدث فيه عن العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر<sup>(9)</sup>

## 21- تاريخ مرتب على السنين

- 
- 1- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 21.
  - 2- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 177. ينظر كذلك: أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج 2، ص 271.
  - 3- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، مج 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 1925.
  - 4- المصدر نفسه، مج 1، ص 939.
  - 5- يوسف بن تغري بردى الأتابكي و جمال الدين أبو المحاسن، تح محمد محمد أمين، المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي، ج 8، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1999، ص 228.
  - 6- ينظر كذلك: أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج 2، ص 368.
  - 7- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 22.
  - 8- المصدر نفسه، ص 22.
  - 9- القلقشندي أبو العباس أحمد، المصدر السابق، ج 14، ص 391.
- ينظر: ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 23.

عبارة عن كتابين في التاريخ، التاريخ الكبير مرتب على السنوات، و التاريخ الصغير أيضا ذكر فيه ابن سعيد من لقيه من المتأخرين.<sup>(1)</sup>

## 22- المغرب عن سيرة ملوك أهل المغرب

مجلد فرغ منه ابن سعيد بالموصل سنة 579 هـ ، ذكره ابن خلكان<sup>(2)</sup>

## 23- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة

تحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة مصورة منه و الأصل بخط المؤلف<sup>(3)</sup>

## 24- رايات المبرزين و غايات المميزين

وضعه ابن سعيد لجمال الدين بن يغمور الذي أنشأ المدرسة اليغمورية في دمشق سنة 663 هـ/1264م، و قد قام بنشره المستشرق الإسباني إيميلو قارصيا جوميز (*Emilo Garcia Gomez*) معتمدا على نسخة مصورة محفوظة في مكتبة استانبول<sup>(4)</sup>

## 25- الملتقط من السلك من حلى العروس الأندلسية

ورد ذكره في كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون<sup>(5)</sup>

## 26- ديوان الشعر

ذكره المقري و هو مرتب على حروف المعجم<sup>(6)</sup>، و قد نقل في ترجمة ابن سعيد في «النفح» عددا لا بأس به من قصائده و مقطعاته<sup>(7)</sup>

## 27- كتاب الجغرافيا

و هو كتاب جغرافي شامل مكثف في مادته يهدف إلى إعطاء صورة كاملة عن البلدان و خصائصها مع تحديد موقع مُدنها و قُراها بالدرجة و الدقيقة ضمن خطوط الطول و العرض، و يطلق عليه «بسط الأرض في الطول و العرض» حيث قسّم فيه الأرض إلى سبعة أقاليم<sup>(8)</sup> معتمدا على ما كتبه سابقه من الرحالة المغاربة.

1- حاجي خليفة، المرجع السابق، مج 1، ص 279.

2- المصدر نفسه، مج 2، ص 1239.

3- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 23.

4- المصدر نفسه، ص 23.

5- حاجي خليفة، المصدر السابق، مج 2، ص 1814.

ينظر كذلك: ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 24.

6- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج 2، ص 303.

7- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 186.

8- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 24-28.

ينظر: محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 185.

### المطلب الرابع: مصادر دراسة جغرافيته

يتضح من منهج تأليف علي بن سعيد أنها تحوي معلومات جغرافية و تاريخية و أدبية، و من أجل ذلك كانت مصادره تتنوع تنوعاً شديداً، و يمكن أن نردّها إلى ثلاثة أنواع، هي: المشاهدة، و الرواية الشفوية، و المصنّفات التي استمدّ منها مؤلفه<sup>(1)</sup>

#### المشاهدة:

تعتبر مشاهدات ابن سعيد الحية و اختبارات العلمة مصدراً أساسياً هاماً من مصادر معلوماته سواء كان ذلك ما تعلق بحكمه على شخصيات الرجال الذين التقى بهم أو بوصفه للبلدان التي زارها. و كان ابن سعيد حريصاً على تقييد مشاهداته و انطباعاته التي كان يكونها بملاحظة هادئة رزينة دقيقة<sup>(2)</sup>

#### الرواية الشفوية:

أُتيح للنص من الرواية الشفوية ما لم يُتَح لأي كتاب أندلسي، إذ تداول عليه ستة مؤلفين في مائة و خمس عشرة سنة متصلة، يترجمون فيها لأشخاص عاصروهم في القرنين 6 و 7 الهجريين، فكانوا يلتقون بهم، و يروون عنهم مشافهة أطراف مالهم من أشعار و موشحات و أزجال.

#### المصنّفات:

اعتمد ابن سعيد على جغرافية الإدريسي اعتماداً كبيراً في مادتها الأساسية و في تبويبها، فالأقاليم فيها مقسمة إلى سبعة و كل واحد منها مجزأ بدوره إلى عشرة أقسام، و لكن يؤخذ على ابن سعيد أنه خلط بين الأقاليم، و في بعض الأحيان يشوه أوصافه الخطأ، أما الجغرافي أبو الفداء<sup>(3)</sup> بوجه عام يقف موقف المتشدد من ابن سعيد بل إنه يذكر في مواضع من كتابه أنه في بداية الأمر اعتمد على روايته عن المغرب كل الاعتماد، و لكنه ما لبث أن تبين له أخطاؤه فيما بعد<sup>(4)</sup>، و أخذ ابن سعيد عن ابن فاطمة<sup>(5)</sup> معلومات جغرافية هامة عن غرب إفريقيا و كثيرا ما يذكره في كتابه «الجغرافيا» بعبارات منها (قال ابن فاطمة)<sup>(6)</sup> أو (ذكر ابن فاطمة)<sup>(7)</sup>، و اعتمد أيضا على المصنّفات الجغرافية المشرقية و المغربية.

1- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، المصدر السابق، ج 1، ص 13.

2- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص 153.

3- أبو الفداء: هو إسماعيل، الإمام العالم الفاضل السلطان الملك المؤيد عماد الدين أو الفداء بن الأفضل بن الملك المظفر بن الملك المنصور صاحب حماة، مؤرخ جغرافي، أُلّف تقويم البلدان، اطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب. مات بحماة في الكهولة سنة 732 هـ.

ينظر: صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، المصدر السابق، ج 9، ص ص 104 - 107.

4- أغناطيوس يوليانونفتش كراتشكوفسكي، ج 1، المرجع السابق، ص ص 358 - 359.

ينظر: نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق ص ص 74 - 75.

5- ابن فاطمة: الغالب أنه مغربي، قام برحلة بحرية جنوبي مراكش و غرقت السفينة التي كان فيها عند الرأس الأبيض (ساحل الذهب)، لم يصلنا شيئا من آثاره إلا ما نقله ابن سعيد عندما أشار إليه في أكثر من موضع.

ينظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الراشد العربي، بيروت، لبنان، 1981، ص 122.

6- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص 82.

7- المصدر نفسه، ص 84.

## المطلب الخامس: أهمية مؤلفاته:

تتلخص أهمية مصنفات ابن سعيد بالنسبة للدراسات الحديثة، فيما يلي (1):

- 1- يعتبر كتابه «المغرب في حلى المغرب» أهم مصدر للأدب العربي الأندلسي عبر عصوره و خاصة في عهد الموحدين.
- 2- يعتبر كتابه «القدح المعلى في التاريخ المحلى» وثيقة هامة لدراسة الحركة الثقافية في أشبيلية خاصة و الأندلس عامة.
- 3- يمكن اعتبار كتابه «الغصون الياضعة في محاسن شعراء المائة السابعة» في طليعة المصادر التي يرجع إليها في دراسة الشعراء و العلماء الذين أورد تراجمهم بسبب اعتماده على عدة أصول أقدم منه بالإضافة إلى الاستعانة بالرواية الشفوية.
- 4- نقل ابن خلدون عن «المقتطف من أزاهر الطرف» لابن سعيد، و كل ما ذكره (ابن خلدون) في مقدمته عن الموشحات هو من المراجع الهامة لدراسة الموشح الأندلسي.
- 5- حفظ لنا ابن سعيد في مصنفاته الجغرافية أقوالاً لجغرافيين لم يصل أي شيء عنهم كابن فاطمة الذي يعتبر ابن سعيد المستند الأوحد لدراسته.
- 6- يمكن استخدام كتب ابن سعيد و خاصة «المغرب في حلى المغرب» في تحقيق المصادر القديمة التي أخذ منها كالأستيعاب و الذخيرة و تاريخ ابن حيان، و يمكن الاستفادة منها في تحقيق المصادر التي ألفت من بعده كصبح الأعشى و نفع الطيب. و قد وجد المصنفون القدامى فائدة في مؤلفات ابن سعيد، و في طليعتهم أبو الفداء و العمري (2) و ابن دقماق (3) و المقرئ (4) و القلقشندي (5) و المقرئ (6)، و كل واحد واحد منهم اعتمد في أعماله العلمية على مصنفات ابن سعيد لوزنها العلمي فهي بمثابة مصادر هامة في توثيق المعلومات.

- 1- محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص ص 197 - 198.
- 2- العمري (700 - 749 هـ / 1301 - 1349 م): هو أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري الدمشقي، شهاب الدين، مؤرخ حجة في معرفة الممالك و المسالك و خطوط الأقاليم و البلدان، غزير المعرفة بالتاريخ و لا سيما بتاريخ ملوك المغول من عهد جنكيزخان إلى عصره. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 1، ص 268.
- 3- ابن دقماق (750 - 809 هـ / 1349 - 1407 م): هو صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير بن دقماق القاهري، مؤرخ الديار المصرية في وقتها. كتب حوالي نحو مئتي سفر في التاريخ. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 1، ص 64.
- 4- المقرئ (766 - 845 هـ / 1365 - 1441 م): هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئ، مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، وُلد و نشأ و مات في القاهرة. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 177 - 178.
- 5- القلقشندي (756 - 821 هـ / 1355 - 1418 م): هو أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، المؤرخ الأديب الباحث. وُلد في قلقشنده من قرى القليوبية بقرب القاهرة، و توفي في القاهرة. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 1، ص 177.
- 6- المقرئ (986 - 1041 هـ / 1578 - 1631 م): هو أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش، أبو العباس المقرئ التلمساني، مؤرخ و أديب، وُلد بتلمسان و فيها نشأ و توفي بالقاهرة. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص ص 309 - 310.

المبحث الثاني: العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد ( توفي بعد سنة 700 هـ / 1300 م )

### المطلب الأول: منهجه

أوضح العبدري في مقدمة رحلته منهجه في التأليف قائلاً: «و بعد: فإنِّي قاصدٌ بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، و رسم ما تيسر رسمه و تسويده. ممَّا سَمَّا إليه النَّاطِرُ المُطْرَق، في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر بعض أوصاف البلدان، و أحوال من بها من القُطَّان، حسبما أدركه الجِسُّ و العَيَان، و قام عليه بالمشاهدة شاهدُ البُرْهان، من غير تورية و تلويح، و لا تقييح حسن، و لا تحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يُحجِّمُ مُعَرِّدا، و لا يجمع فيتعدى المدى، مسطراً لما رأيته بالعيان، ومقرراً له بأوضح بيان»<sup>(1)</sup> و هذا يعني أن العبدري اعتمد في رحلته المنهج الوصفي من خلال مشاهداته الحية، مع توثيق المصادر و الالتزام بالموضوعية.

و يبدو أن العبدري كان وفيًا لهذا المنهج الذي ارتضاه لرحلته، مطبقاً له، فقد وصف البلدان وصفا دقيقا بمبانيها و آثارها و كثيرا ما كان يعرِّج على أهلها فيصف عاداتهم، و تقاليدهم، و لباسهم، و مستواهم العلمي، و كان غير متساهل في نقد ما كان يراه غير طبيعي سواء في أخلاق النَّاس أو في عاداتهم<sup>(2)</sup> و الجدير بالذكر أن العبدري كان ملتزماً بالمنهج القرآني و بسنة محمد ﷺ، فكان يحارب البدع و المنكرات، و يندد بمن يعتقدونها، أضف إلى ذلك اهتمامه الفائق بالآثار القديمة، فهو حريص على الوقوف عليها، و كأنه عالم أثار تستهويه الأمور بتمحيصها مثل وصفه لمنار الاسكندرية الشهير، و أهرامات مصر، و غيرها من الآثار الإسلامية<sup>(3)</sup>

### المطلب الثاني: أسلوبه

أما أسلوب العبدري في رحلته فإنه لا يخلو من التكلف، إلا أنه يكتب في الوقت نفسه بحرية و يسر بحيث لا يصل إلى درجة المبالغة، فالعبدري خبير في علم اللغة و عارف للمفردات و معانيها، حتى إنه لا يصعب عليه التعبير عما في نفسه من خواطر و أفكار لقاء ما شاهده، لذا تبقى مادته تراثاً فريداً يجب الاعتناء به و الاستفادة منه<sup>(4)</sup>، لكن هناك بعض المؤرخين ممن انتقد أسلوبه في الكتابة بأنه استعمل الكلمات غير المألوفة عند عامة الناس، و كان أسلوب رحلته يخاطب فئة معينة من المتخصصين في ميدان علم الجغرافية، و رغم ذلك فإن العبدري كان ذكياً و لماحاً، سريع الفهم ما لا يفهمه غيره، فهو من علماء العرب و المسلمين المتميزين في حقل الرحلات الجغرافية، لذا بقي كتابه «الرحلة المغربية» من أهم المصادر الجغرافية<sup>(5)</sup> التي يعتمد عليها في كتابة التاريخ و أدب الرحلة.

1- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 28.

2- المصدر نفسه، ص 12.

3- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 89.

4- المصدر نفسه، ص 90.

5- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 194.

و ما يميز رحلة العبدري هو الأسلوب الأدبي الرشيق و الشيق، و الملاحظة الدقيقة و المعرفة بسير الرجال. و من هذه الزاوية يمكن أن نعتبر الرحلة مصدراً هاماً لعدد من التراجم المغربية من العلماء و الأدباء، مما يكمل طبقات أبي العرب و رياض النفوس للقيروان<sup>(1)</sup>، و قد لاحظ أحد العلماء الأسباب أن عرض العبدري تميز «بالصدق و الدقة في الرواية و الحيوية و الرشاقة في الأسلوب»، غير أن الطابع الأساسي للمصنف لا تعكسه هذه المعلومات الجغرافية على الرغم من أنها لا تخلو من القيمة بجانب أهميتها و دقتها، لأن الاهتمام الرئيسي للعبدري قد اتجه إلى الحديث عن العلماء الذين التقى بهم أو تتلمذ عليهم، و ابتداء من العبدري فإن نمط الرحلة أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى ضرب من يوميات العلماء<sup>(2)</sup>، و مما يثير الانتباه في رحلة العبدري، نظمه للشعر، إذ قال عنه الدكتور عبد الهادي التازي: «لقد صاغ هذا العالم الجليل بقلمه العربي السيال، مع أنه ينتسب جغرافياً إلى فضاء الأمازيغ، صاغ عبارات تفرض علينا أن نلاحظ ما تتضمنه من نثر تاركين النظم لأهل النظم... و أن نتمتع بعض فقراتها، و لا سيما أن الرحالة المغربي المشهور ابن بطوطة اقتبسها...»<sup>(3)</sup>، رغم أن رحلة ابن بطوطة لم تحتوي أشعاراً كثيرة بقدر ما تناولته من مغامرات.

### المطلب الثالث: مؤلفاته

لا نعرف حتى الآن للعبدري مؤلفاً غير الرحلة غير أننا لا نسلّم بهذا، و لا نظن أن علم الرجل عَمَّ عن كتاب أخرو هو من هو في علمه و مكانته، و يبدو أن عامل الزمن و الدهر قد أتى على ما أنتجه هذا العالم، و لم يسلم من إنتاجه الفكري سوى الرحلة. و ممّا يشار إليه أن خالد بن عيسى البلويّ أورد في رحلته قصيدة العبدري التائيّة التي عارض فيها القاضي عياضاً<sup>(4)</sup> في كتابه «الشفاء» و مطلعها<sup>(5)</sup>

يا ساكني دار الحبيب عليكم  
منّي سلام طيب النّفحات

و يبدو أن فؤاد قنديل وقع لديه خلط بين مؤلفات أبو عبد الله محمد العبدري صاحب الرحلة و ابن الحاج العبدري الفاسي صاحب المدخل عندما ذكر أن مؤلفات الرحالة العبدري قليلة و حصرها في ثلاث و هي:<sup>(6)</sup>

1- مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة: مطبوع في ثلاثة أجزاء.

2- رحلة العبدري أو الرحلة المغربية.

3- شمس الأنوار و كنوز الأسرار في علم الحروف و روحانيته.

1- إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 64.

2- أغناطيوس يوليانونفتش كراتشكوفسكي، المرجع السابق، القسم الأول، ص 367-368.

3- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج 1، ص 81.

4- القاضي عياض (476 - 544 هـ / 1083 - 1149 م): هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي. ينظر: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح محمد سالم هاشم، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1998، ص 3.

5- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 9.

6- فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 465.

أما تقسيم كتاب رحلة العبدري فلا نكاد نلاحظ تقسيماً واضحاً له، لكننا نجد فيه بعض الفصول التي كثيراً ما يلجأ إلى عقدها عندما يريد الوقوف على ظاهرة، و التفصيل فيها تفصيلاً يبعد قليلاً عن غرض الرحلة و منهجها، مستطردا في حديثه عن بلد و ما يختص به، أو عن تاريخه، كما صنع في الحديث عن عجائب مصر و نيلها، و الحديث عن بناء المسجد الحرام و الكعبة و أسمائها و كثيراً ما كان يستطرد إلى بعض الآراء التي تستدعي منه مناقشتها و توضيحها، كما صنع في مشاركته الفقهية، و مناقشاته العلمية<sup>(1)</sup>

### المطلب الرابع: أهمية الرحلة

تعتبر رحلة العبدري من الوثائق المهمة عن الحياة الثقافية في القرن السابع الهجري، لما فيها من شواهد عظيمة على ما بلغت إليه المعارف الإسلامية ببلاد المغرب، إذ يظهر من خلال رحلته أنه عالم جليل واسع الاطلاع في العلوم الشرعية و اللغة و فنون الأدب، ناهيك عن عبقريته في إصداره لأحكام عن علماء و أدباء في الأمصار التي مرَّ زارها<sup>(2)</sup>، لكن عمر فرُّوخ انتقد رحلة العبدري و وصفها بقليلة الابتكار و الفوائد الجغرافية، و ذكر أن العبدري أخذ كثيراً من أوصاف البلدان عن الجغرافيين المتقدمين، إلا أنه يصف البلدان التي مرَّ بها من النواحي العمرانية و الاقتصادية و العلمية، ثم يعرف عدداً من علماء القرن السابع و أدبائه، و كان جُلُّ اهتمامه بمجال الثقافة و التدريس<sup>(3)</sup>، لذا نجد الرحالة العبدري على العموم ينتقد بشدة الأحوال الثقافية و العلمية التي كانت سائدة في الحواضر التي بها.

تعتبر رحلة العبدري من أنفس ما كتبه المغاربة قلماً و شجاعة و نقداً و اتساع رواية، فهي رحلة جامعة، و قد اختصرها ابن قنفذ صاحب الوفيات<sup>(4)</sup>، غير أن رحلة العبدري بقيت حبيسة الرفوف و لم تتل مكانتها بين الرحلات، و أول من تنبه إلى شأنها علماء الاستشراق الذين انكبوا على دراستها<sup>(5)</sup> و كان المستشرق الفرنسي فانسن ( *Vanson* ) أول من اشتغل برحلة العبدري، في مقال نشره بالجريدة الآسيوية عام 1845 م، ثم نشر المستشرق الفرنسي شيرونو ( *Cherbouneau* ) بالجريدة الآسيوية كذلك سنة 1845 م مقالا عنها، أتبعه بترجمة بعض فصولها و ختم بحثه بقوله: « إنني ما رأيت كتاباً عربياً مفيداً ممتعاً لدرجة رحلة العبدري، و ذلك ليس فقط لصحة تحقيقاته الجغرافية، و لكن أيضا لتفاصيله عن الآثار القديمة، و لدراسة للعوائد، و لتقديمه لنا جل علماء القرن السابع المسلمين»<sup>(6)</sup> و قد كتب مستشرقون آخرون عن رحلة العبدري أمثال كارل بروكلمان ( *Karl Brockelmann* ) و يبدو أن جميعهم أثنوا عليها.

1- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 13-14.

2- نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 88.

3- عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج6، ص 402.

4- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، المصدر السابق، ج 2، ص 809.

5- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 16.

6- عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص 496.

حاول الأستاذ أحمد بن جدو أن يخرج رحلة العبدري للناس، فطبعها منقوصة، و زاد من سوئها كثرة الأخطاء، ثم طبعت بالمغرب بعناية الدكتور محمد الفاسي، إلا أن هذه الطبعة أيضا لم تَفِ بحق الرحلة<sup>(1)</sup>، و قام أحمد بن جدو بنشر رحلة العبدري سنة 1385 هـ / 1965 م بالجزائر لذا صار هذا الكتاب القيم متداولاً بين الجغرافيين و الأدباء، كما كتب أحمد بن جدو مقدمة رائعة لهذا الكتاب ساعدت على ترويجه<sup>(2)</sup>، و رحلة العبدري هي أقرب إلى المؤلفات الأدبية منها إلى المصنفات الجغرافية، و ذلك على الرغم من أن صاحبها يزودنا بالمعلومات الحيوية العامة عن الأماكن و المدن التي أقام بها أو مرّ بها، و الآثار التي شاهدها، و بنظرة عابرة لنص الرحلة يتضح أن العبدري لم يركز كثيراً في الاقتصاد و التجارة و السياسة و غير ذلك من ألوان النشاط الحضاري، و إنما اتجه إلى الرواية و تراجم العلماء و الأدباء و إلى الشعر بصفة خاصة. و هي أقرب إلى أن تكون تقريراً نقدياً يعكس إلى حد ما الحركة الأدبية و العلمية في البلدان التي مرّ بها<sup>(3)</sup>

### المطلب الخامس: مصادره

تناول أبو العباس أحمد ابن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني (ت 810 هـ / 1047 م) رحلة العبدري بشكل مختصراً عكس نوقه الخاص و سماها «المسافة السنوية في اختصار الرحلة العبدرية»<sup>(4)</sup>، و رحلة العبدري تشمل معلومات جغرافية و تاريخية و أدبية و اجتماعية بالإضافة إلى المعلومات الفقهية، لهذا يلاحظ أن مصادره متنوعة بشكل كبير، و يأتي في مقدمتها المشاهدة، ثم الرواية الشفوية، ثم المصنفات المختلفة التي نقل منها، أما المشاهدة عايشها العبدري نفسه، و قد ظهر أثرها واضحاً في المعلومات الجغرافية، و الخصائص العمرانية، و تضاريس المناطق التي مرّ بها، و حملت رحلته طائفة من المعلومات و القضايا العلمية التي أخذها العبدري مشافهة من صدور العلماء، و قيدها في رحلته، و قد حوت كثيراً من المعلومات النادرة، مما زاد من قيمة مؤلفه علمياً، أما المصنّفات التي لجأ إليها العبدري ونقل عنها فاستعان بها على ما لم يشاهد أو شاهده، طلباً للتوكيد و التوضيح و الاستدلال. و يمكن تصنيف مصادره التي نقل عنها ضمن الطوائف التالية:<sup>(5)</sup>

أ- المصادر الجغرافية و التاريخية: و منها كتاب «المسالك و الممالك» لأبي عبيد البكري ت (487 هـ / 1094 م)، و «أخبار مكة» لأبي الوليد الأزرق ت (250 هـ / 865 م)، و «طبقات الأمم» للقاضي صاعد ت (462 هـ / 1070 م) و «مروج الذهب و معادن الجواهر» للمسعودي ت (346 هـ / 957 م) و رحلة ابن جبير<sup>(6)</sup>

1- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 16.

2- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 193.

3- إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 63-64.

4- أحمد بن القاضي المكناسي، المصدر السابق، ج 1، ص 154.

5- أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المصدر السابق، ص 14.

ينظر كذلك: الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 189-190.

6- المرجع نفسه، ص 190.

ب- كتب الحديث المختلفة: الصّاح و غيرها، و كتاب «غريب الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سلام ت (224 هـ/838 م) و «مشارك الأنوار» للقاضي عياض ت (544 هـ/1149 م)

ج- كتب السيرة النبوية: كسيرة ابن إسحاق ت (151 هـ/768 م)، و «الروض الأثف» لأبي القاسم السهيلي ت (581 هـ/1185 م) و «الاكتفاء» لأبي الربيع بن سالم الكلاعي ت (634 هـ/1237 م)، و «الشمائل» للترمذي ت (279 هـ/982 م)

د- كتب الفقه المالكي: مثل «المدونة» لعبد الرحمن بن القاسم ت (191 هـ/807 م)، و «العتبية» لمحمد بن العتبي القرطبي ت (254 هـ/868 م) و «التأقين» للقاضي عبد الوهاب ت (422 هـ/1031 م)

هـ- كتب التصوف: منها كتاب «التشوّف إلى رجال التصوف» لابن الزيات ت (627 هـ/1230 م)، و «منار العلم» لأبي سعيد الحاحي المترزي.

و- الدواوين الشعرية و المجموعات: منها «ديوان المتنبي» و «ديوان النابغة» و «الحماسة» و «بيتيمة الدهر» للشعالي ت (429 هـ/1038 م)

ي- كتب أخرى: في القراءات و التراجم مثل كتاب «التيسير» و «المقنع» لأبي عمرو الداني ت (444 هـ/1053 م) و غيرها.

### المبحث الثالث: ابن الحاج النميري (ت 768 هـ/1367 م)

#### المطلب الأول: منهجه وأسلوبه

عالج ابن الحاج النميري مواضيع كثيرة و مختلفة تاريخية و سياسية و أدبية و فنية و فقهية و حديثة و صوفية لم يبق منها إلا الجزء اليسير، و إذا كنّا نهتم أشد الاهتمام بجميع ما أنتجه، إلا أننا سنقتصر على رحلته فيض العباب، و من المعروف أن ابن الحاج لم يكن حراً في النقاط معلوماته، و اختيار مواضيعه، و انتقاء شخصيات روايته، لقد كان ملزماً و مقيداً، مخلصاً لسياسة سلطانه متفانياً في خدمته الذي قدره كل التقدير، فابن الحاج كان في موقف خاص يفرض عليه القيام بالواجب و في نفس الوقت الحذر و اليقظة، و الاحتراس من زلات القلم و فلتات اللسان و الخروج عن الجادة، و الانسياق وراء الأهواء و النزاعات الشخصية<sup>(1)</sup>، حتى يكون في وضعية المؤرخ الموضوعي.

أولت إلى ابن الحاج النميري مهمة رسمية هي إنشاء الرسائل و تكليف الكتبة بنسخها تحت إشرافه المباشر و مراقبته الدقيقة، و منها تلك الرسائل الديوانية التي حررت أثناء الرحلة إلى قسنطينة و الزاب و عددها أربع. و يمكن اعتبار محتوى الرسائل ملخصاً لما جاء في ثنايا الرحلة بل هو في كثير من الأحيان تكرر لكثير من الفقرات الواردة في الرحلة، لكن عيب هذه الرسائل هو أنها جاءت ناقصة مختزلة، بها كثير من العناصر المبتورة<sup>(2)</sup>، شكلت حلقة مهمة في الرحلة بالإمكان أن تمدنا بمعلومات هامة.

1- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص ص 43 - 44.

2- المصدر نفسه، ص ص 52 - 53.

تشكلت بنية الرسائل من العناصر الأساسية التالية<sup>(1)</sup>:

- 1- «بعد السطر الأعلى و مقدمته الفضلى»
- 2- المُرسِل: من عبد الله المتوكِّل على الله فارس أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين آبن مولانا...
- 3- المُرسَل إليه: الشرفاء الفقهاء و الوجوه و الأعيان و الأمناء و الخاصة من أهل كذا و العامة على الولاء.
- 4- الإشارة إلى الموضوع (تلميح)
- 5- سلام عليكم أجمعين.
- 6- أما بعد حمد الله.
- 7- و الصلاة.
- 8- و الرضى على آله.
- 9- فإننا كتبناه إليكم كتبكم الله من منزلنا الأسعد.
- 10- الموضوع: تفاصيل كثيرة من شرح و إطناب.... إلخ.
- 11- الخاتمة: تضع حدًا بصفة تمهيدية للحديث و تشعر بالنهاية و قد تتضمن دعاءً صالحاً للرعية كما في الرسالة المتعلقة بفتح تونس.

كان ابن الحاج التُميري شاعراً و استطاع أن يحصل على ألقاب أبرز مدى شاعريته و أدبه بصفة عامة و المكانة السامية التي كان يحظى بها في عصره من لدن معاصريه و منافسيه و أصدقائه و تلامذته. و يكفي للدلالة على ذلك الحكم الذي أصدره عنه ابن الخطيب و الشهادة التي أدلى بها في حقه: «طلع شهاباً ثاقباً و أصبح شعره للشعري مصاقباً فنجم و برع و تمّم المعاني و اخترع... و تفنن الألباب فنونه البديعة و طرائفه من بليغ يطارد أسراب المعاني البعيدة فيقتصّها و يغوص على الدرر الفريدة فيخرجها...»<sup>(2)</sup> و يتضمن فيض العُباب الأبيات و القصائد الأتية<sup>(3)</sup>:

- 1- قصيدة من ثمانية و عشرين بيتاً كملها المقري في نفح الطيب، نظمها ابن الحاج في تهنئة أبي عنان بعد إبلائه من مرض ألمّ به و هو يستعد للرحلة الكبرى، موضوعها إذن المديح و وصف الحروب و أغراض أخرى تكميلية.
- 2- بيتاً منفرداً في وصف معركة.
- 3- قصيدة من 41 بيتاً نظمها أثر أخذ الحسن غرضها الرئيسي المدح بالإضافة إلى وصف المعارك.
- 4- سبعة أبيات في وصف السيل الجارف الخطير غرضها تهنئة و مدح و وصف المعارك. و هو من فحول الشعراء الذين ضمهم كتاب نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان...

1- المصدر نفسه، ص 53.

2- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 1، ص 345.

3- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 55.

5- عشرة أبيات نظمها ممثلاً لأوامر أبي عنان في مدح أحد خدامه الأوفياء:آبن مزني.

و يتضح أن ابن الحاج نظم في أغراض متعددة أهمها المدح الذي أخذ جزءاً كبيراً من إنتاجه ثم الوصف، ثم الرثاء ثم أغراض يدخل في إطارها من اتصالات شخصية و مساجلات و مداعبات و مغازبات و فكاهات و نكت و نوادر و ألغاز و أحاج لتكوينه الخاص<sup>(1)</sup>

### المطلب الثاني:رحلته

قام ابن الحاج النُميري برحلات كثيرة و يلاحظ أولاً أن الأمر يتعلق برحلتين اثنتين:رحلة داخل المغرب الأقصى، و رحلة إلى الشرق.رحلة من فاس و سلا و الرجوع إليها، ثم الرحلة من فاس إلى قسنطينة، ثم إلى الزاب، ثم الإياب<sup>(2)</sup>، و لرحلة فيض العُباب أسباب و عوامل متعددة ذكر بعضها أبو عنان نفسه بصفة صريحة، ثم ذكر بعضها الآخر بصفة غير مباشرة و في مناسبات متعدّدة.و يذكر كاتبه الخاص بالأحداث التي وقعت في صفوف الأعراب التي واجهها الشيخ أبو عمران الذي كلف بإخمادها و القضاء عليها، فقصد ميلا و لاحقته القبائل فحاض المعركة في ميلا و بجاية لكنه انهزم في ميلا و انتصر في بجاية، فاستأذن السلطان المريني أبي عنان في الرجوع إلى هذه الأماكن للأخذ بالثأر.غير أن رغبة أبي عنان تمثلت في إخضاع الأعراب لسلطته، و سحق تمردهم و عصيانهم و فسادهم و عبثهم بالسلطة<sup>(3)</sup>، فجهز جيشه و جمع طاقته و وضع خطته للوصول إلى هدفه المنشود.

تتوالى رحلة فيض العُباب أماكن و مدن ذات أهمية كبرى في رحلة فيض العُباب، لأنها قلب الحدث و رجاه، و كان الهدف من هذه الرحلة استرجاع المدينة السليبية و تثبيت وطء القدم فيها عند استرجاعها.و كانت أهم المدن حسب الترتيب<sup>(4)</sup>:

**فاس:**مكان الانطلاق و الوصول.و تتبع أهمية هذه المدينة من كونها عاصمة الدولة المرينية.

**تازا:**و هي فضاء حاضن لالتحاق و تجمع باقي المجندين بالموكب السلطاني و متابعة الزحف نحو قسنطينة و هذا أوضحه ابن الحاج في فيض العُباب«و لما وصل مولانا أيده الله تعالى إلى تازا وصولاً فحماً، و قدم عليها بالجيش الجرارة قدوماً ضخماً.أقام هنالك حتى تكامل مجيء الناس من جميع الجهات، و فدوا على الباب الكريم طائرين بأجنحة العزيمات، صامدين إلى مواطن التواقف و الثبات.»<sup>(5)</sup>

**بسكرة:**تحضر مكان عبور مستقبل للسلطان، كما يكون هذا الفضاء مرتعا لبعض مجالس الأئس و المذاكرة التي تخفف عن السلطان عناء السفر.يقول ابن الحاج النُميري:«و استحلّت الحال ذكر بسكرة و هوائها،و ما لقيناه في أرجائها.فتقدّم قاضي الجماعة و خطيب الحضرة العلية الحاج أبو عبد الله محمد بن أحمد المقرري مؤثر الارتجال، و لم تسمح خواطره إلا بهذا البيت المنفرد» فقال<sup>(6)</sup>:

1- المصدر نفسه، ص 57.

2- نفسه، ص 71.

3- نفسه، ص ص 69- 70.

4- أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص ص 210- 212

5- ابن الحاج النُميري، المصدر السابق، ص 238.

6- المصدر نفسه، ص 441.

دخلت بلاد الله شرقاً و مغرباً .: فلم ترَ عيني مثل بسكرة ببسا

**قسنطينة:** هي المكان المخصوص بالحركة أي المكان المقصود، و تتمظهر كفضاء متمرد خارج عن السيطرة، تسود فيه مظاهر التوتر و الرعب، ليتحول بعد ذلك بفضل حركة السلطان إلى مكان منضو تحت الحوزة المرينية، ناعم بالأمن و هو إضافة إلى ذلك مكان لإبراق رسائل الفتح و النصر إلى باقي أرجاء الدولة المرينية<sup>(1)</sup> و هكذا تباين حضور المدن المذكورة حسب الأهمية على امتداد مسار الحركة، مؤشرة على أفعال التمايز التي يخلقها الرحالة، و هي كفيلة بالتعبير عن حركته و تنقله، و مؤشرة على رؤيته و تجاوزه بالرغم من إحساسه بالتعالي عليها<sup>(2)</sup> و كان الوصول إلى هذه المدن المذكورة عبر مسار رحلة قطع المغرب الأوسط.

و قد فرض عبور موكب السلطان من مدينة إلى أخرى اجتياز فضاء ظل في كثير من الأحيان خارج سيطرة الدولة المرينية و هو فضاء البادية الذي كان ملاذا للمتمردين، و الذي فتح الرحلة على فضاء آخر مفعم بالخوف و الأهوال و المجهول هو الصحراء كمكان مُحصن طبيعي أوى المتمردين من بطش السلطان ساعدهم في ذلك مساحاتها الشاسعة على هذا الفرار<sup>(3)</sup> و هذا ما ذكره ابن الحاج الثميري: «و توغلوا في الصحراء خائفين خائبين، و أبلغوا في قطع المفاوز هائمين هائبين، و أصرؤا على العصيان إصراراً، و عادوا حزب المؤمنين و أزوروا عنهم أزوراراً.»<sup>(4)</sup>

### المطلب الثالث: آثاره

ألف ابن الحاج الثميري مصنفات عديدة عكست الصبغة الكميّة التي تكتسيها آثاره، و قد انفرد لسان الدين بن الخطيب من بين سائر المؤرخين المعاصرين أو غيرهم بذكر جلّ هذه المؤلفات و أوردها في كتابه الإحاطة و لم يراع في ذكره المؤلفات أي ترتيب، و لم يعتني بشرح العناوين التي تبدو غامضة، و الكتب التي وردت في الإحاطة و غيرها<sup>(5)</sup>:

1- كتاب المساجلة و المسامحة في تبين طرف المداعبة و الممازحة.

2- إيقاظ الكرام بأخبار المنام.

3- تنعيم الأشباح بمحادثة الأرواح.

4- كتاب الوسائل و نزهة المناظر و الخمائيل.

1- نفسه، ص 303.

2- أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص 212

3- المرجع نفسه، ص 212

4- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 398.

5- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 1، ص ص 346 - 347.

ينظر كذلك: ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص ص 40 - 43.

- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج 7، ص 109.

- أحمد بابا التبتكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط 1، 1989، ص 47.

- محمد بن محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ص 229.

- أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ج 1، ص ص 91 - 92.

- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 1، ص 49.

5- الزَّهْرَات و إِيَالَة النَّظْرَات.

6- كِتَاب فِي التَّوْرِيَة عَلَى حُرُوفِ المَعْجَم: أَكْثَرُهُ مَرُورٌ بِأَسَانِيدِ عَن خَلْقِ كَثِيرٍ.

7- جُزْءٌ فِي تَبْيِينِ المَشْكَلاتِ الحَدِيثِ الوَاصِلَة مَن رُبَيْدِ اليَمَنِ إِلَى مَكَّة.

8- جُزْءٌ فِي بَيَانِ اسْمِ اللّهِ الأَعْظَم: وَ هُوَ كَبِيرُ الفَائِدَة.

9- نَزْهَة الحَدَقِ فِي ذِكْرِ الفِرَقِ.

10- كِتَابِ الأَرْبَعِينَ حَدِيثاً البُلْدَانِيَة وَ المُسْتَدْرَكِ عَلَيهَا مَن البِلَادِ الَّتِي دَخَلْتَهَا وَ رُوِيَتْ فِيهَا زِيَادَة عَلَى الأَرْبَعِينَ.

11- رُوضَة العِبَادِ المَسْتَخْرَجَة مَن الإِرشَادِ.

12- الأَرْبَعُونَ حَدِيثاً الَّتِي رُوِيَتْهَا عَن الأَمْرَاءِ وَ الشُّيُوخِ الذِّينَ رَوَوْا عَن المُلُوكِ وَ الأَمْرَاءِ.

13- كِتَابِ اللُّبَّاسِ وَ الصُّحْبَة وَ هُوَ الَّذِي جَمَعَتْ فِيهِ طُرُقَ المَتَصَوِّفَة: المَدْعَى أَنَّهُ لَمْ يَجْمَعْ مِثْلَهُ.

14- كِتَابٌ فِيهِ شَطْرُ الحِمَاسَة لِحَبِيبٍ: وَ هُوَ غَيْرُ مُكْمَلٍ.

15- رَجَزٌ فِي الفَرَايِضِ عَلَى الطَّرِيقَة البَدِيعَة الَّتِي ظَهَرَتْ بِبِلَادِ الشَّرْقِ.

16- رَجَزٌ صَغِيرٌ فِي الحَجَبِ وَ السَّلَاحِ.

17- رَجَزٌ فِي الجَدَلِ.

18- رَجَزٌ فِي الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَة سَمَّاهُ بِالفِصُولِ المُفْتَضِلَة فِي الأَحْكَامِ المُتَّخِبَة.

19- مِثَالِيثُ القَوَانِينِ فِي التَّوْرِيَة وَ الاسْتِخْدَامِ وَ التَّضْمِينِ: وَ هُوَ كَلَّهُ مَن نَظَمَهُ.

20- فَيْضُ العُبابِ وَ إِفَاضَة قَدَاحِ الآدَابِ فِي الحَرَكَة السَّعِيدَة إِلَى قَسَنْطِينَة وَ الزَّابِ.

21- وَ قَدْ أوردَ المَقْرِي فِي نَفْحِ الطَّيْبِ أَنَّهُ كانَ عِنْدَهُ بِالمَغْرِبِ مَجْلَدٌ مَن رَحْلَتِهِ الَّتِي بَخِطَهُ أَتَى فِيهِ بِالعَجَبِ العُجَابِ<sup>(1)</sup>، وَ هِيَ رَحْلَة حِجَازِيَة نَقَلَ مِئْثَةَ مِئْثَةِ مَعْلُومَاتٍ كَثِيرَة وَ تَرَاجِمَ لِقِيَّهَا ابْنَ الحَاجِّ فِي الدِّيَارِ المَقْدَسَة<sup>(2)</sup>

22- نَقَائِدٌ أَوْ يَوْمِيَّاتٌ: تَحْتَوِي عَلَى مَعْلُومَاتٍ شَتَّى، تَرَاجِمَ، مَرُويَّاتٍ، أَسَانِيدٍ، أَشْعارَ كَثِيرَة سَجَلَهَا ابْنُ الحَاجِّ مَعَ السُّلْطَانِ أَبِي الحَسَنِ المَرِينِيِّ دَاخِلَ التُّرابِ المَغْرِبِيِّ، وَ تَرَكَهَا عَلَى حَالَتِهَا كَمَسْودَة بَدُونِ تَرْتِيبٍ وَ لا تَبْوِيبٍ.

23- كِتَابُ قَرائِنِ القُصْرِ وَ مَحاسِنِ العَصْرِ فِي مَدْحِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ أَبِي عَبْدِ اللّهِ بِنِ نَصْرِ: يَنْسَبُ هَذَا الكِتَابُ لِابْنِ الحَاجِّ وَ لا يَزَالُ مَخْطُوطاً. وَ هُوَ عِبارةٌ عَن دِيوانٍ يَتَضَمَّنُ 29 قَصِيدَة خَصَّصَهُ ابْنُ الحَاجِّ لِمَدْحِ السُّلْطَانِ أَبِي نَصْرِ<sup>(3)</sup>، وَ يَبْدُو أَنَّ ابْنَ الحَاجِّ كانَ يَلْقِي أَشْعارَهُ فِي المُناسِبَاتِ السَّعِيدَة وَ الحَزِينَة سِوَاها بِالمَدْحِ أَوْ الرِّثاءِ.

1- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج7، ص ص 109 - 110.

2- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 42.

3- المصدر نفسه، ص 56.

**المبحث الرابع: لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ/ 1374 م)****المطلب الأول: أسلوبه ومنهجه**

يعد كتاب «نفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب» من أهم كتب لسان الدين بن الخطيب بعد كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة<sup>(1)</sup>، و هو كتاب تاريخي أدبي وصف فيه ابن الخطيب كثير من مسالك البلاد التي زارها في بلاد المغرب<sup>(2)</sup>، و يتضمن الكتاب تهنئة ابن الخطيب للسلطان أبي سالم المريني بمناسبة غزو تلمسان<sup>(3)</sup> و تضمن أيضا رسائل عديدة وجهها إلى أصدقائه منهم ابن خلدون و ابن بطوطة و غيرهما.

و يلاحظ أن أسلوب ابن الخطيب الكتابي، يختلف عن أسلوب رحلاته الأخرى، أي أنه لم يأخذ طابع فن المقامات المعروف بالسجع و التقفية، بل كان كلاماً مرسلًا جزلاً في أغلب الأحيان، غير أن أسلوب ابن الخطيب، نراه بصفة عامة بادی التكلف، مليئاً بالصنعة اللفظية و المحسنات البديعية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الزمن<sup>(4)</sup>، و قد استعمل ابن الخطيب المنهج الوصفي في تأليفه نفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب<sup>(5)</sup>

**المطلب الثاني: مكانته العلمية**

أشادت المصادر التاريخية بلسان الدين بن الخطيب و وصفه للعلماء الذين ترجموا سيرة حياته بحبه للعلم و العلماء، فقال عنه عبد الرحمن بن خلدون: (شاعر الأندلس و المغرب لعصره)<sup>(6)</sup>، و أنه كان من اللسان ملكه لا تدرك و قال عنه أيضا في رحلته: (كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم و النثر، و المعارف و الأدب، لا ساجل مداه، و لا يهتدى فيها بمثل هُداه.)<sup>(7)</sup> و قال عنه التتبيكتي في نيل الإبتهاج: (الإمام الأوحد الفذ صاحب الفنون المنوعة و التآليف العجيبة ذو الوزارتين...)<sup>(8)</sup> و قد أشاد بعلمه ابن الأحمر قائلًا: (شاعر الدنيا و علم المفرد و الثنيا)<sup>(9)</sup>، و وصفه المقري بأوصاف عديدة و أثنى عليه حتى قرن اسم الكتاب به فسماه (نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)<sup>(10)</sup>، و قال عنه عمر فروخ: «كان ابن الخطيب متعدد نواحي الشخصية واسع الثقافة محيطا بوجوه من فنون عصره بارع التعبير عن كل موضوع يتناوله.»<sup>(11)</sup>

1- محمد عبد الله عنان، لسان الدين بن الخطيب حياته و تراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968، ص 80.

2- ساجد مخلف حسن، المرجع السابق، ص 250.

3- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب، المصدر السابق، ص 91 - 101.

4- المصدر نفسه، ص 12.

5- ساجد مخلف حسن، المرجع السابق، ص 252.

6- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 677

7- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة، المصدر السابق، ص 135

8- أحمد بابا التتبيكتي، المصدر نفسه، ص 445.

9- أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، ابن الأحمر، نشير فرائد الجمال في مظم فحول الزمان، تح محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1967، ص 242.

10- أحمد بن محمد المقري، المصدر السابق، مج5، ص 8.

11- عمر فروخ، المرجع السابق، ج6، ص 506.

## المطلب الثالث: آثاره

ترك ابن الخطيب تراثاً حافلاً منوعاً، ما بين تاريخ، و أدب، و سياسة، و تصوف، و طب، و شعر، و نثر، و قد بلغت مؤلفاته زهاء ستين مؤلفاً، و الظاهر أن مؤلفاته التي لم تصل إلينا، قد هلك معظمها في محنة إحراق كتبه التي وقعت في غرناطة سنة 773 هـ، و شملت كتب الطب و التصوف و الموسيقى، و الواقع أن ابن الخطيب قد وضع كثيراً من كتبه أثناء إقامته منفياً بالمغرب، و ذكر لنا ابن الخطيب ثبت مؤلفاته خلال ترجمته لنفسه في آخر كتاب الإحاطة<sup>(1)</sup>، و قد يكون هذا الثابت لم يشمل كل كتبه و رسائله.

و قد نقل إلينا المقري و آخرون<sup>(2)</sup> كتب و رسائل ابن الخطيب أثارت انتباه و اهتمام الباحثين، فعملوا على تحقيق أجزاء منها و نشرها. و منها:

- 1- الإحاطة في أخبار غرناطة.
- 2- الإشارة إلى أدب الوزارة.
- 3- أوصاف الناس في التواريخ و الصلات.
- 4- جيش التوشيح.
- 5- الحلل الموشية في ذكر الأخبار الأندلسية.
- 6- خطرة الطيف و رحلة الشتاء و الصيف.
- 7- رسالة الطاعون.
- 8- رقم الحُلل في نظم الدول.
- 9- روضة التعريف بالحب الشريف أو كتاب المحبة.
- 10- ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب (مجموعة رسائل).
- 11- كتاب المحبة.
- 12- التاج المحلى.
- 13- عائد الصلة.
- 14- البيزرة.
- 15- البيطرة في محاسن الخيل و غيرها.
- 16- الوصول لحفظ الصحة في الفصول.

1- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 1، ص ص 53 - 54.

2- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، المصدر السابق، ص ص 189 - 190. ينظر كذلك:

- شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج 3، ص 472  
 - أحمد بن القاضي المكناسي، المصدر السابق، ج 1، ص 308.  
 - أحمد بابا التبتكي، المصدر السابق، ص ص 445 - 446.  
 - خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 6، ص 235.  
 - عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج 6، ص ص 506 - 507.

17- رسالة تكون الجنين.

18- اليوسفي في الطب.

19- رجز في الطب.

20- الرّجَز في علم التّرياق.

21- رجز في الأغذية.

22- رجز في السياسة.

23- حمل الجمهور على الظن المشهور.

24- سد الذريعة في تفضيل الشريعة.

25- استنزال أطف الموجود في سر الوجود.

26- بستان الدول.

27- فتات الخوان و لقط الصوان.

28- كتاب الوزارة.

29- مقامة السياسة.

30- رسالة الغيرة على أهل الحيرة.

31- حمل الجمهور على السنن المشهور.

32- الزبدة الممخوذة المنخوذة في الرد على أهل الإباحة.

33- الإكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر.

34- طرفة العصر في دولة بني نصر.

35- ظل الغمام.

36- مثلي الطريقة.

37- عمل من طب لمن حب.

38- تقريب الشبه و تحريم الشبه: له فيه شجرات عشرة ( شجرة السلطان ثم الوزارة ثم العمل ثم الجهاد

أسطولاً و خيولاً ثم المضطر إليهم في باب السلطنة من الأطباء و المنجمين و الندماء و الشعراء و غيرهم).

39- الرعايا.

40- تخليص الذهب في اعتبار عيون كتب الأدب.

41- السحر و الشعر.

42- الصيب و الجهام و الماضي و الكهام (ديوان شعر).

43- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة.

44- كناسة الدكان بعد انتقال السكان (مجموعة رسائل).

45- اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

46- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة.

47- شاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب و الأندلس (مجموعة رسائل).

48- معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار.

49- مفاضلة (مفاخرة) بين مالقة و سلا.

50- مقاصد السياسة.

51- مقنعة السائل عن المرض الهائل.

52- الحلل المرقومة.

53- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة.

54- نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب.

55- التاريخ المحلى في مساجلة القدر المعلى: و يحتوي على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة، منذ إنشائها على أيدي بني نصر، و تراجم أعيانها في القرن الثامن الهجري، و قد ترجم فيه ابن الخطيب لنفسه و لوالده<sup>(1)</sup>

56- اللوحة البدرية في الدولة النصرية: و هو مختصر لتاريخ بني نصر ملوك غرناطة، حتى فاتحة سنة 765 هـ، و هو تاريخ الفراغ من تأليفه حسبما ذكره المؤلف في خاتمته<sup>(2)</sup>

57- أعمال الأعلام فيمن بويغ من ملوك الإسلام قبل الإحتلام: و هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل مصرعه.

أما «القدر المعلى» الذي يقرب به ابن الخطيب، فهو من تأليف ابن سعيد الأندلسي (أبي الحسن علي بن موسى المتوفى سنة 666 هـ أو 672 هـ وفقاً لابن الخطيب)، و يضم تراجم الأدباء الأندلسيين في القرن السابع الهجري<sup>(3)</sup> و له أيضا مؤلفات في الموسيقى و غير ذلك<sup>(4)</sup>، و قد يكون منها ما بقي على شكله المخطوط أو ضاع كلياً أو تلف جزئياً مع مرور الزمن أو أحرق بعد اتهامه بالإلحاد و الزندقة.

1- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة...، المصدر السابق، ج 1، ص 54.

2- المصدر نفسه، ص 55.

3- المصدر نفسه، ص 54.

4- أحمد بن القاضي الكناسي، المصدر السابق، ج 1، ص 308.

**المطلب الرابع: مصادره**

يعتبر نُفاضة الجَرَّاب في عُلالة الاغتراب من أحسن ما أَلَّفَه لسان الدين بن الخطيب<sup>(1)</sup>، و مما يلاحظ على العموم أن ابن الخطيب اعتمد في تدوين مؤلفاته على مصادر متعددة منها: المقابلات الشخصية و المراسلات و المصنفات المتعلقة بالعلوم التي كتب فيها. و الكُتب التي ورد ذكرها في متن نُفاضة الجَرَّاب في عُلالة الاغتراب هي:<sup>(2)</sup>

**ابن الأبار<sup>(3)</sup>:**

- تحفة القادم.

**ابن الخطيب (لسان الدين):**

- الأرجوزة المعلومة.

- تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة.

- الحل المرقومة في اللع المنظومة.

- رقم الحل في نظم الدول.

- السحر و الشعر.

- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة.

- معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار.

**ابن سينا<sup>(4)</sup>:**

- الأرجوزة المجهولة.

**صفوان بن إدريس<sup>(5)</sup>:**

- زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر.

**القاضي عياض بن موسى بن عياض<sup>(6)</sup>:**

- كتاب الشفاء.

1- شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، المصدر السابق، ص 189.

2- لسان الدين بن الخطيب، نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب، المصدر السابق، ص 511.

3- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، من أعيان المؤرخين، ولد ببليسية عام 595 هـ/1199 م

و قُتِل «قَعصاً بالرماح» في تونس عام 658 هـ/1260 م. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 6، ص 233.

4- هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، شَرَفَ المُلك، الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب و المنطق و الطبيعيات و

الإلهيات، توفي سنة 428 هـ/1037 م. ينظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج 2، ص 241.

5- هو أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي.

6- هو الإمام العلامة الحافظ الأوحَّد شيخ الإسلام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليَحْصَبِي

الأندلسي ثم السبتي المالكي. عام 1260 م.

ينظر: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، المصدر السابق، ج 1، ص 2.

## المبحث الخامس: ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 779 هـ/1377 م)

## المطلب الأول: تدوين رحلاته

أملى ابن بطوطة رحلته على ابن جزى<sup>(1)</sup> من ذاكرته، و لم يكتبها أثناء سفره و ترحاله، و رغم هذا فإنه لا يوجد في رحلته إلا القليل من الأخطاء و قد استخدم ابن جزى في أسلوبه عبارات مغربية يصعب على أهل المشرق إدراك معانيها المقصودة<sup>(2)</sup>، و دبج ابن جزى رحلة ابن بطوطة بناء على تكاليف من السلطان المريني، و هذه الخاصة في إنشاء الرحلة تفسر التناقضات الواضحة للدارس الناقد، فيكون الأسلوب تارة مألوفاً و مبسطاً، و لكنه جدياً عندما يعمل الكاتب نقلا عن لسان ابن بطوطة نفسه، و لكن الأسلوب يصبح تارة أخرى منمقاً فارغاً عندما يحاول ابن جزى ربط المعلومات المتفرقة سوية أو عندما يعمل على تزويق الأوصاف الجافة التي يسمعا من رحّالنا. و ربما يقع على عاتق محمد بن جزى مسؤولية الفقرات المنتحلة عن ابن جبير و غيره من المؤلفين، و التي استفاد منها ابن جزى بشكل محتشم، و لا سيما فيما يتعلق بوصف المناطق التي زارها كلا الرحّالين، و التي كثيراً ما نجدها في «رحلة ابن بطوطة»<sup>(3)</sup>، و قد اعتمد ابن بطوطة على ذاكرته بدل مذكراته في رواية رحلته التي ذكر فيها أعلام و أماكن و أحداث كثيرة مما دفع بالبعض إلى التشكيك فيما رواه لكاتب السلطان المريني.

غير أن الشك لم يحم حول أسفار ابن بطوطة، إذ أنكر بعض الباحثين أجزاء من الرحلة، بسبب كثرة الثغرات الكبيرة، و الخطأ في ترتيب المدن و البلدان، خاصة البلاد غير الإسلامية و من الصعوبة بمكان إعطاء الأمثلة التي وردت في أسفاره، و التي تخص هذا الأمر. إن الناظر إلى أحداث رحلة ابن بطوطة و تفاصيلها يرى أنه (ابن بطوطة) اعتمد على الذاكرة بشكل مطلق، لأنه لم تكن له مدونات يرجع إليها و يتذكر جميع الظروف التي ألمت به بدليل أنه كان لا يخجل من الاعتراف بأنه قد نسي اسم موضع شخص ما مثل ذلك القاضي الذي نزل عليه بالشام أو تلك المدينة التي مر عليها في طريقه إلى تمبكتو، و أغلب الظن أنه لم يدون مذكرات منظمة، و إذا كان قد دون شيئاً فلا شك في أنه قد أضاعه خلال تجواله، أما السبب الآخر فيمكن في جهل ابن بطوطة بلغات البلدان التي زارها و إن كان ذلك في المراحل الأولى من رحلته<sup>(4)</sup>، قبل أن يحتك بأهلها أو يستعين بمترجم للغاتها.

و هذا ما أقره ابن بطوطة عن سكان بلاد بُردور<sup>(5)</sup> قائلاً: «فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا و الاستبشار و الفرح و هم لا يعرفون لساننا و نحن لا نعرف لسانهم و لا ترجمان فيما بيننا. و أقمنا عندهم يوماً و انصرفنا.»<sup>(6)</sup>، و كانت إقامة ابن بطوطة قصيرة عندهم بسبب جهله لغتهم.

1- *Janssens (Herman F.). Ibn Batouta, "Le Voyageur de l'Islam" (1304-1369) Revue belge de philologie et d'histoire, Année 1949, Volume 27, Numéro 3, p. 855.*

2- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 8.

3- عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص 560.

4- نواف عبد العزيز الجمعة، المرجع السابق، ص ص 96-97.

5- بُردور: بلدة صغيرة كثيرة البساتين و الأنهار، لها قلعة في رأس جبل شاهق. ينظر: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 187.

6- المصدر نفسه، ص 187.

**المطلب الثاني: أسلوب الرحلة**

و لابد من أن نأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف التي تم فيها تدوين الرحلة، فيجب ألا ننسى أن كثيراً من اللوم الموجه إلى ابن بطوطة يمكن أن يكون ناشئاً عن ابن جزى فأسلوبه كان يفتقر في كثير من الأحيان إلى التناسق و التناصب، و يمكن أن نحكم على الأسلوب المتكلف الذي لجأ إليه و ميله الواضح إلى السجع و الإطناب و هي من سمات عصر التدهور. و من حسن الحظ أن أسلوب الكتاب لا يسير في جميع صفحاته على الوتيرة نفسها إذ كثيراً ما تتخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التي يميل فيها أحياناً إلى لغو المحادثة محتفظة في نفس الوقت برزانيتها و غناها بالتفاصيل، و إلى جانب ذلك يبدو أسلوب ابن جزى ثقيلًا غلب عليه الحشو و التكلف انعكست عليه على الدوام محاولة واضحة إلى جمع قصص ابن بطوطة المتفرقة في وحدة متماسكة و تزويقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية<sup>(1)</sup> أو أدب الرحلة الذي يغلب عليه الأسلوب القصصي.

و من الإجحاف اتهام ابن بطوطة بادعاء المعرفة و العلم بالكتب فهو رجل يحب القصص و لكنه يفضل حكايتها بألفاظه هو و من المشكوك فيه أن يكون هو المسئول عن تضمين قطع كبيرة من كلام ابن جبير في وصف الشام و بلاد العرب دون الإشارة إلى المؤلف، غير أنه من الطبيعي أن يكون ابن جزى الغرناطي الأصل على دراية و معرفة جيدة بالأسلوب المصقول لمواطنه الأندلسي ابن جبير الذي كان محبوباً في قلوب أهل بلده. إن دور ابن جزى في تحرير الكتاب كانت له آثار بعيدة فقد جهد في أن يضيف على المصنف طابعاً فنياً متماسكاً لم في الأصل إطلاقاً<sup>(2)</sup>

**المطلب الثالث: منهجه**

عاش ابن بطوطة أزهى عصر بني مرين في المجالات العلمية و الفنية و الحضارية، فتلقى تكويننا جيداً على نمط رجال عصره، و يزكي هذا الافتراض ما لقيه ابن بطوطة من مظاهر الاحترام و التبجيل أينما حل و ارتحل، و ما ارتقى إليه من مناصب و مراكز علمية أثناء رحلته. يبدو مستواه العلمي الجيد في المنهج الذي لازمه طيلة الرحلة، بما أبداه من ملاحظات و تفصيلات و مناقشات لا يمكن أن تتيسر إلا لذكي مثقف له إلمام بالفقه و مذاهبه، و اللغة و تفاصيلها، و القدرة على الغوص في الأفكار بتتبع الخلاقات و الآراء في القضية الواحدة<sup>(3)</sup> التي كانت يثار فيها الإستفسار و المناقشة و الحديث.

و من أمثلة هذا التمكن العلمي قوله عن مشاهد القدس: «ومنها أيضا قبر رابعة البديوية، منسوبة إلى البادية، و هي خلاف رابعة العدوية الشهيرة.»<sup>(4)</sup>، أو ملاحظاته اللحن على خطيب البصرة، و اعتباره ذلك مظهراً لتغيير الأحوال و تقلب الأزمان<sup>(5)</sup>

1- أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، ج1، المرجع السابق، ص 426.

2- المرجع نفسه، ص ص 426-427.

3- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 251.

4- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 43.

5- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 123.

ينظر كذلك: الحسن الشاهدي، المرجع نفسه، ج 1، ص 251.

أشار ابن جزري إلى جانب من منهج كتابة رحلة ابن بطوطة في تقديمه لها عندما أشار إلى موقفه المتباينين من كلام ابن بطوطة، فهو حيناً يثبته بنصه الصريح دون تغيير أو تحريف، و حيناً آخر يصوغه بصنيع من إنشائه الخاص، مما أدى إلى إختلاط الأسلوبين في تأدية المعاني. و لقد حاول دارسو الرحلة التفريق بين الأسلوبين فقالوا المقدمة و الخاتمة و بعض مقدمات الأوصاف و خاصة فيما يتعلق بأوصاف المدن من إنشاء ابن جزري، و ما تبقى من إملاء ابن بطوطة<sup>(1)</sup>، و مما طبع أيضاً منهج ابن بطوطة حرصه المستمر على الإشارة إلى مذهب أهل كل بلد حل به مما يدل على معرفته لهذه المذاهب و إطلاعها عليها، و هكذا أظهر إطلاعها عليها، و معرفته بمبادئ أهل السنة و الشيعة و الخوارج<sup>(2)</sup>، و هذا يناقض أقوال المشككين في مستوى ابن بطوطة العلمي، حيث قاله فيه الدكتور حسني محمود حسين: «و نحن أميل إلى الترجيح بأن ابن بطوطة لم يكن قد كون التكوين الديني الكامل في علوم الدين و الشرع لصغر سنه عندما أزمع القيام برحلته»<sup>(3)</sup>

### المطلب الرابع: مؤلفاته

لم يخلف ابن بطوطة وراءه أي إنتاج أدبي، حيث لم يرد في كتابه الرحلة أو في المصادر الأخرى ذكر ما لمؤلفات أدبية منسوبة إليه، و هكذا وصلنا سرد لقصة أسفار ابن بطوطة على شكل كتاب عنوانه «تحفة النظر في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار» الشهير بكتاب «رحلة ابن بطوطة»<sup>(4)</sup>، و هناك من يثير الشك في رحلة ابن بطوطة و ذلك لعدة أسباب منها: ما نقله المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته عن البلدان البعيدة التي يجهلها السامعون فلا يعرفون طبيعتها و عادات أهلها<sup>(5)</sup> البُعدها و صعوبات الوصول إليها زمن ابن بطوطة.

و يبدو أن الفضل في ظهور كتاب رحلة ابن بطوطة يعود إلى السلطان أبي عنان، فهو الذي عثر له على «محرر أدبي» إن صح القول و يتضح من وصف ابن بطوطة المعروف «تحفة النظر في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار» ليس تصنيف ابن بطوطة نفسه بل يمثل صياغة أدبية لروايته عملها الكاتب ابن جزري، و يمكن الحكم على الطابع بشكل عام من ألفاظ ابن جزري كأديب. و أتم ابن جزري عمله في ثلاثة أشهر فقد انتهى من تقييد ألفاظ ابن بطوطة في ديسمبر 756 هـ/1355 م و في فبراير من العام التالي كان قد أكمل صياغتها، و لم يعش طويلاً حيث وافته المنية في نفس العام<sup>(6)</sup>، أما مكان تدوين الرحلة كان مدينة مراكش التي استقر فيها ابن بطوطة أين أملى ما كان يتذكر منها على ابن جزري سماها «تحفة النظر في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار»، و هي تُعرف عادة برحلة ابن بطوطة<sup>(7)</sup>

1- حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 49.

2- الحسن الشاهدي، المرجع نفسه، ج 1، ص 252.

3- حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 38.

4- عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص 560. ينظر: الحسن الشاهدي، المرجع نفسه، ج 1، ص 257.

5- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 214.

6- أغناطيوس بوليانوفتش كراتشكوفسكي، ج 1، المرجع السابق، ص 425-426.

ينظر كذلك: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، المصدر السابق، ج 3، ص 189.

7- عمر فروخ، المرجع السابق، ج 6، ص 522.

## المطلب الخامس: القيمة العلمية للرحلة

قدم ابن بطوطة في رحلاته وصفاً لمشاهد رآها و لم يكن عالماً بل اعتمد اعتماداً كبيراً على مشاهدته، و على ما تبقى في ذاكرته و ذلك في وصف رحلته، و من هنا فقد وقع في بعض الأخطاء تعلقت بالتواريخ التي حددها، خصوصاً عندما وصف القسطنطينية و ما سرده من حكايات عن الصين مما دفع بعض الباحثين إلى القول بأنه لم يزر الصين، لكن ابن بطوطة يختلف عن سائر الرحالة الجغرافيين المسلمين في أنه لم يجمع مادته من الكتب، كما أنه لم يذهب إلى البلاد المختلفة بقصد الدراسة، و إنما ساح و جال في البلاد بحب الاستطلاع، و ما جمعه من معلومات كان وليد ملاحظاته الشخصية و محادثاته، و قد حوى وصف الرحلة كثيراً من الطرائف و الحكايات و وصف عجائب المخلوقات<sup>(1)</sup>

لكن ابن بطوطة غمط حقه و أهمل شأنه بين علماء و مؤرخي عصره، فلم يخصه أحد بترجمة وافية، و نجد نفس الإهمال تلقاه الرحالة أيضاً، فلا يشير إليها كتاب الرحلات أو المؤرخون فيما بعد إلا في القرن الحادي عشر الهجري، إذ ينقل عنها في مواضع مختلفة كل من المقري التلمساني (1041 هـ)، و أبو سالم العياشي (1090 هـ)<sup>(2)</sup>، الذي إعتبر هذه الرحلة إمام ما عداها من الرحلات، ثم لم يذكرها أحد بعد ذلك طيلة قرنين من الزمان، حتى إذا كان منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وجدنا الزياني<sup>(3)</sup> يصحبها معه في وجهته إلى الحجاز دليلاً يسترشد به، فلم يهملها و لم يترك الاعتماد عليها<sup>(4)</sup>، رغم أن كل من المقري و الزياني عاصرا فترة التاريخ الحديث.

قدم ابن بطوطة من خلال رحلته كثيراً من معلومات التاريخية و الجغرافية عن مناطق معروفة و مناطق أخرى في الشرق الأقصى و في بعض مجاهل إفريقيا لم تكن معرفتها واسعة الانتشار، إن لم تكن معدومة أحياناً. و لا يقلل من أهمية هذه المعلومات ما تزخر به الرحلة من أخبار و حكايات غريبة تطبعها بطابع أسطوري. و ستظل رحلة ابن بطوطة، مع أنها صياغة أدبية لروايته، حررها ابن جزى، جهداً أثري به العرب التراث الإنساني<sup>(5)</sup> و مما يثير الانتباه في الرحلة شهادة ابن جزى الكلبي لابن بطوطة في خاتمة كتابه «و لا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر، و من قال: رحال هذه الملة لم يبعد»<sup>(6)</sup>

1- محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص ص 161 - 162.

2- العياشي (1037 - 1090 هـ / 1628 - 1679 م): هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، ينحدر من أصل بربري من قبيلة آيت عياش التي كانت تقيم بأحواز سجلماسة مركز واحة تافيلالت في جنوب المغرب. قام برحلة «الرحلة العياشية» أو «ماء الموائد» ينظر: محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفرائي، صفة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تح عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص 325. ينظر كذلك: عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص 645.

3- الزياني (1147 - 1249 هـ / 1734 - 1833 م): هو أبو القاسم بن الفقيه أحمد الزياني، وزير و مؤرخ الدولة العلوية، ترجع شهرته إلى مؤلفه في أدب الرحلة «الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا و بحرا». ينظر: أبو القاسم الزياني، الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا و بحرا، تح عبد الكريم الفيلاي، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، 1991، ص ص 52، 65.

4- الحسن الشاهدي، المرجع نفسه، ج 1، ص 276.

5- حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 52.

6- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 491 - 492.

## المطلب السادس: اهتمام المستشرقين بتحفة النظار

بالرغم من أهمية رحلة ابن بطوطة و ما ورد فيها من أخبار و معلومات، إلا أنها ظلت مجهولة فترة طويلة من الزمن، إذ لم تعرف قيمتها و يكشف عنها إلا في القرن التاسع عشر، بعد أن تنبه المستشرقون خاصة إلى قيمة ما تضمنته من معلومات، و ما انفردت به من تفاصيل و حقائق تاريخية، فاتجهوا إليها بالدراسة، و التحليل، و النشر، و الترجمة و التعريف، و المقارنة<sup>(1)</sup>، و لم يعرف الغرب المسيحي ابن بطوطة إلا عندما أشار إليه المستشرق الألماني زينتن (Seetzen) سنة 1808 م حيث قال متسائلاً: «أي سائح أوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة و تحمّل من مشاقّ الأسفار ما تحمّله بصبر و ثبات و شجاعة»<sup>(2)</sup>، و يبدو هذا رأي موضوعي في حق ابن بطوطة.

و عندما اكتشف المستشرقون ابن بطوطة اهتموا في المقام الأول بالجزء الجغرافي من عمله الذي يمكن أن يضيف أسماء على خريطة العالم<sup>(3)</sup>، و أول من تناول ابن بطوطة بالبحث المستشرق الألماني كوزجارتن (kosegarten)، إذ قدم تحليلاً للرحلة مع مقتطفات مترجمة و تعليقات تحت عناوين «الرحلة الفارسية» و «الرحلة المديفية» و «الرحلة الأفريقية» و قام القسّ الإنجليزي صمويل لي (Lee) بجامعة كامبردج بترجمة قسم كبير من وصف الرحلة إلى اللغة الإنجليزية سنة 1829 م<sup>(4)</sup>، إلا أنه لم يعرف نص الرحلة بشكله الحالي إلا في منتصف القرن التاسع عشر بعد أن أخرج العالمان الفرنسيان دفريمري (Défrémery) و سانكينيتي (Sanguinetti) أول طبعة متضمنة للنص العربي مع ترجمته إلى الفرنسية، و كان هذا أول إخراج علمي للرحلة، مما جعل الطبعة الفرنسية حاضرة في أعمال كل من أراد أن يشتغل بالرحلة سواء بالنشر أو الدراسة أو الترجمة. و قد ترجمت ارحلة إلى لغات عديدة، فقد ترجمها مزيك (Mzik) إلى الألمانية، ونقلها جب (Gibb) إلى الإنجليزية، و نقلها إلى التركية العلمان محمد شريف و محمد جودت، و ترجمها إلى التشيكية العالم هريك (Hrbek)، و إلى الإيطالية العالم كابريلي (Gabriéli)، و ترجمت إلى غيرها من اللغات<sup>(5)</sup> فأصبحت بذلك محل إهتمام الباحثين في العالم. أثارت مواضيع رحلة ابن بطوطة جدل بين مؤيد و معارض بين المستشرقين، فمن المؤيدين لها كوزجارتن (kosegarten)، أما من عارض حدوثها يول (Yule) و لكن لم تلبث أن عادت الثقة إليها في القرن العشرين مع الاعتراف بقيمتها العلمية<sup>(6)</sup>، و كانت آراء معارضة لبعض أجزاء الرحلة.

1- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 299. ينظر كذلك: نواف عبد العزيز الجحمة، المرجع السابق، ص 98-99.

2- محمد محمود محمددين، المرجع السابق، ص 163.

3- Joseph Chelhod, *Ibn Battuta in Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, N°25, 1978, p. 8.

4- محمد محمود محمددين، المرجع السابق، ص 163.

5- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 1، ص 299.

ينظر كذلك: جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج 3، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، مصر، (د ت)، ص 239.

6- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية...، المرجع السابق، ص 132-133.

## المبحث السادس: الحاج عبد الله بن الصباح (النصف الثاني من القرن 8 هـ/ 14 م)

## المطلب الأول: منهجه

كان ابن الصباح يُعنى بالرسوم التي تقرب الصورة للذين لم يسعفهم الحظ بالوصول إلى مكة المكرمة أو الذين لم يدركوا الوصول إلى الكعبة المشرفة فظلوا شاردين تائهين<sup>(1)</sup> و قد اعتمد في تدوين أحداث رحلته على المنهج السردى مثل سابقيه من الرحالة المغاربة و الأندلسيين، و لجأ في رحلة إلى وصف الأماكن و الأقاليم و المجتمعات التي مرّ بها.

## المطلب الثاني: أسلوبه

يتجلى الأسلوب الحكائي و السمة العامية في بعض العبارات التي استعملها صاحب الرحلة كقوله في آخر حديثه عن مدينة فاس عاما كاملا ما نبلغ وصفها<sup>(2)</sup> و قوله عن النيل: «و لو نصف هذا النيل و عجائبه مثل عمر نوح ما نبلغ وصف عجائبه»<sup>(3)</sup> و قوله أيضا عن مصر: «لو نصف مصر و ما فيها من الفضل و العجائب ما نبلغ ربع الشيء»<sup>(4)</sup> و قوله في وصف الحرم المكي: «لو نصف فضائل هذا البيت طول العمر ما نبلغ وصفه»<sup>(5)</sup> و قوله في آخر وصف المدينة المنورة: «لو نصف هذه المدينة مقدار عمر نوح صاحب السفينة ما نبلغ وصف معجزة فضلها و كرامتها عند الله»<sup>(6)</sup> و قوله في حديثه عن بني هلال: «لو نصف بني هلال و كرمهم و جودهم و فضائلهم ألف ألف عام لم نبلغ آخر الوصف»<sup>(7)</sup>، و قد استخدم ابن الصباح أسلوب بسيط عكس مستواه الثقافي و تحصيله العلمي.

و من العبارات التي وردت و تكررت في رحلة ابن الصباح عند وصفه مدن و بلدان عديدة منها بجاية و بلاد تهامة و البصرة (لا يقدر عليها فارس و لا حارس)<sup>(8)</sup> و كقوله كذلك في أكثر من مدينة (كافية بنفسها عن غيرها)<sup>(9)</sup> و يبدو أن نص الرحلة الذي يتحدث أحيانا عن ابن الصباح بقوله: رحمه الله، مكتوب من طرف موريسكي ثان، و لهذا يُعتقد أن الرحلة عملت فيها يدان اثنتان: أولاهما يد الرحالة ابن الصباح الذي قام بالرحلة، ثم أتى بعده موريسكي نسخ الرحلة... تصرف فيها حسبما تجدد من أحداث في القرن العاشر الهجري. و مما يلاحظ أن أسلوب الرحلة كان الأسلوب الذي يوجد في أغلب المخطوطات الموريسكية الأخمياوية<sup>(10)</sup>، لكن ابن الصباح أمد القارئ بمعلومات ذات أهمية تاريخية و اجتماعية صورتها أحداث رحلته.

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج1، ص 169.

2- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 91.

3- المصدر نفسه، ص 123.

4- نفسه، ص 125.

5- نفسه، ص 143.

6- نفسه، ص 178.

7- نفسه، ص 161.

8- نفسه، ص ص 102، 154، 225.

9- نفسه، ص 47.

10- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج1، ص ص 165-166.

## المطلب الثالث: مصادره

يوجد في الرحلة ما يدل على وقوف ابن الصباح على بعض المراجع التاريخية و الجغرافية و الفقهية و غيرها<sup>(1)</sup> و جاء فيها عند الكلام على إقليم الأندلس: «و هو عند أصحاب التواريخ مثل المسعودي و الحضرمي و أصحاب الجغرافية لهارون الرشيد الصقع الصغير من الأقاليم»<sup>(2)</sup> و الحضرمي - على ما يبدو - هو عبد الرحمن بن خلدون و في مقدمته كما في مروج الذهب كلام على الأقاليم السبعة، و يبدو أن المقدمة ظهرت و عرفت في حياة مؤلفها و ابن الصباح صاحب الرحلة عاش فيما قُدر في آخر القرن الثامن و قد يكون أدرك القرن التاسع، أما قوله و أصحاب الجغرافية لهارون الرشيد فيقصد بهم سبعون رجلا من فلاسفة العراق وضعوا جغرافية للمأمون بن هارون الرشيد حسبما ذكره الزهري في كتاب الجغرافية<sup>(3)</sup>

صرح ابن الصباح في رحلته أنه قرأ كتب هؤلاء و غيرهم وقال: «قرأت كتب المؤرخين و أولي الأبواب مثل وهب بن منبه و الحضرمي و ابن الجزار و المسعودي في الكتاب الكبير من مروج الذهب و جغرافية هارون الرشيد العباسي و غيرها من كتب الأنساب»<sup>(4)</sup> و الحضرمي كما ذكرنا سابقا هو ابن خلدون و أما ابن الجزار فهو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم القيرواني المتوفى سنة 395 هـ و لعل صاحب الرحلة يشير إلى كتابه عجائب البلدان في الجغرافية أو إلى كتابه المغازي<sup>(5)</sup> و قد تكرر عند ابن الصباح صاحب الرحلة مثل قوله: «قرأت في كتاب تيجان الملوك»<sup>(6)</sup> و كتاب التيجان هذا لابن هشام صاحب السيرة<sup>(7)</sup> التي اشتهرت باسمه و هي مصدر مهماً في السنة النبوية.

1- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 47.

2- المصدر نفسه، ص 58.

3- نفسه، ص 47.

ينظر كذلك: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر (د ت)، ص ز.

4- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 99.

5- المصدر نفسه، ص 47.

6- نفسه، ص 234.

7- حاجي خليفة، المرجع السابق، مج 1، ص 518.

**المبحث السابع: ابن خلدون عبد الرحمن (ت 808 هـ/1406 م)****المطلب الأول: أسلوبه ومنهجه**

يمتاز أسلوب ابن خلدون بالأناقة كثير التكلفة و التصنيع تجده في ديباجة «المقدمة» و في عدد من المواضع من فصولها، ثم أسلوب سهل مُرسل نجده في فصول المقدمة عامة<sup>(1)</sup>، و قد نجد أحياناً ألفاظاً أو عبارات صعبة كأنما صدرت من أعربي فُح نحتاج في شرحها و فهمها إلى المعاجم العربية القديمة. اتسم منهج ابن خلدون بالسمة الواقعية التي تسعى إلى رسم الحدود التي يتحرك فيها العقل بحدود الأمور التي تقع ضمن طاقته و إمكاناته، و من ثم فقد سلم بأن أمور الغيب و ما وراء الطبيعة ليست من الأمور التي يختص العقل بدراستها، لذا دعا إلى، حصر نشاط العقل في مجالات الطبيعة و الحياة الاجتماعية و كل الأمور الأخرى الملموسة التي تدركها الحواس<sup>(2)</sup>، و قد سلك ابن خلدون في التاريخ منهجاً يعتمد البحث عن الأسباب و النتائج.

رصد ابن خلدون طبيعة التدوينات التاريخية في عصره و العصور السابقة له، و سعى إلى تقديم منظور خاص به للتدوين التاريخي، تجاوز المنهج الشائع، و قدّم في الوقت ذاته تعريفاً خاصاً به، يتجاوز الوصف الظاهري، و أكد على أن التاريخ في باطنه نظر و تحقيق و تحليل للكائنات و مبادئها دقيق، و علم بكيفيات الوقائع و أسبابها عميق...<sup>(3)</sup>، و صنّف التدوينات التاريخية إلى أربعة مراحل<sup>(4)</sup>:

**- مرحلة كبار المؤرخين (الرواد):**

و هي مرحلة بلغ فيها التأليف التاريخي في الإسلام، أوجّه على يد كبار المؤرخين، و خص ابن خلدون ابن إسحق (ت 150 هـ/767 م) و الأسدي (ت 200 هـ/815 م)، و ابن الكلبي (ت 204 هـ/819 م)، و الواقدي (130 - 207 هـ/747 - 823 م)، و الطبري (224 - 310 هـ/839 - 923 م)، و المسعودي (ت 346 هـ/957 م)، و كل هؤلاء من المؤرخين العرب المسلمين الكبار كانوا من أصحاب التواريخ العامة.

**- مرحلة المؤرخين الإقليميين:**

هي مرحلة التدوين التاريخي للمؤرخين الذين تخصصوا في كتابة تاريخ دولة أ إمارة أو إقليم، و قد عزا ابن خلدون أسباب ذلك إلى انقسام الدولة الإسلامية إلى إمارات و ممالك مستقلة، فكانت الحاجة إلى، التدوين التاريخي الخاص بها، للإحاطة بأخبارها و أحداثها، خضّ بالذكر في هذه المرحلة ابن حيان مؤرخ الأندلس و الدولة الأموية بها (377 - 469 هـ/987 - 1076 م)، و ابن الرقيق مؤرخ إفريقية و الدول التي قامت بالقيروان بعد سنة 417 هـ/1026 م، من أصحاب التواريخ المقيدة بقطر أو عصر.

1- عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج6، ص ص 588 - 589.

2- هاشم يحي الملاح، المفصل ...، المرجع السابق، ص 150.

3- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص ص 41 - 65.

4- سالمة محمود محمد عبد القادر، منهجية ابن خلدون في تدوين السيرة النبوية و تفسيرها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص ص 32 - 35.

**- مرحلة المؤرخين المقلدين:**

اقتصر التدوين التاريخي فيها على التقليد لدى عموم مؤرخيها، و قد عاب ابن خلدون عليهم افتقارهم إلى التحديث و التجديد، و أشار إلى ذلك بقوله: «...ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد بليد الطبع و العقل متبلد...»<sup>(1)</sup>، لأنهم من وجهة نظره «...يجلبون الأخبار عن الدول، و حكايات الوقائع في العصور الأُولُ صوراً تجردت من موادها...»<sup>(2)</sup>، و عاب عليهم فقدانهم القدرة على التحليل و التدقيق و التمحيص في تدويناتهم التاريخية، فعدهم غير مؤهلين و عاجزين عن الارتقاء بالتدوين التاريخي إلى مكانته الأصلية.

**- مرحلة الاختصار و التلخيص:**

عد المؤرخون في هذه المرحلة إلى الاختصار و التلخيص لكتب المؤرخين السابقين لهم في منظومات و مختصرات عديمة الفائدة، و هي المرحلة التي عاصرها ابن خلدون بنفسه و عاب على مؤرخيها لأنهم أفرطوا في الاختصار «...و ذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك و الاقتصار، مقطوعة عن الأنساب و الأخبار، موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار...»<sup>(3)</sup>، و يبدو أن عبد الرحمن بن خلدون كان شديد الانتقاد للمرحلتين الأخيرتين.

**المطلب الثاني: مشاركته في مختلف العلوم**

يحيط ابن خلدون بكثير من علوم الأقدمين قبل الإسلام و من العلوم الحادثة بعد ظهور الإسلام، في الفلسفة النظرية و في العلم العملي معاً. و مع أن ابن خلدون أشعري في حياته العملية فإنه يفضل الرواية الدينية على الأخذ بالعقل، و البحث عن كل شيء من وجوه الثقافة الإنسانية في الفلسفة و في الدين أيضاً معتزلي المنهج يأخذ بقواعد المنطق و بما يدل عليه العقل، ثم بما هو مُشاهد في الاجتماع الإنساني. و هو أيضاً عالم حسن الرواية للعلم مُنصف لخصومه و اضح في بحثه يعرض رأي الخصم كما يقول الخصم، دون تزيف أو تحريف، و لو كان ذلك الرأي مُخالفاً لرأي ابن خلدون نفسه أو اعتقاده، كما نرى كلامه على اليهود و النصارى<sup>(4)</sup> كأنه ينتمي إلى التيار العقلاني العلمي.

تعرض عبد الرحمن ابن خلدون للعلوم الطبيعية أو الرياضية، رغم أنها علوم ليست داخلية في اختصاصه، لكن نجده يحسن عرضها و تقييماً إلى حد كبير، كما نرى عنده كلام في الحساب و الهندسة و الفلك و الجغرافية و الكيمياء و الطب<sup>(5)</sup> و علوم أخرى مثل علم الاجتماع إذ يعد من بين مؤسسيه.

1- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 37.

2- المصدر نفسه، ص 37.

3- نفسه، ص 37.

4- عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج6، ص 590.

5- المرجع نفسه، ص 590.

تجلى مكانة ابن خلدون في علم الاقتصاد من خلال تفسير التاريخ و الظواهر و الاجتماعية تفسيراً اقتصادياً، حيث كان يتحدث بوعي و يقظة و يرجع التغيرات في المجتمع إلى العوامل الاقتصادية، فقد نحت نظرياته الاقتصادية في القرن الهجري بعقلية القرن الخامس عشر الهجري و نجده في مقدمته قد خصص باباً لطرح آرائه و أفكاره الاقتصادية<sup>(1)</sup>، و اهتم بالدراسات البشرية و تأثير البيئة الجغرافية على أحوال البشر من حيث ألوانهم و أشكالهم و نشاطاتهم.

### المطلب الثالث: مؤلفاته

اختار ابن خلدون أن يتفرغ للتأمل و الكتابة في منطقة نائية، بعيدة عن عالم العمران و السياسة، فاتجه رفقة عائلته إلى قلعة ابن سلامة، فأقام بها أربع سنوات (776 - 780 هـ)، نعم أثناءها بالراحة و الاستقرار و ألف موسوعته التاريخية الموسومة ب: «العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» بصورته الأولية مع «المقدمة»<sup>(2)</sup> التي نال بها شهرة كبيرة.

قد تكون لعبد الرحمن بن خلدون مؤلفات كثيرة باعتباره متبحر في شتى العلوم، فلم يترك فرعاً منه إلا و اجتهد و بحث و ألّف فيه مصنفات، كما تناول الفنون بمختلف أنواعها و هي صفات الرُّجل العالمة.

ذكر عمر فرُّوخ أن لابن خلدون مؤلفات غير كتاب العبر منها<sup>(3)</sup>:

1- أبواب المَحْصَل في أصول الدين.

2- تلخيص عدد من كتب ابن رُشد.

3- تقييد في المنطق.

4- كتاب في الحساب.

5- شرح رجز في أصول الدين للسان الدين بن الخطيب.

6- شرح البردة.

7- شفاء السائل و تهذيب المسائل.

ذكر محمد بن تاويت مُحقق رحلة ابن خلدون أن حاجي خليفة تعرض في كشف الظنون إلى

مؤلفات عبد الرحمن بن خلدون على الشكل التالي<sup>(4)</sup>:

1- تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي.

2- رحلة [التعريف بابن خلدون و رحلته غرباً و شرقاً] .

1- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 216.

2- هاشم يحي الملاح، المفصل...، المرجع السابق، ص 128.

3- عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج6، ص 591.

4- ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 4.

3- شرح الرجز لابن الخطيب في الأصول.

4- شرح قصيدة ابن عبدون.

5- شرح قصيدة البردة.

6- طبيعة العمران

7- كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، و يتألف من سبعة أجزاء و جزء ثامن للفهارس و الجزء الأول منه «المقدمة»، و في آخر هذا الكتاب «كتاب التعريفات بابن خلدون».

### المطلب الرابع: مصادره

تميز ابن خلدون بسعة اطلاعه على كتبه علماء العرب و المسلمين الأوائل حول أحوال البشر، إضافة إلى خبرته الواسعة في الحياة السياسية و الإدارية و القضائية و أسفاره المتعددة و المترامية الأطراف في العالم العربي و الإسلامي<sup>(1)</sup>، و قد ورد في مقدمته الشهيرة ذكر عدد هائل من المصادر تطلع إليها في العلوم العقلية و النقلية و غيرهما من العلوم.

بعد أن انتهى ابن خلدون من التدوين الأولي للمقدمة و كتاب العبر، وجد نفسه بحاجة ملحة لتدعيم ما كتبه و استكمالها بالرجوع إلى كثير من الكتب و المؤلفات التي لم تكن تتوفر إلا في المدن الكبيرة فقرر العودة إلى موطنه الأول تونس، فكتب إلى سلطانها يعتذر منه و يستأذنه في القدوم، فأذن له و وفر له كل وسائل الراحة و العمل في مشروعه العلمي الذي استمر أربع سنوات أخرى، و أهدى ابن خلدون نسخة من موسوعته التاريخية إلى السلطان عرفاناً بالفضل و الجميل<sup>(2)</sup>.

1- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 217.

2- هاشم يحي الملاح، المفصل...، المرجع السابق، ص 128.

**المبحث الثامن: ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب (ت 810 هـ/1047 م)****المطلب الأول: أسلوبه**

استخدم ابن قنفذ القسنطيني في كتابه "أنس الفقير و عز الحقيير" أسلوباً بسيطاً و لغة لا تخلو أحياناً من بعض الألفاظ العامية كالمخايد للوسادات و الصابة للمحصول الزراعي و نحوهما، بل كان عندما يذكر كلام بعض الصوفية ممن التقى بهم يأتي بعبارات تكاد تكون عامية. و قد استعمل بعض العبارات عليها مسحة من لهجة أهل قسنطينة و الملاحظ أيضاً أن العبارات القليلة التي تنتمي إلى اللهجة العامية كتذكير بئر و تأنيث كساء و غير ذلك فإنهما من قبيل اللهجة المغربية<sup>(1)</sup> التي يصعب على المشاركة فهمهم لها، و على العموم اتبع ابن قنفذ القسنطيني أسلوباً محشو بمشاعر التصوف في ذكر الغوث أبي مدين شعيب و كراماته و أصحابه و زيارته أضرحة الأولياء الصالحين.

**المطلب الثاني: مؤلفاته**

بدأ ابن قنفذ القسنطيني التأليف مبكراً، فقد ألف كتابين [تفهيم الطالب، و حطّ النقاب] و هو في مرحلة التلمذة و الطّلب بالمغرب، إلا أنه لم يتفرغ للتصنيف إلا بعد عودته من المغرب الأقصى و تونس، و استقراره بقسنطينة. و مؤلفات ابن قنفذ كثيرة، دون معظمها في آخر كتابه «الوفيات» الذي ذيل به شرف الطالب، و بعض مؤلفاته وردت الإشارة إليها في مراجع أخرى<sup>(2)</sup> و قد قسم عبد العزيز صغير دُخان مُحقق "شرف الطالب في أسنى المطالب" مؤلفات ابن قنفذ القسنطيني إلى أقسام، حسب موضوعاتها، مع الإشارة إلى المطبوع منها و المخطوط، و الموجود منها و المفقود بالهامش، مستفيداً ذلك من كتب بعض من ترجم له<sup>(3)</sup>

**أولاً- الفقه و أصوله:**

- 1- تقريب الدلالة في شرح الرسالة<sup>(4)</sup>.
- 2- اللباب في اختصار الجلاب<sup>(5)</sup>.
- 3- معاونة الرّائض في مبادئ الفرائض<sup>(6)</sup>. و هو شرح للأرجوزة التلمسانية في الفرائض لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري (ت 690 هـ)<sup>(7)</sup>.
- 4- بقية الفارض في الحساب و الفرائض<sup>(8)</sup>
- 5- تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب.

1- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، المصدر السابق، ص 40.

2- أبو العباس أحمد بن الخطيب، شرف الطالب في أسنى المطالب، تح عبد العزيز صغير دُخان، مكتبة الرشد ناشرون، (د ت)، ص 40.

3- المصدر نفسه، ص 40-45.

4- في حكم المعلوم.

5- هو الآخر معلوم.

6- مفقود.

7- إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون، المصدر السابق، مج 1، ص 242

8- أيضاً مفقود.

## ثانياً- الحديث و علومه:

6- أنوار السعادة في أصول العبادة.

7- شرف الطالب في أسنى المطالب.

## ثالثاً- علوم اللغة:

8- هداية السالك في بيان ألفية ابن مالك.

9- الإبراهيمية في مبادئ العربية<sup>(1)</sup>

## رابعاً- علم المنطق:

10- إيضاح المعاني في بيان المباني<sup>(2)</sup>11- تلخيص العمل في شرح الجمل للخونجي<sup>(3)</sup>

## خامساً- علوم الفلك و الحساب:

12- القنفذية في إبطال الدلالة الفلكية<sup>(4)</sup>.

13- تيسير المطالب في تعديل الكواكب.

14- تحصيل المناقب و تكميل المآرب.

15- شرح الثقات في علم الأوقات.

16- حظّ النّقاب عن وجوه أعمال الحساب.

17- شرح منظومة ابن أبي الرّجال المسمّاة: المنظومة الحسابية في القضايا النّجومية لأبي الحسن

علي بن أبي الرّجال القيرواني<sup>(5)</sup>18- وقاية الموقت و نكاية المنكت<sup>(6)</sup>

1- في حكم المعلوم.

2- و هو أيضا في حكم المعلوم.

3- و هو أيضا مفقود.

الخونجي: هو القاضي أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن نامور بن عبد الملك، الخونجي، الشافعي، نزيل مصر. وُلد سنة 590 هـ. مات في رمضان سنة 646 هـ.

ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح بشار عواد معروف و محيي هلال السرحان، ج 23، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص 228

4- و هو مفقود.

5- هو أبو الحسن علي بن أبي الرّجال الشيباني، الكاتب، الشاعر، الفلكي، المنجم، المولود بتاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر)، تولى ديوان الإنشاء على عهد الأمير باديس الصنهاجي، تُوفي بالقيروان سنة 426 هـ.

ينظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص ص 343- 344

6- و هو أيضا مفقود.

## سادساً- التَّراجُم و التَّاريخ و السَّير:

- 19- وسيلة الإسلام بالنبي عليه السلام.
- 20- أنس الفقير و عز الحقير: و هو مؤلف في رجال من أهل التصوف، كأبي مدين و أصحابه.
- 21- المسافة السنوية في اختصار الرِّحلة العبدية<sup>(1)</sup>
- 22- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.
- 23- طبقات علماء قسنطينة.
- 24- تحقيق الوارد في اختصاص الشرف من الوالد: قال عنه مؤلفه «و هو غريب»
- 25- الوفيات: ذكر فيه وفاة النبي ﷺ، و وفيات الصَّحابة و التَّابعين، و العلماء و المحدثين، و المفسرين، حتى انتهى إلى ذكر شيوخه من علماء المغرب منهم عشرون عالماً من المغرب الأوسط(الجزائر)، و انتهى به إلى سنة 807 هـ أي قبل وفاته بثلاث سنوات.

## سابعاً- العروض:

- 26- بسط الرَّموز الخفية في شرح عروض الخزرجية<sup>(2)</sup>

## ثامناً- كتب أخرى:

- 27- علامة النَّجاح في مبادئ الاصطلاح<sup>(3)</sup>
- 28- تسهيل العبارة في تعديل الإشارة<sup>(4)</sup>
- 29- التَّخليص في شرح التَّليخ.
- 30- أنس الحبيب عند عجز الطَّبيب.
- 31- تقييدات في مسائل مختلفات.
- 32- مبادئ السَّالِّكين في شرح رجز ابن الياسمين: لم يذكره في جملة مؤلفاته في شرف الطَّالب.
- و يظهر من خلال عناوين هذه الكتب مشاركة ابن قنفذ القسنطيني في فنون متنوعة من التوحيد و الفقه إلى الفلك و الطب. و قد كان له ولوع بفن الرحلة مما دفعه إلى اختصار الرحلة المغربية للعبدية، و هذا يدل على انتشار هذه الرحلة و إقبال المتقنين و العلماء عليها حتى عاملوها معاملة الكتب الأساسية التي يعنى بها بالشرح و التَّليخ<sup>(5)</sup> و مهما يكن الأمر فإن ابن قنفذ القسنطيني رغم تنوع مشاريعه العلمية إلا أنه استطاع أن يبدع فيها من خلال ما خلّفه من آثاره تمثلت في مؤلفاته و مصنّفاته.

1- و هو مفقود.

2- و هو مفقود.

3- و هو مفقود.

4- و هو مفقود.

5- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، المصدر السابق، ص ص ر ز.

**المطلب الثالث: مكانته العلمية**

لم يقتصر ابن قنفذ القسنطيني على نوع واحد من العلوم، و إنما حصل علوماً كثيرة و متنوعة و يظهر ذلك من خلال المؤلفات التي تركها، أو المناصب التي تولها كالقضاء و الافتاء و الخطابة سواء أكان ذلك في بلده الأصلي قسنطينة أم في المغرب، و الجدير بالذكر أن هذه المناصب تحتاج إلى تبحر في علوم شتى، بدءاً بعلوم اللغة و البلاغة و مروراً بالعلوم الشرعية من حديث و فقه و تفسير و أصول و فرائض و غيرها، و انتهاءً بعلوم التاريخ و الرجال، مع معرفة بالحساب و الفلك<sup>(1)</sup>

استحق ابن قنفذ القسنطيني ثناء العلماء عليه و تنويههم بعلمه و فضله و استحوذ على اهتمام المؤرخين و المنتبئين لتاريخ المغرب خلال الفترة الحفصية و الزيانية و المرينية، فترجم له أحمد بابا التنبكتي في نبيله<sup>(2)</sup> و كفايته، و ابن القاضي المكناسي في درته<sup>(3)</sup> و الحفناوي في تعريفه<sup>(4)</sup> و مخلوف في شجرته<sup>(5)</sup> و غيرهم من العلماء و وصفوه بالعالم المتقن، و الرحالة، القاضي، الفاضل، المحدث، المصنف، الخطيب، الإمام، الفهامة، الأديب، الصالح، المفضل، الفقيه، العلامة، المبارك، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تعد بمثابة شهادة لهذا الرجل بالعلم<sup>(6)</sup>

**المطلب الرابع: مشاركته في النقاش العلمي:**

لم يكن ابن قنفذ القسنطيني يعيش بمعزل عن مجريات أحداث زمانه، بل كان يشارك في المسائل التي تعترض الناس و التي يقع فيها الخلاف، فيبيد الرأي الذي يراه مناسباً دون أن يتأثر بغيره، و من أمثلة المسائل التي دار حولها خلاف و جدال كبيران، و شارك فيها ابن قنفذ: مسألة ثبوت الشرف من جهة الأم، فقد ذهب علماء تونس إلى منعه، بينما ذهب علماء بجاية إلى إثباته و أيدهم مجموعة من العلماء منهم: ابن دقيق العيد<sup>(7)</sup>، و علماء بن باديس، و ابن الغماز<sup>(8)</sup> و أبو عبد الله المراكشي، و قد شارك ابن قنفذ في هذه المسألة، فألف كتابه: «تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد» و في جنح إلى تأييد أهل تونس في ذلك<sup>(9)</sup> و يتجلى موقفه هذا من خلال عنوان كتابه، مبدياً رأيه الشخصي.

1- أبو العباس أحمد بن الخطيب، شرف الطالب في أسنى المطالب، المصدر السابق، ص 35.

2- أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص 110

3- أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج 1، ص ص 121-123.

4- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، تح خير الدين شترة، دار كردادة للنشر و التوزيع، ط1، 2012، ص ص 524-529.

5- محمد بن محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ص 250.

6- أبو العباس أحمد بن الخطيب، شرف الطالب في أسنى المطالب، المصدر السابق، ص 36.

7- ابن دقيق العيد: هو الإمام الفقيه الحافظ المحدث العلامة المجتهد شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المنفلوطي، صنف «شرح العمدة» و «الإمام في الأحكام» و «الإمام» و «الاقتراح في علوم الحديث» و «الأربعين التساعية»، مات في صفر سنة 702 هـ. ينظر: جلال الدين السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص 516.

8- هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الأنصاري البلنسي، المتوفي سنة 693 هـ، الشيخ الفقيه الجليل القاضي الكبير الشهير العدل الرضي. من كبار قضاة المالكية تولى قضاء بجاية وتونس. ينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، المصدر السابق، ص 129.

9- هو عبد الله بن عبد الرحمن السخاوي، الشافعي المتوفى بالمدينة سنة 902 هـ.

ينظر: أبو العباس أحمد بن الخطيب، شرف الطالب في أسنى المطالب، المصدر السابق، ص ص 37-38.

## المبحث التاسع: الحميري محمد بن عبد المنعم (ت 866 هـ/1463 م)

## المطلب الأول: خطته ومنهجه

بيّن ابن عبد المنعم الحميري في مقدمة كتابه حدود الخطة التي التزمها في تأليفه، فقد أراد أن يصنع معجماً جغرافياً مرتباً على حروف المعجم، كما هو الشأن في القواميس، ليسهل على الطالب كشف اسم الموضع الذي يريده، و لما كان استقصاء المواضع جميعاً أمراً عسيراً، وضع نصب عينيه<sup>(1)</sup>:

أ- أن يكون المكان مشهوراً.

ب- أن يكون مما اتصل به « قصة أو حكمة أو خبر طريف أو معنى مستملح مستغرب ».

قصد الحميري من تأليف معجمه ذكر المواضع المشهورة و الأصقاع التي تعلقت بها قصة أو في ذكرها فائدة أو كلام فيه حكمة أو لها خبر طريف و رتبته على حروف المعجم<sup>(2)</sup>، و من خلال دراسة «الروض المعطار» يتبين لنا أن الحميري انتهج عدداً من النقاط في عرض مادته و هي كما يلي<sup>(3)</sup>:

- ترتيب المادة العلمية ترتيباً أبجدياً حسب حروف المعجم، ليسهل على الدارس الكشف عن اسم الموضع الذي يريده، كما أراد أن يوصل له فكرة عن المكان إن كان متصلاً به قصة أو حكمة أو مثل أو خبر طريف أو معنى مستملح.

- تحليل المادة لغوياً: حيث أن الحميري ذكر طريقة نطق الكلمة حسب الحركات و الحروف، بيّن إن كانت الكلمة تصرف أو لا تصرف، أو إن دُكرت عند مؤلف آخر بطريقة أخرى.

- تعليل تسمية الموقع: حاول الحميري في بداية التعريف بالمكان تفسير معنى الكلمة أو الاسم و قام بربط المكان بحادثة معينة أو قصة أو حكاية أو بيت شعر أو مؤرخ أو محدث وُلد أو مات هناك. و ذكر إن كان للموقع اسم سابق يطلق عليه قبل عصر الحميري.

- ضبط الموقع جغرافياً: اهتم الحميري بتحديد المكان الجغرافي لكل موقع حسب وقوعه بين المواضع المجاورة له و ذكره في أي إقليم يقع، و تحديد المسافة بين ذلك الموضع و المواضع الأخرى التي لها صلة به، و ذكر المنطقة التي ينتمي إليها الموضع، و اهتم بذكر المادة الجغرافية و بخاصة أسماء البحار و الأنهار و الجبال و الأودية و القرى و غيرها من المعالم الجغرافية.

- اهتم بذكر الوضع العام للمكان أو للمنطقة التي يتحدث عنها إن كانت حسنة أو أراضيها خصبة أو تتوفر فيها المياه، و ذكر في بعض الأحيان المناخ العام للمنطقة.

- اهتم الحميري بوصف سكان المنطقة التي يتحدث عنها كما ذكر في بعض الأحيان الانتماء الديني للسكان إن كانوا مسلمين من السنة أو الشيعة أو الخوارج أو مسيحيين أو مجوس.

- ذكر الحياة الاجتماعية في المناطق: اهتم بذكر تفاصيل الحياة الاجتماعية مثل العادات و التقاليد و اللباس و الطعام و العمل و غيره مما يتعلق بحياة الناس اليومية.

1- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص م. ينظر كذلك: عبد القادر زبانية، المرجع السابق، ص 154.

2- حاجي خليفة، المرجع السابق، مج 1، ص 920.

3- أفرح نازك عبد الرحمن حفيفة، الحميري محمد بن عبد المنعم (ت 900 هـ) و كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" دراسة تاريخية للأوضاع الاقتصادية، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2013، ص ص 7-12.

- ذكر نشأة المدن الإسلامية و تطوراتها العمرانية: اهتم بذكر بناء المدن منذ أقدم العصور و حرص على وصف طبيعة المنطقة و صلاحها للسكن أو خرابها، و تحدث أيضاً عن نشأة المدن الإسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين، و ركز على أهمية الموقع من الناحية السياسية و العسكرية و الاقتصادية في تلك المدن.

- ذكر الجانب التاريخي و الحضاري للمكان: أشار الحميري إلى صفة المكان إن كان مدينة أو قرية أو نهراً أو بحراً أو حصناً أو ديراً أو قصرًا أو جبلاً أو ثغراً أو جزيرة، و ما يوجد فيه من معالم حضارية من فنادق أو جوامع أو مساجد أو أسواق، مع ذكر الأحداث التاريخية التي حصلت فيه.

- اهتم بالجوانب الاقتصادية: شكل الجانب الاقتصادي حيزاً كبيراً في كتاب الحميري، إذ تناول جانباً مهماً في تاريخ الاقتصاد الإسلامي و موارد بينت المال (الجزية، الخراج، الغنائم)، و الضرائب و الأوقاف في صدر الإسلام و الخلفاء الراشدين، و قدم تفاصيل واضحة حول الثروات و الإنتاج الزراعي و الحيواني، و الثروات المعدنية و أنواع الصناعات، و اهتم أيضاً بذكر التجارة و الطرق التجارية و الصادرات و الواردات و كذلك الأسواق و المكايل و الأوزان و النقود.

### المطلب الثاني: أسلوبه

ذاع صيت ابن عبد المنعم الحميري في فن المعاجم، فهو الذي جدد و عين معالم هذا العلم، و يمثل الحميري قمة من القمم التي وصل إليها علماء العرب و المسلمين في التأليف الجغرافي، و يتضح ذلك جلياً في مؤلفه (الروض المعطار في خبر الأقطار) الذي صار من أهم المصادر للباحثين في كل من تاريخ و جغرافية الأندلس<sup>(1)</sup> و صار كتاب الروض المعطار محتوياً على فئتين مختلفين: أحدهما ذكر الأقطار و الجهات و ما اشتملت عليه من النعوت و الصفات، و ثانيهما الأخبار و الوقائع و المعاني المختلفة بها الصادرة عن مجتلبها<sup>(2)</sup>

جعل الحميري الإيجاز - أو حاول أن يجعله - أساس خطته في الروض المعطار، كما أن قاعدة الإيجاز اختلت لديه لأسباب منها<sup>(3)</sup>:

أ- عدم سبكه المادة المنقولة من مصادر جغرافية مختلفة، و إنما هو يوردها تباعاً، و قد يكون المنقول عن البكري مثلاً تكراراً - بأسلوب آخر - لما أن سبقه أن نقله عن الإدريسي أو عن الاستبصار.

ب- تكراره المعلومات الواحدة في مادتين مختلفتين.

ج- تكراره ذكر الموضوع الواحد لأن اسم البلد ورد في شكلين مختلفين مثل: لياج - الياج،... الخ.

و فيما يخص اللغة التي استخدمها الحميري في الروض المعطار فهي لغة المعاجم الجغرافية الأخرى كمعجم ما استجم لعبيد الله البكري، و تقويم البلدان لياقوت الحموي و هي لغة سهلة و واضحة في أسلوب عربي رصين<sup>(1)</sup>

1- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص 228.

2- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص 1.

3- المصدر نفسه، المقدمة ص ن.

1- أفرح نازك عبد الرحمن حفيظة، المرجع السابق، ص 17. ينظر كذلك: عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج 6، ص 653.

**المطلب الثالث: مصادره**

وردت في متته أسماء 140 كتاباً، و أحياناً لا يذكر الحميري المصدر الذي نقل عنه فيقول «قالوا»، و رغم تقليبه من شأن كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، حيث لم يذكره إلا في صفحة واحدة، إلا أنه اعتمد عليه اعتماداً كبيراً و نقل عنه الجزء المتعلق بالأندلس<sup>(1)</sup>، تتوعت مصادر الحميري في:

**أ- المصادر الجغرافية**

يبدو أن الحميري لم يهتم بالمصادر الجغرافية المشرقية، و كل ما عنده عن كتاب البلدان لليعقوبي، إلا أنه لا يعرف ابن حوقل و الاضطخري و المقدسي و معجم البلدان لياقوت الحموي، و لهذا اقتصر في باب المعلومات الجغرافية على المصادر الجغرافية المغربية، و رغم انتقاصه من شأن نزهة المشتاق للإدريسي، إلا أنه سيطر على معجمه سيطرة بالغة، و قد اعتمد بإسراف على «معجم ما استعجم» و «المسالك و الممالك» لأبي عبيد البكري، غير أنه في كثير من الأحيان نجده يرتاح إلى «الاستبصار في عجائب الأمصار» إذا وجده يلتقي مع البكري في الحديث عن بلد واحد، و كثيرا ما كان ينقل عن الكتابين في المادة الواحدة، ثم تجئ بعد هذه المصادر الأربعة رحلة ابن جبير، لكن الحميري لم يذكر ابن جبير<sup>(2)</sup> صاحب «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، لكنه أشار إليه.

**ب- المصادر التاريخية**

لم تقتصر على مؤلفات المغاربة، فقد أبدى الحميري في كثير من مواضع كتابه اطلاعه على سيرة ابن إسحاق كما هذبها ابن هشام، و قد يلتقي في أخبار الفتوح مع تاريخ الطبري - على نحو حرفي أحياناً- و كذلك مع كتاب فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدي البصري، لكن مصدره الرئيسي هو كتاب «المغازي» لعبد الرحمن بن حبيش (ت 584 هـ)، كما أن مصدره عن تبشير البعثة النبوية و عن حروب الردة لمؤلف مغربي أيضاً، و هو «كتاب الاكتفاء في مغازي الرسول و الثلاثة الخلفاء» لأبي الربيع الكلاعي، و ليس من السهل أن نؤكد إن كانت مقتبساته من مؤلفات المسعودي «مروج الذهب و معادن الجواهر» و «التنبيه في و الإشراف و أخبار الزمان»<sup>(3)</sup>، كما نقل الحميري عن البلاذري في (فتوح البلدان) و تاريخ اليعقوبي (ت 292 هـ / 905 م) و ابن حوقل (ت 337 هـ / 948 م) في «صورة الأرض».

**ج- المصادر الأدبية**

أما مصادره الأدبية و المتعلقة بالتراجم فتشمل كتاب «الأغاني» للأصفهاني (ت 356 هـ / 966 م)، و كتاب «المشرق في حلى المشرق» لابن سعيد المغربي الأندلسي، و بعض الدواوين الشعرية، و بخاصة ديوان أبي العلاء المعري مشروحاً و ديوان الأعمى التيطلي، و مقصورة ابن دريد (مشروحة). و نقل الحميري عن كتاب الامامة لعبد القاهر البغدادي، و عن القاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلائي، كما أشار إلى «الرياض النضرة»<sup>(1)</sup>

1- محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص 195.

2- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص س.

3- المصدر نفسه، المقدمة ص ص س، ع.

1- المصدر نفسه، المقدمة ص ع.

## المطلب الرابع: أهم خصائص الروض المعطار

كتب الحميري معجمه الجغرافي في السير و الأخبار و جمع فيه لب كتب عديدة<sup>(1)</sup>، و كاد أن يكون الحلقة الأخيرة في سلسلة المعاجم الجغرافية التي بلغت أوجها<sup>(2)</sup>، و تميز مؤلفه «الروض المعطار» بخصائص أهمها<sup>(3)</sup>:

1- الاهتمام ببلاد الأندلس و المغرب بصفة خاصة و يتضح ذلك من خلال ما أورده ليفي بروفنسال حيث أحصى مواد حرف الألف فكانت على النحو التالي:

الأندلس 34 مادة، المغرب 32 مادة، جزيرة العرب و العراق 33 مادة، الشام 17 مادة، مصر 7 مواد.

2- رتب معجم الروض المعطار ترتيباً أبجدياً وفق الأبجدية المشرقية.

3- لم يقتصر على المدن و الأقطار بل تناول ذكر البحار و المحيطات.

4- أهمل في كثير من المواضع ذكر المراجع، و لم يصرح بها، و يعد ذلك عيباً كبيراً في هذا المعجم حيث يعتمد إلى استخدام عبارات عامة مثل (قالوا)<sup>(4)</sup>، و في بعض الأخبار، و في خبر (قال بعضهم)، و (قيل)<sup>(5)</sup>

5- قلل الروض المعطار من شأن (نزهة المشتاق) حين قال عنه الحميري: «ثم إنني قسته بالكتاب الأخباري المسمى بنزهة المشتاق فوجدته أعظم فائدة، و أكثر أخباراً و أوسع في فنون التاريخ و صنوف الأحداث مجالاً حتى في وصف البلاد»<sup>(6)</sup>، غير أن الحميري نقل أكثر من ثلث مادته الجغرافية عن الأندلس على الأقل عن (نزهة المشتاق)<sup>(7)</sup>

6- يرى الحميري أن وصف البلاد لا يكتمل إلا إذا أُضيف إليه سرد الأخبار و الوقائع المختلفة أي اكتمال ذكر الأقطار و الجهات مع الأخبار و الوقائع، و قد انتقد الحميري كتاب الإدريسي لأنه لم يذكر الأحداث و لا يستكثر من التاريخ و الأخبار.

7- اشتمل الروض المعطار على مواد علمية مختلفة حيث تحدث عن زراعة الحبوب في 8 مواضع، و الفواكه و الأشجار في 26 موضعاً، و الكروم في 12 موضعاً، و الزيتون في 7 موضعاً، و تحدث عن الري و تربية النحل و صيد الأسماك، و عن التعدين و مواد البناء و الصناعات، كما تحدث عن المدن و أصول أسمائها في 9 مواضع، و المواقع الأثرية في 23 موضعاً، و الأسوار القديمة و القلاع و القناطر و المساجد و الكنائس و الأسواق «31 سوقاً»

1- حاجي خليفة، المرجع السابق، مج 1، ص 920.

2- أغناطيوس يوليانيوفتش كراتشكوفسكي، ج1، المرجع السابق، ص 447.

3- محمد محمود محمدين، المرجع السابق، ص ص 196-197.

4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، المقدمة ص 16.

5- المصدر نفسه، ص 17.

6- المصدر نفسه، ص 17.

7- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، المرجع السابق، ص 538.

8- استشهد الحميري بكثير من الآيات القرآنية، و الأحاديث النبوية الشريفة، و اعتمد على كثير من الكتب الدينية مثل الصحيحين للبخاري و مسلم، و سير ابن إسحاق (ابن هشام) و إحياء علوم الدين للغزالي، و الموطأ لمالك بن أنس و غيرها من كتب الشعر و الخطب و الأمثال. و يؤكد ذلك مدى تمسكه و حرصه على الدين الإسلامي.

### المطلب الخامس: أثر الروض المعطار و قيمته

أنتج الحميري معجم جغرافي مرتب على الحروف كأحسن ما تكون معاجم الجغرافية، و قدم لنا مادة جغرافية صحيحة دسمة عن المواضع التي اختارها لمعجمه، و عرف كيف ينسق مادته و يسوقها على نحو مترابط بحيث تبدو بعض مواده و كأنها دراسات قصيرة عن هذا العلم الجغرافي أو ذاك. و مما زاد معجمه قيمة أنه لم يقتصر على المدن أو الأقطار بل شمل المحيطات و البحار و الجزر و ما إليها من الأعلام الجغرافية<sup>(1)</sup>، و حرص الحميري على أن يُورد ما اتصل بعلمه من أطراف التاريخ عن الموضوع الذي يتكلم عنه. و أكثر هذه المادة التاريخية يتعلق بعصر الموحدين الذي سقطت خلاله معظم حواضر الأندلس الكبيرة في أيدي النصارى، و قد أخذ القلقشندي (ت 821 هـ) و المقرئزي (ت 845 هـ) من النسخة الأصلية للروض المعطار و التي صنعها ابن عبد المنعم الحميري نفسه<sup>(2)</sup>

نقل القلقشندي (ت 821 هـ) في كتابه «صبح الأعشى» عن «الروض المعطار» و أعتمد عليه أكثر في التعريف بالبلاد الشامية و بلدان الجزيرة العربية و مصر، و لم يعتمد عليه كثيراً في ذكر بلاد المغرب و إفريقية وراء الصحراء، و أقل من ذلك البلاد الأوربية، و أقل الجميع الأندلس، و من بعده توقف عنده السمهودي (ت 911 هـ) صاحب «وفاء الوفاء» في كتابه الموجز الذي لخص فيه مؤلفه الكبير، فنقل عنه، ثم نجد محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي (ت 1239) ينقل عنه كثيراً في رحلته، مع إدراكه بأن الحميري لم يكن معه تحقيق في أخبار الأقطار و إنما من غيره، و آخر من نجده يعرف «الروض المعطار» معرفة وثيقة هو أبو القاسم الزياني (ت 1249)، و يبدو أن التوجه إلى النقل عن «الروض المعطار» لسهولة الحصول على نسخ منه، و لما فيه من الترتيب المعجمي<sup>(3)</sup>

أشار المقرئ (ت 1631 م) صاحب نوح الطيب إلى معجم «الروض المعطار» في خبر الأقطار» و نقل منه قطعاً تدل على مادة طيبة، و وقع هذا الكتاب في يد المقرئزي فاختره في مجلد صغير، و ظل هذا الكتاب مجهولاً حتى عثر عليه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (Lévi-Provençal)، فقام بانتخاب المادة الخاصة بالأندلس منه، و نشرها في معجم جليل الفائدة سنة 1938 م، مع ترجمة فرنسية و تعليقات إضافية و فهرس وافية، فأصبح هذا الكتاب من خير المراجع التي يعتمد عليها الباحث في تاريخ و جغرافية الأندلس<sup>(1)</sup>

1- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، المرجع السابق، ص ص 534-535.

2- عمر فرُّوخ، المرجع السابق، ج6، ص 652.

3- المصدر نفسه، المقدمة ص ص ع، ف.

1- أنخل + بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، ص 311.

## المبحث العاشر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي (ت 891 هـ/1486 م)

## المطلب الأول: أسلوبه

تعتبر رحلة القلصادي من الرحلات الحجازية الأدبية، فهي تمزج في غرضها عناصر العبادة و الدراسة و الاستكشاف، و الواقع أنه عند تدوينها لم يجعلها مقتصرة على الوصف للمعالم و البلدان و ذكر الأحداث، كما فعل بعض المدونين لرحلاتهم، كما أن القلصادي لم يقتصر على ذكر مشايخه و أسانيده و إجازاته و الكتب التي درسها و مؤسسات العلم التي ارتادها، كما فعل أصحاب الرحلات الفهرسية، و إنما جعلها جامعة بين هذا و ذاك<sup>(1)</sup>، و قد دوّن رحلته بأسلوب سهل و واضح حتى يتسنى لقارئها الإطلاع على ما ورد فيها من أعلام و أحوال البلاد التي مرّ بها.

## المطلب الثاني: مصنفاته:

يُعد أبو الحسن علي القلصادي من أكثر علماء الأندلس في عهدها الأخير إنتاجاً، و قد اشتهر بتأليفه الكثيرة التي تناولت مختلف العلوم، إذ كان أغلبها في الحساب و الفرائض<sup>(2)</sup>

أولاً- مصنفاته في الحساب: و تبلغ ثلاثة عشر كتاباً<sup>(3)</sup>

- 1- غنية ذوي الألباب في شرح الجلباب.
- 2- كشف الأسرار في علم الغبار.
- 3- كشف الجلباب عن علم الحساب.
- 4- شرح تلخيص ابن البناء.
- 5- التبصرة الواضحة في مسائل الأعداد: ألفه في تلمسان.
- 6- رسالة ذوات الأسماء.
- 7- شرح الأرجوزة الياسمينية، و مختصره.
- 8- قانون الحساب و شرحه، المسمى « انكشاف الجلباب عن قانون الحساب»

## ثانياً- مصنفاته في الفرائض:

- 9- الضروري في علم المواريث.
- 10- الكليات و شرحه.

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق ، ص 73.

2- المصدر نفسه، ص 42.

ينظر كذلك:

- محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة النهضة، تونس، (د ت)، ص 96 .

- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب...، ج2، المصدر السابق، ص ص 692- 694.

- أحمد بابا التتبيكتي، المصدر السابق، ص ص 339- 341.

- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص 10.

3- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق ، ص ص 43- 44.

11- المستوفي لمسائل الحوفي.

12- شرحان على التلمسانية.

13- تقريب المواريث.

14- شرح منظومة الشران.

15- بغية المبتدئ و غنية المنتهي.

16- شروح لفرائض مختصر خليل، و فرائض التلقين، و فرائض ابن الحاجب، وفرائض صالح بن

شريف، و فرائض أبي القاسم بن الشاط.

أصبح القلصادي في آخر حياته يميل الى،، الاختصار بعد أن كان مولعاً بالتوسع و البسط في السنوات الأولى من عطائه العلمي، و يلاحظ أنه أيضاً استعمل قواعد علم الحساب في حل المسائل الفرضية و تيسير مشكلاتها، و كان يستعمل الجدول للإيضاح و البيان، و يقدم لقسمة التركات ما يحتاج إليه من المعلومات الحسابية، و يدل على ذلك الفصل الثالث الذي عقده في كتاب «لباب تقريب المواريث» و خصه بما يحتاجه الفرضي من العمليات الأربع و التسمية و الجبر، و الفصل الرابع خصه بعمل المسائل البسيطة بالكسور<sup>(1)</sup>

### ثالثاً- مصنفاة في الفقه:

17- أشرف المسالك إلى مذهب مالك.

18- شرح مختصر خليل.

19- شرح الرسالة.

20- هداية الأنام في شرح مختصر قواعد الإسلام.

### رابعاً- من مصنفاة في النحو:

21- غنية النحاة و شرحاه.

22- شرح على رجز ابن مالك.

23- شرح الأرومية.

24- شرح جمل الزجاجي.

### خامساً- من مصنفاة في العروض:

25- مختصر.

26- شرح الخزرجية.

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق ، ص ص 46- 47.

سادساً - من مصنفاته في المنطق:

27- شرح إيساغوجي.

سابعاً - من مصنفاته في النجوم:

28- شرح أرجوزة ابن فتوح.

ثامناً - من مصنفاته في التراجم:

29- رحلته التي ترجم فيها شيوخه.

تاسعاً - من مصنفاته في التصوف و مدح الرسول ﷺ و أسمائه:

30- شرح حكم ابن عطاء الله.

31- شرح البردة.

32- شرح رجز أبي عمرو بن منظور قاضي الجماعة في أسماء الرسول ﷺ.

عاشراً - من مصنفاته في القراءات و الحديث:

33- شرح رجز ابن بري.

34- شرح الأنوار السنية لابن جزى.

35- النصيحة في السياسة العامة و الخاصة<sup>(1)</sup>

### المطلب الثالث: أهمية رحلته

تكمن أهمية رحلة القلصادي في اعتماد المترجمين لعلماء القرن التاسع الهجري ما ورد فيها عن الأعلام الذين اتصل بهم، و ذكر أحوالهم و أشار إلى قيمتهم العلمية و إلى ما يدرسون، و أنواع الكتب: فمن الذين أخذوا عن هذه الرحلة المقرئ التلمساني صاحب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، و أحمد بابا التتبكتي صاحب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» و صاحب «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» و ابن مريم صاحب «البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان» و مخلوف صاحب «شجرة النور الزكية في طبقات علماء المالكية» و هم يذكرونها تارة باسم الرحلة و تارة أخرى باسم الفهرست<sup>(2)</sup>

تعد رحلة القلصادي من المصادر الهامة التي تزخر بمعلومات قيّمة و تعطي صورة واضحة عن الأحوال العلمية و الثقافية في بلاد الأندلس و المغرب و المشرق في زمانه.

1- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص 10.

2- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 76.

## الباب الثاني

الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية من خلال

كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة والأندلسيين

من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 .)

## الفصل الأول

الأحوال السياسية في تلمسان من خلال كتب الرحالة و الجغرافيين

المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ

(13 و 15 .)

## المبحث الأول: الأوضاع الداخلية

المطلب الأول: الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط قبيل العهد الزياني

المطلب الثاني: يغمراسن وتأسيس المملكة الزيانية

المطلب الثالث: الصراع داخل البيت الزياني

## المبحث الثاني: العلاقات الخارجية

المطلب الأول: الصراع الزياني المريني

أ- أسباب و عوامله

ب- حصار يوسف بن يعقوب المريني لتلمسان

ج- حصار أبي الحسن المريني لتلمسان

د- حملة أبي عنان المريني على الزاب وقسنطينة

هـ- غزو أبي سالم المريني لتلمسان

المطلب الثاني: الصراع الزياني الحفصي

أ- غزو أبي زكريا الحفصي لتلمسان

ب- العلاقات الزيانية الحفصية

## المبحث الثالث: التنظيمات الإدارية بتلمسان

المطلب الأول: النظام الإداري

أ- السلطان

ب- الأمراء

ج- الوزارة

د- الكتابة

هـ- الحجابة

## المبحث الرابع: النظام القضائي

المطلب الأول: القضاء

المطلب الثاني: الوظائف القضائية

أ- الحسبة

ب- الحافظ

## المبحث الخامس: الجيش و التحصينات

### المطلب الأول: عناية الزيانين بالجيش

أ- الأسلحة

ب- أقسام الجيش

ج- الأسوار

د- الخنادق

هـ- الأبواب

و- الحصون

ز- القلاع

تناولت في هذا الفصل الأحوال السياسية في تلمسان من خلال كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م)، و قد خصصت المبحث الأول للأوضاع الداخلية، قسمته إلى ثلاثة مطالب، ففي المطلب الأول تحدثت عن الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط قبيل العهد الزياني، أي عندما كان المغرب الأوسط تحت سلطة الموحيدين، و كيف كانت هزيمة الجيش الموحيدي في وقعة العُقاب بالأندلس الآثار السلبية، مما أدى إلى انقسام الدولة الموحدية إلى ثلاث دويلات و هي: الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى و الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط و الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، تتنازع فيما بينهما من أجل بسط سيطرتها على المغرب الإسلامي معتبرة أنها الأحق بوراثنة دولة الموحيدين.

أما المطلب الثاني تحدثت فيه عن يغمراسن بن زيان و عن جهوده الكبيرة من أجل أن يؤسس مملكته أو دولته بالمغرب الأوسط. و في المطلب الثالث تناولت الصراع داخل البيت الزياني، و فيه قدمت صورة واضحة بأمثلة عن الصراع بين الأسرة الزيانية، و بين الملوك و الأبناء الأمراء، أو بين الأمراء و التي كانت من أهم الأسباب التي عجلت بسقوط الدولة الزيانية.

تناولت في المبحث الثاني العلاقات الخارجية، فذكرت في المطلب الأول منه عن الصراع الزياني المريني، و عن أسباب و عوامل هذا الصراع، و كيف كان للمرينيين حملات متكررة على المغرب الأوسط منذ تأسيس الدولة المرينية التي وجدت صعوبات كثيرة من أجل ضم تلمسان إليها، فلجأت إلى سياسة الحصار عليها، فكان منها: حصار يوسف بن يعقوب المريني و حصار أبي الحسن المريني و حملة أبي عنان المريني على الزاب و قسنطينة و غزو أبي سالم المريني.

أما المطلب الثاني خصصته للصراع الزياني الحفصي، عن غزو أبي زكريا الحفصي لتلمسان و عن العلاقات الزيانية الحفصية التي تراوحت بين الحرب و الهدوء النسبي.

أما المبحث الثالث درست فيه التنظيمات الإدارية بتلمسان، ففي المطلب الأول تحدثت فيه عن السلطان، و المبحث الثاني عن الأمراء، و الثالث عن الوزارة، و الرابع عن الكتابة و الخامس عن الحجابة.

و في المبحث الرابع النظام القضائي، ففي المطلب الأول منه عن القضاء و مفهومه، و في المطلب الثاني عن الوظائف القضائية، ومنها الحسبة و الحافظ.

و تناول المبحث الخامس الجيش و التحصينات و عناية الزيانيين بالجيش من خلال الأسلحة المتنوعة التي استخدمها آنذاك و تنظيم الجيش الزياني، و تقسيمه إلى أربعة أقسام، و قد استعان الجيش الزياني بالعلاج و هم الجند الإفرنجي لدعم صفوفه، كما لجأ الزيانيون إلى استراتيجية التحصينات الدفاعية، منها إحاطة مدينة تلمسان الزيانية بأسوار عالية و جميلة المنظر، أعجب بها الرحالة المغاربة و الأندلسيين، و منها أيضا حفر الخنادق و بناء الحصون من أجل حماية المدينة من السقوط في يد العدو. و كان لتلمسان أربع أبواب رئيسة حسب ما رواه الرحالة المغاربة و الأندلسيين في جهات مختلفة من المدينة تفتح و تغلق، و بكل منها أبراج للحراسة.

## المبحث الأول: الأوضاع الداخلية

## المطلب الأول: الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط قبيل العهد الزياني:

بعد أن سيطر الموحدون على المغرب الأوسط، أعلنت قبائل زناتة<sup>(1)</sup> الطاعة و الولاء لهم و تحيز بنو عبد الواد و بنو توجين إليهم، فأوكل الموحدون إليهم مهمة مشايعة دعوتهم وكان عبد الواد أكثر القبائل و أوفرها حظا لهذه المهمة دون بني مرين، فأحسنوا النصيحة للموحدين مما سيؤجج صراعا فيما بعد بين بني عبد الواد و بني مرين.

و قد حدد الجغرافي ابن سعيد المغربي الموطن الأول للموحدين في الجزء الأول من الإقليم الثالث<sup>(2)</sup> بقوله: « بلاد المصامدة و هم المعروفون بالموحدين الذين ملكوا البربر »<sup>(3)</sup> و استطاعت دولة الموحدين أن تبسط سلطتها و نفوذها على المغرب الإسلامي و الأندلس لمدة فاقت القرن و النصف من الزمن. و مع ظهور النزاعات الداخلية الحادة بين الموحدين أنفسهم، اغتتمها المسيحيون في الأندلس<sup>(4)</sup>، فكانت هزيمة الجيش الموحي في معركة العقاب<sup>(5)</sup> سنة 609 هـ/ 1212 م، مما دفع رؤساء القبائل البربرية إلى التمرد و العصيان على الحكومة المركزية<sup>(6)</sup>

و يذكر الرحالة المغربي ابن بطوطة خلال رحلته أنه أول ما شاهده ببجاية ظلم عمال الموحدين و ولاتهم عندما انتزع أمير بجاية آنذاك أبو عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب مبلغ ثلاثة آلاف دينار من الذهب، أوصى بها محمد بن الحجر قبل وفاته و هو أحد التجار من تونس لرجل من أهل الجزائر يُعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس<sup>(7)</sup>، و قد يصور هذا التصرف مدى الفساد الذي حلّ بالدولة الموحدية آنذاك الذي أدى إلى انهيارها.

انفصل بنو حفص بالمغرب الأدنى و بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط و بنو مرين بالمغرب الأقصى<sup>(8)</sup> فكان مطلع القرن 7 هـ/ 13 م بداية تحول سياسي بالمغرب الإسلامي و الأندلس معًا.

1- زناتة: من قبائل البتر البربرية، شعوبها و بطونها كثيرة، ينتشر أغلبها بالمغرب الأوسط، ومن فروعها: بنو عبد الواد، بني مرين، و بني توجين، جراوة و مغراوة. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص ص 4- 9

2- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 123

3- المصدر نفسه، ص 125

4- عبد الله شريط، مختصر تاريخ الجزائر السياسي و الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 104

5- معركة العقاب: مشهورة عند الإسبان باسم (Las navas de tolosa) الذي يعني الوديان الفسيحة، كونها وقعت في إحدى الوديان، دارت هذه المعركة بين الموحدين بقيادة محمد الناصر الموحي (595 - 610 هـ/ 1199 - 1213 م) و بين الجيش الإسباني المسيحي بقيادة الفونسو الثامن بشمال الأندلس، انتصار فيها الإسبان. ينظر: ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص ص 238- 239

6- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة 1997، ص 01، ص 42.

7- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 12.

كان بنو عبد الواد، من قبائل الرحل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط، يترددون المناطق التي تقع ما بين فجيح<sup>(1)</sup> و مديونة<sup>(2)</sup> و جبل راشد<sup>(3)</sup> و عن جبل راشد يقول الجغرافي ابن سعيد المغربي: «و في الجزء الأول جبل راشد، و هم من زناتة، و لهم نتاج الخيل معروف...»<sup>(4)</sup>، و في عهد المرابطين انتقل بنو عبد الواد إلى غرب المغرب الأوسط تحت ضغط الهلاليين، و لما وصل الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي 524 - 558 هـ/1130 - 1163 م إلى هذه الديار بجيوشه اعترضتهم زناتة، و في مقدمتهم بنو عبد الواد، فكانت بينهم حروب، غير أن بني عبد الواد انحازوا إلى الموحدين وأصبحوا من أخلص قبائل زناتة ولاء لهم، فاتخذوهم أنصارا وحماة<sup>(5)</sup> توطدت بهم أركان الدولة الموحدية

كانت قبائل بني عبد الواد بالمغرب الأوسط المقيمة بأحواز تلمسان من أخلص القبائل الموالية لدولة الموحدين<sup>(6)</sup> و بعد خروج قبيلة بني مرين<sup>(7)</sup> الزناتية عن طاعة الموحدين، لم يجدوا بجانبهم سوى بني عبد الواد للقضاء على التمرد، فأقطعوهم بلاد بني و مانوا و بني يلومي نتيجة طاعتهم و تحالفهم مع الموحدين<sup>(8)</sup> إلا أن هذا التحالف لم يُعمر طويلا بعدما ظهرت بوادر سقوط دولة الموحدين.

استطاع الحفصيون و هم فرع من الموحدين من هنتانة في تأسيس دولتهم في الجزء الشرقي للدولة الموحدية و جعلوا عاصمتهم مدينة تونس سنة 625 هـ/1227 م<sup>(9)</sup>، و عن هنتانة يقول الجغرافي ابن سعيد المغربي: «بلاد هنتانة قبيل الشيخ أبي حفص أعظم مشائخ الموحدين و سلطة إفريقيا الآن في عقبه، و ينسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه»<sup>(10)</sup>، و جاء في رحلة ابن الصباح صاحب: «نذكر مملكة الموحدين المنسويين إلى عمر عليه السلام و دار مملكتهم هي تونس القديمة البنيان المسماة مدينة إفريقية و إليها يرجع في العدة جميع إقليم المغرب، و بها يسمى إقليم إفريقية و هو الإقليم السادس من الأقاليم السبعة المذكورة...»<sup>(11)</sup>

1- فجيح: عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصحراء، يحيط بها عدد كبير من النخيل. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 132  
2- مديونة: هم من إخوة مغيلة و مطماطة من ولد فاس، و كانت مواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل بني راشد إلى الجبل المعروف بهم قبالة وجدة، يتقلبون بطواعنهم في ضواحيه و جهاته. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج6، ص 165  
3- جبل راشد: نسبة إلى الجبل الذي تقطنه قبيلة، كما كان فريق منهم يسكن المواطن الواقعة ما بين وادي مينا و سيق، قاموا ببناء القلعة التي تنتسب إليهم وهي قلعة بني راشد، و تعد هذه القبيلة من شيعة بني عبد الواد و من أنصارهم فقد اعتمدوا عليهم في توطيد أركان حكمهم و توسيع نفوذهم و التصدي لغزوات بني حفص و بني مرين.

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص 203-204.

4- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 145

5- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 104 - 105. ينظر كذلك: عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج1، ص15

6- عبد الرحمن الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة 07، 1415 هـ/1994 م، ص 17.

7- أندري برنيان و آخرون، الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة اسطنبولي رابح و منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص ص 113 - 114.

8- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص 97.

ينظر: محمد الطمار، تلمسان...، المرجع السابق، ص 83.

9- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج1، ص 14

10- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 125

11- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 99 - 100.

تمكن بنو زيان أو بنو عبد الواد من تأسيس دولتهم عام 633 هـ/1235 م، و كانت عاصمتهم مدينة تلمسان و استطاع بنو الأحمر أن يشيدوا دولتهم بالأندلس سنة 629 هـ/1231 م و اتخذوا من غرناطة عاصمة لهم، و أخيرا جاء المرينيون الذين قضوا على ما تبقى من نفوذ الموحيدين نهائيا 668 هـ/1295 م، و أسسوا دولة كانت حاضرتها بفاس<sup>(1)</sup>، و قد تحدث ابن الصباح صاحب الرحلة عن الدولة المرينية و ملكها قائلا: «...مُلك بني مرين من أسفي<sup>(2)</sup> بني ماجر إلى جزولة إلى قبب المرابطين ببلاد السودان إلى بحر الروم عرضا و طولاً ستة أشهر...»<sup>(3)</sup>، و تحدث أيضا عن مُلك بني زيان و بني مرين قائلا: «ثم نرجع إلى مُلك بني عبد الواد فلو نصفه بالطول و العرض و نصف مُلك بني مرين من قبل لقلنا مُلك هؤلاء أطول و أوسع و أبين من أرض غيره و هو نعم الأرض و العمل الصالح فيه... و مُلك بني عبد الواد من ملوية شهرّ و عرضا يومان فيه من العماير المشهورة ما وصفناه من المدن و الحصون.»<sup>(4)</sup>، و يبدو أن ابن الصباح أطلع على كُتب الجغرافيا عندما جعل نهر ملوية الحد الطبيعي الفاصل بين المُلكين المذكورين.

لكن سرعان ما ضعفت سلطة الموحيدين المركزية في مراكش، و تقلص نفوذهم فأصبح تأثيرهم ضعيفا على الأقاليم المغربية، خاصة على بلاد المغرب الأوسط، و قد أدى إلى تفاقم الأمر أيضا عدم كفاءة الولاة الموحيدين، لاسيما أبو سعيد عثمان بن يعقوب أحد إخوة المأمون إدريس بن يعقوب الموحيدي 624-630 هـ/1221-1214 م الذي أساء السيرة و التصرف مع بني عبد الواد، و حاول طردهم من أراضيهم و ديارهم و قام بإهانة وجهائهم و تعذيبهم و سجنهم<sup>(5)</sup>

برزت شخصية "جابر بن يوسف" كبير قوم بني عبد الواد حينذاك، و استطاع أن يضع حدا للاستفزازات التي كان الوالي الموحيدي يسلكها ضد قبيلته، و أبعد عنهم ذلك الخطر المهدد بفضل مرونته و حنكته و كفاءة قيادته، و بمواقفه الحاسمة و الجريئة ضد الوالي، و لهذا تمسك به بنو عبد الواد، و انتخبوه أميرا عليهم، فأرسل على إثر ذلك جابر بن يوسف الولاء و الطاعة للخليفة المأمون الموحيدي بمراكش و اشتكى له ضمن ذلك من سوء معاملة الوالي و ما تعرض له قومه<sup>(6)</sup> فكانت فرصة سانحة لتسيير شؤون بني عبد الواد فسطح نجمه بينهم.

1- عبد العزيز فيلاي، تلمسان... المرجع السابق، ج1، ص14

2- أسفي: مرسى أسفي في أقصى المغرب... و هو آخر مرسى تبلغه المراكب من عند الأندلس إلى ناحية القبلة و ليس بعده للمراكب مذهب... و أما الآن فهي تجوزة بأربعة مجار، و أسفي عليها عمارات و بشر كثير من البربر، و المراكب تحمل منها أوساقها في وقت السفر و سكون حركة البحر المظلم...

ينظر: محمد بن عبد المنعم الحُميري، المصدر السابق، ص 57.

3- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 99.

4- المصدر نفسه، ص 99 .

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص97.

ينظر كذلك: عبد العزيز فيلاي، تلمسان، المرجع السابق، ج1، ص15

6- المرجع نفسه، ص 15

عمل الخليفة الموحي على تصيب جابر بن يوسف حاكما شرعيا على إقليم تلمسان وإقليم بني راشد ومدنا أخرى ما عدا مدينة ندرومة، وكان ذلك سنة 627 هـ/1230 م، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت تلمسان وإقليمها في يد بني عبد الواد وتحت سيطرتهم وهي المرحلة الأولى من تأسيس الدولة العبد الوادية المستقلة<sup>(1)</sup> بالمغرب الأوسط و عاصمتها تلمسان.

كان لقبيلة بني عبد الواد الزناتية دور كبير، و على رأسها جابر بن يوسف في مساندة الموحيين ضد المرينيين<sup>(2)</sup> بعد اضطرابات خطيرة حدثت ضد الوالي، فكان دخول بني عبد الواد تلمسان سنة 627 هـ<sup>(3)</sup>، واجتمع إلى جابر أمر كافة بني عبد الواد و أحلافهم، ثم بعث إلى الخليفة الموحي المأمون بطاعته، وكان رد المأمون أن كتب له بالعهد على تلمسان و سائر بلاد زناتة<sup>(4)</sup>، فكانت الخطوة الأولى نحو تأسيس الدولة<sup>(5)</sup> والطموح للاستيلاء على السلطة.

ثار أهل ندرومة ضد جابر بن يوسف، فخرج لمانزلتهم و حصار المدينة، لكن جابر قتل بسهم سنة 629 هـ/1232 م<sup>(6)</sup>، فخلفه ابنه الحسن، وجدد له المأمون الموحي العهد بالولاية، غير أن أهل تلمسان ثاروا عليه و خلعه من منصبه، و ارتضوا لمكانه ابن عمه زيدان بن زيان بن ثابت الملقب بأبي عزة<sup>(7)</sup> سنة 631 هـ/1233 م، الذي قتل هو الآخر أثناء صراع شب بين قبائل بني عبد الواد، فخلفه أخوه يغمراسن بن زيان في نفس السنة<sup>(8)</sup>، و أنشأ بنو عبد الواد قوة سياسية هامة بالمغرب الأوسط<sup>(9)</sup>، و شكلت مملكة تلمسان توازنا بين دول المغرب<sup>(10)</sup>

1- نفسه، ص 15

2- عمار عمورة، المرجع السابق، ص 79.

3- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياتي حياته و آثاره، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1394 هـ-1974 م، ص 12.

4- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 100.

5- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو...، المرجع السابق، ص 12.

6- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 100.

7- نفسه، ج 7، ص 100.

ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 113

8- عمار عمورة، المرجع نفسه، ص 79.

9- أندري برنيان و آخرون، المرجع السابق، ص 113.

المطلب الثاني: يغمراسن و تأسيس المملكة الزيانية

كان يغمراسن بن زيان بن ثابت<sup>(1)</sup> بن محمد من أشد بني عبد الواد بأسا، وأعظمهم في النفوس مهابة و إجلالا، و أعرفهم بمصالح قومه، و أقواهم على حمل الملك و اضطلاعا بالتدبير و الرياسة، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك و بعده<sup>(2)</sup>، فأوكل له الخليفة الموحي الرشيد تلمسان و ضواحيها ثم ببيع بالإمارة سنة 633 هـ/1235 م<sup>(3)</sup>، و اتخذ شعار الملكية تحت سلطة الخليفة الموحي بمراكش<sup>(4)</sup>، لكنه استقل بالمُلك في عهد الخليفة الموحي الرشيد عبد الواحد بن إدريس المأمون<sup>(5)</sup>، فأدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، فأبقى الطاعة الشكلية لدولة الموحيين إلى أن سقطت نهائيا<sup>(6)</sup> على يد بني مرين بالمغرب الأقصى سنة 668 هـ/1269 م.

استطاع يغمراسن أن يبرز نفسه بوسائل متعددة - من خلال الأحداث - كرجل جدير بقيادة مملكة ينفرد بها وحده، و تكون لأبنائه من بعده و لقد فرض شخصيته على دولة الموحيين أن يستعينوا به في القضاء على مشاكلهم الداخلية و الخارجية، و لما حاول الموحدون سحب هذا الحق منه، اندلعت معارك شديدة بينه و بينهم، انتهت بقيام المملكة الزيانية<sup>(7)</sup>

يقول الحسن الوزان (ليون الإفريقي) عن يغمراسن بن زيان: «إلى أن انتزعه (المُلك) منهم أمير ذو شأن كبير يسمى يغمراسن بن زيان وورثه عنه أحفاده. بحيث إن هؤلاء الملوك بدلوا اسمهم و دعوا بني زيان - أي أولاد زيان - لأن زيان هذا كان والدا ليغمراسن»<sup>(8)</sup>، و وصف يحي بن خلدون يوم مبايعة يغمراسن بن زيان: «...الأرض يومئذ تموج بالساكن، و الهرج ينبو بالمساكن، و الفساد عمر الأقطار، و انزع الأوطار، و العتو قد سل الشفار، و باعد على كتبها الأسفار، فسكن الأرجاف و سمن بكلا الهداية العجاف، و قبض يد العداء و أمكن يد عزة من رقاب، فجدد الملة، و أشعر زي الخلافة الجلة...»<sup>(9)</sup> فكانت شخصية يغمراسن قوية و مميزة بين قومه أهلته لحكم المغرب الأوسط.

1- يغمراسن بن زيان: مؤسس الدولة الزيانية تولى الحكم من سنة 633 هـ/1236 م إلى سنة 681 هـ/1283 م، ينتمي إلى قبيلة بني عبد الواد الذين هم من زناتة، ولد سنة 603 هـ/1206 م، سطع نجمه لأول مرة في تاريخ المغرب الأوسط عندما استطاع بشجاعته و جرأته و طموحه أن يعلن استقلال تلمسان عن نفوذ الموحيين، فأضحى شأن عاصمة بني عبد الواد يتعاضم مع مرور الأيام و السنوات. ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 115- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص ص 105-106

2- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص ص، 105-106.

ينظر: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون تاريخ، ص 222.

3- المرجع نفسه، ص 222.

4- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 8

5- محمد بن عبد الله التنسي، المرجع السابق، ص 116

6- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ج2، ص 541

7- لخضر عبدلي، التاريخ السياسي لمملكة تلمسان في عهد بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص 100.

ينظر: عثمان الكعك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تقديم و مراجعة أبو القاسم سعد الله وآخرون، الطبعة

1، دار الغرب الإسلامي، 2003، ص 222

8- الحسن الوزان، ج2، ص7

9- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 110.

استطاع يغمراسن بن زيان بعد ذلك أن يقيم دولته، واستمر في حكمها ما يقارب الخمسين سنة (633 هـ/1235 م - 681 هـ/1282 م)<sup>(1)</sup>، و عرف كيف يؤمن دولته و يحصنها و يحميها من بني حفص تارة ومن المرينيين تارة أخرى، حتى أصبحت هذه الإمارة من أقوى إمارات المغرب طوال أيامه<sup>(2)</sup> عاصمتها تلمسان قال عنها الجغرافي ابن سعيد المغربي: «و هي الآن قاعدة بني عبد الواد من زناتة»<sup>(3)</sup> و وصفها كل من الرحالة العبدري بقوله: «و تلمسان مدينة كبيرة، سهلية جبلية، جميلة المنظر»<sup>(4)</sup> و الحسن الوزان (ليون الإفريقي): «تلمسان مدينة كبيرة، و هي عاصمة المملكة... و قد توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون على عهد الملك أبي تاشفين<sup>(5)</sup>»<sup>(6)</sup>، و يبدو اختيار موقع تلمسان كان لأهميته الطبيعية و الإستراتيجية و الاقتصادية التي تميزت به قبل خضوعها للموحدين.

عرفت الدولة الزيانية صدامات مع جيرانها المرينيين و الحفصيين و يرجع سبب هذا الصراع في أن كلا من هذه الدول كانت ترغب في توحيد الإمبراطورية بشكل يضمن مصالحها<sup>(7)</sup>، و قد شهدت أيضا محنا كثيرة و صعابا جمة وتكرر سقوطها مرات عديدة بسبب ضربات جيرانها<sup>(8)</sup>، فدخلت دويلات المغرب الإسلامي الثالث، مرحلة الحروب و العداء.

1- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ج 2، ص 541

2- ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، المصدر السابق، ص 15

3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا... المصدر السابق، ص 140.

4- العبدري، المصدر السابق، ص 48.

5- أبو تاشفين عبد الرحمن: تولى الملك من عام 718 هـ/1318 م إلى أن قتل عام 737 هـ/1337 م

ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 17

6- نفسه، ج 2، ص 17

7- عبد القادر جغلول، مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم و الوسيط، ترجمة فضيلة الحكيم، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع،

(د ت)، ص ص 68 - 69

8- عبد العزيز فيلالي، تلمسان... المرجع السابق، ج 1، ص 20

المطلب الثالث: الصراع حول السلطة داخل البيت الزياني

كان القادة الزيانيون يتصارعون فيما بينهم على السلطة و يكيدون بعضهم البعض<sup>(1)</sup>، وكان النزاع بين أبناء الأسرة الحاكمة للوصول إلى الحكم<sup>(2)</sup>، و قد ظهرت بوادره منذ تقديم بني عبد الواد لأبي عزة زيدان بن زيان، الذي استولى على تلمسان و ضواحيها، فنقض عهده بنو مطهر<sup>(3)</sup> و أتبعهم بنو راشد<sup>(4)</sup> أحلافهم، فكانت بينه و بينهم حروب قتل في إحداها<sup>(5)</sup>، فخلفه يغمراسن بن زيان سنة 633 هـ/1225 م<sup>(6)</sup> الذي أسس ملكا لبني عبد الواد.

ألت إمارة بني عبد الواد بعد وفاة جابر إلى ابنه الحسن 629 هـ، فأخيه عثمان (630 هـ - 631 هـ)، ثم إلى ابن عمه زيدان بن ثابت (631 هـ - 633 هـ)، فاصطدم بمعارضة شديدة من عناصر قبيلته، فحاربهم و لكنه قتل أثناء معركة خارج تلمسان 633 هـ، فخلفه يغمراسن<sup>(7)</sup> و هذا يعني أن الخلاف داخل البيت الزياني له جذور، فمنهم من كان يطمح في الحكم و منهم من كان معارضا له.

قال الرحالة المغربي محمد بن عبد الله ابن بطوطة: « فوصلت مدينة تلمسان، و سلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان... »<sup>(8)</sup> حيث سجل له التاريخ قتله لوالده أبو حمو موسى الأول، و يبدو أن ظاهرة الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة لم يكن يخص بني عبد الواد، بل كان مثيله عند جيرانهم الحفصيين و المرينيين و كانت بداية مظاهر هذا الصراع بنسج المؤامرات و وصلت إلى حد قتل الأمراء الأبناء للملوك الأبناء.

كان أبو حمو موسى الأول فظا غليظا، سيء المعاملة لأقربائه، و كان ابنه تاشفين ينال قسطا و افرا من هذه المعاملة، و قد وصل أمر أبيه إلى حد شتم ابنه أمام الملأ، مما أوجع شعور الأمير الشاب نحو والده، تحول شيئا فشيئا إلى كره و حقد، نتج عنهما تدبير مؤامرة مع بعض الأعداء ضد أبيه لعزله من الحكم، ففي يوم 22 جمادى الأولى 718 هـ توجهوا إلى القصر و دخلوا مجلس السلطان فقتلوه مع جميع جلسائه، و تبرع بذلك أبو تاشفين على عرش الدولة الزيانية<sup>(9)</sup>، فحب السلطة دفع أحيانا بالأبناء إلى خلع ولاء آبائهم أو قتلهم ربما بمؤامرات من المرينيين أو الحفصيين، الذين هم كذلك عنوا أيضا من هذا المشكل.

1- عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 46.

2- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 331.

3- بنو مطهر: هم من زناتة أيضا و من أبناء عمومة بني عبد الواد. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 84.

ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 113

4- بنو راشد: بطن من قبيلة زناتة و من أبناء عمومة بني عبد الواد، كانوا قاطنين بالصحراء ثم استوطنوا الجبال الموجودة شرقي تلمسان.

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 84. ينظر كذلك: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 26

5- محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 113

6- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر...، ج 7، المصدر السابق، ص 100.

7- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو...، المرجع السابق، ص 12.

ينظر كذلك: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 100.

8- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 11.

9- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو...، المرجع السابق، ص 17.

ينظر كذلك: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 139 - 142.

و من أمثلة النزاع داخل البيت الزياني، الصراع بين الأخوين أبي زيان و أبي تاشفين حين كان أبو زيان واليا من قبل والده أبي حمو موسى الثاني على مدينة الجزائر، و عندما سقط والده شهيدا في وقعة "الغيران" بجبل بني ورنيد المطل على تلمسان، نهض مطالباً بثأر أبيه و ملكه منتقما من أخيه مستصرخا بأحياء حصين من العرب، فأجابه منهم طوائف تقدم بهم إلى حصار تلمسان في رجب سنة 792 هـ، و ما كادت تبلغ جموع أبي زيان من العرب إلى تلمسان حتى غمرهم أبو تاشفين بأمواله، ففرقت جموع أبي زيان و أصبح في فئة قليلة، فخرج إليه أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة المذكورة، ففر أبو زيان إلى الصحراء مستتجدا بعرب المعقل ثم عاد إلى حصار تلمسان في شهر شوال فبعث أبو تاشفين ابنه إلى سلطان المغرب صريخا فأرسل معه مدد من العساكر، و لما علم أبو زيان بذلك أفرج عن تلمسان و رجع إلى الصحراء للمرة الثانية ثم أجمع رأيه هو الآخر و توجه إلى صاحب المغرب السلطان أبي العباس المريني إذ رحب به و وعده بالمساعدة و الانتصار له من أخيه، و بقي أبو زيان مقيما هناك ينتظر الوفاء إلى أن حدث ما غير نظرة السلطان المريني على أبي تاشفين، فمد أبو زيان بالعساكر و العتاد، و سمح بالتوجه إلى تلمسان في منتصف سنة 795 هـ، و لما وصل أبو زيان تازة علم بوفاة أبي تاشفين إثر مرض عضال في اليوم السابع من شهر ربيع الثاني من السنة المذكورة، فبادر يومئذ وزيره أحمد بن العز بمبايعة صبي من أبناء السلطان أبي تاشفين، و قدم نفسه كوصي على العرش، و شرع في تدبير شؤون المملكة و التصرف في مهام السلطنة، مما جلب عليه غضب والي الجزائر آنذاك يوسف بن أبي حمو المعروف بابن الزابية، فنهض إلى تلمسان و اقتحمها، و قتل الوزير المذكور و الصبي المكفول<sup>(1)</sup>، و قد أفرز هذا الحادث اضطرابا و قلقا في الرعية.

كان توطأ و مساعدة الحكام المرينيين للأمرأ الزيانيين المتمردين ضد السلطة الحاكمة في تلمسان خدمة لمصالحهم بالمغرب الأوسط، و في هذا الصدد يقول عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «...و ولي (السلطان أبو سالم) على تلمسان أبا زيان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين و أمده بالأموال و العساكر من أهل وطنه، ليدافع أبا حمو عن تلمسان، و يكون خالصة له.»<sup>(2)</sup>

و في سنة 838 هـ ثار أحمد العاقل على أخيه أبي يحيى، و عجز عن فتح تلمسان، إلا أنه أستطاع أن يملك وهران في شعبان 852 هـ، فركب البحر إلى بجاية ثم تونس و مات بها سنة 855 هـ<sup>(3)</sup> و شهدت الدولة الزيانية تحولا كبيرا في نظامها السياسي، وكانت أهم عناصر هذا التحول، هي انتقال السلطة الفعلية في الدولة من يد السلاطين إلى الوزراء<sup>(4)</sup>، و قد وصل النزاع الداخلي إلى ذروة تحالف بعض القادة المحليين مع الأسباب ضد الدولة الزيانية<sup>(5)</sup> نتيجة الفوضى و عدم الاستقرار السياسي،

1- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص ص 196-197.

2- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة. .، المصدر السابق، ص 94.

3- مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج2، ص 475.

4- محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني (610 هـ/1213 م) - (869 هـ/1468 م)، دار القلم للنشر و التوزيع، الكويت، الطبعة الثانية، 1987 م، ص 157

5- عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 46.

فوصف الحاج عبد الله بن الصباح الصراح بين أمراء و ملوك بني زيان بقوله: «مُلْك بني عبد الوادي ملك مبارك و لكن هو كثير المصايب من أجل تبديل ملوكها، يذيق بعضهم بأس بعض، و تضعف من ذلك المملكة و الحُكم.»<sup>(1)</sup>

### المبحث الثاني: العلاقات الخارجية

#### المطلب الأول: الصراع الزياني المريني

اختلف المؤرخون في أصل بني مرين<sup>(2)</sup>، فمنهم من ذكر أن المرينيين بطن قوي من بطون زناتة البتزية<sup>(3)</sup>، و هم ينتسبون إلى جدهم: «مَرِين بن وَرْتاجن بن مَأخُوخ بن جَدِيح بن فَاتن بن بدر بن نجفت بن عبد الله بن ورتبيص بن المعز بن إبراهيم بن رجيح بن واشين بن بصلتن بن مشد بن إكيا بن ورسيك بن أديت بن جانا و هو زناتة»<sup>(4)</sup>، خرجوا على الموحيدين و حاربوهم إلى أن استولوا على ملكهم و على كرسيهم بمراكش<sup>(5)</sup> التي كانت آنذاك عاصمة الموحيدين.

يقول الحاج عبد الله بن الصباح صاحب الرحلة عن مملكة بني مرين: «...لما انقرضت دولة ذرية يعقوب المنصور قامت دولة بني مرين فأرادوا أن يسكنوا مراكش فما طابوا بهم أهلها و نزلوا إلى فاس فبنوها و قامت فيها مملكتهم إلى زمننا هذا. و كان اسم فاس موجودا قبل قيام مملكة بني عبد الحق، و ذلك أن أصحاب التواريخ كانوا يرون أن ذلك المكان تقوم فيه دولة و مملكة فكانوا يسمونه بأس، فلما طال الزمان و تبدلت الأحوال أهملوا الاسم و أبدلوه بلسان العامة فاس...»<sup>(6)</sup>

يعتبر عبد الحق بن مُحيو المريني أول من نقل بني مرين من حالة البداوة في الصحراء إلى مرحلة التفكير العملي لإقامة دولة للمرينيين في المغرب الأقصى، و لذلك أطلق عليه بعض المؤرخين أبو الأملك، لأن أبنائه الأربعة الذين تولوا أمر بني مرين من بعده<sup>(7)</sup> فكان زعيم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، و بعد وفاته سنة 614 هـ، خلفه أبنائه الأربعة منهم: أبو سعيد عثمان الذي مات في 642 هـ، و أبو بكر عبد الحق الذي مات في 656 هـ، و يعقوب بن عبد الحق الذي استطاع أن يقضي على دولة الموحيدين و صار أمير المغرب سنة 668 هـ/1269 م<sup>(8)</sup> بعد صراع طويل و مرير مع الموحيدين استمر ثمانية و خمسين عاما، و حملوا على عاتقهم تأسيس الدولة المرينية<sup>(9)</sup> بالمغرب الأقصى.

1- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 96.

2- نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني "685 - 706 هـ/1286-1306 م" دراسة سياسية حضارية، أطروحة لنيل درجة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الموصل، 2004، ص ص 10-11.

3- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة...، المصدر السابق، ص 336.

4- أبو العباس أحمد القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 194.

5- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة...، المصدر السابق، ص 336.

6- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 84.

7- محمد عيسى الحريري، تاريخ...، ص 10.

8- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ج 2، ص 522.

9- محمد عيسى الحريري، تاريخ...، المرجع السابق، ص 10.

تعود جذور الصراع بين الزيانيين و المرينيين، عندما تحالف جابر بن يوسف بن محمد مع الموحيين ضد المرينيين، فبعث بالطاعة و الولاء لهم، و كان رد فعل المأمون الموحي بالكتابة بالعهد لجابر على تلمسان و سائر بلاد زناتة<sup>(1)</sup> و عندما تولى يغمراسن بن زيان أمر بني عبد الواد عمل على مساعدة و مساندة الموحيين ضد المرينيين و هو الأمر الذي أقلق البلاط المريني و اعتبره مؤامرة عليه<sup>(2)</sup>، فكانت بداية ظهور الصراع الزياني المريني و في كثير من الأحيان لجأ بنو مرين إلى شن حملات عسكرية ضد تلمسان و طبقوا سياسة الحصار لعدم تمكنهم من إسقاطها و إخضاعها لدولتهم.

### أ- أسبابه وعوامله

هناك مجموعة من العوامل المتباينة شكلت جو العلاقة بين الزيانيين و المرينيين، كانت العلاقة في معظم الأحيان تتسم بروح العداة و تتميز باحتدام الصراع السياسي و العسكري الذي بلغ أحيانا درجة كبيرة من الخطورة مما أثر سلبا على قوة و امكانيات كل منهما الاقتصادية و ضعف تطورها الحضاري<sup>(3)</sup>، و رغم انتماء بني عبد الواد و بني مرين لقبيلة زناتة البربرية إلا أن عصبيتهما القبلية لم تقض نهائيا على الصراع الطويل بينهما.

كان للصراع الزياني المريني أسباب و عوامل قد يكون مرده لجوار بعضهما البعض، و أسلوب حياتهما القبلية القائم على التنقل بين مراعي الكلاً و مصادر المياه، و كان هذا الوسط الجغرافي منحصرا في الفقر ما بين نهر ملوية و أرض الزاب من إفريقية، بمثابة مجال لتنتقل قبائل بنو بادين و منهم بني عبد الواد و قبائل بني واسين و منهم بني مرين، و كانت هذه القبائل تربطها جيرة في الإقامة و بني العمومة في القرابة، و كانت هذه القبائل تتنافس على الزعامة و النفوذ من أجل تحقيق سيطرة سياسية و اقتصادية في الوسط القبلي و الجغرافي الذي تتواجد به. بالإضافة إلى هناك عوامل أخرى أجبت الصراع القائم بين الزيانيين و المرينيين و منها<sup>(4)</sup>:

- 1- التحرش الدائم لبني عبد الواد ببني مرين، و اتخاذهم موقفا منهم يقضي بمنع من إقامة كيان سياسي لهم على شكل دولة أو إمارة و هو ما يفسر عقد يغمراسن بن زيان تحالفات دائمة و مستمرة ضد المرينيين مع القبائل المناوئة لهم و مع الموحيين و بني الأحمر في الأندلس.
- 2 - وقوف الزيانيين حجر عثر في وجه الطموح المريني على تحقيق مشروع إعادة توحيد المغرب الإسلامي تحت رايتهم على غرار سابقهم أيام دولة الموحيين.
- 3- احتكار الدولة الزيانية للطرق التجارية بفضل الموقع الإستراتيجي لمدينة تلمسان في نقطة عبور الطرق الهامة، منها طريق شرق - غرب يمتد من تونس إلى مدينة فاس عبر تلمسان ثم ينحدر جنوبا نحو سجلماسة، و ذلك مرورا ببسكرة و تيهرت، و هناك طريق ثان يمتد من الشمال إلى الجنوب انطلاقا من موانئ المغرب الأوسط أهمها وهران و هنين مرورا بتلمسان و سجلماسة و غيرها و ذلك

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 100

2- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 110

3- عبد العزيز محمود لعرج، المرجع السابق، ص 20

4- المرجع نفسه، ص ص 20- 22

لنقل الذهب و العاج من السودان الغربي عبر الصحراء. و فضلا عن ذلك هناك فروع أخرى لطرق تمتد من الشرق إلى الغرب أو العكس مروراً بتلمسان ففاس و منها إلى سجلماسة حيث تتفرع منها طرق أخرى. و لا شك أن موقع تلمسان كان وراء قوة الدولة الزيانية و إمكانيتها المالية و الاقتصادية، فكان أحد الأسباب في محاولات المرينيين المستمرة في احتلال تلمسان و الاستيلاء على قدراتها التجارية لكونها ملتقى الطرق و مقصد قوافل التجار.

4- كون تلمسان مفتاح المغرب الأوسط و من ملك المفتاح أمكنه امتلاك البلاد كلها، و امتلاك المغرب الأوسط معناه امتلاك المغرب الأدنى بكامله و بذلك يتحقق للمرينيين مشروع توحيد المغرب الإسلامي تحت رايتهم.

5- موقع المغرب الأقصى الذي يحده المحيط غرباً، و الصحراء جنوباً، و البحر و الأندلس شمالاً، و كانت المقاطعات و المناطق الإسلامية تسقط الواحدة تلو الأخرى في يد المسيحيين الإسبان بحيث يمكن للمتطلع إلى الأحداث فيه أن يدرك أن سقوط آخر معقل للمسلمين في الأندلس أصبح وشيكاً، و أمام هذا كله لم يكن أمام الدولة المرينية سوى توسعها إلا في الناحية الشرقية حيث الدولة الزيانية و عاصمتها تلمسان.

كان موقع تلمسان المتاخم و القريب من دولة بني مرين غربا من العوامل الجغرافية و السياسية التي شجعت ملوك دولة بني مرين على تكرار هجماتهم على العاصمة الزيانية، و كان قطع المسافة بين تلمسان و فاس لا يستغرق إلا أيام قليلة سالكين فيها طرق سهلة، و يتضح ذلك من خلال ما ذكره صاحب الروض المعطار: « و بين فاس و تلمسان عشرة أيام في عمائر متصلة.»<sup>(1)</sup>، و كان الزيانيون يدركون الأطماع المرينية في بلادهم و عاصمته و كانوا يميلون دائما إلى المقاومة.

تمكن يعقوب بن عبد الحق المريني من فاس و مكناس، و بدأ الصراع بينه و بين أبي دبوس<sup>(2)</sup>، خليفة الموحدين بعدما انحصر ملكه في إقليم مراكش، و أخذ يستعد لمنازلة بني مرين الخارجين عليه، فراسل أبو دبوس يغمراسن بن زيان طالبا منه الدعم لإضعاف قوة أبناء عمومته المرينيين، فاستجاب لهذا الطلب، و بدأ يشن الغارات على بلادهم، فأثار ذلك حفيظة يعقوب بن عبد الحق المريني، فترك حصار مراكش و جهز جيشه ليسيير إلى تلمسان، و دارت معركة بين الجانبين عند وادي تلاغ في 12 جمادى الثانية 666 هـ/يناير 1267 م، انهزم فيها بنو زيان، و قتل فيها أبو حفص عمر بن يغمراسن أعز أولاده و ولي عهده<sup>(3)</sup>، كان تأثيرها كبيرا على يغمراسن بن زيان.

استطاع يعقوب بن عبد الحق أن ينقض على الموحدين، فألحق بهم هزيمة و قتل أبا دبوس ثم دخل مراكش سنة 668 هـ/1269 م، وانتهت بذلك الدولة الموحدية التي حل محلها بنو مرين<sup>(4)</sup>، و من الأندلس أرسل بنو الأحمر<sup>(5)</sup> وفدا إلى يعقوب بن عبد الحق المريني، يشعرونه أن أمر الإسلام بالأندلس أصبح في خطر، و كان سلطان الأندلس آنذاك الأمير محمد المدعو بالفقيه ثاني ملوك بني الأحمر ملكهم، فمال السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني و من معه إلى الاستجابة لنداء الجهاد ورأى أنها الفرصة السانحة لمصالحة يغمراسن بن زيان، فأرسل إليه وفدا ليبلغه بالجهاد في الأندلس لكن يغمراسن رفض بعدما قُتل ولده أبا حفص عمر<sup>(6)</sup> و تم اللقاء بين الجيشين في معركة إيسلي<sup>(7)</sup>، و كانت الهزيمة مرة أخرى على يغمراسن الذي قتل ولده فارس في هذه المعركة العنيفة، ثم سار يعقوب بن عبد الحق يحاصر تلمسان بعد أن ترك مدينة وجدة التي يبدو أنها كانت إلى ذلك الوقت تابعة ليغمراسن، و بعد حصار استغرق ثلاثة أشهر لم يتمكن أبو يوسف من اقتحام تلمسان، فانسحب إلى فاس<sup>(8)</sup>

1- محمد بن عبد المنعم الجُميري، المصدر السابق، ص 435.

2- أبو دبوس: هو أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس، تولى الحكم من سنة 665 هـ/1266 م إلى سنة 668 هـ/1269 م و هو آخر خلفاء الموحدين بمراكش. ينظر: أبو العباس أحمد السلاوي، المرجع السابق، ج 1، ص 256.

3- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 115

4- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص ص 19 - 20.

5- بنو الأحمر: أو بنو نصر، نسبة إلى محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر سليل نصر، و الذي يعود أصلهم إلى سعد بن عبادة ؓ سيد الخزرج في المدينة. و دولة بنو الأحمر (633-897 هـ/1233-1492 م) آخر دول ملوك الطوائف الإسلامية الحاكمة بالأندلس و تسمى أيضا مملكة غرناطة. ينظر: جمال يحيوي، سقوط غرناطة و مأساة الأندلسيين 1492 - 1610 م، دار هومة، الجزائر، 2009، ص 28.

6- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص ص 119 - 120.

7- معركة إيسلي: كانت في صفر 670 هـ/أوت 1271 م. ينظر: ابن الأحمر، المصدر السابق، ص 21.

8- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 2، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 2011، ص ص 17 - 18.

ب- حصار يوسف بن يعقوب<sup>(1)</sup> المريني لتلمسان

و أمام هذه الهزائم المتكررة التي لحقت بيغمراسن من قبل المرينيين أوصى ابنه و ولي عهده أبي سعيد عثمان بعدم التعرض لبني مرين و إبرام المعاهدات السلمية معهم<sup>(2)</sup> من خلالها ظلت العلاقات طيبة و هادئة بين فاس و تلمسان نتيجة المعاهدة المبرمة بينهما و عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل منهما، لكن بعد وفاة يعقوب بن عبد الحق المريني، بدأ الخلاف يدب من جديد بينهما، خاصة عندما اعتلى يوسف بن يعقوب عرش فاس سنة 685 هـ/1286 م، الذي كان يطمح لتأسيس دولة قوية تحل محل الموحديين في إفريقية و المغرب، فاستغل الخلافات التي بدأت تنشب بينه و بين بني زيان لإسقاط الهدنة التي ظلت قائمة بينهما نحو ثماني سنوات<sup>(3)</sup> و كانت تلمسان هدفة الأول في مشروعه التوسعي.

حاول يوسف بن يعقوب اقتحام أسوار مدينة تلمسان غير أن جهود بني مرين لم تكفل بالنجاح، نظرا لمقاومة بني زيان الشديدة فقد كانت المحاولة الأولى لأبي يعقوب يوسف بن يعقوب نحو مدينة تلمسان سنة 689 هـ/1290 م، و كانت المحاولة الثانية سنة 695 هـ/1296 م، و وقعت الثالثة سنة 696 هـ/1297 م و كانت الرابعة سنة 697 هـ/1298 م، أما الخامسة و هي أطولها زمنا و أشدها عنفا و أكثرها عددا، فقد كانت في سنة 698 هـ/1299 م<sup>(4)</sup>.

و لما فشل سلطان فاس يوسف بن يعقوب في الاستيلاء على تلمسان، عندما أراد تجويع المدينة في عام 699 هـ/1299 م بغية إسقاطها، و ذلك بأن فرض عليها حصارا شديدا دام ثماني سنوات، و شيد في مواجهة المدينة المحاصرة قصرا و مسجدا و مساكن لقواد جيشه، و حمامات عمومية و فنادق و سوقا، و نشأت مدينة جديدة، هي محلة المنصورة<sup>(5)</sup>، عزما منه على عدم رفع الحصار و مغادرة المنطقة إلا بعد سقوط العاصمة الزيانية، و سماها المنصورة تيمنا بالنصر<sup>(6)</sup>. و عن حصار يوسف بن يعقوب المريني لتلمسان يقول عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «... و السلطان أبو يعقوب يومئذ، صاحب المغرب الأقصى من بني مرين، جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور، و قد بث جيوشه في نواحيها، و غلب على الكثير من أعمالها و أمصارها، و ملك عمل مغراوة بشلف، و حاضرتة مليانة... ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب بمكانه من حصار تلمسان سنة خمس و سبعمائة على يد خصي من خصيانه، طعنه فأشواه، و هلك.»<sup>(7)</sup>، فكُسرت إرادة جيش بني مرين و خابت آمالهم في الاستيلاء على تلمسان.

1- يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني المقتول سنة 706 هـ، ثالث ملوك بني مرين تولى الحكم (685 هـ/1286م)

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 46، الهامش 6.

2- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص 25. ينظر: خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 114.

3- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 26 - 27

4- المرجع نفسه، ص 27

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 292-293. ينظر كذلك:

Georges Marçais, les villes d'art célèbres Tlemcen, libr.renouard.H.Laurens, édit., paris, 1950, p. 52.

6- عبد العزيز محمود لعرج، المرجع السابق، ص 7

7- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 46 - 47

و بينما أبو زيان و أخوه أبو حمو في القصر يفكران في مصير مدينة تلمسان و أهلها بعد أن دخل الحصار عامه التاسع، إذ برسول يطرق الباب قدم من مدينة المنصورة، مبعوثاً من أبي ثابت بن عامر<sup>(1)</sup> يخبرهما ب وفاة جده يوسف بن يعقوب المريني، و يطلب منهما مساعدته بالجند و بالطبول و الرايات لمواجهة خصميه أبي سالم و أبي يحيى اللذين أرادا الاستيلاء على العرش في فاس مقابل الجلاء و فك الحصار عن تلمسان. فكان له ما أراد، ثم حمل ذخائره و توجه نحو فاس يطوي المراحل في ذي الحجة من سنة 707 هـ/1307 م فتتفس بعد ذلك من تبقى من أهل تلمسان<sup>(2)</sup>، و بعد هلاك السلطان المريني يوسف بن يعقوب يذكر عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «قام بالمُلك بعده حَافِده أبو ثابت، بعد خطوب ذكرناها في أخبارهم، و وقع بينه و بين صاحب تلمسان يومئذ أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن، و أخيه أبي حمو، العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان، و ردّ أعمالها عليهم فوفى لهم بذلك، و عاد إلى المغرب.»<sup>(3)</sup>، خوفاً من سقوط العرش المريني في يد الطامعين.

يقول الحسن الوزان (ليون الإفريقي): «و عندما انتشر في تلمسان [خبر موت السلطان يوسف بن يعقوب]، زاد السكان جرأة و قوة و عزيمة، فخرجوا مع الملك من المدينة و أحرزوا على انتصار لم يكن في الحساب، و قتلوا عدداً كبيراً من عدوهم الذي فرّ شذر مذر، و غنموا أقاتاً و كمية وافرة من الماشية، اضطر العدو إلى تركها. و هذا تحولت مجاعة الأمس إلى رخاء عظيم<sup>(4)</sup>، و مهما يكن الأمر فإن تلمسان الزيانية تضررت كثيراً من جراء ما ألحقه الحصار بها من سوء الأحوال.

صوّر لنا الحسن الوزان (ليون الإفريقي) ما أصاب تلمسان عاصمة الزيانيين من جراء ذلك الحصار: «لكن تلمسان تضررت كثيراً من جراء الحصار المضروب عليها من طرف أبي يعقوب يوسف ثاني ملوك بني مرين، الذي بنى مدينة أخرى شرق مدينة تلمسان، و دام الحصار سبع سنوات، و استقلح الغلاء إلى أن بلغ كيل (روجيو) من القمح ثلاثين مثقالاً، و (سكورزو) من الملح ثلاثة مثاقيل، و رطل اللحم ربع مثقال، فلم يطق السكان تحمل مثل هذه المجاعة، و اشتكوا إلى الملك، فأجابهم بأنه قبل أن يطعمهم لحمه لو كان يكفي لإعالتهم جميعاً، إذ يعده بخساً بالنسبة لولائهم. فأحضر خمسة أو ستة من أعيان الشعب و أرسلهم إلى مطبخه ليشهدوا غذاءه لذلك اليوم، فكان عبارة عن مزيج من لحم حصان و حبوب شعير كاملة، و ورق ليمون و أشجار أخرى ليزداد حجمه. و هكذا علم الشعب أن ضيق عيش الملك أقوى من ضيق عيش أي مواطن و احضر الملك أبناءه و إخوته و أحفاده و خاطبهم بكلمات مؤثرة، ثم ختم بقوله إنه مستعد أن يموت شجاعاً أمام العدو بدلاً من أن يستمر في حياة دنيئة بائسة كهذه... فعبر الكل عن موافقته إلا أنه لحسن الحظ، قتل يوسف المريني... في نفس الصباح الذي تقرر فيه ذلك الخروج.»<sup>(5)</sup>

1- أبو ثابت: هو عامر أبو ثابت حفيد السلطان أبي يعقوب أمه بربرية تدعى بزو بنت عثمان بن محمد بن عبد الحق، بُيع في ذي القعدة

بتلمسان الجديدة سنة 706 هـ. ينظر: إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج2، ص 30.

2- العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج1، ص ص 28-29

3- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 47

4- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ص 18-19

5- المصدر نفسه، ص ص 17-18

ج- حصار أبي الحسن<sup>(1)</sup> المريني لتلمسان

لم تعرف الأحوال السياسية ببلاد المغرب سوى الاستقرار المؤقت عبّر عنها الحسن الوزان: «و بعد مرور أربعين عاماً، جاء أبو الحسن رابع الملوك المرينيين بمدينة فاس، فشيّد مدينة على ميلين غربي تلمسان، و حاصر تلمسان بجيش كثير، و دام الحصار ثلاثين شهراً... و دخل ملك فاس عنوة و نهبها، ثم حمل ملكها<sup>(2)</sup> أسيراً إلى فاس، فضرب عنقه و أمر برمي جثته في مزبلة المدينة... فكانت هذه ثاني كارثة حاقت بمدينة تلمسان»<sup>(3)</sup> من قبل بني مرين ملوك المغرب الأقصى.

بعث السلطان أبو الحسن المريني إلى أمير بني زيان يطلب منه سحب جيوشه من المناطق الحفصية التي انتزعتها بنو زيان من أفريقية فرد عليه أسوأ رد، و تهيأ أبو الحسن لحربه سنة 735 هـ، فاستولى وجدة و ندرومة و وهران ثم عسكر بالمنصورة التي رمها و قد كان خربها بنو زيان كما بنى بإزائها أحياء جديدة، و توافدت عليه أثناء ذلك عدة شخصيات عسكرية من بني زيان خاصة قائدهم العام يحي بن موسى و استمر الحصار مدة عامين انتهى بالاستيلاء على تلمسان و تحقيق ما عجز عن تحقيقه ملوك بني مرين قبل أبي الحسن<sup>(4)</sup>، و قد تناول عبد الرحمن بن خلدون غزو أبي الحسن لتلمسان في رحلته قائلاً: «و زحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان، فأخذ بمخنقتها سنتين أو أزيد، و ملكها عنوة و قتل سلطانها أبا تاشفين، و ذلك سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة»<sup>(5)</sup>

كان غرض أبي الحسن بعد فتح تلمسان، القيام بزيارة لصهره أبي يحي الحفصي ملك تونس مخترقاً الأقاليم التي خضعت لسلطته، غير أنه أصيب بمرض في معسكره بسهل متيجة، فاضطر إلى الرجوع إلى فاس<sup>(6)</sup> خوفاً على مصيره نحو المجهول و مملكته بالمغرب الأقصى.

و يضيف صاحب العبر: «كان ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد استقل لهذه العصور، و صار للسلطان أبي الحسن علي بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي يوسف بن يعقوب بن عبد الحق جد ملوكهم و أسف إلى ملك جيرانهم من الدول، فزحف إلى المغرب الأوسط و هو في ملكة بني عبد الواد أعداء قومه من زناتة و ملكهم أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى ابن أبي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان جد ملوكهم أيضاً و كرسيه تلمسان سبعة و عشرين شهراً، و نصب عليها المجانيق و أدار بالأسوار سياجاً لمنع وصول الميرة و الأقوات إليها، و تفرى أعمالها بلداً بلداً فملك جميعها ثم افتتحها عنوة آخر رمضان 737 هـ ففض جموعها و قتل سلطانها عند باب قصر»<sup>(7)</sup>

1- أبو الحسن علي بن عثمان: رابع ملوك بني مرين تولى الحكم (732 هـ/ 1331 م)، استولى على تلمسان سنة 737 هـ.

ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 293. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 47

2- أبو تاشفين: هو أبو تاشفين بن أبي حمو دام حكمه (718 هـ - 737 هـ) بعد أن قتله أبي الحسن المريني سنة 737 هـ

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 339-342 ينظر كذلك: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 17

3- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 19

4- إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج 2، ص 37.

5- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 93.

6- الحسن الوزان، ج 2، ص 19.

7- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 5، ص 503.

د - حملة أبي عنان<sup>(1)</sup> المريني على الزاب وقسنطينة

كان بنو عبد الواد يمثلون في نظر أبي عنان حائلاً ضخماً بينه وبين والده أبي الحسن، فقد سعى أبو عنان إلى تثبيت أقدام بني عبد الواد بالمغرب الأوسط أول الأمر<sup>(2)</sup>، ويرى ابن خلدون أن بني عبد الواد: «وفدوا مشيختهم على الأمير أبي عنان صاحب المغرب، و سلطان بنى مرين، فعقدوا معه السلم و المهادنة، و اشتروا له عن أنفسهم دفاع السلطان (أبو الحسن) إليه»<sup>(3)</sup> لكن بني عبد الواد ما لبثوا أن تمسكوا بالاستقلال السياسي، فغضب أبي عنان و اتخذ من هذا السلوك ذريعة للاستيلاء على المغرب الأوسط<sup>(4)</sup>، و جعله تحت لواء دولته مرة أخرى.

كانت عدة العدة متوفرة جداً، وقرأها أبو عنان من الناحية النفسية و المعنوية، و جند جيوشاً كثيرة من مختلف الطبقات و الأجناس من مرتزقة و جنود رسميين، و قبائل مستنفرة... الخ، فهياً النفوس، و عباً الأفكار، و قوى الإرادات، و شحذ الهمم، و نهض بالعزائم، و استطاع بذلك أن يكون على أتم الاستعداد لخوض المعركة<sup>(5)</sup>، أما الأسلحة التي استعملت فيها فهي كثيرة و مختلفة، ذكر منها ابن الحاج: الأنفاط و المجانيق و الملاصق و القسي و السهام و السنان و القنا و الرماح و السيوف و المعاول و الفؤوس، و الدروع و غيرها<sup>(6)</sup>.

تحدث عبد الرحمن بن خلدون في رحلته عن غزو السلطان المريني لتلمسان بقوله: «... و زحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث و خمسين، فهزم ملوكها من بني عبد الواد، و أبادهم، و نزل المدينة، و أطل على بجاية»<sup>(7)</sup>.

وصف ابن الحاج النميري تمرد الأعراب بأسلوبه قائلاً: «و لما توغل العرب المنافقون في الصحاري و المفاوز، و غشيهما ما غشيهما من الخطوط الملتهبة الضرام و الهزاهز. و شالت نعامتهم و سارت جهاماً غمامتهم، و انتشروا حيث الأفاعي تنتاب مراقدهم، و الأرقام تخلف أطواقهم و قلائد هم. و منوا بقفار ردت سعي القطاة في الاهتداء مخفقاً و غنت بها الرياح العواصف غناها رماً مطلقاً، و أصبحوا يدافعون المنايا بما هو أفزع منها مذاقاً، و يستبقون الحياة بتحسبهم لمر المصاب كأساً دهاقاً. فهم مقتولون بسيوف السراب، قبل سيوف الهند العصاب، مقبورون في ذات الرمل المنهال قبل الملاحد، مجاوزون بسوء أعمالهم قبل الموت المؤذن بالشدائد، محمولون على ظهور القلاص كالجنائز إذا رأوا غير شيء ظنوه ظل المناجز. مقطوعة آمالهم من الظهور، آيسون من النجاة كما يئس الكفار من أصحاب القبور»<sup>(8)</sup>.

1- أبو عنان فارس بن أبي الحسن: من أم رومية تدعى شمس الضحى، ولد سنة 729 هـ، تولى الملك بطريق غير مشروع سنة 749 هـ ثم خلع له الأمر باعتراف والده سنة 752 هـ. ينظر: إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج2، ص 44.

2- محمد عيسى الحريري، تاريخ...، المرجع السابق، ص 126

3- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص 372

4- محمد عيسى الحريري، تاريخ...، المرجع السابق، ص 126.

5- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 73

6- المصدر نفسه، ص 107

7- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 93.

8- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 410 - 411.

واجه الشيخ أبو عمران<sup>(1)</sup> الأحداث التي وقعت في صفوف الأعراب و الذي كُلف بإخمادها و القضاء عليها فقصد ميلة، و لاحقته القبائل، فحاض المعركة في ميلة و بجاية غير أنه انهزم في ميلة و انتصر في بجاية، فاستأذن أبا عنان في الرجوع و الأخذ بالثأر، و اشتعلت الفتن بميلة و بجاية مما دفع أبي عنان إلى القيام برحلته الكبرى إلى الشرق لإخضاع العرب إلى سلطته، و القضاء على عبث الأعراب بالسلطة نتيجة الفساد و العصيان و التخريب<sup>(2)</sup>

كانت بداية الرحلة الكبرى لأبي عنان المريني ضح يوم الخميس 20 جمادى الثانية 758 هـ، بعدما تجمعت الجيوش، و وصلت وفود ممثلين عن سكان بجاية لتقديم الطاعة، فدخل الجيش المريني رسمياً بجاية بمساندة الأسطول المريني، بعد أن قضى أبو عنان بميلة ثلاثة أو أربعة أيام، ثم أمر بتوجيه قوته نحو قسنطينة، و أعطى الأوامر لبناء أبراج عالية تمهيدا لفتحها، لكن سكانها عارضوه، ثم توجه إلى بلد العناب، ثم استمرت الرحلة إلى الزاب بعدما ترك قسنطينة و وصل إلى جبل أوراس جنوب بلاد الزاب ثم بسكرة قاعدة بلاد الزاب ثم رحل إلى طولقة يوم 12 رمضان 758 هـ، و انتقل إلى نقاوس و أوطانها يوم 28 رمضان 758 هـ، و قد توقفت الرحلة عند طولقة بعد أن صعب عليه التوغل في الصحاري، و كان الإياب من الرحلة الكبرى يوم الاثنين 9 شوال 758 هـ بعد الرحيل من قسنطينة نحو المغرب الأقصى عن طريق الصحراء مروراً بالمسيلة، و قد دام شهراً و ثمانية عشر يوماً و تكون الرحلة كلها ثمانية أشهر<sup>(3)</sup>

علل أبو عنان المريني أسباب رحلته إلى الزاب و قسنطينة بقوله: «أعلم أن المراد أن تجتمع كلمة الإسلام، و تلتئم أحزابها أحسن الالتئام، و تتخلى الدواعي لجهاد عبدة الأصنام... و يُستطاع السير لحج بيت الله الحرام، و يحسن داء الفتنة، و ينقضي أمد المحنة»<sup>(4)</sup>، غير أن طموحات سلاطين بني مرين كانت تهدف إلى السيطرة على المغرب الإسلامي.

في سنة 759 هـ عين أبو عنان القائد سلمان بن داوود وزيراً و تولى قيادة جديدة نحو إفريقية و تكفل بإحداث الاضطراب في صفوف عرب الداوود الذين كانوا يرهقون السكان بالضرائب في المغرب الأوسط خاصة ضواحي قسنطينة، و أثناء ذلك قدم أبو عنان بنفسه إلى تلمسان للإشراف على الحملة غير ان الجيوش المرينية لم تستطع اقتحام إفريقية مرة أخرى، و نظراً للاضطرابات التي شهدتها الحاميات المرينية اضطر أبو عنان إلى الانتقال من تلمسان إلى فاس<sup>(5)</sup>، فكانت تلمسان مدينة عبور للجيش المريني للاستراحة.

1- أبو عمران: كان صهرا لأبي يحيى اللحياني شيخ الموحدين.

ينظر: محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون من الازدهار و النبول، الشركة التونسية للتوزيع، 1974، ص 93 .

2- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 69 - 70

3- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 74 - 76

4- المصدر نفسه، ص 70

5- إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج2، ص 46.

هـ - غزو أبي سالم<sup>(1)</sup> المريني لتلمسان

استعرض لسان الدين بن الخطيب الأحداث الداخلية التي مرَّ بها المغرب الأقصى قبيل وصول أبي سالم و التي مهدت له الطريق لنجاح دعوته، ذلك أن وفاة السلطان أبي عنان و تولية ابنه الطفل<sup>(2)</sup> بعده، قد شجع العناصر المعادية للدولة المرينية على الثورة و العصيان، ففي المغرب الأوسط قام سلطان بني عبد الواد، أبو حمو الثاني بن يغمراسن، مع حلفائه عرب بني عامر و بني زغبة الهلاليين بمهاجمة المرينيين في تلمسان و انتزاع المدينة منهم في أوائل سنة 760 هـ، و لما علم الوزير المغربي الحسن بن عمر الفودودي لاستعادة هذه المدينة، و نجح في تحقيق هدفه بالاستيلاء على تلمسان عنوة، غير أن جيوشه التي أرسلها لإخضاع العرب المقيمين خارج تلمسان، منيت بهزيمة فادحة بالقرب من وجدة<sup>(3)</sup>

قال لسان الدين بن الخطيب عن السلطان الطفل عبد الله أبو بكر السعيد بن أبي عنان: «و لقد كان الولد أهلاً لما رشح إليه و إدراكاً و رواء، فقد أتقن الخط، و حفظ المُنزَّل، و شدا شيئاً من العربية على انحطاطه في دركات الحداثة و خفاء مكانة للضئولة - أسمع صوتاً و لا أرى أحداً - عهدي به يتدحرج بين يدي الوزير إلى مصلى الجمعة، أو يجلس للعرض كفرخ الحمام المطوق مخضوب الرُّجيلة، مُشَمَّر الذيل، حسن القبض على المنديل والمُدِيَّة، قد دارت العمامة منه على قمر، لا يزال في الأريكة يتوقد الذُّبال في مشكاته نُبلاً و هِشَّة سآلاً عن أعيان الوافدين مشيراً بالأخذ لرقاع المتظلمين، ناهضاً إلى غاية الثُّبل و السداد لو أن الليالي أمهلتها، و رام لعظم مُنَّته<sup>(4)</sup> و شدة أسره و قوة شكيمته و اغتراره بمن لديه أن يُجرى أمر خليفته الماضي الشُّبا<sup>(5)</sup> السامى العلى، البالغ بمجده و جدوده أسباب السَّماء أبي عنان رحمه الله على سبيله فيحوط البيضة و يملك القلوب بالرَّهبة، و يتمسك بالأطراف النائية، و العمالة القاصية، و يخيف من يجاوره من الملوك المضطهدين بخليفته المصنوع له، فبادر إلى تثبيت من أسندوا إليه أمر بجاية، و وعده أياه بالمدد، و خاف على مملكة تلمسان لِذَّة<sup>(6)</sup> عقيلة الملك الذي بيده المبرَّة بخلال عظيمة الجدوى من الماء و الرُّوى، و درور رسل المَحْيَا، و كثف العمارة، و عائد الإثارة. فجهز إليها الجيش الخشن المناهز خمسة الآلاف إلى من كان بها من حاميته، و أمر عليها ابن عم له وزير الولد قبل عموم وزارته و في نفسه ضَرَم، و لديه بث لكبحه إياه عن الطماح، و حمله على التظاُن له.»<sup>(7)</sup>

- 1- أبو سالم: هو أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن الملقب بالمستعين. ينظر: إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج2، ص 49.
- 2- أصيب أبو عنان بمرض ألزمه الفراش حوالي أسبوعين و دخل عليه وزيره الحسن بن عمر الفودودي فخنقه حتى مات في أواخر ذي الحجة سنة 759 هـ كما خنق ولي عهده أبا زيان و نصب أبا بكر السعيد و هو بعد في الخامسة من عمره.
- ينظر: إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج2، ص 47.
- 3- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 25.
- وجدة: مدينة بالمغرب، بينها و بين تلمسان ثلاث مراحل. ينظر: محمد بن عبد المنعم الجُميري، المصدر السابق، ص 607.
- 4- المنَّة (بضم الميم) معناها هنا القوة و جمعها منن. ينظر: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 219، الهامش 1.
- 5- الشبا جمع شباة أي حد السيف أو إبرة العقرب. ينظر: لسان الدين بن الخطيب،...، المصدر السابق، ص 219، الهامش 2.
- 6- اللدة: الترب (بكسر التاء و سكون الراء) و هو الذي ولد أو تربى معك، يقال هو لدتي أي تربى، و الجمع لدات و لدن، و يقصد هنا أن تلمسان كانت بمثابة العاصمة الثانية. ينظر: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 219، الهامش 3.
- 7- المصدر نفسه، ص ص 218 - 219.

و يضيق لسان الدين بن الخطيب: «و لما حلَّ الجميع تلمسان و قد كان أهلها غلبوا عليها و استخلصوها لذهاب حرمتها، و ما أوقعه رأي الخليفة الهالك من هدم سورها و محو منعته، فأجفلوا عنها و كان الجيش أملك بها، فحسنت المخيله و يُمُنَّتْ النقيبه، و صدرت مخاطبته بذلك إلى الأندلس»<sup>(1)</sup> في رسالة.

لم يبق لأبي سالم بعد تسويته أمور المغرب الأقصى إلا أن يلتحق بتلمسان من أجل استعادتها من جديد، و ذلك بعد أن صفى أمر الحسن الفودودي الذي ثار بتادالا<sup>(2)</sup>، و تمكن من القبض عليه و قتله، و بينما كان أبو سالم يقتحم تلمسان كان أبو حمو الزياني يحطم قرى المغرب الشرقي حتى يصرف بذلك أبا سالم عن تلمسان، و حاول أبو سالم أن ينصب أبا زيان محمد بن عثمان أحد أحفاد أبي تاشفين، إلا أن أبا حمو سرعان ما طرده و دخل تلمسان سنة 761 هـ ثم عقد صلحا مع أبي سالم<sup>(3)</sup> و خضعت مرة أخرى مدينة تلمسان الزيانية لدولة بني مرين.

في يوم الخميس 17 شعبان سنة 761 هـ هنا لسان الدين بن الخطيب أبي سالم المريني بمناسبة غزو<sup>(4)</sup> تلمسان في رسالة أهم ما جاء فيها: «مولاي فتاح الأقطار، و الأمصار، فائدة الأزمان و الأعصار، أثير هيات الله الأمانة من الاعتصار، قدوة أولى الأيدي و الأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار، مصداق دعاء الأب المولى في الأصائل و الأبخار، أبقاكم الله لا نقف إيالكم عند حد، و لا تحصي فتوحات الله عليكم بعد، و لا تفيق أعداؤكم من كد، ميسرا على مقامكم ما عسر على كل أب كريم وجد، عبدكم الذي خلص إبريز عبوديته لملك ملككم المنصور، المعترف لأدنى رحمة من رحمتكم بالعجز عن شكرها و القصور، الداعي إلى الله سبحانه أن يقصر عليكم العصور، و يذل لعز طاعتكم أنف الأسد الهصور، و يبقى الملك في عقبكم و عقب عقبكم إلى يوم ينفخ في الصور.»<sup>(5)</sup> و قد بالغ في ثنايا رسالته هذه لأنها جاءت خلال فترة منفاه بالمغرب الأقصى.

و يضيف لسان الدين بن الخطيب في رسالته: «فتحُ تلمسان الذي قلد عقود الابتهاج، و وهب الإسلام منيحة النصر غنية عن الهياج، و ألف الخلق ظلا ممدودا، و فتح باب الحج و كان مسدودا، و أقر عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياما و قعودا، و أضرع بسيف الحق جباها أبية و خدودا، و ملككم حتى أبيكم الذي أهان عليه الأموال، و خاض من دونه الأهوال و أخلص فيها الضراعة و السؤال، من غير ككد يغمز، عطف المسرة، و لا جهد يكدر صفو النعم الثرة، و لا حصر ينفذ به المنجنيق ذرابته، و يظهر بتكرر الركوع إنابته.»<sup>(6)</sup>

1- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص ص 220 - 212.

2- تادالا: من بلاد المغرب الأقصى، و هي مدينة قديمة أزيلت فيها آثار لأول، بنى المثلثون فيها حصنا منيعا و هو الآن معمور و فيه الأسواق و الجامع... أحاطت به القبائل من جميع الجهات. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص ص 127 - 128.

3- إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج 2 ص 50.

4- استخدم لسان الدين بن الخطيب كلمة فتح بدل كلمة غزو. ينظر: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 94.

5- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 91.

6- المصدر نفسه، ص ص 92 - 93.

«...مولاي هذه تلمسان قد طاعت و أخبار الفتح على ولدك الحبيب إليه قد شاعت، و الأمم إلى هنائه قد تداعت، و عدوك و عدوه قد شردته المخافة، و انضاف إلى عرب الصحراء فخفضته الإضافة، و عن قريب تتحكم فيه يد أحكامه و تُسلمه السلامة إلى حمامه، فلتطب يا مولاي نفسك، و ليستبشر رَمْسُك، فقد تمت بركتك و زكا غرسُك، نسأل الله أن يورد على ضريحك من أنباء نصره ما يفتح له أبواب السماء قبولاً، و يترادف إليك مدداً موصولاً، و عدداً آخرته خير لك من الأولى، و يُعرفه بركة رضاك، طغناً و خلولا، و يُضفي عليه منه ستراً مسدولاً.»<sup>(1)</sup>

«و لم يقنع العبد بخدمة النثر حتى أجهد القريحة التي ركضها الدهر فأنضأها، و استشفها الحادث الجلل و نقاضاها، فلقى من خدمة المنظوم ما يتعهد حلمكم تقصيره، و يكون إغضاؤكم إذا لقي معرة العتب و ليئه و نصيره، و إحالة مولاي على الله في نفس جبرها، و وسيلة عرفها مجده فما أنكرها، و حرمة بضريح مولاي والده شكرها، و يطلع العبد منه على كمال أمله و نُجْح عمله و تسويغ مقترحه و تتميم جذله»<sup>(2)</sup>

و يذكر صاحب العبر: «و رجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مرين، فافتتح كثيرها و غلب على مليانة و البطحاء. ثم نهض إلى وهران و نازلها أياماً و اقتحمها غلاباً، و استلحم بها من بني مرين عدداً. ثم غلب على المرية و الجزائر، و أزعج عنها بني مرين فلحقوا بأوطانهم. و بعث رسله إلى السلطان أبي سالم فعقد معه المهادنة و وضعوا أوزار الحرب. ثم كان مهلك السلطان أبي سالم سنة اثنتين و ستين و سبعمائة...»<sup>(3)</sup>

حكمت الدولة المرينية لمدة 358 سنة (592-961 هـ/1196-1554 م) انتهت سلطتها على المغرب الأوسط سنة 796 هـ/1393 م، أي حين قام سلطان الزيانيين أبو زيان بن أبي حمو الثاني قطع الدعوة للمرينيين في تلمسان، و منذ أن تولى الحكم السلطان أبو سعيد عثمان (الثاني) سنة 801 هـ/1393 م، و عن الصراع الزياني المريني الحفصي: «غير أنهم (بنو زيان) اضطهدوا من قبل ملوك فاس الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. و كان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المفازل عند جيرانهم الأعراب، و تعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس إلا أنهم كانوا يسترجعون ملكهم كل مرة، و استطاعوا أن يتمتعوا في أمن و سلام قرابة مائة و ثلاثين عاماً»<sup>(4)</sup> فالصراع كان طويلاً و مريراً.

1- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، المصدر نفسه، ص 94.

2- المصدر نفسه، ص 94.

3- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 167.

دولة الموحدين: يعتبر محمد بن عبد الله المهدي بن تومرت مؤسس دعوة الموحدين و واضع أسس دولتهم سنة 515 هـ/1121 م، كانت عاصمتها مراكش، غير أنها سقطت سنة 668 هـ/1269 م على يد المرينيين. ينظر: ابن أبي الزرع الفاسي، الأندلس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، صور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1972، ص ص 172-181.

ينظر كذلك: أبو بكر بن علي الصنهاجي البيزق، أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين، تقديم عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1971، ص ص 34-35. عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 32.

4- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 8.

## المطلب الثاني: الصراع الزياني الحفصي:

اختلف المؤرخون في نسب أمراء بني حفص<sup>(1)</sup> فمنهم من أرجعهم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتانة<sup>(2)</sup>، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة، و من أكبر قبائل البربر في المغرب<sup>(3)</sup>، و يذكر ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا: «بلاد هنتانة قبيل الشيخ أبي حفص أعظم مشائخ الموحدين. و سلطة افريقيا الآن في عقبه، و ينسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.»<sup>(4)</sup>، بينما نجد لسان الدين بن الخطيب خصص في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب فصلاً في ذكر جبل هنتانة<sup>(5)</sup> و قد كان لقبيلة هنتانة مكانة مرموقة في دولة الموحدين بعد القضاء على ثورة ابن غانية<sup>(6)</sup>، فكان منهم أمراء حكموا إفريقية.

يقول العبدري عن تونس: «و ما زالت مدينة تونس -كلأها الله -دار مُلك و ضخامة، و هي الآن دار مملكة إفريقية على ضَعْفِ المملكة بها، و انتهائها إلى حدّ التلاشي، و مع ذلك فقد أريّت البلاد في كلّ فضيلة، و مار رأيت لأهلها نضيراً شرقاً و غرباً.»<sup>(7)</sup>، و ذكر الحاج المدجّن ابن الصباح صاحب الرحلة: «و نخرج إلى مُلك الموحدين ملوك الزمان في القوة و الفضل و الامتتان ملوك نقية ممن يزعمون أن قبيلتهم قبيلة عمر بن الخطاب العدوي...»<sup>(8)</sup>

و عند ضعف الدولة الموحدية ظهرت الإمارة الحفصية فاستقلت بتونس، كما استقل بنو زيان بتلمسان و بنو مرين بالمغرب الأقصى<sup>(9)</sup> فأصبح الحفصيون هم ورثة الموحدين بإفريقية.

1- بنو حفص: ينسبون إلى الشيخ أبي حفص عمر من أصحاب المهدي بن تومرت العشرة، و هم المسمون "بالجماعة" إلا أن اسم "أبي حفص عمر" كان قد سماه به المهدي بن تومرت و اسمه الأصلي هو فاصكة بن ومزال و ينتمي أبي حفص هذا إلى قبيلة هنتانة المصمودية و هي من قبائل الموحدين التي كانت تشكل قوة الحركة الموحدية، و كان أبو محمد عبد الواحد أحد أبناء أبي حفص أوفرهم حظاً، فأصبح والياً على إفريقية و عمل على توطيد أمورها و تنظيمها و إصلاحها من الفوضى التي أحدثها بنو غانية و أتباعهم و بعد وفاته في 1 محرم 618 هـ خلفه ابنه أبا زيد الذي لم تدم ولايته سوى ثلاثة أشهر، ليخلفه بعد ذلك أبا محمد عبد الله الحفصي في 17 ذو القعدة 623 هـ / 1225 م لتعود السلطة إلى بني حفص من جديد على إفريقية، فولى أبا زكريا يحيى قابس الذي أعلن عدم ولاءه للموحدين سنة 626 هـ / 1228 م. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 32

2- هنتانة: من أعظم قبائل المصامدة و أكثرها جمعا و أشدها قوة و هنتات اسم جدهم بلسان المصامدة. و هنتانة اسم يطلق على جبل من جبال أطلس كما يطلق على القبيلة المقيمة فيه، و لقد لعبت قبيلة هنتانة دوراً كبيراً أيام الموحدين و بني مرين.

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 6، ص 370. ينظر كذلك: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 38.

لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 43 الهامش 1.

3- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ج 2، ص 545

4- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 125

5- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 43 - 80.

6- بنو غانية: ينسبون إلى أمهم غانية من العائلة المرابطية الحاكمة، امتلكوا جزر البليار و شرق الأندلس و استقلوا بها، ثم أنكروا ولاءهم للموحدين، فغزوا بجاية و مليانة و قلعة بني حماد و قسنطينة.

ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تق و تح و تع محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر و التوزيع، 1994، ص 223

7- العبدري، المصدر السابق، ص 112.

8- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 99.

9- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 201.

أ- غزو أبي زكريا الحفصي<sup>(1)</sup> لتلمسان

يعتبر أبو زكريا يحي الحفصي المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية بتونس سنة 625 هـ، و كان الحفصيون أشد الطامعين في الدولة الزيانية بعدما أحسوا أن يغمراسن بن زيان يميل إلى الرشيد بن إدريس الموحدي، فغضب أبو زكريا على اتصال الرشيد بيغمراسن<sup>(2)</sup> و لم يقتنع بنفوذه على المغرب الأدنى، فبدأ يتطلع إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط مما أدى إلى نشوب حروب مع جيرانه الزيانيين غرباً.

يقول عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «كانت بجاية ثغراً لإفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين. و لما صار أمرهم للسلطان أبي بكر بن يحي منهم، و استقل بمك إفريقيا، ولى في ثغر بجاية ابنه الأمير أبا زكرياء، و في ثغر قسنطينة ابنه أبا عبد الله. و كان بنو عبد الواد ملوك تلمسان و المغرب الأوسط، ينازعونه في أعماله، و يُجمرون العساكر على بجاية، و يُجلبون على قسنطينة، إلى أن تمسك السلطان أبو بكر بدمه من السلطان أبي الحسن، ملك المغرب الأقصى من بني مرين، و له الشفوف على سائر ملوكهم.»<sup>(3)</sup>

و ذكر الحسن الوزان: «أن إقليم بجاية كان موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس و تارة أخرى سلطة ملك تلمسان»<sup>(4)</sup>، و لما استقل أبو زكريا بأمر تونس نهض إلى قسنطينة سنة 626 هـ، فنزل بساحتها و حاصرها أياماً حتى تمكن منها، و ألقى القبض على واليها ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري و ولى عليها ابن النعمان، و بعد أن استتب الأمر بها، رحل إلى بجاية فدخلها و ألقى القبض على واليها أبي عمران بن أبي عبد الله الخرصاني و صيرهما معتقلين في البحر إلى المهديّة<sup>(5)</sup>، ثم زحف على جزائر بني مزغنة و الشلف عام 636 هـ<sup>(6)</sup>، و أصبح يطمع في تلمسان العاصمة الزيانية.

تحرك أبو زكريا يحي الحفصي من تونس رفقة جيش قوامه 64 ألف جندي لغزو المغرب الأوسط، و فتح تلمسان عاصمة بني عبد الواد، و بث الرعب في قلوب الخلفاء المستضعفين من الموحدين بمراكش الذين حاولوا استمالة يغمراسن ملك تلمسان سنة 639 هـ، ففر يغمراسن إلى الجبال فتدخلت والدة يغمراسن الداهية السياسية المعروفة بسوط النساء، فتوسطت في عقد الصلح بين ابنها يغمراسن و بين أبي زكريا يحي الحفصي<sup>(7)</sup> على شروط ذكر اسم أبي زكريا على منابر تلمسان<sup>(8)</sup> التي أصبحت تحت الدعوة الحفصية.

1- أبو زكريا يحي الحفصي: هو الأمير أبو زكريا يحي بن عبد الواحد الحفصي، ملك جل إفريقيا، و بايعه أهل الأندلس، و أمته أهل شرق الأندلس لصد هجوم ملكي أرغون و قشتالة. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 32، الهامش 5.

2- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 6، ص 380 و ص 390

3- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص ص 92 - 93.

4- الحسن الوزان، المرجع السابق، ج 1، ص 31

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، ج 6، المصدر السابق، ص ص 381 - 382.

6- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 201.

7- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، ج 6، المصدر السابق، ص ص 390 - 392.

8- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ص ص 390 - 392.

تفاوضت «سوط النساء» نيابة عن ولدها يغمراسن مع أبي زكريا الحفصي، و عقد بينهما صلحا، تعاقدا فيه على عداوة الموحدين مقابل جباية سنوية يدفعها أبو زكرياء إلى يغمراسن من بلاد إفريقية، قدرها مائة ألف دينار إعانة على موافته ضد الموحدين بمراكش، ثم ارتحل أبو زكرياء من تلمسان إلى تونس، فأقام في طريقه ملوكا من قبائل توجين و مغراوة و مليكش جعلهم أسوارا حاجزة بينه و بين يغمراسن<sup>(1)</sup> و ذكر صاحب الروض المعطار عن غزو أبي زكريا الحفصي لمدينة تلمسان: «و كان صاحب تلمسان يغمراسن بن زيان من بني عبد الوادي قد تمادى في غيه و نبذ طاعة ملك إفريقية الأمير أبي زكريا و أعلن بالخلاف فتحرك إليه من تونس في عساكره و حشوده، فخرج من تونس في السادس و العشرين من شوال سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، و جعل يتلوم عليه و يأمر من يندبه إلى مراجعة الطاعة إلى أن انتهى إلى تلمسان فنزل عليها، فكان بنو عبد الوادي يخرجون كل يوم فيطاردون العسكر ثم يرجعون إلى مدينتهم، و صابروهم إلى أن ضاق مجالهم و انحجزوا في مدينتهم و رجعوا إلى الشباب و أغلقوا الأبواب فأحرق بعضها و دخلت عليهم البلدة عنوة و خرج يغمراسن من أحد أبوابها فاراً لا يلوي على شيء، و ملك الأمير أبو زكريا البلد و أنهبها ثم أمّنها بعد ذلك، و عفا عن الناس، ثم عفا عن يغمراسن و أمّته و أنن له في الرجوع إلى بلده، و كان فتحها في العاشر من صفر سنة أربعين و ستمائة، خافه صاحب مراكش يومئذ عبد الواحد بن أبي العلا ادريس بن المنصور يعقوب الملقب بالرشيد، و كان بمراكش يوم تحقق دخوله في طريق إفريقية أفرح عظيمة...»<sup>(2)</sup>

وعن الصراع الزياني الحفصي حول بجاية يقول الحسن الوزان: «وجدت أن مدينة بجاية لم تكن حاضر ملك إلا منذ قليل حتى أيامنا الأخيرة، و أن حكومتها كانت تابعة لا محالة لملك تونس، لكن ملوك تلمسان احتلوها، و بسطوا نفوذهم عليها مدة طويلة إلى أن شعر أبو فارس ملك تونس بقوة شوكته... و ترك أبو فارس أحد أبنائه حاكما أميرا على بجاية... و هو عبد العزيز، و أعطى آخر مملكة تونس...»<sup>(3)</sup> نقل عبد الرحمن بن خلدون وصية يغمراسن بن زيان لابنه و ولي عهده عثمان: «أوصى دادا<sup>(4)</sup> يغمراسن لدادا عثمان<sup>(5)</sup> فقال له: «حاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين و ممالكهم يستفحل به ملكك، و تكافئ حشد العدو بحشدك و لعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لنخيرتك»<sup>(6)</sup> و تنفيذًا لوصية والده قام السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن في أواخر القرن 7 هـ/13 م، بالتوسّع شرقا، فأدى ذلك إلى تدهور العلاقات الحفصية - الزيانية.

1- لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 104. ينظر: عثمان الكعك، المرجع نفسه، ص 222

2- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 136.

3- الحسن الوزان، المرجع السابق، ج 2، ص 49

4- دادا: حرف كناية عن غاية التعظيم بلغة الزيانيين. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر... ج 7، المصدر السابق، ص 123.

5- أبو سعيد عثمان بن يغمراسن: ثاني ملوك بني زيان حكم من 681 هـ إلى غاية وفاته في حصار تلمسان سنة 703 هـ ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 122. ينظر كذلك: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 117.

6- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، ج 7، المصدر السابق، ص 122-123.

## ب- العلاقات الزيانية الحفصية

كانت العلاقات بين الزيانيين و الحفصيين تتراوح بين الحرب و الهدوء النسبي لضمان ولاء مملكة تلمسان<sup>(1)</sup> نظرا لعلاقة المصاهرة التي كانت تجمعهما عندما زوّج يغمراسن ولي عهده أبا سعيد عثمان من ابنة السلطان الحفصي أبي إسحاق إبراهيم (678 - 683 هـ / 1279 - 1284 م)<sup>(2)</sup> أو بين السلطان الزياني أبو حمو<sup>(3)</sup> و سلطان بجاية أبي عبد الله و في هذا الصدد يقول عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «كان السلطان أبو حمو قد التحم ما بينه و بين السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بالصّهر في ابنته، و كانت عنده بتلمسان.»<sup>(4)</sup>، فلطّف هذا الزواج مؤقتاً الأجواء السياسية و العلاقات بين الحفصيين و الزيانيين.

كانت علاقة الحفصيين بأبي حمو قبل توليه الحكم في مملكة بني زيان مختلفة عن علاقاته بالمرينيين، إذ كان الحفصيون يشتركون في عدائه للمرينيين، و كانت حملات المرينيين المتكررة عليهم و احتلالهم للبلاد المختلفة الواقعة تحت سلطانهم، مما زادهم قرباً منه، فظهر تعاطف معه في وقت مبكر، إذ احتصنوه و حموه و أجروا عليه بعد مقتل عميه السلطانيين أبي سعيد الثاني و أبي ثابت على يد المرينيين سنة 753 هـ، غير أن الأمور لم تكن صافية بين أبي حمو و الحفصيين، لأن الحفصيين أنفسهم كانوا منقسمين فيما بينهم، و من جهة أخرى لأن بلاده كانت تتاخم بلادهم، فكانت أطماعه تسوّل له الاستيلاء على بعض بلادهم فينزل له على رغبته بعض الحفصيين مثل أبي عبد الله محمد بن يحيى الحفصي صاحب بجاية، و يرفض الخضوع له غيره من الحفصيين مثل أبي العباس أحمد بن محمد الحفصي، فوجد أبو حمو نفسه طرفاً في صراعتهم الداخلية<sup>(5)</sup>

و لم يكد يفتقد عرش تلمسان أبو تاشفين بن أبي حمو<sup>(6)</sup> سنة 718 هـ حتى وجه اهتمامه الاستيلاء على الثغور الغربية من المملكة الحفصية و محاربتها خاصة لما أخذت هذه المملكة في الانهيار بانقسامها و ضعف أمرائها بتغلب العرب عليهم فأرسل إلى قسنطينة سنة 720 هـ جيشاً للاستكشاف و الأخبار، ثم أرسل جيشاً آخر سنة 721 هـ و استطاع أبو تاشفين الاستيلاء على مدينة تونس<sup>(7)</sup> عاصمة الدولة الحفصية، فكان ذلك يغضب بني مرين بالمغرب الأقصى، وكان يدفعهم إلى التدخل لإبقاء سيطرة بني عبد الواد على المغرب الأوسط فقط.

1- عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 117

2-

Salah Ferkous. *ibid*. p. 77

3- أبو حمو: هو أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان. ينظر: السلاوي أبو العباس أحمد، المرجع السابق، ج4، ص 4.

4- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 97.

5- لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 151 - 152. ينظر كذلك: عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 222

6- أبو تاشفين بن أبي حمو: دام حكمه (718 هـ - 737 هـ)، قتله السلطان المريني أبي الحسن سنة 737 هـ

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص 339-342

7- تونس: والحضرة التي اسمها تونس، وهي على بحيرة مالحة تدخلها المراكب الصغار بالوسق من المراكب الكبار التي ترسي في مينائها.

ينظر: ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 143 .

## المبحث الثالث: التنظيمات الإدارية بتلمسان

## المطلب الأول: النظام الإداري:

## أ- السلطان:

لما استقل يغمراسن بن زيان بأمر تلمسان و المغرب الأوسط، و ظفر بالسلطان<sup>(1)</sup> بدأ بتحسين مملكته الناشئة و توسيعها و ذلك على حساب الدولة الموحدية التي كانت في مرحلة الاحتضار، ثم اتخذ لنفسه مظاهر الأبهة و المُلْك<sup>(2)</sup> وأصبح سلطان تلمسان من بني عبد الواد<sup>(3)</sup> فشكل لهم مُلْكا<sup>(4)</sup> ورثه عنه أحفاده<sup>(5)</sup> فكان مُلْكا حازماً نشيطاً قوي العزيمة حديدي الإرادة ذا وقار و أهبة و سلطان<sup>(6)</sup> أبو ملوك عصره<sup>(7)</sup> و ربما كان لقب السلطان تقليداً بالمغرب الإسلامي انتقل من المشرق الإسلامي الذي عرف حكماً وراثياً في الحجاز و الشام و العراق.

و عن لباس السلطان يقول الحسن الوزان (ليون الإفريقي): «و لباس الملك جميل لائق، و الجواد الذي يركبه رائع مسروج بفخامة»<sup>(8)</sup> في مملكة تلمسان<sup>(9)</sup> و «أول من خلط زي البداوة بأبهة الملك، و أشعر القبيل لباس الشريعة، فأعلى المنار و مهد الخلافة، و أوثر الأريكة، و أسمع أهل المشارق و المغرب صوت الدعوة»<sup>(10)</sup> يغمراسن بن زيان، ثم تعاقب بعده على حكم الدولة بني عبد الواد سلاطين آخرين.

تحدث عبد الرحمن بن خلدون عن قصور عاصمة الدولة الزيانية فقال: «كانت لا يعبر عن حسنها، اختطها السلطان أبو حمو الأول و ابنه أبو تاشفين، و استدعى لها الصناع و الفعلة من الأندلس لحضارتها و بداوة دولتهم يومئذ بتلمسان، فبعث إليها السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة و الحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور و المنازل و البساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله»<sup>(11)</sup> و قد كان للأندلس الفضل الكبير على المغرب الإسلامي عامة من حيث ازدهار العلوم و تطور العمران.

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج7، ص 106. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 80

ينظر كذلك: ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى، المغرب...، المصدر السابق، ص 385.

2- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 53 .

الملك: من ملوك الأرض ويقال له ملك بالتخفيف والجمع ملوك و أملاك و الملك ما ملكت اليد من مال وخول و المملكة سلطان الملك

في رعيته. ينظر: ابن منظور الإفريقي المصري، المصدر السابق، ج 10، ص 492

3- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 60. ينظر الملحق رقم (03)، ص ص 284 - 285.

4- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 282

5- نفسه، ج 2، ص ص 7 - 8

6- عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 222

7- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 97.

8- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 22

9- نفسه، ص ص 7 - 8. ينظر كذلك: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 220.

Brosselard.M.C, mémoire épigraphique et historique sur TOMBEAUX DES EMIRS BENI-ZEIYAN, challamel Ainé, Paris. P6.

10- يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 111.

11- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 190.

كانت تلمسان إحدى المحطات الهامة لركب الحجاج المغاربة و الأندلسيين، حيث اجتمع فيها ما يقرب من الألف حاج حسب تقدير الرحالة المغربي محمد العبدري، و تحدث عن ملك تلمسان و صاحب مَلَيْكَش<sup>(1)</sup> بقوله: «...و قد شاهدتُ جمعاً من الحجاج ينيفون عن الألفِ وردوها، و قفوا إلى ملكها<sup>(2)</sup> فأعطاهم ديناراً واحداً و أغرب ما شاهدتهُ من منصور صاحب مَلَيْكَش، و هو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين، و قفوا إليه في محلته عند بيته، فكلموه في عشائهم فرحب بهم و احتفل في السلام عليهم، ثم أخذ ينادي: يا أهل الدوّار، هؤلاء ضيفانُ الله، مَنْ يحمل منهم إلى بيته واحداً و جعل يكرّر ذلك كما يصنع المدّرون [أهل المدر]<sup>(3)</sup>، فلمّا لم يُجبه أحد ولى عنهم، و وراءه جمع كثيف من الفُرسان، و هو سلطان تلك النواحي.»<sup>(4)</sup>، كما أُطلق على الحاكم الزياني لفظ «الملك» أو «السُلطان»

استعمل الحاج المدجن ابن الصباح في رحلته عبارة «مملكة بني عبد الواد»<sup>(5)</sup> و وصفها وصفاً شبهها فيه بغرناطة و شاطبة من مدن الأندلس و غيرها من الحواضر الأخرى من المعمورة في زمانه. و نجد كثير من كتب الرّحلات و الجغرافيا تصفها أيضاً بالمملكة منها ما قاله صاحب الروض المعطار عن تلمسان: «و مدينة تلمسان مدينة عظيمة قديمة فيها آثار لأول كثيرة تدل على أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة...»<sup>(6)</sup>، و وصف الحسن الوزان القصر الملكي بتلمسان قائلاً: «والقصر الملكي الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير، على شكل قلعة، و يضم قصوراً أخرى صغيرة ببساتينها و سقاياتها، و كلها مبنية بكامل العناية و بأسلوب فني رائع»<sup>(7)</sup> بما يليق بالمكانة السامية للسلطان و الحكم.

تحدث عبد الرحمن بن خلدون في رحلته عن استعادة سلاطين بني زيان ملوكهم المفقود أحياناً من جيرانهم المرينيين بقوله: «و قعدت عن دار السلطان<sup>(8)</sup>، مُغاضباً له، فتنكّر لي، و أقطعني جانباً من الإعراض، فطلبتُ الرّحلة إلى بلدي بإفريقية. و كان بنو عبد الواد قد راجعوا مُلكهم بتلمسان و المغرب الأوسط، فمنعني من ذلك أن يغتبط أبو حمّو صاحب تلمسان بمكاني، فأقيم عنده. و لَجّ في المنع من ذلك، و أبيتُ أنا إلا الرّحلة... فأعانني الوزير مسعود<sup>(9)</sup> عليه، حتى أذن لي في الانطلاق على شريطة العُدول عن تلمسان، في أي مذهب أردت، فأخترت الأندلس.»<sup>(10)</sup>

1- مَلَيْكَش: قبيلة من صنهاجة كانت له إيالة بسيط متيجة قضى عليها بنو مرين لما استولوا على المغرب الأوسط

ينظر: العبدري، المصدر السابق، ص 48، الهامش 3 .

2- كان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان ملك تلمسان ما بين سنتي (681 هـ - 703 هـ)

ينظر: العبدري، المصدر السابق، ص 48، الهامش 2 .

3- أهل المدر: هم سكّان البيوت المبنية خلف أهل الوَيْر و هم سكان الخيام. ينظر: العبدري، المصدر السابق، ص 48، الهامش 5 .

4- العبدري، المصدر السابق، ص 48.

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 91.

6- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

7- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 20

8- السلطان أبي سالم. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 74.

9- مسعود بن رحو بن ماساي. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 81.

10- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 80 - 82.

وصف الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته مملكة يغمراسن بن زيان: «و كانت دولة عظيمة و مُكَنَّة و عدل و صدقة و إيثار و أعوام خصبة و اطمئنان و عافية في البلاد و سعادة العُمار بالرشاد، بنى البلاد و شيد القصبات و الأسواق و المساجد و زين البلاد، و كانت مملكته عظيمة حتى كان يفتخر على ملوك العرب بالمال و الخزائن و الحرث و النَّسْلُ و زينة الثياب و كنوز الذهب و الفضة و الذخائر من الجواهر النفيس و اللؤلؤ و الزمرد... من ولد حام بالخييل و الكُمَال من ركوب السروج المذهبة يفتخر على ساير الملوك من ملوك المغرب بالعدة و الشدة و القوة.»<sup>(1)</sup>

كان السلطان يقيم بقصر يليق بمقامه، وصفه الجغرافي الحسن الوزان خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي بقوله: «و القصر الملكي الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير، على شكل قلعة، و يضم قصوراً أخرى صغيرة ببساتينها و سقاياتها، و كلها مبنية بكامل العناية و بأسلوب فني رائع. للقصر الملكي بابان، يفضي أحدهما<sup>(2)</sup> إلى البادية تجاه الجبل، و الآخر<sup>(3)</sup> إلى قلب المدينة حيث يقيم رئيس الحرس.»<sup>(4)</sup>، و قد عكست أوصاف الحسن الوزان للقصر الملكي الزياني بتلمسان صورة لاثقة عن ظروف إقامة الملك و حاشيته.

و من قصور تلمسان الزيانية المشور أو القصبية التي تقع بالجهة الجنوبية من المدينة لها شكل مستطيل يبلغ طوله 490 م و عرضه 280 م و قد شيد في المكان الذي نصب فيه يوسف بن تاشفين خيمته في الوقت الذي حاصر فيه أغادير، و يبدو أنه هو الآخر تعرض إلى الدمار و التهديم خلال هجومات المرينيين المتواصلة على تلمسان، مما دفع بسلاطين الدولة الزيانية إلى ترميم و تجديد أسواره<sup>(5)</sup>، و كثيراً ما أثر هذا الدمار أيضاً على العمران و الاقتصاد.

1- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص ص 92، 93.

2- يسمى باب الجياد.

ينظر: مارمول كاربخال، المصدر السابق، ج 2، ص 299، الهامش 21.

3- يسمى باب العدير.

ينظر: مارمول كاربخال، المصدر نفسه، ج 2، ص 299، الهامش 22.

4- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 20.

ينظر كذلك: مارمول كاربخال، المصدر السابق، ج 2، ص 299.

5- مختار حساني، الحواضر... المرجع السابق، ج 4، ص 14.

## ب- الأمراء:

كانت الإمارة<sup>(1)</sup> في القديم تتمثل في قيادة الجيش أو ناحية الدولة، و صاحبها الأمير الذي هو ابن الملك، و لعل أمير الإدارية مأخوذة من الإمارة الحربية، فالأمراء في عهد الرسول ﷺ، هم الولاة على البلاد و القضاء و الصدقات و الحج<sup>(2)</sup>، و عن الإمارة قال الرحالة المغربي ابن بطوطة: «أما الوزارة فميراثي... و أما الإمارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب.»<sup>(3)</sup>، و يبدو أن الإمارة عند العرب قد ركزت على العصبية القبلية من أجل ضمان استمرار الدول التي أنشأوها في شكل نظام وراثي.

كان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرُّحْل التي تنتقل في الصحراء الكبرى، بحثا عن الماء و الكلاء و المراعي، ثم ساعدتهم الظروف و الأحوال التي مرَّ بها المغرب على الاستقرار و تكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريبا، و استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة و أصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط<sup>(4)</sup>، و قد اتخذ يغمراسن بن زيان لقب أمير في عهد الموحدين<sup>(5)</sup>، و كان أول عمل سياسي قام به أن أعلن استقلال قبيلته بالحكم، مع الاعتراف الرمزي بالخلافة الموحدية، فتأسست بذلك الإمارة العبد الوادية<sup>(6)</sup> كما اتخذ أمراء بنو عبد الواد لقب «أمير المؤمنين»<sup>(7)</sup> اقتداء بعظمة ملوك الإسلام و أصبحوا يقلدون كبار الخلفاء في زيهم و معيشتهم و نظام حكومتهم<sup>(8)</sup>، فتفننوا في بناء القصور و زخرفتها بما يليق بمكانتهم كونهم على هرم السلطة السياسية في الدولة الزيانية.

ج- الوزارة<sup>(9)</sup>:

جاء في مقدمة عبد الرحمن بن خلدون أن: «الوزارة، هي أم الخطط السلطانية و الرتب الملوكية، لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة أو من الوزر و هو النقل كأن يحمل مع مفاعله أوزاره و أثقاله وهو راجع إلى المعاونة المطلقة»<sup>(10)</sup>، لأن الوزير يتحمل أعباء الحكم و أثقاله<sup>(11)</sup>، و كان اختيار الوزير في عهد بني زيان خاضع شروط في مقدمتها الثقة<sup>(12)</sup> التي يطمئن بها السلطان في أداء وزيره و ولائه له.

1- الإمارة: الإمارة اليوم معناها المملكة و الدولة، و منها الأمير الذي هو ابن الملك، و في القديم الإمارة هي قيادة الجيوش أو ناحية الدولة، و صاحبها هو الأمير. ينظر: إسماعيل سامعي، معالم الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 87.

2- المرجع نفسه، ص 87

3- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 340.

4- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ج 2، ص 541.

5- عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، المصدر السابق، ج 7، ص 249. ينظر كذلك: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 7

6- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو...، المرجع السابق، ص 13.

7-

8- عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 219

9- الوزير: حياً الملك الذي يحمل ثقله و يعينه برأيه وقد استوزره وحالته الوزارة.

ينظر: ابن منظور الإفريقي المصري، المصدر السابق، ج 5، ص 283.

10- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة...، المصدر السابق، ص 270.

11- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ص 30.

12- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 127

اتخذ أمراء بني زيان الوزراء و جعلوهم اثنين: الأول صاحب السيف<sup>(1)</sup> و الثاني صاحب القلم<sup>(2)</sup>، وقد اجتمعت هاتان الوظيفتان في وظيفة واحدة في آخر أيام بني زيان، و أطلق على صاحبها لفظ المزوال<sup>(3)</sup>، و نجد الحسن الوزان يذكر لفظ «المزوار» قائلاً: «فالشخصية الأولى هو نائب الملك المزوار الذي يحدد الأجور حسب قدر كل واحد و استحقاقه، و يرأس الجيوش و يقودها أحياناً ضد العدو فتخضع له مثلما تخضع للملك»<sup>(4)</sup>، و يعتبر صاحب الأشغال وزيراً للمالية<sup>(5)</sup> يحاسب و يستخلص الأموال، و كان للوزير في عهد الدولة الزيانية دور هام في الحياة السياسية.

وصف الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته دولة بني زيان: «مدينة تلمسان ملك بني عبد الواد و مملكتهم من زمان قديم من جدهم يغمراسن و أبي سعيد أحرار بقية من آل حمير و ملوك التبابع تبعات اليمين، ملوك بني عبد الواد نذكر منهم في الفضل و الإحسان الملك أبو تاشفين الأول كان له دولة و إنعام، و سعادة جملة دهور و سنين و شهور و أعوام و دامت عليه دولة تمهيد في البلاد و قهر للرعية و العباد، و كان في خدمتها وزارات و إمارات و قياد مثل القايد هلال<sup>(6)</sup> و غيره من القايد...»<sup>(7)</sup>

د- الكتابة:

يقول عبد الرحمن بن خلدون: «أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية و هو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان»<sup>(8)</sup> ويقول الحسن الوزان (ليون الإفريقي) عن الكاتب: «و الشخصية الثانية هو كبير الكتاب الذي يحرر الرسائل و الأجوبة باسم الملك»<sup>(9)</sup> و كان من أكبر دواوين الدولة الزيانية «ديوان الإنشاء» المكلف بالمراسلات العامة، لذا كانت وظيفة الكتابة ضرورة لتنظيم الأمور السياسية و الإدارية للدولة الزيانية.

- 1- صاحب السيف: يرجع إليه أمر الجيش من تجنيده و تسييره و نظامه و إطلاق سبيله. ينظر: عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 219 من أشهر رجال السيف لدولة بني زيان: هلال القطلوني و موسى بن علي الكردي و يحي بن موسى السنوسي و عبد الله بن مسلم الزردالي و بنو مقن. ينظر: مبارك بن محمد الملي، المرجع السابق، ج 2، ص 451.
- 2- صاحب القلم: هو رئيس الإدارة المدنية و وكيل شرطة المملكة و من مشاهير رجال القلم أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب و محمد بن عمر بن خميس و يحي بن خلدون. ينظر: عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 219
- 3- المزوار أو المزوال: معناه المقدم على الجنادة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامر و تصريف عقوباته و إنزال سطواته و حفظ المعتقلين في سجونهم و العريف عليهم في ذلك فالباب له و أخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه فكأنها وزارة صغرى. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة...، المصدر السابق، ص 275. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 22
- 4- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 22. ينظر كذلك: مارمول كاريخال، المصدر السابق، ج 2، ص 301.
- 5- عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 219. ينظر كذلك: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 22
- 6- القايد هلال: أصله فارسي من سبي النصارى القطلونيين أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن و صار إلى السلطان أبي حمو فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالى الأعلاج و نشأ معه تزيماً.
- ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، الهامش 160، ص 92.
- 7- المصدر نفسه، ص 92.
- 8- نفسه، ص 417
- 9- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 22

كان الكاتب يعرض على السلطان كل يوم ما ورد من الرسائل و يتلقى أوامره بالجواب عنها<sup>(1)</sup>، و قد تحدث عبد الرحمن بن خلدون في رحلته عن الكتب السلطانية قائلا: «و تأدت إليّ هذه الكتب السلطانية على يد سفير من وزرائه، جاء إلى أشياخ الذواودة في هذا الغرض، فقمت له في ذلك أحسن مقام، وشايعته أحسن مشايعة، وحملتهم على إجابة داعي السلطان، و البدار إلى خدمته. وانحرف كبراًؤهم عن خدمة السلطان أبي العباس إلى خدمته، و الاعتمال في مذاهبه، واستقام غرضه من ذلك، و كان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله، و قدم عليّ ببسكرة، فبعثته إلى السلطان أبي حمو كالنائب عني في الوظيفة، متفادياً عن تجشّم أهوالها، بما كنت نزعته عن غواية الرتب. و طال عليّ إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، و بعثت الهمة على المطالعة و التدريس، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك، ودفعه إليه.»<sup>(2)</sup>، و يضيف «و وصلني مع هذه الكتب السلطانية كتاب رسالة من الوزير أبي عبد الله بن الخطيب من غرناطة يتشوق إليّ، و تأدى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر...»<sup>(3)</sup>

### هـ - الحجابة:

الحاجب هو صاحب الباب يأذن بالدخول للسلطان، و هو متولي السلطان الخاص و مدير تشريفاته و رئيس جنده عند الحرب يذهب بها إلى القتال، و صاحب هذه الوظيفة ينال شرفاً أسمى بالانتساب إليها و هو مقدم على سائر الخاصة لملازمته السلطان و دالته عليه و أخذه برأيه<sup>(4)</sup>، و قد خصّ الزيانيون اسم الحاجب، المنفذ الخاص بالسلطان في داره<sup>(5)</sup>، و كان اختيار الحاجب على العموم خاضع لشروط منها الولاء للسلطان و أن يكون صاحب ثقافة و علم.

و عن الحجابة يقول عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «و معنى الحجابة - في دولنا بالمغرب - الاستقلال بالدولة، و الوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد»<sup>(6)</sup>، و يضيف أيضاً قائلاً: «و كانت خطة الحجابة بابنا العليّ - أسماء الله - أكبر درجات أمثالك، و أرفع الخطط لنظرائكم، قريباً منّا، و اختصاصاً بمقامنا، و اطلاقاً على خفايا أسرارنا. أثرتناكم بها إيثارا، و قدّمناكم لها اصطفاء و اختياراً، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العليّ، أسماء الله، لما لكم فيه من التّويه، و القدر النّبيه، حاجباً لعلّي بابنا، و مستودعاً لأسرارنا، وصاحب الكريمة علامتنا، إلى ما يشاكل ذلك من الإنعام العميم، و الخير الجسيم، و الاعتناء و التكريم. لا يشارككم مشارك في ذلك، و لا يزاكم أحد، و إن وجد من أمثالك فاعلموه، و عولوا عليه، و الله تعالى يتولاكم، و يصل سرّاءكم، و يوالي احتفاءكم. و السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»<sup>(1)</sup>

1- مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج 2، ص 451.

2- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 99.

3- المصدر نفسه، ص 99.

4- عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 219.

5- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة...، المصدر نفسه، ص 275.

6- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 94-95.

1- المصدر نفسه، ص 99.

أرسل أبو حمو موسى بن عبد الرحمن سلطان تلمسان صهر أمير بجاية المقتول الأمير أبا عبد الله محمد، إلى ابن خلدون تقليداً بالحجاية، ذيله بخط يده<sup>(1)</sup> بما نصه: «الحمد لله على ما أنعم، و الشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرّم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله، على أنّك تصل إلى مقامنا الكريم، لما اختصاصناكم به من الرتبة المنيعة، و المنزلة الرفيعة، و هو قلمُ خلافتنا، و الانتظام في سلك أوليائنا، أعلمناكم بذلك. و كتب بخط يده عبد الله، المتوكل على الله، موسى بن يوسف لطف الله به و خاز له.»<sup>(2)</sup>، فأعتر عبد الرحمن بن خلدون عنها، حيث تملكته رغبة في الاعتكاف طلباً للعلم و الدرس و القراءة و الإعراض عن ميدان السياسة و الخدمات السلطانية. و رغم رفض ابن خلدون تولي الحجاية لأمير تلمسان، إلا أنه أخذ في شحذ هم القبائل لنصرته، غير أن أبا حمو انهزم أمام خصومه سنة 771 هـ.<sup>(3)</sup>، و قد يكون عبد الرحمن بن خلدون سئم من فتن الأحوال السياسية التي كان يعيشها المغرب الإسلامي آنذاك.

تحدث الحسن الوزان (ليون الإفريقي) عن مهمة الحاجب: «و الحاجب الأعظم الذي لا عمل له إلا عندما يستقبل الملك أحدا»<sup>(4)</sup>. و كان الحاجب في مأمّن من المراقبة لثقة السلطان به، فله الحرية في الحركة و التصرف بقصره<sup>(5)</sup>، و بذلك تبوأ الحاجب مكانة مرموقة في القصر الزياني، و أصبح من حاشية السلطان و رجال الدولة.

1- خالد عزب و محمد السيد حمدي، مع ابن خلدون في رحلته، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2011، ص 52.

2- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 98

3- خالد عزب و محمد السيد حمدي، المرجع نفسه، ص 52.

4- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 22

5- نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، المرجع السابق، ص 70

## المبحث الرابع: النظام القضائي

## المطلب الأول: القضاء

القضاء لغة هو الحتم و الأمر، و قضى أي حكم و منه القضاء و القدر، يقال قضى يقضي قضاء فهو قاض إذا حكم وفصل<sup>(1)</sup>، و في الاصطلاح هو منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي، و قطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المستقاة من الكتاب و السنة<sup>(2)</sup>، فكانت وظيفة القضاء<sup>(3)</sup> من أخطر المناصب، فمنصب القاضي<sup>(4)</sup> يلي منصب السلطان أو الأمير مباشرة<sup>(5)</sup>، فقد ورد في نوازل الونشريسي أن: «من تولى القضاء، ابتلي بعظيم البلاء»<sup>(6)</sup> لذا قال عنه ابن خلدون: «أما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات... إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب و السنة»<sup>(7)</sup>، و كان اختيار القاضي في عهد الدولة الزيانية خاضع لشروط منها العدالة و العلم.

كان القضاء في الدولة الزيانية على ثلاث مراتب: قاضي الجماعة و قاضي الحضرة<sup>(8)</sup> و قاضي العساكر<sup>(9)</sup>، و من قضاة تلمسان الذين ذكرهم عبد الرحمن بن خلدون في رحلته القاضي محمد بن غلبون<sup>(10)</sup>، كما عرفت مدينة تلمسان قضاة آخرون منهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد النور، قال عنه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «و منهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور، من أعمال ندرومة، و نسبه في صنهاجة كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس، تفقه فيه على الآخوين أبي زيد، و أبي موسى ابني الإمام، و كان من جلة أصحابهما.»<sup>(11)</sup>

تولى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور القضاء بمدينة فاس و منصب قاضي عسكر أبي الحسن المريني<sup>(12)</sup> نظراً لخبرته و حنثه في القضاء، و تولى قضاة آخرون قضاء الحضرة في تلمسان. ذكر الحسن الوزان في كتابه «وصف إفريقيا» أنه كان بمدينة تلمسان: «قضاة و محامون و عدد كبير من العدول يتدخلون في الدعاوى»<sup>(1)</sup>.

- 1- ابن منظور الإفريقي المصري محمد بن مكرم، المصدر السابق، ج 15، ص 186
- 2- إسماعيل سامعي، معالم... المرجع السابق، ص 102
- 3- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة... المصدر السابق، ص 199.
- 4- العبدري، المصدر السابق، ص 25
- 5- إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 107
- 6- أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المصدر السابق، ج 10، ص 76
- 7- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة... المصدر السابق، ص 252.
- 8- قاضي الجماعة: و هو رئيس القضاة. أما قاضي الحضرة: و هو قاضي دائرة الأمير خاصة و المكلف بالقصر السلطاني. تولى أبو عبد محمد المقرري منصب قاضي الجماعة بفاس. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة... المصدر السابق، ص 67.
- 9- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة... المصدر السابق، ص 55.
- 10- المصدر نفسه، ص 49
- 11- نفسه، ص 58.
- 12- أحمد بابا التتبيكتي، المصدر السابق، ص 405.
- 1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 20. ينظر كذلك: مارمول كاريخال، المصدر السابق، ج 2، ص 299.

## المطلب الثاني: الوظائف القضائية

## أ- الحسبة:

الحسبة لغة مصدر احتسابك الأجر على الله تقول، فعلته حسبة و احتسب فيه احتساباً، و الاحتساب طلب الأجر والاسم الحسبة<sup>(1)</sup>، أما اصطلاحاً هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، و نهي عن المنكر إذا ظهر فعله<sup>(2)</sup>، و يقول فيها عبد الرحمن بن خلدون: «هي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه و يتخذ الأعوان على ذلك و يبحث عن المنكرات، و يعزر و يؤدب على قدرها و يحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات و منع الحمالين و أهل السفن من الإكثار في الحمل، و الحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها و إزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة و الضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين»<sup>(3)</sup> و المحتسب هو متولي الحسبة التي هي الشرطة البلدية<sup>(4)</sup>، فنظام الحسبة في مدينة تلمسان خلال العهد الزياني كان قائماً في مثل غيرها من عواصم بلاد المغرب و من آثار الحسبة في مدينة تلمسان، دونة الفقيه قاسم بن سعيد العقباتي<sup>(5)</sup> عن غش الخبازين لرغيفهم بتلمسان، و كشف أيضاً عن بعض العادات السيئة التي كان يمارسها بعض الجزائريين في غش اللحم<sup>(6)</sup>، و كانت وظيفة المحتسب مراقبة الحياة اليومية للمجتمع الزياني.

ب- الحافظ: هو والي المدينة و شيخها يرتقب شؤونها و يدير أمورها الإدارية، و يتفقد أشغالها العامة و يرأس شرطتها<sup>(7)</sup>، بالإضافة إلى وظائف أخرى أقل أهمية ذكر منها الحسن الوزان (ليون الإفريقي): «قائد الإسطبلات و قائد السيفين»<sup>(8)</sup>

1- ابن منظور الإفريقي المصري محمد بن مكرم، المصدر السابق، ج 1، ص 314

2- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، المصدر السابق، ص 315.

3- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة...، المصدر السابق، ص 257.

ينظر كذلك: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 146

4- عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 220

5- قاسم بن سعيد العقباتي: الإمام أبو الفضل أبو القاسم، ولي القضاء بتلمسان في صغره و قاضي الجماعة بها (ت 854 هـ / 1450 م).

ينظر: أحمد بابا التتكتي، المرجع السابق، ص 365.

ينظر كذلك: المقري، المصدر السابق، ج 2، ص 1172

العزیز فيلالی، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 228-229

6- عبد العزيز فيلالی، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 228-229

7- عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 220

8- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 22 - 23

## المبحث الخامس: الجيش والتحصينات المطلب الأول: عناية الزيانيين بالجيش أ- الأسلحة

اعتنى بنو زيان اعتناء زائداً بتقليد الممالك الكبرى، لذلك على ما يبدو أن حكومة تلمسان لا تبعد في شكلها عن حكومة تونس الحفصية أو حكومة بني مرين<sup>(1)</sup>، و كان الفارس يتجهز من تلمسان<sup>(2)</sup> بأسلحة كثيرة و متنوعة التي ذكر ابن الحاج النميري أسلحة الجيش المريني<sup>(3)</sup> منها، الأنفاط<sup>(4)</sup> و المنجنيق لهدم الأسوار و التحصينات الدفاعية، و ربما كانت أسلحة الجيش الزياني مشابهة لأسلحة الجيش المريني، و على العموم كانت الأسلحة تتطور باستمرار مع الزمن بما في ذلك الأساطيل البحرية.

### ب- أقسام الجيش

كان للدولة الزيانية جند مؤلف من أربعة أقسام، تستعين بهم في حروبها و تتعاون أقسامه بعضها البعض، فكان القسم الأول و هم من وجوه القبائل، و منهم قواد بقية الأقسام، و الثاني القبيل، و هم بنو عبد الواد قرابة السلطان، و رئيس فرقته يدعى شيخا، و الثالث الأنصار، و هم نخبة من الجند يكونون محققين بالسلطان في الحرب، و الرابع المماليك، و هم أخلاط من السودان و العلوج<sup>(5)</sup>، و قد تحدث المدجن الحاج عبد الله بن الصباح عن العلوج في تلمسان فقال في رحلته: «لحقت في زمني هذا علجا من علوج أبي تاشفين الأول من ملوك بني عبد الوادي.... و كان اسم العلج البلغاري باسم العجم و كان العلج المذكور من مخاصي الجواري التي كانت إلى أبي تاشفين حتى كان يحكى أنه دخل على مولاه يوما من الأيام فرأى في مرتبته مثل شجرة مرصعة بالجوهر<sup>(6)</sup> و قد حى كثير من الناس مثله.»<sup>(7)</sup>

استعان الجيش الزياني بالعلوج لخبرتهم القتالية، و كان تجنيدهم يخضع لشروط منها الثقة و الولاء للقصر الزياني و التعهد بعدم الخيانة التي كان الحكم فيها على صاحبها بالإعدام. و يبدو أن ظاهرة الاستعانة بالعلوج كانت موجودة بنفس الصفة تقريبا عند الزيانيين و المرينيين و الحفصيين.

1- عثمان الكعك، المرجع نفسه، ص 220

2- ابن سعيد المغربي علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ج2، دار المعارف، الطبعة 04، دون تاريخ، ص 246.

3- المصدر نفسه، ص 107.

4- الأنفاط: وهي من الآلات النارية التي ترمى بها الحصون والأسوار وهي كالمدافع.

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، ج 5، المصدر السابق، ص 520.

ينظر كذلك: نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، المرجع السابق، ص 86

5- العلوج: و هم الجند الإفرنجي. ينظر: عثمان الكعك، المرجع نفسه، ص 220.

ذكر ابن خلدون في العبر بعض أسماء هؤلاء الأعلاج فمنهم هلال المذكور و مسامح المسمى بالصغير و فرج و ظافر و مهدي و علي و فرج

الملقب بشقورة. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، ج7، المصدر السابق، ص 139-140

ينظر كذلك: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 93، الهامش 162.

6- يقول التنسي في نظم الدر و العقيان في كلامه على أبي تاشفين: «و كانت عنده شجرة من فضة على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة، و أعلاها صقر. فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة، و بلغ الريح مواضع الطيور، صوتت بمنطقها المعلوم لمشاهاها. فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها. ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 141.

7- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 93-94.

كان للعلوج دور في المعارك و تقوية و دعم الجيش الزياني و يبدو ذلك من خلال قول الحاج عبد الله بن الصباح صاحب الرحلة: «و كانت دولته [أبو تاشفين الأول] عظيمة لم يصلها ملك من ملوك بني عبد الواد إلا الملك المذكور و الفارس المشهور صاحب الرياضة و الإدارة و الفتق و الرنق و السياسة و الفطنة و الحذق و الحذار الملك أبو حمو<sup>(1)</sup> والد هؤلاء الأولاد و المذكورة و الفوارس المشهورة و أولاد، كثرة لا أحصيهم و لكن نذكر منهم المشهورين: أبو تاشفين عبد الرحمان و بعده الملك أبو زيان و الملك عبد الله ثم بعدهم الملك محمد أبو ملك الزمان و العدل و الإحسان أدام الله دولته و خلد مله بالعدل و الجود و الكرم ما دامت الليالي و الدهور و الخطاب يطول في فضل ملوك بني عبد الواد...»<sup>(2)</sup>

كان لكل قسم من الجيش رايات يمتاز بها<sup>(3)</sup>، و القواد يلبسون أزياء متميزة<sup>(4)</sup>، و كان الجيش الزياني مقسم إلى مقدمة أمام السلطان<sup>(5)</sup> أو أمير الجند<sup>(6)</sup> و ميمنة عن يمينه و ميسرة عن يساره و ساقية يكون السلطان فيهم و يسمون أيضا قلبا، ومنهم من يجعل الأقسام خمسة و يباين بين القلب و الساقية، فسمي جيشا خماسيا<sup>(7)</sup>، و قد اعتنى بنو زيان اعتناء زائدا بتقليد الممالك الكبرى<sup>(8)</sup>، و استطاع الزيانيون أن يشكلوا جيشاً منظماً في المعارك التي داق فيها حلاوة الانتصار و مرارة الانهزام، فاهتمام سلاطين بني زيان بالجيش كان شغلهم الشاغل و ضرورة لابد منها لاستمرار الدولة و حمايتها من الأعداء.

### ج- الأسوار:

أحيطت مدينة تلمسان في العهد الزياني بعدة أسوار متينة شاهقة، جميلة المنظر، مبنية بناءً جيداً و محصنة تحصينا قويا بلغ عددها في بعض جهاتها، نحو سبعة أسوار و لعلها كانت مضعفة و متباعدة عن بعضها بمسافات قصيرة في حدودها الخارجية، و كانت هذه الأسوار مبنية في بعض الجهات، بالأجر و في جهات أخرى كان أساس السور من الخجر الصلب، و في بعض الجهات بُني بالرمل و الطين و الكلس المدكوك<sup>(9)</sup>، وقد أعجب الرحالة المغاربة و الأندلسيين بأسوار مدينة تلمسان منهم العبدري الذي وصفها بقوله: «بأن أسوارها أوثق الأسوار و أصحها»<sup>(1)</sup>، و وصفها صاحب الروض المعطار: «و لها (تلمسان) سور متقن الوثيقة...»<sup>(2)</sup>

1- المقصود به موسى أبو حمو الثاني الذي حكم من سنة 760 هـ إلى سنة 791 هـ و توفي سنة 795 هـ.

ينظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 126 - 132. الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 93 - 94.

2- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 93 - 94.

3- مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج 2، ص 450. ينظر: عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 132.

4- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 106.

5- مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج 2، ص 450.

6- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 169.

7- مبارك بن محمد المليي، المرجع السابق، ج 2، ص 450.

8- عثمان الكعاك، المرجع نفسه، ص 220.

9- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 111.

1- العبدري، المصدر السابق، ص 49.

2- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

كان يحيط بتلمسان سوران أي سور داخلي و سور خارجي و كانت المسافة بين السورين لا تقل عن ثلاثة مائة متر، و لم يكن بيان بالمساحة التي بين السورين إلا الأبراج المعدة لمقاومة العدو و الدفاع عن المدينة حين حصاره لها<sup>(1)</sup>، و وصفها الحسن الوزان: «أسوار في غاية الارتفاع و القوة...»<sup>(2)</sup>، و يبدو أن هذا الأسلوب الدفاعي انتشر في كثير من بلاد المغرب، منها مدينة الجزائر التي قال عنها العبدري: «... و سور معجز وثيق و أبواب محكمة العمل، يسرح الطرف بها حتى يمل...»<sup>(3)</sup>، و قال ابن سعيد المغربي عن مدينة بجاية: «أرضها حصينة»<sup>(4)</sup>، أما الرحالة المغربي العبدري قال عن بجاية: «و هي مدينة كبيرة حصينة شهيرة، برية بحرية، سنية سرية، وثيقة البنيان، عجيبية الإيقان، رفيعة المباني، غريبة المعاني، موضوعة في سفح جبل وعر، مقطوعة بنهر و بحر، مشرفة عليهما إشراف الطليعة، متحصنة بهما منيعة، فلا مطعم فيها لمحارب و لا متسع بها لطاعن و ضارب»<sup>(5)</sup>، فكان الهدف من هذه الأسوار هو الدفاع عن المدينة و قهر العدو و مراقبته على مسافات بعيدة من المدينة المحصنة.

#### د- الخنادق:

أحيطت مدينة تلمسان بخندق عميق من الجهة الجنوبية من موازاة وادي متشكانة الذي يلتف حول المدينة من الناحية الجنوبية الشرقية<sup>(6)</sup>، و كان حفر الخنادق يستدعي وقتاً طويلاً و جهداً كبيراً و أموالاً طائلة. و ما يشار إليه أن حفر الخنادق استراتيجية حربية اتبعتها الشعوب القديمة، و طبقها الرسول محمد ﷺ شمال المدينة المنورة.

#### هـ- الأبواب:

كانت تلمسان تحتوي على مجموعة من الأبواب ذكرها الرحالة و الجغرافيون منهم البكري خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي فيرى أن أبوابها خمسة<sup>(7)</sup>، و يبدو أن صاحب الروض المعطار نقلها عن البكري بقوله: «و لها (تلمسان) خمسة أبواب، ثلاثة منها في القبلة: باب الحمام و باب وهيب، و باب الخوخة، و في الشرق باب العقبة و في الغرب باب أبي قرّة»<sup>(8)</sup>، و حتى مرمول كرخال حدد عدد أبوابها بقوله: «لها خمسة أبواب رئيسة، في كل واحد منها مراكز حراسة...»<sup>(1)</sup>، لكن عدد أبواب مدينة تلمسان وقع فيه اختلاف، و لعل الاختلاف في توزيع الأبواب و ربما حصي عددها يعود إلى الاختلاف في الفترة التاريخية بين المؤلفين<sup>(2)</sup>، بما فيهم الرحالة المغاربة و الأندلسيين، و قد عرفت

1- الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ج 1، ديوان المطبوعات الجامعية، 2011، ص 161.

2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 114

3- العبدري، المصدر السابق، ص 82.

4- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 142.

5- العبدري، المصدر السابق، ص 82 - 83

6- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 114

7- أبو عبيد البكري، المسالك و الممالك، المصدر نفسه، ص 172.

8- محمد بن عبد المنعم الجُميري، المصدر السابق، ص 135.

1- مرمول كرخال، المصدر السابق، ج 2، ص 299. ينظر كذلك: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 114.

2- مختار حساني، الحواضر...، المرجع السابق، ج 4، ص 17.

تطورات مدينة تلمسان عاصمة دولة بني زيان تطورات في مجالات كثيرة، منها الجانب المعماري شبيه بمدن المغرب الأوسط كمدينة فاس عبر عنه الحسن الوزان في كتابه «وصف إفريقيا».

اشتهرت تلمسان الزيانية بتعدد أبوابها، حيث قال الملك أبو الفداء في كتابه «تقويم البلدان»: «لتلمسان ثلاثة عشر باب مدينة»، فأبو الفداء لم يزر بلاد المغرب و لا تلمسان و إنما كان يستقي الأخبار من غيره<sup>(1)</sup>، غير أن كُتِب الرحالة و الجغرافيين و المؤرخين أجمعت على أنه كان بتلمسان خمس أبواب، منهم يحيى بن خلدون حيث قال: «و لها خمسة أبواب قبلة باب الجياد و شرقاً باب العقبة و شمالاً باب الحلوي و باب القرمدين و غرباً باب كشوط، و هي مؤلفة من مدينتين ضمها الآن سور واحد.»<sup>(2)</sup>، و يبدو أن أحجام هذه الأبواب كانت مختلفة فمنها الكبيرة و الصغيرة، و وُجِدَت في جهات مختلفة من المدينة.

شملت مدينة تلمسان على خمسة أبواب رئيسة واسعة، شيدت على جانبي كل واحد منها مراكز حراسة بمثابة أبراج صغيرة، مربعة الشكل لمراقبة الضواحي و الأماكن المجاورة و الداخلين إلى المدينة و الخارجين منها باستمرار، و أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها الموظفون و الحراس، و المكاسون من الرجال، و أنشئت بالقرب منها دور لمزارعي المداخل، و قد أسست هذه الأبواب بعد دمج المدينتين، و إحاطتهما بالأسوار المتعددة، و كانت مصفحة بالحديد، و مدعومة بالحصون القوية يصعب اختراقهما، و لها مصاريع حديدية تغلق بها، و هذه الأبواب<sup>(3)</sup> هي:

باب العقبة: يقع شرق المدينة، و هو الباب القديم الذي يعود إلى مدينة أغادير، بني بحجارة من بقايا الرومان.

باب سيدي الحلوي: يقع في شمال المدينة، عُرِف بأسماء عديدة منها: باب الزاوية نسبة إلى زاوية سيدي الحلوي، و باب علي.

باب القرمادين: يقع في الشمال الغربي من تلمسان، و يعتبر الحصن الدفاعي الأساسي، الذي يحمي مدخل المدينة، و يبدو أنه كان يوجد بالقرب من باب أفران لصناعة الفخار، و الآجر، و القرميد، و لهذا سُمي بباب القرمادين.

باب كشوط<sup>(1)</sup>: يقع في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، و معناه (باب الاكشاك (جمع كشك)، أصبح يُعرف فيما بعد، باب فاس. أمر بينائه يغمراسن بن زيان و تحصينه بأبراج و أسوار عالية.

باب الجياد<sup>(2)</sup>: يقع في الجهة الجنوبية من المدينة، لكن الأسماء القديمة لأبواب مدينة أغادير العتيقة، قد تغيرت و حذف بعضها عندما اندمجت المدينتان (أغادير و تاجرارت)، أو تلمسان القديمة و تلمسان

1- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ج 1، ص 161.

2- يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص ص 19 - 20.

3- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص ص 112 - 113. ينظر الملحق رقم (05) ص 290.

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 107.

2- نفسه، ص 105.

العليا، و لا سيما من الناحية الجنوبية التي كانت تحتوي على ثلاثة أبواب كاملة، فصار باب واحد فقط، و اختفى البابان المتبقيان، ثم أضيف للمدينة بابان جديان من جهة الشمال و الشمال الغربي قد تكون لأسباب استراتيجية و أمنية، و لم يبق من الأبواب القديمة إلا باب العقبة في الشرق. قال ابن الحاج النميري في رحلته عن باب الجياد لما استولى السلطان أبي عنان المريني على تلمسان: «و كم اختالت بباب الجياد جياده»<sup>(1)</sup>

### و- الحصون:

عمد بنو زيان إلى بناء الحصون من بينها حصن بكر<sup>(2)</sup> الذي شُيِّد بالقرب من مدينة بجاية و حصن الياقوتة في أعلى الوادي المؤدي إلى مدينة بجاية. و من أبرز الحصون التي أقامها الزيانيون تمزردكت<sup>(3)</sup> التي شيدت في الموقع المعروف اليوم بسوق الخميس بالقرب من مدينة القصر، لكنها خُربت من طرف الحفصيين بمساعدة بني مرين<sup>(4)</sup>، بينما الحسن الوزان يذكر بأنه حصن موجود بين بين صحراء أنكاد و ناحية تلمسان، شُيِّد قديماً على صخرة<sup>(5)</sup>.

و عن أسباب بناء قلعة تمزردكت، أنه بعد تولي أبي تاشفين عبد الرحمن السلطة أصرَّ على الاستيلاء على بجاية و قسنطينة، فقام بحملات عديدة الواحدة تلو الأخرى في السنة الواحدة، و لكن بجاية استعصت عليه في كل مرّة لمناعتها و حصانتها الطبيعية، ففكر في تجمير الكتائب عليها و الاستمرار في حصارها، علم أنه لن يتأتى له ذلك إلا باستقرار جيوشه بقربها، ففكّر في بناء قلعة بجوارها، فبني هذا الحصن أو القلعة مرتين عند حصار جيوشه لبجاية، و ذلك سنة 720 هـ / 1320 م، و هذا بعد أن أدرك بأن حصن بكر الذي بناه بوقت قصير قبل ذلك لا يتسع للعدد الكبير من جنوده الذين زاد عددهم عن 3200 فارساً أعدمهم لمحاصرة بجاية<sup>(6)</sup>. و قد لفت انتباه الرحالة المغاربة و الأندلسيين الحصون التي شيدها بنو زيان في تلمسان و ضواحيها، و ذكر صاحب الروض المعطار أنه كان بهنين حصن<sup>(1)</sup>، و من حصون تلمسان تانكرمت قال صاحب الروض المعطر: «حصن على الساحل من حصون تلمسان، ولهم مزارع واسعة و بسائط خصيبة»<sup>(2)</sup>، و يبدو أن هذا الحصن كان بعيداً عن تلمسان.

1- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 488.

2- حصن بكر من بين الحصون التي استعملت من قبل بني زيان لمحاصرة بجاية خلال عهد السلطانين أبو حمو الأول و أبو تاشفين الأول. ينظر: مختار حساني، الحواضر...، المرجع السابق، ج 4، الهامش 2، ص 17.

3- تمزردكت: يبدو أن أصل الكلمة بربرية، و تعني الطهارة و النظافة. و يفهم منها أقيمت في الأصل لتكون حصناً لتطهير بجاية العاصمة من الحفصيين و أتباعهم.

ينظر: عزوق عبد الكريم، "تمزردكت قلعة حصار زيانية على أبواب بجاية"، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني و المعماري، ج 1، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011، ص 91.

4- مختار حساني، الحواضر...، ج 4، المرجع نفسه، ص 17.

5- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 11 - 12.

6- عزوق عبد الكريم، المرجع السابق، ص 92.

1- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

2- نفسه، ص 128.

## ز- القلاع:

بُنيت القلاع حول تلمسان لمراقبة و حراسة المدينة و ما حولها على مسافات بعيدة، خاصة منها تحركات الأعداء، و كان الهدف منها أيضا الإشعار بالخطر و من تم تعبئة الجيش الزياني و المتطوعين لمواجهته. و من القلاع التي ورد ذكرها في كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين «قلعة ابن الجاهل»، قال عنها عبد المنعم الحميري: «و في الجنوب من تلمسان قلعة ابن الجاهل و هي قلعة منيعة كثيرة الثمار و الأنهار و يتصل بها جبل تارني و هو و ما يليه جبال مصمودة، و هو جبل كبير معمور فيه القرى الكثيرة و العمائر المتصلة.»<sup>(1)</sup>

## الفصل الثاني

الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في تلمسان من خلال كتب الرحالة  
والجغرافيين المغاربة والأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ  
(13 و 15 .)

## المبحث الأول: الأوضاع الاقتصادية

### المطلب الأول: الزراعة

- أ- المناخ
- ب- التضاريس
- ج- المياه
- د- الإنتاج الزراعي
- هـ- الإنتاج الحيواني

### المطلب الثاني: الصناعة

- أ- المواد الأولية وأهم الصناعات
- ب- المهن والحرف

### المطلب الثالث: التجارة

- أ- الطرق التجارية
- ب- اللصوصية
- ج- العلاقات التجارية
- د- الصادرات
- هـ- الواردات
- و- أساليب التعامل
- ز- الموانئ
- ح- المراكز التجارية
- ط - الواحات

- سجلماسته

- ورجلان

- فكيك

- تبلبلت

- توات

ي - السودان الغربي

- أودغست

- إيواتن

المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية

المطلب الأول: عناصر المجتمع

أ- قبائل البربر

ب- العرب

ج- الأندلسيون

د- عناصر أخرى

المطلب الثاني: طبقات المجتمع

أ- طبقة الحكام

ب- طبقة الفقهاء والعلماء

ج- طبقة التجار

د- طبقة الصناع وأصحاب الحرف

المطلب الثالث: أخلاق التلمسانيين وصفاتهم

تناولت في هذا الفصل الأحوال الاقتصادية و الاجتماعية في تلمسان من خلال كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م)، و قد خصصت المبحث الأول للأوضاع الاقتصادية، و قسمته إلى ثلاثة مطالب، ففي المطلب الأول تناولت الفلاحة من حيث المناخ، التضاريس و المياه، ثم تعرضت إلى الإنتاج النباتي و الحيواني.

أما المبحث الثاني تحدث فيه عن الصناعة و أحوالها بتلمسان، و قد قسمته إلى مطلبين، تناولت في الأول المواد الأولية و أهم الصناعات، أما في الثاني تعرضت فيه للمهن و الحرف في تلمسان.

أما المبحث الثالث فخصصته للتجارة، فذكرت في المطلب الأول الطرق التجارية خاصة تلك التي كانت تؤدي إلى تلمسان الزيانية، و في المطلب الثاني تناولت اللصوصية، خاصة عند اجتياز الرحالة المفازل و المسالك الصحراوية القاسية من حيث الطبيعة و الخطيرة من حيث وجود قطاع الطرق. و في المطلب الثالث تعرضت إلى العلاقات التجارية بين تلمسان و باقي أنحاء البلاد الأخرى، كما تعرضت في المطلب الرابع إلى أنواع الصادرات و في الخامس إلى أنواع الواردات، في المطلب السادس تناولت أساليب التعامل في التجارة منها، المقايضة و الاتجار بالملح في بعض الجهات منها السودان الغربي، و أشرت إلى أن التجارة بين تلمسان و السودان الغربي عرفت ازدهاراً كبيراً خاصة مع ظهور تجارة الذهب.

أما المطلب السابع فخصصته لموانئ تلمسان و الدولة الزيانية، فمنها ما قريب من تلمسان العاصمة الزيانية، كميناء هنين و أرشغول و مستغانم و وهران و منها ما كان بعيداً عنها مثل ميناء برشك و تنس و مازونة و جزائر بني مزغنى، و أوضحت دور هذه الموانئ في الحياة الاقتصادية للدولة في تلمسان و الدولة الزيانية من خلال الملاحة و ذلك بنقل البضائع و الأشخاص.

و في المطلب الثامن تناولت فيه المراكز التجارية البرية التي كان لها علاقات تجارية مع تلمسان الزيانية، و دور لها أيضاً دور كبير في اقتصاد الدولة الزيانية، مما جلب لها الرخاء لسكانها و ساهم في إنشاء مشاريع في تلمسان، و قد ذكرت من بين هذه المراكز: الواحات (سجلماسة، ورجلان، فكيك، تبلبلت، توات)، و من هذه الواحات كانت القوافل التجارية تتجه إلى أنحاء مختلفة من بلاد المغرب، و منها أيضاً إلى السودان الغربي مروراً بأودغست، و إيولاتن.

أما المبحث الثاني فقد خصصته للأوضاع الاجتماعية في تلمسان من خلال كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين، فتناولت في المطلب الأول منه عناصر المجتمع و ذكرت أهم القبائل و الأجناس التي كانت تقطن بتلمسان و ضواحيها، فمنها قبائل زناتة البربرية و العرب و الأندلسيون و عناصر أخرى مثل أهل الذمة من يهود و نصارى.

و تناولت في المطلب الثاني طبقات المجتمع، و منه طبقات الحكام، و طبقة الفقهاء و العلماء و طبقة التجار و طبقة الصناع و أصحاب الحرف، و حاولت أن أبرز مميزات كل طبقة عن الأخرى.

أما المطلب الثالث فخصصه لأخلاق التلمسانيين و صفاتهم، حيث نجد الكثير من الرحالة المغاربة و الأندلسيين اثنا على أخلاق أهل تلمسان، و منهم من وصف عاداتهم و ألبستهم.

**المبحث الأول: الأوضاع الاقتصادية:**

يعتبر الاقتصاد عصب الحياة بالنسبة لأي نظام سياسي ذلك أنه هو الذي يحدد مدى ثراء الدولة أو فقرها، و مما لا شك فيه أن الحياة الاقتصادية تستمد وجودها من إمكانيات اقتصادية تتماشى بها المؤسسات المختلفة في الدولة سواء فيما يتصل بالزراعة أو التجارة أو الصناعة.<sup>(1)</sup> و أول ما نتعرض له الزراعة باعتبارها قطاع حيوي ساهم في معيشة السكان و النشاط التجاري.

**المطلب الأول: الفلاحة:****أ- المناخ:**

تقع مدينة تلمسان في شمال الغربي للمغرب الأوسط، تحت سفوح الجبال، في مكان مائل نحو الغرب، في الإقليم الرابع من الأقاليم الفلكية السبع، و هو أكبر الأقاليم اعتدالاً في المناخ و أكثرها وفرة في المياه و النبات و الحيوان<sup>(2)</sup>، و قد تميزت تلمسان بمناخ بارد في فصل الشتاء و صيف حار جاف، لكن مناخها على العموم ساعدها على إنتاج محاصيل كثيرة و متنوعة.

ذكر ابن سعيد المغربي المجال الجغرافي لموقع مدينة تلمسان بقوله: «و من حد قسنطينة إلى بجاية مجالات رياح، و من غربي بجاية إلى تلمسان مجالات رحيبه»<sup>(3)</sup>، و يعني هذا أن إقليم المغرب الأوسط الذي كان يمتد من تخوم بجاية شرقاً إلى وادي ملوية غرباً تميز بنذرة الرياح التي كانت تتلف المحاصيل الزراعية، مما أنجر عنها نقص الإنتاج الزراعي.

تميزت مدينة تلمسان بمناخها جمالاً و خضرة قال عنه العبدري: «...و هذه المدينة بالجملة ذات منظرو مخبر، و أنظارها متسعة...»<sup>(4)</sup>، و قال عنها عبد الله ابن الصباح في رحلته: تلمسان «طيبة الماء و الهواء قابلة على كل غريب بالوسع...»<sup>(5)</sup>، و عن مواصفات الدولة الزيانية الطبيعة قال الحسن الوزان: «و يُكون معظم مملكة تلمسان أقاليم جافة قاحلة، لا سيما في جزئها الجنوبي، لكن السهول القريبة من الساحل منتجة جدا نظرا لخصبها و الجهة المجاورة لتلمسان كلها سهل مع بعض المفازات...»<sup>(6)</sup>، فبالرغم من ذلك كان المغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية يشهد بين الحين و الآخر فترات جفاف و مجاعات و أوبئة.

**ب- التضاريس:**

جمعت تلمسان بين الطابع السهلي و الجبلي أعطاهما منظراً جميلاً عبّر عنه الرحالة المغربي العبدري في رحلته بقوله: «و تلمسان مدينة كبيرة، سهلية جبلية، جميلة المنظر...»<sup>(7)</sup>، و حتى سفوح الجبال كانت تستغل هي الأخرى في إنتاج الحبوب غير أنها تتميز بقلة الإنتاج<sup>(8)</sup>

1- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 2، ص 11.

2-

Marçais Georges, Tlemcen, op.cit,p.31.

3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 145.

4- العبدري، المصدر نفسه، ص 49.

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 95.

6- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 10.

7- العبدري، المصدر السابق، ص 48.

8- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 2، ص 27.

و عن سهول نهر الصفصيف يقول ابن الحاج التُميري في رحلته عندما استولى السلطان المريني أبي عنان على تلمسان: «و أنحدر إلى جنات الصفصيف التي هي بهجة القلوب و نزهة العيون.»<sup>(1)</sup>، و قد قارن الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته جمال تلمسان و خضرتها بحواضر كبرى أيام زمانه قائلاً: «انطاكية بالشام و برصة قسطنطينية و غرناطة و شاطبة بالأندلس و تلمسان بالمغرب مثلُ في المياه و الخضرة و المنظر فيما بين الغرب و الشمال. وقد دخلت تلمسان فرأيت مدينة مناسبة منسب مدينة شاطبة منظرها شمالي غربي في حجر جبل ليس لها قبلي مثل مدينة شاطبة و مثل مدينة انطاكية و مثل برصة و مثل غرناطة»<sup>(2)</sup>، و من السهول التي كانت تابعة لتلمسان و بعيدة عنها سهل تسلة قال عنه الجغرافي الحسن الوزان: «سهل كبير يمتد على مسافة نحو عشرين ميلاً و ينبت قمحا جيدا جميل اللون غليظ الحب، يمكنه وحده أن يزود تلمسان بما تحتاجه من حبوب»<sup>(3)</sup> و غلّت زراعية أخرى.

كانت الدولة الزيانية تضم ثلاثة أقاليم: الجبال، و تنس، و الجزائر<sup>(4)</sup> فتلمسان عاصمة الدولة عُرفت بموقعها الجبلي الذي تتحدر منه مياه الأنهار و بمناظرها الطبيعية الخلابة و بساكنها، قال عنها ابن سعيد المغربي: «و الأندلسيون يقولون كأنها من مدن الأندلس لمياهها و بساكنها...»<sup>(5)</sup>، فالمساحة الزراعية للدولة الزيانية كانت شاسعة و إنتاجها كان وفيرا، ما جعلها محل أطماع جيرانها المرينيين و الحفصيين.

إن ناحية تلمسان سهلية جبلية و على هذا فحاصلها الزراعية كلها راجعة إلى ما تنتجه الأرض في البساتن و السهول و ما تنتجه في الجبال و الوهاد. أما السهول المعروفة بجودة أرضها و خصبها، فمنها ما هو قريب من المدينة كالحرطون الواقع في جنوبها و المنية الواقعة في شمالها و قد قيل عنهما قديما: «الحرطون و المنية نصف الدنيا»، بالإضافة إلى هذين السهلين البساتن و الرى الواقعة على ضفتي وادي الصفصيف (السطفسييف) شرقا و بساكن إمامة و المنصورة الواقعة في غربها التي لا تقل عنهما من حيث جودة الأرض و خصبها، أما السهول و البساتن البعيدة عن مدينة تلمسان نسيا فأشهرها سهل الحنايا الواقع في شمالها و سهل زناتة الواقع في شمالها الغربي و كلاهما يمتاز بخصب الأرض و وفرة الإنتاج، و يمكن إضافة إلى ذلك بساكن و ربي بني وعزان شرقاً و بن مستار غرباً<sup>(6)</sup>

### ج- المياه:

تطرقنا إلى مدلول اسم تلمسان، فهي علم زناتي مركب من تلم، معنى تجمع، و سان بمعنى اثنان أي أنها تجمع بين التل و الصحراء، أو مدينة الينابيع<sup>(7)</sup>، و قد ساعد تزويد أهل تلمسان بالمياه انحدار الأنهار من أعالي الجبال، و كثرة الينابيع و العيون الواقعة خارج أسوار المدينة من جهة، وبناء شبكة محكمة للقنوات

1- ابن الحاج التُميري، المصدر السابق، ص 487.

2- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 91.

3- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 25.

4- الحسن الوزان، ج 1، ص 31

5- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 140.

6- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ج 2، ص 5 - 6.

7- لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 15.

داخل المدينة و خارجها، و كانت هذه القنوات تبنى من الطوب، مغطاة تحت الأرض، و لا سيما الجزء الذي يكون خارج المدينة، و هو الأنبوب الرئيسي الذي يصب في الأحواض التي تستعمل في سقي البساتين و في الصهاريج التي تزود سكان تلمسان بالمياه<sup>(1)</sup> العذبة، التي كانت من العوامل المشجعة للاستقرار البشري، و إنتاج الخيرات الفلاحية.

تميزت بعض نواحي مدينة تلمسان بوفرة المياه و وجود الأنهار التي كانت تصب في المنحدرات، و كانت المسافات بين تلمسان و بين هذه النواحي قصيرة أو متوسطة، قال عنها الجغرافي ابن سعيد المغربي: «و منها (باديس) إلى أرشغون فرضة تلمسان و حيث يصب النهر الذي ينصب فيه نهر يسر الكبير سبعون ميلاً، و منه إلى فرضة وهران المشهورة ثمانون ميلاً. و هي آخر فرض هذا الجزء من المدن العدوية.»<sup>(2)</sup>، كما تحدث عنها الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين منهم ابن الحاج التميمي عند قدوم السلطان أبي عنان المريني إلى تلمسان و مشاهدة أثارها الحسان، حين استقرّ الجيش المريني على نهر الصفصيف كي يستغل مياهه و وصف ذلك بأسلوب مبالغ فيه قائلاً: «و كان نزول المحلات المنصورة بالصفصيف مطلعة من أخبيتها النجوم، مرسله من أسنتها على شياطين الإنس الرجوم.»<sup>(3)</sup>

تحدث صاحب الروض المعطار عن مياه تلمسان: «و كان لها (تلمسان) ماء مجلوب من عمل الأول من عيون تسمى لوريطة، بينها و بين المدينة ستة أميال، و لها نهر كبير يسمى سطفسيف... و لها (تلمسان) نهر يأتيها من جبلها المسمى الصخرتين و نهر شرقي المدينة و عليه أرحاء كثيرة... و في الشمال من مدينة تلمسان قرية كبيرة تسمى باب القصر فوقها جبل يسمى جبل الفضل ينبعث من أسفله نهر سطفسيف و يصب في بركة عظيمة من عمل الأول و يسمع لوقوعه فيها خرير شديد هائل على مسافة ثم ينبثق من تلك البركة بحكمة مدبرة إلى موضع يسمى المهرار فيسقي هناك مزارع و أولجاً كثيرة تسمى أولج الجنان و تلك المواضع من أجل بقاع تلك البلاد ثم يصب في نهر تافنا و هو النهر المتصل بمدينة أرشقول...»<sup>(4)</sup>

ذكر ابن الحاج التميمي في رحلته عندما استولى السلطان المريني أبي عنان علي تلمسان: «و أخذ أيده الله في سعد حتى استوى على ساقية النصراني و توضحها منسابة بمنته كالأرقام و الضلال، مضمخة الشاطئين بمسك الضلال، مرسله على زمرد نباتها البليل، سبائك الفضة مشوية بذهب الأصيل. و طواع أنسيابها في ذلك المشرف الذي عطرته هبوب النواسم و جلا من محاسن الحدائق غب الغمام، ما هو أبداع من الوشي المرسل بأيدي الرواقم، و أحسن في صدر الأفق من عقود النجوم العواتم. فلما أن أن،، معاقدها، و تثاررت على ترائب البلد قلائدها. دعا بالساقى فشرب من مائها العذب، و سقى أحد الخواص المستأثرين منه بالقرب. و أفاض في الثناء على ماء تلمسان و طيب هوائها. و أنحى على المحتوى المقام بأنحائها، و أعرب عن محبته فيها، و ولوعه بمغانيتها...»<sup>(5)</sup>

1- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 149

2- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 140.

3- ابن الحاج التميمي، المصدر السابق، ص ص 484 - 485.

4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

5- ابن الحاج التميمي، المصدر السابق، ص 487.

وصف الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين المياه في تلمسان، منهم الحاج عبد الله بن الصباح صاحب الرحلة قائلا: «و فيها - أي تلمسان - الماء و الخضرة و الزهر...تمتاز بالماء البارد و الهواء المعتدل، و كلما نصف من أوصافها فهو قليل لأنها مدينة قديمة البنيان...»<sup>(1)</sup> و كانت الأودية تنبع بقوة، مما جعل تلمسان ناذرا ما تتعرض للجفاف<sup>(2)</sup>، فوفرة المياه كانت من العوامل التي جلبت السكان إلى تلمسان و ساهمت في وفرة الإنتاج الفلاحي.

---

1- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص ص 94 - 95.

2- Syndicat d'initiative (Tlemcen). Tlemcen et sa région : livret-guide / publié par le d'initiative de Tlemcen. 1921 imp-pho.ATHIRIAT & Cie-Toulouse, pp 6-7.

## د- الإنتاج الزراعي:

لم تكن كل الأراضي في تلمسان تحرث في العهد القديم و تستغل عادة لأن محاصيل السنة الواحدة كانت كافية لعدة سنين لقلة عدد السكان من جهة و لقلة التصدير للخارج من جهة أخرى مع أن وسائل الاستغلال كانت عتيقة جدا منها ما استعمل في الحراثة كالمحراث و الثيران، و منها اليد العاملة في الحصاد<sup>(1)</sup>، و كانت تلمسان تنتج محاصيل زراعية عديدة و متنوعة من خضر و فواكه جلبت انتباه الرحالة المغاربة و الأندلسيين، فقال عنها الرحالة المغربي العبدري: «و الدائر بالبلد كله مغروس بالكرم و أنواع الثمار»<sup>(2)</sup>، و كان الإنتاج الزراعي في تلمسان و المملكة الزيانية يزداد أوقات السلم و الهدوء عكس أيام الحروب و الفوضى.

تحدث الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته تلمسان قائلاً: «مدينة تلمسان مدينة خضراء من كثرة البساتين و الأشجار... و كثرة الزرع و شجر الزيتون و التين و العنب، و الغالب عليها ثمار الزيتون و تمر الغدان»<sup>(3)</sup>... و هي كثيرة المرّبا مما يأتي من الداخل و الخارج... مدينة قائمة بنفسها مستغنية عن غيرها من المدائن و الحصون مثل وجدة و ندرومة و مدينة هنين و مدينة وهران، التي هي اليوم وطن الحاج المذكور حتى يأتي الله بالخروج منها إما بالموت و إما بالحياة»<sup>(4)</sup>، و استطاعت مدينة تلمسان تغطية حاجيات سكانها من الغذاء و تحقيق الاكتفاء.

و وصف صاحب الروض المعطار مدينة تلمسان: «و هي (تلمسان) كثيرة الخصب و الرخا، كثيرة الخيرات و النعم... و مزارعها كثيرة و فواكهها جمة...»<sup>(5)</sup>، كما وصف الحسن الوزان نواحي مدينة تلمسان: «و في خارج تلمسان ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم المدنيون بسكانها في الصيف، حيث الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعنابا من كل لون، طيبة المذاق جدا، و أنواع الكرز الكثيرة التي لم أر لها مثيلا في جهة أخرى، و التين الشديد الحلاوة، و هو أسود غليظ طويل جدا، يُجفف ليأكل في الشتاء و الخوخ و الجوز و اللوز و البطيخ و الخيار و غيرها من الفواكه المختلفة»<sup>(6)</sup> و قد ساعدت المغرب الأوسط عوامل طبيعة و بشرية على الاهتمام بالنشاط الفلاحي.

كانت التمور تنتج بالمناطق الصحراوية جنوب المغرب الأوسط أهمها إقليم توات، و قد قال عنه عبد الرحمن بن خلدون به جنات من النخيل و الأعناب و سائر الفواكه: «و فيه قصور متعددة تناهز المائتين، آخذة من المشرق إلى المغرب و آخرها من جانب المشرق يسمى تمنطيت»<sup>(7)</sup>، كما تحدث ابن بطوطة في رحلته عن قرى توات منها بؤدا و عن مبادلاتها التجارية مع سجلماسة و بلاد المغرب قائلاً: «ثم وصلنا إلى

1- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ج 2، ص 6.

2- العبدري، المصدر السابق، ص 49.

3- تمر الغدان: هو نوع من التين.

ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، الهامش 170، ص 95.

4- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 95.

5- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

6- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 20.

7- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر...، ج 7، المصدر السابق، ص ص 76-77.

بُودا و هي من أكبر قرى توات، و أرضها رمال و سباخ و تمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة. و لا زرع بها و لا سمن و لا زيت، و إنما يُجلب لها ذلك من بلاد المغرب.»<sup>(1)</sup> و كانت الواحات بالصحراء منتشرة بشكل مقرون بتواجد الأودية و منابع العيون.

### هـ - الإنتاج الحيواني:

اعتنى أهل تلمسان و ناحيتها بتربية الماشية عناية فائقة لا سيما البقر و الغنم من ضأن و معز، فأما البقر لأجل الانتفاع بألبانها و زبدتها و لحومها و جلودها في الصناعة، و ذلك من أقدم العصور، و يضاف إلى ذلك الاعتناء بتربية الطيور الداجنة من دجاج و حمام و بط و أوز من أجل الانتفاع من بيضها و لحومها، و اهتم كذلك أهل تلمسان بتربية الخيل المعدة لركوب الفرسان، و البغال و الحمير لحمل الأثقال.

كان للسلطان اسطبل خاص بتربية الجياد و العناية بها حتى أن أحد أبواب المدينة سمي «باب الجياد»<sup>(2)</sup> لقربه من الإسطبل<sup>(3)</sup>، و يبدو أن اهتمام سلاطين بني زيان بالخيول و الفروسية أصبح من تقاليدهم و عاداتهم المتوارثة من سلطان لآخر، و قد عبّر عن ذلك الحاج عبد الله بن الصباح عن مملكة أبي تاشفين الأول قائلاً: «بالخيل و الكمال من ركوب السروج المذهبة يفتخر على ساير الملوك من ملوك المغرب بالعدة و الشدة و القوة.»<sup>(4)</sup>، و كانت العناية بالخيول و الفروسية من صفات التفاخر بالقوة و الشجاعة.

كانت تربية المواشي ببلاد المغرب الأوسط تقوم جنبا إلى جنب الزراعة، فالمحصول الزراعي مقرون بالمنتج الحيواني و كانت أراضي الدولة الزيانية مرتعا لمختلف الحيوانات و خاصة الأغنام و الأبقار و الخيل<sup>(5)</sup> و ذلك لإنتاج اللحوم وصفه صاحب الروض المعطار: «... و لحومها شحمة.»<sup>(6)</sup>، بالإضافة إلى مد الصناعة بالصوف و استخدام الخيول في النقل و الحروب.

1- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 475.

2- ابن الحاج النميري، المصدر نفسه، ص 488.

3- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ج 2، ص 7.

4- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 92، 93.

5- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 2، ص 32.

6- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

## المطلب الثاني: الصناعة:

## أ- المواد الأولية وأهم الصناعات:

اشتهرت مدينة تلمسان خلال العهد الزياني بوفرة المواد الأولية التي كانت من بين العوامل المساعدة على ازدهار الصناعة، كما اشتهرت أيضا بإنتاجها النباتي و الحيواني، فقامت صناعة واسعة في هذين المجالين<sup>(1)</sup>، و يبدو أن الصناعة في تلمسان لا تختلف عن الحواضر الإسلامية الأخرى بالنسبة للنشاط الصناعي<sup>(2)</sup>، و قد توفرت تلمسان و نواحيها على مواد أولية متنوعة و منها ما يكون قد جلب من أماكن أخرى.

أعجب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين بالصناعة في تلمسان، و وصف ابن سعيد المغربي تلمسان عاصمة الدولة الزيانية «بكثره صنائعها»<sup>(3)</sup>، و شبهها بمدن الأندلس، و قال عنها ابن الحاج التميمي في رحلته: «و كم أبقى بتلمسان من آثار حسان، و مصانع يعجز عن وصفها كل لسان...»<sup>(4)</sup>، و كانت مختلف الصناعات تغطي الاستهلاك المحلي للمدينة و ضواحيها، حيث أقيمت بتلمسان أسواق .

و من بين الرحالة المغاربة و الأندلسيين الذين اندهشوا من كثرة الصناعات بتلمسان و شبهها بحواضر كبرى، الحاج عبد الله بن الصباح صاحب الرحلة قائلاً: «ثم نرجع إلى مدينة تلمسان المذكورة و ما فيها من النعم المشهورة و كفى أنها عندي و عند المسافرين في صقع المغرب مثل دمشق في الشام.»<sup>(5)</sup>، و كي تتضح مقام تلمسان نرد ما قاله ابن الصباح في رحلته عن الشام: «و من المدينة - أي المدينة المنورة- إلى أول عمارة الشام مسيرة خمسة عشر يوماً بلياليها، و دخلنا الشام، و مدائنها الكثيرة الخير أمنها الله كبلاد البلقاء و بلاد الكهف و الرقيم إلى أريحة الغور إلى الطور...»<sup>(6)</sup>،

اعتنى ملوك بني زيان بالصناعات المختلفة من نسيج و ورق و معادن و نحاس و الأعمال الحرفية مثل الفخار و نحت الرخام و نقش الخشب و المجوهرات<sup>(7)</sup> كانت صناعة الحديد من بين الصناعات الهامة، لوفرة المواد الأولية في محيط الدولة الزيانية، فقد استخدمت في كثير من الصناعات مثل صناعة الأسلحة التي شملت السيوف و غيرها من أدوات القتال، كما صنعت من الحديد أبواب المدينة و تحصيناتها و استخدمت منه الأدوات البسيطة كالسكاكين و مقابض الأبواب و الفؤوس و المحاريت و غيرها<sup>(8)</sup>، و كان الحديد يجلب إلى تلمسان من أماكن قريبة منها مدينة تفسرة قال عنها الحسن الوزان: «مدينة صغيرة تقع في سهل على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من تلمسان، فيها حدادون كثيرون لأنه توجد بقربها عدة مناجم للحديد... أهلها لا يشتغلون بغير خدمة الحديد و نقله إلى تلمسان.»<sup>(9)</sup> و أصبحت بذلك تلمسان مركزاً صناعياً مهماً بالمغرب الأوسط.

1- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 165.

2- مختار حساني، الحواضر...، المرجع السابق، ج 4، ص 27.

3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 140.

4- ابن الحاج التميمي، المصدر السابق، ص 488.

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 97.

6- المصدر نفسه، ص 180.

7- عمار عمورة، المرجع السابق، ص 85.

8- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 2، ص 98.

9- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 24.

**ب- الحرف و المهن:**

كانت المهن و الحرف في أغلب الأحيان بالمغرب الأوسط مرتبطة بتوفر المادة الأولية، و من بين الصناعات التي اشتهرت بها تلمسان، صناعة السروج و أجم الخيل، قال عنها ابن سعيد المغربي: «و تحمل منها - أي تلمسان - أجم الخيل و السروج و ما يتبع ذلك»<sup>(1)</sup> من مواد مصنعة مختلفة برع و تخصص فيها الحرفيون التلمسانيون، كالمصنوعات الجلدية و النحاسية و غيرها.

مارس الصُنَاع التلمسانيون الحرف و المهن بدقة و إتقان و تقنن، حتى قال عنها ابن الحاج التُميري في رحلته: «...قد أحكمت فيها أنواع الصنائع»<sup>(2)</sup>، و من بين الصناعات التي عرفتها تلمسان الأواني الفخارية، كانت تختص هذه الصناعة بها النساء و تجيدها أكثر من الرجال حيث كُن يزاولنها بأدواتهن التقليدية من لوحة خشبية و بكرة لسحق الألوان و فرشاة ارتجالية و لم تكن المخرطة تستعمل إلا من قبل صناع الفخار المحترفين الذين يعملون بتلمسان حيث كانت لهم أفران لطهي الأواني الفخارية و الخزفية<sup>(3)</sup>.

عرفت تلمسان حرف و مهن مختلفة ساهمت فيها هجرة الأندلسيين إليها و ذلك من خلال استيعاب اليد العاملة المتقنة و المتفنة في المصنوعات و العمران. و كان أصحاب الحرف و المهن و الصناعات بتلمسان عاصمة الدولة الزيانية، يكسبون أموالا كثيرة، و يعيشون حياة راقية حسب وصف الحسن الوزان: «و الصناع أناس أقوىاء يعيشون في هناء و متعة، و يحبون التمتع بالحياة»<sup>(4)</sup>، و ربما كان وصف الحسن الوزان مرتبط بنشاط هذه الفئة داخل المجتمع التلمساني خلال العهد الزياني و مساهمتها في الحياة الاقتصادية للمدينة.

عرفت تلمسان تنظيم النشاط الحرفي فُخص لكل حرفة جناح لها بالأسواق و القيصريات و الفنادق مثل سوق الوراقين، و الفخارين و العطارين و الصباغين و الدباغين<sup>(5)</sup>، و السراجين و النجارين و الخزارين و الصفارين و الحدادين و الصباغين و غيرها من الحرف. قال عنها الحسن الوزان: «و جميع الصنائع و التجارات بتلمسان موزعة على مختلف الساحات و الأزقة»<sup>(6)</sup>، و كانت معظم الصناعات بمدينة تلمسان متصلة بالأسواق لكي يكون منتج الحرفيين قريباً من مراكز الأحياء السكنية، و وجد نوع آخر من الحرف اقتضى طبيعتها أن تكون خارج التجمعات السكنية، و ربما بعيداً عن الأسوار، و هي الحرف التي تضر بالصحة العامة من المواد التي قد تثير الغبار أو الدخان أو الروائح الكريهة أو الضجيج<sup>(7)</sup>. و عن العُبَاد قال الحسن الوزان: «...و هي كثيرة الأزهار و اوفرة السكان و الصناع و معظمهم من الصباغين...»<sup>(8)</sup>.

1- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 140.

2- ابن الحاج التُميري، المصدر السابق، ص 488.

3- مختار حساني، الحواضر...، المرجع السابق، ج 4، ص 29.

4- المصدر نفسه، ج 2، ص 21.

5- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 2، ص 85.

6- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 19.

7- إلياس حاج عيسى، الحرف اليدوية في المغرب الأوسط «تلمسان نموذجاً»، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني و المعماري و الميراث الفني، ج 2، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان عامة الثقافة الإسلامية سنة 2011، ص 31.

8- المصدر نفسه، ص 24.

## المطلب الثالث: التجارة

احتلت الدولة الزيانية مكانة قيادية في التجارة بالمنطقة لما تتمتع به من خصائص جغرافية و اقتصادية. فقد كانت مدينة تلمسان بحكم موقعها المنتهي و المنطلق في نفس الوقت لطرق التجارة، منطلقاً للبضائع القادمة من البلاد المسيحية و منتهى للبضائع الصحراوية و في مقدمتها الذهب. و بفضل موقعها استطاعت أن تخوض غمار التجارة و بالرغم من الاضطرابات السياسية و عدو الاستقرار، فإن الدولة الزيانية عرفت ازدهارا عظيما و رخاء اقتصاديا كبيرا في فترات السلم<sup>(1)</sup> لتوفر الأمن واستغلالها لمؤهلاتها الطبيعية.

## أ- الطرق التجارية:

كانت تلمسان عاصمة دولة بني زيان النقطة التي تلتقي فيها طرق التجارة الرئيسية التي تربط إفريقيا بالمغرب الأقصى من جهة، و بين البحر الأبيض و المتوسط و الصحراء من جهة أخرى<sup>(2)</sup> مما أهل الدولة الزيانية لتتحكم في طريق القوافل التجارية منها الطريق العابر للمغرب الإسلامي الذي ينطلق من الأندلس نحو المشرق الإسلامي فكانت الطريق المفضل لأغلب الرحالة المغاربة و الأندلسيين الذين وصفوا الأحوال الاقتصادية للدولة مثل العبدري و ابن بطوطة ثم الحسن الوزان في بداية القرن 10هـ/16م<sup>(3)</sup> فكان لا بد لهم من عبور المغرب الأوسط سواء ذهابا أو إيابا خاصة في رحلاتهم الحجازية. و كانت الطرق المؤدية إلى تلمسان من جهات مختلفة كثيرة، فمنها البرية و البحرية.

رسم ابن سعيد المغربي الطريق بين سبتة و وهران مروراً بتلمسان حيث جعلها ضمن الجزء الأول من الإقليم الرابع قائلاً: «و منها (باديس) إلى مدينة مليله مائة ميل، و ينصب على شرفها على عشرة أميال نهر ملوية الكبير المشهور الذي ينزل فيه نهر زيز و ينزل فيه نهر سجماسة. فتكون مسافته من منبع سجماسة في الجنوب نحو مائة ميل، و منها إلى أرشغون فرضة تلمسان و حيث ينصب النهر الذي ينصب فيه نهر يسر الكبير سبعون ميلاً. و منه إلى فرضة هونين اثنا عشر ميلاً، و منها إلى فرضة وهران المشهورة ثمانون ميلاً. و هي آخر فرض هذا الجزء من المدن العدوية.»<sup>(4)</sup>

تحدث الرحالة المغربي العبدري في بداية رحلته عن الطريق إلى تلمسان: «كان سفرنا - تقبله الله تعالى - ... و مبدؤه من حاحة (مسقط رأس العبدري) ... و أما بلد أنسا<sup>(5)</sup> ... و لما انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان ... ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان ...»<sup>(6)</sup>، و هو طريق بري كثير المخاطر حسب تعبير الرحالة المغربي العبدري، خاصة عند مفازة تلمسان، فكل من أراد قطعها، كان عليه التأهب حتى ينجو بنفسه و بكل ما يملكه من زاد و مال في رحلته، فمن قطع المراحل الأولى لهذا الطريق و اجتاز مفازة تلمسان، و وصل تلمسان فقد قطع بر الأمان.

1- رشيد بورويبة و آخرون، الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ت)، ص 477.

2- المرجع نفسه، ص 477

3- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 2، ص 135.

4- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص ص 139 - 140.

5- أنسا: بلد منفسح مشرح، في بسيط ملىح طيب الثرية، يُغَل كثيراً، و به ماء جار كثير، و نخل و بساتين، و هو آخر بلاد السوس من أعلاه. متصل بالجبل مشرف على أرض السوس. ينظر: العبدري، المصدر السابق، ص 42.

6- العبدري، المصدر السابق، ص ص 40 - 47. ينظر: الملحق رقم (01)، ص ص 287.

تحدث ابن الحاج التميمري عن الطريق الذي سلكه جيش أبي عنان المريني في رحلته عند قدومه إلى قسنطينة و الإياب و الأخذ في الحركة إلى بلاد الأعراب: «و في يوم الاثنين التاسع شوال المذكور كان الفصول من عن نقاوس و كان وصولنا إلى قسنطينة يوم السبت الثاني عشر لشوال المذكور... و رحلنا على طريق بارز إلى أن أشرفنا على سطيف، آخذين بالحزم الذي لم يكن في ميزانه من تطيف، ثم أخذنا ذات اليسار منتهضين في سيرنا أحسن انتهاز، حتى بلغنا الجبل المدارك لعياض (المسيلة)، ثم قدمنا على المسيلة خائضين سواقيها بالساقات، مخترقين بطائرها المنفسحة أعظم الاختراقات... و بظاهر المسيلة أمرني مولانا الخليفة رضي الله عنه بإنشاء كتاب اقتطعت زهره الذابل بيد الإسراع.»<sup>(1)</sup>

و يبدو أن جيش أبي عنان المريني عندما رحل عن قسنطينة و اتجه نحو المغرب الأقصى، أخذ طريق الصحراء مروراً بالمسيلة (الجبل المدارك لعياض)، و يضيف ابن الحاج التميمري في رحلته: «و لما أخذت الطرق منها سدادها، و قسمت من كسر أعدادها، رجع السلطان إلى تلمسان بعد أن وقف بسفح الجبل المشرف عليها، و تذكر معاهدة في ربوعها التي كان يبدي الحنين إليها.»<sup>(2)</sup>، و قد أشرف على هذه المعاهدة من قبل ابن الحاج التميمري نفسه عندما قال: «و انصرفت لما اخترته من تجديد العهد التلمسانية و قصدته (أي عنان فارس)»<sup>(3)</sup>، و القوم على تلمسان<sup>(4)</sup>، و بالتالي دامت رحلة ابن الحاج التميمري كلها ثمانية أشهر.

أوضح محمد بن عبد الله الملقب بابن بطوطة الطريق الذهاب الذي سلكه في بداية رحلته من طنجة إلى الإسكندرية عبر فيها مدينة تلمسان: «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة و عشرين و سبعمئة... فوصلت مدينة تلمسان... و أقيمت بتلمسان ثلاثاً في قضاء مآربي، و خرجت أجد السير... فوصلت مدينة مليانة... فوصلت مدينة الجزائر... ثم وصلنا إلى مدينة بجاية... و سرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها... و رحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة. و نزلنا بداخلها... إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس... ثم وصلنا مدينة صفاقس... ثم وصلنا إلى مدينة قابس... و في الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس... و تجاوزنا مسلاتة، و مسراتة، و قصور سرت... ثم وصلنا في أول جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية حرسها الله.»<sup>(5)</sup>، و هو طريق بري عبر فيه شمال المغرب الإسلامي و مصر.

بينما نجد طريق آخر جمع بين البرّ و البحر سلكه ابن بطوطة أثناء عودته من تونس إلى فاس و مرّ فيه هو الآخر بتلمسان قائلاً: «ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانيين فوصلنا إلى جزيرة سردينية من جزر الروم... ثم خرجنا عنها، فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس. ثم إلى مازونة، ثم إلى مستغانم، ثم إلى تلمسان...»<sup>(6)</sup>، و قد تكون طرق أخرى مؤدية إلى تلمسان لم يرد ذكرها في مؤلفات الرحالة و الجغرافيين.

1- ابن الحاج التميمري، المصدر السابق، ص ص 472 - 480.

2- المصدر نفسه، ص 486.

3- نفسه، ص 485.

4- نفسه، ص 76.

5- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 11 - 16.

ينظر: الملحق رقم (03)، ابن بطوطة، ص 288.

6- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 446 - 447.

و على العموم فإن موقع تلمسان جعلها تحتل موقعاً استراتيجياً شمل مفترق الطرق التجارية، الرابطة بين المغرب الأقصى و الأوسط و الأدنى و بلاد السودان، و قد عبّر عن ذلك صاحب الروض المعطار بقوله: «و مدينة تلمسان أول بلاد المغرب، و هي على طريق الداخل و الخارج منه و لا بد من الاجتياز عليها على كل حال»<sup>(1)</sup>، للاستراحة و تزويد القوافل التجارية بمستلزمات الرحلة.

كانت الطرق التجارية بين تلمسان الزيانية و بلاد السودان تنطلق من تلمسان فتنجها غرباً نحو فاس و من هناك تأخذ طريقها إلى سجلماسة نحو بلاد السودان فتقطع رحلاتها على ثلاث مراحل كبرى، تنتهي المرحلة الأولى عند سجلماسة، لتصل توات أو عين صالح، و يربط بين كل محطة من هذه المحطات و بين تلمسان طريق و أهم هذه الطرق طريق تلمسان - سجلماسة<sup>(2)</sup>، التي كانت مركزاً تجتمع فيها القوافل التجارية و الحجازية أطلق عليه الرحالة المغاربة مصطلح «الركب السجلماسي».

مرّ ابن بطوطة بسجلماصة عند عودته من بلاد السودان قائلاً: «ثم وصلنا بَرْدَامَةَ... و اجتهدنا في السير حتى وصلنا إلى مدينة تكدا... فوصلنا إلى كاهر... و وصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر و طريق توات... و سرنا من هناك و وصلنا إلى بلاد هكار... ثم وصلنا إلى بُودا... ثم سافرنا في قافلة، و وصلنا في أوّسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة... ثم خرجت، فوصلت إلى حضرة فاس...»<sup>(3)</sup>، و رغم طول مسافة الطريق و صعوبته من تلمسان نحو بلاد السودان الغربي إلا أن القوافل التجارية كانت تحبذه لأنه كان تحت حماية و أمن القبائل الموجودة في تلك الصحارى و يظهر ذلك واضحاً من خلال قول ابن بطوطة: «و لا تسير القوافل إلا في خفارتهم»<sup>(4)</sup>.

خرج الحاج عبد الله بن الصباح من مملكة غرناطة بالأندلس سالكاً الطريق البحري من العدو الأندلسية نحو سبتة بالمغرب الأقصى قائلاً: «و قد جزنا في بعض الأزقة طوله نحو الميل أو أشد شيئاً يظهر البر كأنه خيال ثم وصلنا مدينة سبتة»<sup>(5)</sup>، ثم مراکش و فاس و تلمسان عاصمة مملكة بني عبد الواد<sup>(6)</sup>، بالطريق البري ثم واصل سير طريقه نحو تونس - بجاية - قسطنطينة - بلد العناب - باجة - قفصة - طرابلس - الإسكندرية - الحجاز<sup>(7)</sup>، و كان هذا الطريق الذي أعتاد على اجتيازه الأندلسيون بعد تراجع المسلمين في الأندلس و انحصارهم في غرناطة.

1- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

2- ميخوث بودواية، المرجع السابق، ص 313.

3- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 473 - 475.

4- المصدر نفسه، ص 473.

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 77.

6- المصدر نفسه، ص 77 - 91.

7- نفسه، ص 99 - 127.

## ب- اللصوصية:

تحدثت كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين عن الهاجس الأمني الذي وقف عائقاً أمام سير و عبور القوافل التجارية نحو الصحارى و المناطق الخالية من التجمعات السكانية، حيث استغلها اللصوص و فُطاع الطرق بعدما نظموا أنفسهم في عصابات خطيرة، وصفها الرحالة المغاربة و الأندلسيين بـ«عصابات الشر» مارست السلب و النهب و حتى القتل.

كان التجار يتعرضون لمضايقة قطاع الطرق الذين كانوا ينشطون في المناطق الشمالية خاصة في فصل الشتاء، فملا الطريق الرابط بين تلمسان و فاس كان يكثر فيه قطاع الطرق أغلبهم من الأعراب، و كان ملوك بني عبد الواد يدفعون أموالاً و يقدمون هدايا كثيرة للقبائل العربية و غير العربية المنتشرة حول طرق القوافل المتجهة نحو الغرب و إلى الجنوب لحراسة الطرق، و مهما كانت الجهود المبذولة من طرف الدولة القائمة لتوفير الأمن و الضرب على أيدي قطاع الطرق إلا أن هذا الأمر صعب التحقيق لطول المسافات و طبيعة المجتمع القبلي.<sup>(1)</sup> و قساوة الطبيعة أحياناً، منها اجتياز المفازات التي قد لا ينجو منها إلا القليل و هذا ما أكده كثير من الرحالة المغاربة و الأندلسيين من خلال ما دوَّثوه في كتبهم.

اجتاز الرحالة المغربي العبدري المفازة التي على طريق تلمسان بصعوبة بالغة عبَّر عنها بقوله: «و لَمَّا انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان وجدنا طريقها مُنقطعاً مَخَوْفاً، لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حال حَذَر و استعداد. و تلك المفازة - مع قَرْبها - من أضرَّ بقاع الأرض على المسافر، لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله، و أشدَّهم أذابة، لا يسلم منهم صالح و لا طالح، و لا يمكن أن يَجُوزَ عليهم الا، مُستعد يتفادون من شره، و طلائِعهم أبدأً على مَرَقَب لا يخلو منها البتة، أطلع الله عليهم من الأفات ما يُسْحِثُهم جميعاً أصلاً و فرعاً، و يقطع دابرهم إفراداً و تفتية و جمعا، حتى يكونا آية للمُعْتَبِرِينَ، و عبرة للناظرين، بعزة الله و قدرته، و حوله و قوته.»<sup>(2)</sup>

واجه ابن بطوطة لصوصاً عند عودته من رحلته قرب تلمسان قائلاً: «ثم سافرنا منها (زاوية الشيخ إبراهيم)، فبينما نحن بقرب أزغنغان خرج علينا رجل و فارسان، و كان معي الحاج ابن قريعات الطنجي و أخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر. فعزمتنا على قتالهم و رفعنا علماً، ثم سالمونا و سالمناهم و الحمد لله.»<sup>(3)</sup>، و هذا ما ذكره بعده أيضا الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته: «و يكون فيها قطع الطريق، و تنحصر الناس على الأسفار، و يضيق عليهم الحال و البرّ متسع ما يعرف الناس بعضهم بعضا و كذلك جميع هذا البر العدوي المذكور كثير الحراميات<sup>(4)</sup> و الفُطاع في جميع الأقطار من هذا البر المذكور فالخوف و الخلاء...»<sup>(5)</sup>، خاصة تلك المفازات التي يسكنها الأعراب البدو أصحاب بيوت الشعر.

1- مبخوث بودواية، المرجع السابق، ص 316.

2- العبدري، المصدر السابق، ص 45.

3- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 447.

4- الحراميات: جمع حرامي و هو السارق.

ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، الهامش 177، ص 97.

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 96-97.

أشار الحسن الوزان إلى أحد قصور مضغرة على وادي زيز، كان يقيم فيه أمير الدائرة، و هو عربي، و له فخذ من قبيلته... لا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون اذنه الصريح، فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوا فوراً و جردوا التجار و الرائدین<sup>(1)</sup>.

كانت اللصوصية منتشرة في أنحاء كثيرة من البلاد الإسلامية و غيرها، و قد تطرق الرحّالة و الجغرافيين المغاربة الأندلسيين لها، منهم الحاج عبد الله بن الصباح صاحب الرحلة: «...من أسفي بني ماكر إلى فاس إلى تلمسان إلى بجاية إلى تونس المذكورة إلى طرابلس إلى برقة إلى إسكندرية مسيرة خمسة أشهر كلها خلوات و خوف و عطش و رمال و فيا في منقطعة يا سلام سلم مسافرها من الحجاج و التجار بمنك و جودك لم نر فيما ورّخوه المؤرخون أمرّ و ادهى مما ذكرت لكم من المفاوز و القفار و الخلاء و الخوف إلا واحدة من أعظم المفاوز المذكورة في الكتب المؤرخة أعظم منها و هي بريّة الحجاز فهي أعظم و ادهى و أمرّ من ذلك»<sup>(2)</sup>، و حتى عند خروجه من المدينة المنورة قاصداً بلاد الشام و بعد وصوله إليها قال: «...و الحمد لله على سلامة الحاج من المفاوز و القفار»<sup>(3)</sup>، و هي عبارة تعكس معاناة الرحّالة و المتنقلين من قُطاع الطرق و الظروف الطبيعية القاهرة كالجفاف و قلة الماء.

تواصل قلق الرحّالة و الجغرافيين من العطش و الخوف خلال عبور المفاوزات و الطرق، و هذا ما تعرض له الحسن الوزان نفسه قرب مدينة تَشْرَافَتْ<sup>(4)</sup>، فقال: «ذهبت إلى هذا المكان - أي مدينة تَشْرَافَتْ - و لم أمكث فيه إلا بمقدار تقديم علف الشعير لخيولنا، و قد نجوت ذلك اليوم بأعجوبة من فتك الأعراب بي لحسن حظي»<sup>(5)</sup>، فغالباً ما تطرق الحسن الوزان في كتابه «وصف إفريقيا» إلى غدر الأعراب و تأقلمهم مع الطبيعة القاسية المتمثلة في المفاوزات و ممارستهم اللصوصية.

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 123

2- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 97.

3- المصدر نفسه، ص 180.

4- مدينة تَشْرَافَتْ: مدينة صغيرة على ضفة أسيف المال، تبعد عن مراكش بأربعة عشر ميلاً و عن الأطلس بنحو عشرين ميلاً.

ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 126

5- المصدر نفسه، ص 126

## ج- العلاقات التجارية:

كانت بين تلمسان الزيانية و العالم الخارجي علاقات تجارية منها مع دول بلاد المغرب كالمرينيين و الحفصيين، و مع بلدان المشرق الإسلامي، و كانت القوافل التجارية تنقل السلع و البضائع عبر البر، و السفن من المراسي عبر البحر، كما ربطت تلمسان علاقات تجارية مع الغرب المسيحي.

كانت تربط بين تلمسان و بلاد المغرب علاقات تجارية مزدهرة، إلا أن ازدهار النشاط التجاري كان مرتبطاً بالأحوال السياسية<sup>(1)</sup> و كان التجار التلمسانيون، يجولون و يجوبون المدن المغربية، و يصلون إلى بلاد السودان الغربي مع القوافل منهم التاجر الحاج زيان الذي كان في قافلة ابن بطوطة و ذكر كيف نجى من الموت بأعجوبة قائلاً: «و كان في القافلة تاجر تلمساني يُعرف بالحاج زيان، و من عادته أن يقبض على الحيات و يعبث بها، و كنت أنهاء عن ذلك فلا ينتهي. فلما كان ذات يوم أدخل يده في حجر ضب ليخرجه، فوجد مكانه حية فأخذها بيده. و أراد الركوب فلسعته في سبابته اليمنى، و أصابه وجع شديد فكويث يده. و زاد ألمه عشي النهار فنحر جملاً و أدخل يده في كرشه، و تركها كذلك ليلة. ثم تناثر لحم أصبعه، فقطعها من الأصل. و أخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه، و لو لم تكن شربت لقتلته.»<sup>(2)</sup>

و من التجار التلمسانيين الذين وجدهم ابن بطوطة في مالي من بلاد السودان الشيخ الرخال بن علي بن الشيخ اللبان التلمساني، فقال عنه: «و أخبرني الفقيه مدرك هذا أن رجلاً من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن، كان قد أحسن إلى السلطان منسى موسى في صغره بسبعة مثاقيل و ثلث، و هو يومئذ صبي غير معتبر. ثم اتفق أن جاء إليه في خصومة و هو سلطان، فعرفه و ادعاه و أدناه منه حتى جلس معه على البني، ثم قرره على فعله معه، و قال للأمرء: «ما جزاء من فعل ما فعله من الخير؟». فقالوا له: «الحسنة بعشر أمثالها، فأعطاه سبعين مثقالاً». فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال و كسوة و عبيداً و خدماً، و أمره أن لا ينقطع عنه.»<sup>(3)</sup> و أكد هذه الحكاية أيضاً ولد ابن شيخ اللبن، و هو من الطلبة كان يُعلم القرآن بمالي.<sup>(4)</sup>

كانت تجارة التلمسانيين مع السودان الغربي ذات أرباح كبيرة، وصفها عبد الرحمن بن خلدون قائلاً: «فلا بد لهم في كل سنة من رحلة... إلى قصور توات و بلد تمنطيت، و مع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار و التلول حتى يحطوا بتمنطيت. ثم يبدرون منها إلى بلاد السودان»<sup>(5)</sup>

كان التجار اليهود، يشكلون مجموعة تجارية، قائمة حول البحر و إيطاليا و فرنسا و ميورقة و برشلونة و مصر، و بلاد المغرب<sup>(6)</sup>، كما أقامت الدولة الزيانية علاقات تجارية مع الدول المسيحية حددتها معاهدات ذات نصوص واضحة<sup>(7)</sup>، غير أن في أواخر الدولة الزيانية أصبحت تلك الدول تحاول التدخل في شؤونها.

1- مختار حساني، المرجع نفسه، ج 2، ص 144.

2- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 458.

3- المصدر نفسه، ص 468.

4- نفسه، ص 468.

5- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر...، ج 7، المصدر السابق، ص 77.

6- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 216.

7- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 478.

## د- الصادرات:

كان المغرب الأوسط يصدر كميات كبيرة من المنتجات الخاصة بتربية المواشي مثل الغنم و الماعز، و الصوف و الجلود و الفواكه مثل التمر و منتجات الصناعة التقليدية لاسيما صناعة السلال و نسج الحلفاء و الزرابي و الجلود المنقوشة<sup>(1)</sup>، و الحبوب منها القمح الذي كان ثمنه مرتفع بمدينة تكدّا لأن استهلاكه اقتصر على الأثرياء من سلاطين و تجار و غرباء، فقال عنها ابن بطوطة: « لا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار و الغرباء، و يباع بحساب عشرين مدّاً من أمداهم بمقال ذهب، و مدهم ثلث المد ببلادنا... و لا شغل لأهل تكدّا غير التجارة...»<sup>(2)</sup>.

كانت تلمسان تصدر سلعاً متنوعة منها الثياب المصنوعة من الصوف ذات الجودة العالية، قال عنها الجغرافي ابن سعيد المغربي: «و منها - أي تلمسان - تحمل ثياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب...»<sup>(3)</sup>، و قد حرص التجار التلمسانيون أكثر على تجارتهم مما أكسبهم أرباحاً كبيرة، فتحسنت بذلك أحوالهم و انتعشت الحياة الاقتصادية للدولة الزيانية.

## هـ- الواردات:

كان التلمسانيون ميسوري الحال، بسبب تجارة الذهب و ريش النعام و العاج، و الرقيق الأسود، المجلوب من بلاد السودان، لأن تلمسان ظلت محطة برية تجارية شأنها كبير لعدة قرون<sup>(4)</sup>، و قد وصف مرمول كاريخال تجار تلمسان: «و أهم تجارتهم في غينيا، حيث يحملون بضائعهم كل سنة، و يأتون منها بالتبر، و العنبر، و المسك، و سنور الزباد، و رقيق السود، و أشياء أخرى من بضائع البلد.»<sup>(5)</sup>، و كان من جملة البضائع الواردة من بلاد البحر شمالاً الأدوات الحديدية و الأقمشة من حرير و جوخ و كتان و الزجاج<sup>(6)</sup> و غيرها من مواد مختلفة و من جهات أخرى.

تحدث ابن بطوطة عن أهل تَغَازَى في بلاد السودان: «و يتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة و سجلماسة و من لحوم الجمال و من أنلي المجلوب من السودان. و يصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح، و يباع الحمل منه بإيواتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، و بمدينة مالي بثلاثين مثقالاً إلى عشرين، و ربما انتهى إلى أربعين مثقالاً.»<sup>(7)</sup>، و حرص ملوك السودان الغربي على توفير الأمن للقوافل القادمة من بلاد المغرب، حتى أن بعض المؤرخين أشادوا بالسودانيين و تقديرهم للغرباء<sup>(8)</sup>.

1- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 483

2- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 473.

3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 140.

4- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 216

5- مرمول كاريخال، المرجع السابق، ج 2، ص 300

6- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ج 2، ص 23.

7- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 457.

Barges: Mémoire sur les relations commerciales de Tlemcen avec le soudan sous le règne de Béni-

## و- أساليب التعامل:

كانت تلمسان خلال العهد الزياني تزخر بأسواق لبيع مختلف المنتجات الزراعية و الصناعية، و اهتم سلاطينها بضرب عملة للدولة، و قد وصف صاحب الروض المعطار التلمسانيين قائلاً: «أكثر من أهلها أموالاً و لا أرفه حالاً»<sup>(1)</sup>، و كانت الدولة الزيانية تضرب السكة، فوجد الدينار و الدرهم و أجزاءهما المختلفة<sup>(2)</sup> ذكرها الحسن الوزان: «و يسك الملك نقودا من الذهب... و يسك أيضا نقودا فضية... و أخرى نحاسية متفاوتة القيمة و النوع»<sup>(3)</sup> و قد كان للزيانيين عملة مثل جيرانهم الحفصيين و المرينيين. بالاضافة إلى المقايضة.

كان أهل تلمسان خاصة التجار منهم يبيعون بضائعهم لتجار القوافل و يبتاعون منهم ما عندهم من البضائع التي هم في حاجة إليها مما لا تنتجه تلمسان و ناحيتها و لا وجود لها بها<sup>(4)</sup>، مما جعل تلمسان حاضرة في بلاد المغرب، فقال عنها الحاج عبد الله ابن الصباح في رحلته: «و قد ذكرت نظائرها من المداين الأربعة انطاكية بالشام و برصة بالشمال و غرناطة بالأندلس و بلنسية و دمشق في الوطأ»<sup>(5)</sup>

تعامل أهل السودان بالملح لأنه كان يستعمل في صناعات كثيرة كصناعة الجلود و حفظ المواد، منها اللحوم، و قال ابن بطوطة عن الملح في رحلته: «و بالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب و الفضة، يقطعونه قطعاً و يتبايعون»<sup>(6)</sup>، ثم يضيف ابن بطوطة عن بلاد مالي: «و المسافر في هذه البلاد لا يحمل زادا ولا أداما و لا ديناراً و لا درهما إنما يحمل قطع الملح و حلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم و بعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل و المصطكى و تاسرغنت و هو بخورهم فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بانلي واللبن والدجاج ودقيق النبق و الأرز و الفوني وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكو والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشتري منهن ما أحب من ذلك»<sup>(7)</sup>

قارن ابن بطوطة في رحلته بين قيمة العملة و معيشة السكان بين بلاد الشام و بلاد المغرب قائلاً: «و أما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة، إلا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمناً، فإن العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة، و رطلهم ثلاثة أرطال مغربية، و إذا رخص ثمنه يبيع بحساب رطلين بدرهم نقرة. و الإجاص يباع بحساب عشر أو بدرهم نقرة. و أما الرمان و السفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس، و هي درهم من دراهم المغرب. و أما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير. و أما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين و نصف درهم نقرة، فإذا تأملت ذلك كله، تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعاراً وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق و فوائد»<sup>(8)</sup>، لكثرة إنتاجه و غلاته.

1- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 488

3- المصدر نفسه، ص 23.

4- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ج 2، ص 21.

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 97.

6- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 457 - 458.

7- المصدر نفسه، ص 461.

8- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 448.

## ز- الموانئ:

كان بمملكة تلمسان أكثر من ميناء لاستقبال السفن التجارية، و قد توافد على هذه الموانئ عدد وافر من تجار جنوة و البندقية، فكانوا يتعاطون تجارة نافقة عن طريق المقايضة<sup>(1)</sup> و لعبت موانئ الدولة الزيانية دوراً كبيراً في تنشيط المبادلات التجارية، فمنها ما كان قريب من تلمسان مثل أرشغول و هنين و وهران، و مستغانم، و منها البعيدة عنها مثل الجزائر. و كانت هذه الموانئ بمثابة شريان نشاطها الاقتصادي و منافذ اتصالها بالعالم الخارجي، تحدث عنها الرحالة و الجغرافيين المغاربة و وصفوها في كتاباتهم، و في كثير من الأحيان نجدهم يقارنون بينها من حيث الحجم و مدى حيويتها و نشاطها و منها:

## هنين:

يُعد من الموانئ الهامة و القريبة من تلمسان قال عنه ابن سعيد المغربي: «تلمسان المشهورة...بينها و بين هونين ثلاثون ميلاً»<sup>(2)</sup>، و قد ذكر عبد الرحمن بن خلدون في رحلته مرسى هنين<sup>(3)</sup>، و عن مدينة هنين قال صاحب الروض المعطار: «مدينة بالمغرب جليلة على الحر، و شمالها تلمسان، و هي قرب ندرومة.»<sup>(4)</sup> كان ميناء هنين من أنشط موانئ المغرب الأوسط و كانت تربطه علاقات تجارية بموانئ أخرى نشيطة، منها الوردانية<sup>(5)</sup>، لقربه من هنين و هذا ما ذكره صاحب الروض المعطار: «و من الوردانية إلى هنين أربعة أميال.»<sup>(6)</sup>.

وصف الحسن الوزان ميناء هنين بقوله: «هنين...لها ميناء صغير محروس ببرجين...تحيط بها أسوار عالية متينة، لا سيما من جهة البحر، و تأتي إلى هذا الميناء سنويا سفن شرعية من البندقية تحقق أرباحاً جسيمة مع تجار تلمسان»<sup>(7)</sup>، فكان ينقل الأشخاص و البضائع المتنوعة.

## أرشغول:

تحدث الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين عن أرشغول، و من بينهم ابن سعيد المغربي حيث قال: «تلمسان المشهورة...بينها و بين أرشغون عشرون ميلاً»<sup>(8)</sup>، بينما قال عنها صاحب الروض المعطار: «مدينة في ساحل تلمسان من أرض المغرب بينهما فحس طوله خمسة و عشرون ميلاً، و مدينة أرشقول على نهر تافنا يقبل من قبلها تدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة و بينهما ميلان...»<sup>(9)</sup>، و قد ساهم ميناء أرشغول في الملاحة من خلال نقل الأشخاص البضائع إلى تلمسان و غيرها من المدن المجاورة لها.

1- لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 68.

2- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 140.

3- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 53.

4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 597.

5- الوردانية: حصن الوردانية بالمغرب، بينه و بين حصن القرويين ميلان. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 609.

6- المصدر نفسه، ص 609.

7- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 15.

8- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 140.

9- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 26 - 27.

**وهران:**

يعد موقعها من أحسن المواقع الإستراتيجية في المنطقة، لأنها نشأت على ربوة قليلة الارتفاع<sup>(1)</sup>، و يبدو أنها كانت محل اهتمام الرحالة المغاربة و الأندلسيين و حرصهم على زيارتها، فقال عنها العبدري صاحب الرحلة: «ثم مررنا على مدينة وهران، و هي مدينة مليحة، حصينة، بريّة، بحريّة، و هي مرسى تلمسان و أنظارها، و متجر تلك النواحي...»<sup>(2)</sup>، و كانت المرسى الكبير بوهران من أنشط مراسي المغرب الأوسط التابعة لتلمسان الزيانية، ساهمت في الملاحة و ذلك في نقل السلع و الأشخاص.

وصف الحاج عبد الله بن الصباح صاحب الرحلة موقع وهران قائلاً: «و هي على ساحل البحر مقابلة مدينة مرسية في بر الأندلس، و هي منيعة المكان كثيرة العدة و الرجال الزعام بالقتال...»<sup>(3)</sup>، و قال عنها صاحب الروض المعطار: «وهران بالمغرب على ساحل البحر، قيل إنها أُسست في سنة تسعين و مائتين، و بناها جماعة من الأندلسيين البحريين بسبب المرسى... و لوهران مرسى كبير للسفن يكتن من كل ربح لأنه في جون جبل مطل على وهران مرتفع... و بها أسواق و صنائع كثيرة و تجارات نافقة، و هي تقابل مدينة المريّة في ساحل برّ الأندلس، و سعة البحر بينهما مجريان، و منها أكثر ميرة ساحل الأندلس، و لها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئاً، و لها على ميلين منها المرسى الكبير، به ترسي السفن الكبار و هو يستر من كل ربح، لا مثال له في المراسي... و المراكب المختلفة إليها...»<sup>(4)</sup>، لكن بعد سقوط المرسى الكبير و وهران في قبضة الإسبان، ثم بعد ذلك هنين، باعتبارها أقرب منفذ من تلمسان أثر على تجارتها<sup>(5)</sup>

**مستغانم:**

هي أكبر مدن الناحية الغربية من المغرب الأوسط، بدأ في تخطيطها يوسف بن تاشفين المرابطي، ثم نمت عمرانها و ازدهرت المدينة في عهد بني زيان و كان لها ميناء صغير، و كثيراً ما كانت تقصده السفن الأوربية لأن أصحابها كانوا لا يحققون أرباحاً نظراً لفقر السكان<sup>(6)</sup>، قال عنها صاحب الروض المعطار: «مدينة بقرب نهر الشلف، بينها و بين قلعة مغيرة [لدول] مسيرة يومين، و هي مدينة مسورة ذات عيون و بساتين و طواحن ماء، و يبذر في أرضها القطن فيجود، و عي بقرب مصب نهر الشلف. و هي على البحر و لها أسواق و حمّامات و جنّات و بساتين و مياه كثيرة و سور على جبل مطل إلى ناحية المغرب، و هي صغيرة.»<sup>(7)</sup>، و يبدو أن ميناء مستغانم كان أقل نشاطاً مقارنة بميناء وهران.

1- لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 68.

2- العبدري، المصدر السابق، ص 561.

3- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 95.

4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 612 - 613.

5- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع نفسه، ج 2، ص 139.

6- لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 75 - 76.

7- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 558.

**مازونة:**

صاحب الروض المعطار: «بالمغرب بالقرب من مستغانم، و هي على ستة أميال من البحر، و هي مدينة بين أجبل، و لها مزارع و بساتين و أسواق عامرة، و لها يوم يجتمع فيه لسوقها أصناف البربر بضروب من الفواكه و الألبان و السمن، و العسل بها كثير، و هي من أحسن البلاد صفة و أكثرها فواكه و خصباً.»<sup>(1)</sup>

**تامسامان:**

تحدث عنها صاحب الروض المعطار و جعلها من نواحي تلمسان قائلاً عنها: «بقرى بلد نكور»<sup>(2)</sup> من البلاد الغربية من أعمال تلمسان، و هي مرسى مشهور.»<sup>(3)</sup>، بمبادلاته و سفنه التجارية من و إلى بلاد الأندلس.

**برشك:**

مدينة تقع في الساحل الغربي للمغرب الأوسط ما بين مدينة تنس و شرشال، كانت صادرات أهل برشك من التين و الكتان نحو جزائر بني مزغنا و بجاية و تونس و كانوا يستفيدون من ذلك أرباحاً كثيرة<sup>(4)</sup>، قال عنها صاحب الروض المعطار: «بين تنس و برشك في الساحل ستة و ثلاثون ميلاً، و برشك مدينة صغيرة على تل و عليها سور تراب و هي على ضفة البحر، و شرب أهلها من عيون و ماؤها عذب، و بها فواكه و جملة مزارع و حنطة كثيرة و شعير، و منها إلى شرشال عشرون ميلاً...»<sup>(5)</sup>، و قد حاول أهل برشك عصيان سلاطين بني زيان و التملص من دفع الخراج إليهم.

**شرشال:**

هي من أجمل المدن الساحلية و أبدعها موقعاً، هجرت أثناء الحروب التي كانت بين بني زيان و الحفصيين و التي دامت تقريباً ثلاثمائة سنة حتى سقطت غرناطة 897 هـ/1492 م، فهاجر إليها اللاجئون الأندلسيون، و أعادوا بناءها و جددوا قلعتها، ثم صنعوا كثيراً من السفن للملاحة<sup>(6)</sup>، وقد حدد صاحب الروض المعطار المسافة بينها و بين مدن مجاورة لها قائلاً: «مدينة في المغرب في ناحية برشك بينهما عشرون ميلاً... و من شرشال إلى جزائر بني مزغنا سبعون ميلاً...»<sup>(7)</sup>

**تنس:**

نشطت مدينة تنس من خلال ميناؤها و كثرة المبادلات التي كان أهمها مختلف أنواع الحبوب، فقال عنها ابن سعيد المغربي: «و هي مدينة مشهورة، بكثرة القمح، و منها يحمل في المراكب إلى سواحل الأندلس و غيرها.»<sup>(8)</sup> من البلاد الواقعة شمالاً من البحر التي كانت بها موانئ.

1- المصدر نفسه، ص ص 521 - 522.

2- نكور: مدينة بالمغرب بقرى مدينة مليلة، و هي مدينة كبيرة بينها و بين البحر نحو عشرة أميال و قيل خمسة.

ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 576.

3- المصدر نفسه، ص 128.

4- لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص ص 76 - 77.

5- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 88.

6- لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 77.

7- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 340.

8- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 142.

اشتهرت تنس بإنتاجها الزراعي الوفير حيث كان يصدر إلى بلاد الأندلس و إفريقية و المغرب، و قد أوضح ذلك صاحب الروض المعطار: «مدينة بقرب مليانة بينهما و بين البحر ميلان، و هي مسورة حصينة و بعضها على جبل و قد أحاط به السور، و بعضها في سهل الأرض، و هي قديمة أزلية، شرب أهلها من عين بها، و بها فواكه و خصب و إقلاع و انحطاط، و لها أقاليم و أعمال و مزارع، و بها حنطة ممكنة و سائر الحبوب بها موجودة، و يخرج منها إلى كل الآفاق في المراكب...منها يحمل الطعام إلى الأندلس و إلى أكثر بلاد افريقية و المغرب لكثرة الزرع عندهم...»<sup>(1)</sup>

### الجزائر:

كان ميناء الجزائر بعيدا عن تلمسان، لكن الملاحه ربطته بباقي موانئ المغرب الأوسط، و مدينة الجزائر قال الرحالة المغربي العبدري: «ثم وصلنا إلى الجزائر، و هي مدينة تستوقف بحسبها ناظر الناظر و يقف على جمالها خاطر خاطر قد حازت مزيّتي البر و البحر...»<sup>(2)</sup>، و كانت مدينة الجزائر من مدن المغرب الأوسط الخاضعة للزيانيين في تلمسان، و هذا ما ذكره الحاج عبد الله بن الصباح صاحب الرحلة قائلاً: «ثم نرجع إلى مدائن تلمسان المذكورة، مثل الجزائر و جماعتها المذكورة المشهورة، و هي مدينة التجارة و الخصب و الرخاء الشامل من الزرع و ألوان النعم، مدينة على ساحل البحر، مقابلة مدينة مالقة من جزيرة الأندلس...»<sup>(3)</sup>، و قد حدد صاحب الروض المعطار المسافات بين المدن القريبة من مدينة الجزائر قائلاً: «من أشير إلى جزائر بني مزغنا، و بين مدينة شرشال و الجزائر سبعون ميلاً...و الجزائر على ضفة البحر.»<sup>(4)</sup>، و قد لعب ميناء الجزائر دورا كبيرا في الحياة الاقتصادية، ثم محاربة قرصنة الغرب المسيحي.

### ح- المراكز التجارية:

كانت مراكز التجارة منها ما هو تابع للدولة الزيانية و منها ما هو خارجها لكنها تتعامل معها باستمرار<sup>(5)</sup>، فمنها ما كان على مسافات قريبة من تلمسان أو بعيدة عنها، و كان منها ما هو نقطة عبور أو مراكز تجاري كبير، تتوقف عندها القوافل التجارية من أجل الاستراحة، و من بين المراكز التي تحدث عنها الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين:

### تيزيل:

كانت مدينة تيزيل الواقعة جنوب مدينة تلمسان أول مدينة على أبواب الصحراء، و فيها كانت تتجمع القوافل لتشدّ رحالها سجلماسة و ورجلان و غيرها من المدن الصحراوية و يتضح ذلك من خلال ما قال الجغرافي الأندلسي أبو عبيد الله البكري: «و في الجنوب من تلمسان قلعة ابن الجاهل و هي قلعة منيعة كثيرة الثمار و الأنهار، و يتصل بها جبل تارني، و هو و ما يلي جبال معمورة إلى تيزيل و هي أول الصحراء،

1- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 138.

2- العبدري، المصدر السابق، ص 82.

3- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 96.

4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 138.

5- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 2، ص 153.

و منها يسافر إلى سجلماسة و إلى ورجلان و إلى القلعة...»<sup>(1)</sup>، و كانت تيزيل بمثابة مفترق الطرق يؤدي إلى جهات مختلفة.

كانت القوافل التجارية بعد خروجها من تلمسان و نزولها بتيزيل تتجه إما لبلاد مالي عبر سجلماسة و إيالاتن و أما لبلاد النيجر عبر مدينة ورقلة<sup>(2)</sup>، و كانت تحطُّ رحالها بتيزيل عند ذهابها و إيابها باعتبارها محطة مهمة في الرحلة، و ورد ذكر تيزيل عند صاحب الروض المعطار باسم «سول»<sup>(3)</sup> قائلاً: «مدينة سول و هي مدينة في أول الصحراء و هي على الطريق إلى سجلماسة و واركلان و غيرهما من بلاد الصحراء.»<sup>(4)</sup>

1- أبو عبيد البكري، المسالك و الممالك، المصدر السابق، ص 173

2- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ج 2، ص ص 21 - 22.

3- سول: ذكرها البكري باسم تيزيل. أما صاحب الاستبصار فذكرها باسم تنزل.

ينظر: أبو عبيد البكري، المسالك و الممالك، المصدر السابق، ص 173.

مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، المصدر السابق، ص 176.

4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 138.

## ط- الواحات:

أ- سجلماسة<sup>(1)</sup>

كانت سجلماسة من بين الواحات الصحراوية الجنوبية و أكبر المراكز التجارية التي استقطبت تجار الدولة الزيانية، و عنها قال ابن سعيد المغربي: «و أول ما يلقاك من هذا الجزء - أي الجزء الثاني - صحراء سير التي يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة و غانا و هي طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش و وهج الحر. و ربما هبت ريح جنوبية و نشفت المياه التي في القرب، فهم يعيدون إليها المياه التي في بطون الإبل و يجعلون على أفواها الكمام لئلا تأكل شيئاً، فإذا نشف الريح مياههم نحروها جملاً جملاً و شربوا ما في بطنها. و ليس في هذا الجزء مدينة مذكورة غير أوداغست.»<sup>(2)</sup>

كانت سجلماسة يجلب منها التبر و الذهب<sup>(3)</sup>، و اشتهرت واحاتها بإنتاجها التمر، و قد جاء في رحلة ابن بطوطة عنها: «فوصلت إلى مدينة سجلماسة، و هي من أحسن المدن و بها التمر الكثير الطيب، و تشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب، و صنف أيران منه لا نظير له في البلاد... و اشتريت بها الجمال، و علفتها أربعة أشهر. ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث و خمسين، في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفي رحمه الله تعالى، و فيها من تجار سجلماسة و غيرهم.»<sup>(4)</sup>، فكانت سجلماسة مركزاً تجارياً تتجمع فيه القوافل التجارية العابرة للصحراء نحو السودان الغربي.

تحدث عبد الرحمن بن خلدون عن سجلماسة قائلاً: «و سجلماسة؟ قلت: في الحد ما بين الأرياف و الرمال من جهة الجنوب.»<sup>(5)</sup>، و أورد صاحب الروض المعطار عنها: «و سجلماسة محدثة، بنيت سنة أربعين و مائة، أسسها مدرار بن عبد الله، و كان رجلاً من أهل الحديث يقال إنه لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، و سمع منه، و كان صاحب ماشية، و كثيرا ما كان يجتمع بالموضع بربر تلك النواحي، فاجتمع إلى مدرار قوم من الصفرية<sup>(6)</sup>، فلما بلغوا أربعين رجلاً، قدموا على أنفسهم مدراراً، و شرعوا في بناء سجلماسة فبنوها، ثم سورها أبو المنصور اليسع ابن أبي القاسم بن مدرار... و البناءون عندهم يهود لا يتجاوزون بهم هذه الصناعة. و السبب في تسخير أهل سجلماسة لليهود في ذلك كونهم محبين في سكنى بلادهم للاكتساب، لما علموا أن التبر بها أمكن منه بغيرها في بلاد المغرب لكونها باباً لمعدنه...»<sup>(7)</sup>

1- العبدري، المصدر السابق، ص 321.

2- ابن سعيد المغربي،...، المصدر السابق، ص 113.

3- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 142.

4- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 457.

5- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 290.

6- الصفرية: فرقة من فرق الخوارج و هم أتباع زياد بن الأصفر.

ينظر: محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني، الملل و النحل، تح ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، لبنان، ص 67.

7- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 305 - 306.

ب- ورجلان<sup>(1)</sup>

كانت الواحات الشرقية للمغرب الأوسط على علاقة بالسودان و من أبرزها ورجلان و وادي ميزاب التي عرف سكانها نشاطاً تجارياً مع المناطق الشمالية للمغرب الأوسط و منها أراضي الدولة الزيانية، فتوافد هؤلاء على تلمسان و وهران و جزائر بني مزغنة التي كانت أملاك الدولة الزيانية<sup>(2)</sup>، و مما يشار إليه أن ابن سعيد المغربي تحدث عن ورجلان و جعلها ضمن الجزء الثاني في كتابه الجغرافيا قائلاً: «الجزء الثاني: متصل بصحاري مقفرة و يقع فيه من البلاد المذكورة بلاد ومدينتها التي تسمى واركلان، حيث الطول عشرون درجة ونصف والعرض أربع وعشرون درجة ونصف وعشر دقائق...»<sup>(3)</sup>

تمتعت ورجلان بموقع إستراتيجي و ذلك من خلال إشرافها على مختلف الطرق، و قد كانت ملتقى الطرق التجارية منها و إليها، بالإضافة إلى إنتاجها الوفير من مختلف المحاصيل الزراعية و وجود معادن ساهمت في الصناعة، و بالتالي قصدتها القوافل التجارية من مختلف البلاد، منها قوافل تلمسان الزيانية، و قد أعطى صاحب الروض المعطار صورة واضحة عنها قائلاً: «وركلان في طرف الصحراء مما يلي إفريقيا، و هو بلد خصيب كثير النخل و البساتين، و فيه سبع مدائن مسورة حصينة بعضها قريب من بعض، و هي كثيرة الزرع و الضرع و البساتين و المياه... و تضرب ببلد واركلان دنانير على نوع المرابطية، و هي مشهورة، و بين واركلان و الجريد أربعة و عشرون يوماً، و من بلاد الجريد إلى القيروان سبعة أيام... و بينها و بين غدامس نحو عشرين يوماً في صحراء قليلة الماء، و في هذه الصحراء معدن حجارة يشبه العقيق، و ربما كان الحجر الواحد منها ألوان من الحمرة و الصفرة و البياض، و هو أنفق شيء ببلاد السودان عامة و غيرها، و هو عندهم أجل من الياقوت، و هو كالياقوت لا يعمل فيه الحديد، و إنما يتقب بحجر آخر، و لا يظهر معدن هذا الحجر حتى تدبح الإبل فينضح الموضع بدمها، و في هذه الصحراء معدن الشب الطيب.»<sup>(4)</sup>

و عن الواحات يقول صاحب الروض المعطار: «هي بلاد كثيرة في الصحراء ما بين إفريقيا و بلاد مصر، و لولا قلة الماء في هذه الصحراء لكان الطريق من إفريقيا إلى مصر على الواحات أقرب، و بلاد الواحات كثيرة التمر و النخل...»<sup>(5)</sup>

وصف الحسن الوزان و أهلها بقوله: «الصناع فيها كثيرون، و سكانها أغنياء جداً، لأنهم في اتصال مع مملكة أكدز»<sup>(6)</sup>، منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لا سيما من قسنطينة و تونس، يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر و يستبدلون بها يأتي به التجار من بلاد السودان... القمح و اللحم نادران جداً، و تؤكل الجمال و النعام.»<sup>(7)</sup>

1- العبدري، المصدر السابق، ص 321.

2- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 2، ص 155.

3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 126.

4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 600.

5- المصدر نفسه، ص 600.

6- يقول الحسن الوزان عن معاناة التجار في أكدز: «على التجار أن يحملوا الماء في القرب على ظهور جمالهم، و خصوصاً في الطريق الرابطة بين فاس و تينكتو، و بين تلمسان و أكدز. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 75.

7- المصدر نفسه، ص 136.

**ج- فكيك:**

و من الواحات الصحراوية القريبة من سجلماسة، فكيك قال عنها الحسن الوزان: « فكيك عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصحراء يحيط بها عدد كبير من النخيل. و تنتسج النساء ثياباً من الصوف على شكل أغطية السرير، لكنها دقيقة رفيعة حتى يظن أنها حرير، و تباع بثمن مرتفع في مدن بلاد البربر كفاس و تلمسان. و الرجال أذكياً جداً يتعاطى بعضهم التجارة في بلاد السودان... و هذه القصور على بعد نحو مائتين و خمسين ميلاً شرقي سجلماسة.»<sup>(1)</sup>.

**د- تبلت:**

و من الواحات الصحراوية، تَبَلَّتُ التي قال عنها الحسن الوزان: «هو مكان مأهول في وسط صحراء نوميديا، على بعد نحو مائتي ميل من الأطلس و مائة ميل جنوب سجلماسة. و هناك ثلاثة قصور عامرة بالسكان، و أراضيها الصالحة للفلاحة مغروسة بالنخيل، الماء فيها قليل و كذلك اللحم، و تؤكل فيها النعام و الوعول التي تصاد. و رغم أن القوم يتجرون مع بلاد السودان فإنهم فقراء لكونهم خاضعين للأعراب.»<sup>(2)</sup> و كانت تَبَلَّتُ تقع على الطريق المؤدية إلى السودان الغربي.

**هـ- توات:**

كان إقليم يتشكل من ما يزيد عن الثلاثمائة و خمسين من القصور و الواحات المتناثرة، و قد ازدهرت واحات توات اقتصاديا حيث كانت تستقطب القوافل التجارية القادمة من المغرب الأوسط (تلمسان) و المتوجهة نحو أسواق مالي و التجار الذين كانوا ينشطون ما بين سجلماسة و إيولاتن. و كان التجار يتزودن في توات بما يحتاجونه من غذاء و ماء و تسويق لمنتجاتهم<sup>(3)</sup>، و لقد تحدث ابن بطوطة عن توات: « و قصدت السفر إلى توات، و رفعت زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا و توات، إنما يوجد اللحم و اللبن و السمن و يُشترى بالأثواب»<sup>(4)</sup>، أي كانت المبادلات التجارية فيها تتم بالمقايضة.

و من بين قصور توات المشهورة قصر تُسَبِتُ الذي قال عنه الحسن الوزان: « إقليم مأهول في صحراء نوميديا على بعد نحو مائتين و خمسين ميلاً شرق سجلماسة و مائة ميل من الأطلس، يضم أربعة قصور و قرى عديدة في تخوم ليبيا، على الطريق المؤدية إلى مملكة أكزز في بلاد السودان.»<sup>(5)</sup>، و من قصور توات أيضاً تيكورارين<sup>(6)</sup>: «منطقة مأهولة في صحراء نوميديا، بعيدة بنحو مائة و عشرين ميلاً عن شرق تسبت، حيث يوجد ما يقرب من خمسين قصراً و أكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل. و سكان هذه المنطقة أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيراً بسلعهم إلى بلاد السودان. و هنا مجمع القوافل، لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان، ثم يذهبون جميعاً.»<sup>(7)</sup>

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص ص 132 - 133.

2- المصدر نفسه، ص 129.

3- حوتية محمد، توات و القوافل التجارية، مجلة طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ، الجزائر، 2001، ص 35.

4- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 474.

5- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 133.

6- تيكورارين: معناها بالبربرية المعسكرات، و يعرّب فيقال كرامة. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، الهامش 39، ص 133.

7- المصدر نفسه، ص 133.

## ي- السودان الغربي:

## - أودغست:

اختلف الجغرافيون العرب في تحديد موقع أودغست من حيث العرض<sup>(1)</sup>، و قد يعود هذا الاختلاف إلى اختلاف بين الفترة و الأخرى التي عاشها و درسها كل جغرافي على حدا، و مهما كان الاختلاف فإنهم يتفقون على أن أودغست تقع على أهم طرق السودان الغربي. أما صاحب الروض المعطار الذي يبدو أنه أخذ معلوماته الجغرافية عن أبي عبيد الله البكري فقد جعل أودغست بين سجلماسة و غانة قائلاً: «...و بين أودغست و سجلماسة نحو خمسين مرحلة و منها إلى غانة نحو عشرين مرحلة.»<sup>(2)</sup>، و كانت أودغست نقطة عبور مهمة للقوافل التجارية نحو غانة و باقي بلاد السودان.

كانت أودغست في أواخر القرن الثالث و أوائل القرن الرابع الهجري، عاصمة الأمبراطورية الصنهاجية التي كان يخضع لها عدد من الإمارات في بلاد السودان الغربي. كانت أودغست التي ظلت رداً من الزمان مركزاً لحضارة إسلامية مزدهرة، شملت عدد كبير من المساجد و المدارس و المؤسسات و الأسواق، التي كان يتم فيها تبادل منتجات بلاد المغرب بالعبيد و الذهب، و كانت تربط أودغست ببلاد المغرب الشمالية في العصور الوسطى، عدد من طرق القوافل، أشهرها الطريق التي كانت تسمى طريق التمر.<sup>(3)</sup>، و كان التمر يجلب إليها من واحات بلاد المغرب الإسلامي.

تحدث صاحب الروض المعطار عن أودغست قائلاً: «مدينة في صحراء لمتونة و السودان، و هي مدينة عظيمة أهلة لكنها صغيرة، و في صحرائها ماء قليل، و هي بين جبلين شبه مكّة في الصفة... و منها إلى غانة اثنتا عشرة مرحلة و كذلك من أودغست إلى مدن واركلان إحدى و ثلاثون مرحلة، و في أودغست أم لا تحصى، و لها بساتين كثيرة و نخل كثير و يزرعون فيها القمح بالحفر بالفؤوس و يسقونه بالدولاب، و كذلك يسقون بساتينهم، و إنما يأكل القمح عندهم الملك و أهل اليسار منهم، و سائر أهلها يأكلون الذرة و المقائي تجود عندهم، و البقر و الغنم عندهم أكثر شيء و أرخصه فيشتري في أودغست...»<sup>(4)</sup>.

و عن أهل أودغست يقول صاحب الروض المعطار: «...و هم أرباب نعم جزيلة و أموال جليظة، و لهم أسواق حافلة عامرة الدهر كله لا يكاد يسمع الإنسان فيها صوت جليسه لكثرة غوغاء الناس، و تجاراتهم إنما هي التبر ليست عندهم فضة... و بين مدينة بريسي و أودغست اثنتا عشرة مرحلة، و ليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبية و لا اليابسة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل واركلان الصحراء... و هي - أي أودغست - بلاد حر و وهج شديد»<sup>(5)</sup>، نظراً لموقعها الجغرافي و طبيعتها الصحراوية.

1- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 234.

2- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 64.

ينظر كذلك: أبو عبيد البكري، المسالك و الممالك، المصدر السابق، ص 283

3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 234 - 235.

4- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 63.

5- المصدر نفسه، ص 63 - 64.

اشتهرت أودغست بتصدير مواد مختلفة من السلع و البضائع وصفها صاحب الروض المعطار: «... و منها تجلب الدرق الجيدة فان اللط بأرض أودغشت كثير جداً و يجلب أيضاً منها العنبر الطيب لقربها من البحر المحيط، و يجلب منها الذهب الابريز الخالص خيوطاً مفتلة، و ذهب أودغشت أطيّب ذهب الأرض و أصحه...»<sup>(1)</sup>

### - إيولاتن:

ابن بطوطة: «ثم وصلنا إلى مدينة إيولاتن في غرة شهر ربيع الأول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة. و هي أول عمالة السودان و نائب السلطان بها فزبا حسين و فزبا معناه النائب. و لما وصلنا جعل التجار أمتعتهم في رحبة، و تكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفريا و هو جالس على بساط في سقيف، و أعوانه بين يديه بأيديهم الرماح و القسي، و كبراء مسوفة من ورائه. و وقف التجار بين يديه، و هو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم. فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم، لسوء أدبهم و احتقارهم للأبيض... و بلدة إيولاتن شديدة الحر، و فيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ. و ماؤهم من إحساء بها ولحم الضأن كثير بها. و ثياب أهلها حسان مصرية. و أكثر السكان بها من مسوفة...»<sup>(2)</sup> الذين كانوا يمتنون مهنة مرشدي القوافل التجارية في الصحراء و يقدمون لها الخدمات الضرورية، و قد استقر بها اثنتان من أسرة المقري هما عبد الواحد و علي و كان ذلك في النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.<sup>(3)</sup>

كانت مدينة إيولاتن سوقاً يقصده التجار المغاربة و منذ النصف الثاني من القرن الثامن الهجري و بداية القرن التاسع الهجري (14 و 15 م) أخذت إيولاتن تفقد قوتها التجارية بعدما تخطى عنها التجار المغاربة و التوجه نحو أسواق تمبوكتو و غاو و غيرها.<sup>(4)</sup>

1- نفسه، ص 64.

2- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 460.

3- ميخوت بودواية، المرجع السابق، ص 301.

4- المرجع نفسه، ص 301.

## المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية:

## المطلب الأول: عناصر المجتمع

يبدو أن الأصول العرقية لعناصر سكان المغرب الأوسط خلال العهد الزياني كانت متشعبة، بحيث يصعب على الباحث الإلمام بكل مكوناتها، و السبب في ذلك يعود إلى نقص الوثائق من جهة و إلى التمازج الذي حدث بين السكان الأصليين من البربر وبين الأجناس الأخرى<sup>(1)</sup>، فكان المجتمع الزياني خليطاً من العناصر البشرية يجمعه التعايش و الاحترام المتبادل، و كان يتشكل من العناصر التالية:

أ- قبائل البربر<sup>(2)</sup>:

سكنت قبائل عديدة تلمسان و المغرب الأوسط أبرزها زناتة<sup>(3)</sup>، فقد أشار الجغرافي ابن سعيد المغربي عند تعرضه إلى تلمسان قائلاً: «هي الآن قاعدة بني عبد الواد من زناتة»<sup>(4)</sup>، و عن قبائل زناتة يقول المدجن عبد الله ابن الصباح في رحلته: «و هذا الاسم - أي زناتة - مأخوذ من شجرة الزان عندهم في جبل يسمى جبل الزان، قيل إنهم مروا به و سكنوه و انتشروا منه في البلاد وقت خروجهم من اليمن، فكلما مروا ببلد سئل الرجل منهم من أين أنت فيقول من جبل الزان لقلّة معرفتهم بالبلاد حتى غلب عليهم الاسم فقليل لهم زنات أي زناتي، ينسب الاسم لشجر الجبل لأنّ الغالب على شجر الجبل شجر الزان فانتشروا في الغرب كله و حدّهم من الشرق جبال غريان على مدينة طرابلس إلى أقصى المغرب. و قيل إن اسم زناتة الصحيح جناة بالجيم لأن اسمهم الجناوية، و قد قيل من لغات الفارسي و هم منتشرون.»<sup>(5)</sup>

تعرض ابن خلدون إلى قبائل زناتة قائلاً: «و أما المغرب الأوسط فهو في الأغلب ديار زناتة كان لمغراوة و بني يفرن. و كان معهم مديونة و مغيلة و كومية و مطغرة و مطماطة، ثم صار من بعدهم لبني و ماتوا و بني يلومي. ثم صار لبني عبد الواد و توجين من بني مادين و قاعدته لهذا العهد تلمسان»<sup>(6)</sup> و «مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر اختطها بلكين بن زيري، و مدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف، و مدينة لمدونة أهلها من بطون صنهاجة و هذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط»<sup>(7)</sup> لذلك استولت زناتة على حكم المغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية.

يقول صاحب الروض المعطار: «و كانت تلمسان دار مملكة زناتة في هذه العصور القريبة، و حواليها قبائل كثيرة من زناتة و غيرهم من البربر»<sup>(8)</sup>، و قد استطاعت قبائل زناتة أن تحكم بلاد المغرب خلال العهد الزياني، و توطد أركان دولتها - أي الدولة الزيانية - و ذلك بعقد تحالفات مع قبائل أخرى.

1- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 170

2- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 96.

البربر: كلمة مشتقة حسب رأي البعض من الفعل العربي بربر بمعنى هَمَسَ. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 34

Ernest Mercier, op.cit, P.181.

-3

4- ابن سعيد المغربي،...، المصدر السابق، ص 140.

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 102.

6- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، المصدر نفسه، ج 6، ص 134.

7- المصدر نفسه، ج 6، ص 204.

8- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

ب- العرب<sup>(1)</sup>:

تواجد العرب بالمغرب الأوسط منذ الفتح العربي الإسلامي في نهاية القرن الأول الهجري، السابع الميلادي كالعرب اليمانيين و المضريين و الشاميين و العراقيين<sup>(2)</sup> و قد استمر العنصر العربي في التدفق إلى المغرب الأوسط في عهد الولاة خلال القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، مع القواد كلثوم بن عياض (123 هـ/740 م)، و محمد بن الأشعث الخزاعي (155 هـ/772 م)، و روح بن حاتم (172 هـ/790 م)، و معظم القبائل و الجيوش التي قدمت إلى بلاد المغرب الأوسط، كانت من العرب اليمانية و المضرية<sup>(3)</sup> بهدف نشر الإسلام و تعاليمه بالمنطقة.

كانت هجرة بني هلال إلى المغرب الإسلامي بتوجيه من قبل الفاطميين في مصر و قد هاجروا من الصعيد خاصة و كانت هجرتهم الأولى من جزيرة العرب و سيناء، و كانوا أخلطا من القبائل العربية غلب اسم بنو هلال و إن كان بنو سليم أقوى هذه القبائل<sup>(4)</sup> و من بين القبائل الهلالية التي استقرت بالمغرب الأوسط زغبة و أهم بطونها بني عامر، يقول عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «فسار (السلطان أبو حمو) من تلمسان يجر الشوك و المدر، حتى خيم بالرّشة من ساحتها، و معه أحياء رُغبة بجموعهم و طعائهم، من لدن تلمسان، إلى بلاد حُصَيْن، من بني عامر، و بني يعقوب، و سُويْد و الدِيَالَم و العَطَاف، و حُصَيْن.»<sup>(5)</sup>، و قد تطرق الحسن الوزان إلى قبائل عربية كانت تقطن بالمغرب الأوسط، منها بني عامر قائلاً: «أهم فرع لهذا الرهط بنو عامر المقيمون بتخوم مملكة تلمسان و وهران، يرتحلون إلى صحراء تيكورارين<sup>(6)</sup> و يستأجرهم ملك تلمسان و هم ذوو شجاعة فائقة و ثروة طائلة، عددهم نحو ستة آلاف من أحسن الفرسان و أقواهم عتادا... أما عروة القاطنون بضواحي مستغانم عددهم حوالي ألفي فارس... و تسكن عقبة ضواحي مليانة... و ديار هبرة في السهل الممتد بين وهران و مستغانم و لعل عددهم مائة ألف... و تسكن مسلم مفازة مسيلة.»<sup>(7)</sup> تحدث ابن الحاج التّميري في رحلته عن شنّ السلطان المريني حملته على أعراب و عرب المغرب الأوسط قائلاً: «عطف على القصور التي اعتادها المعتدون، و القلاع التي شيّدها بلميس العرب المفسدون، و بنوها ضراراً بالأوطان التي في اقتحامها يجهدون، و لتخريب عمارتها يصعدون، و لشن الغارات على صغفاتها ينفدون.»<sup>(8)</sup>، و كان الهدف من حملته هذه تدمير مراكز تجمع قواتهم بالمغرب الأوسط و القضاء على فلولهم و تشتيت ما تبقى منها.

1- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، المصدر السابق، ص 49.

2- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 170

3- المرجع نفسه، ج 1، ص 172

4- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 3، ص 47.

5- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 97.

6- تيكورارين: منطقة مأهولة في صحراء نوميديا، يوجد بها ما يقرب من خمسين قصرا و أكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل. و سكان هذه المنطقة

أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السودان. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 133 - 134

7- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 51

8- ابن الحاج التّميري، المصدر السابق، ص 418.

## ج - الأندلسيون:

عرف المغرب الأوسط، توافد جالية أندلسية، خاصة في فترة الأزمات السياسية للأندلس<sup>(1)</sup>، فالهجرة الأندلسية بدأت نحو المغرب الإسلامي مع بداية ضعف المسلمين في الأندلس و توسع النصارى على حساب المراكز الإسلامية مثل قرطبة التي سقطت سنة 633 هـ/1235 م و غيرها من الحواضر الإسلامية الأندلسية، مما جعل سكان تلك المدن يتوجهون إلى غرناطة أو مدن المغرب الإسلامي كتلمسان<sup>(2)</sup> لتوفر الأمن و الاستقرار و كان للجالية الأندلسية دور كبير في ازدهار الحياة الفكرية و الاقتصادية بالمغرب الإسلامي.

ذكر الحاج عبد الله بن الصباح عند خروجه من مملكة غرناطة قبل سقوطها قاصداً بلاد المغرب و زيارة مدينة تلمسان قائلاً: «نخرج من ملك بني الأحمر و هو مسيرة سبعة أيام طولاً و ثلاثة أيام عرضاً و لكن عمارتها من القرى و الحصون و جميع العماير ينظر بعضها بعضاً لا تغيب مدينة عن أخرى و لا قرية من أخرى و لا حصن عن آخر كلها ينظر بعضها بعضاً اللهم عمّرها بالإسلام إلى يوم البعث.»<sup>(3)</sup>

آثار بعض علماء الأندلس و مفكريها الهجرة من البيئة الأندلسية التي أخذت تتحدر نحو الهوان، و أخذت عناصر القوة و العزة و المنعة فيها تتبدد... فقصدوا بعض أنحاء من البلاد الإسلامية التي فتحت ذراعيها تحتضن الوافدين من الجزيرة الجريحة، الباحثين عن جو أنسب و أرحب لممارسة نشاطهم العلمي.<sup>(4)</sup>

و قد مسّت هذه الهجرة الاضطرارية حتى عامة الناس لخوفهم على دينهم و أرواحهم فنزل بعضهم بتلمسان طلباً للأمن و الأمان. و كان لا يفصل بين الأندلس و بلاد المغرب سوى البحر على مسافة قصيرة، حيث قال صاحب الروض المعطار عن الأندلس: «و الأندلس آخر المعمور في المغرب لأنها متصلة ببحر أقيانس الأعظم الذي لا عمارة وراءه»<sup>(5)</sup>

د - عناصر أخرى: منها

- اليهود<sup>(6)</sup>:

وُجدت اليهودية ببلاد المغرب منذ عهد قديم فاستقروا بالمنطقة مع الفينيقيين في موجات متعاقبة و على مراحل عديدة، و لعل استقرار اليهود بمدينة تلمسان، كان الفتح العربي الإسلامي لها<sup>(7)</sup>، فمنهم عدد نزل بالمغرب الأوسط بعد فرارهم من الأندلس و صقلية حيث كانوا يرافقون القوافل التجارية المنطلقة من الجزائر و تلمسان نحو السودان الغربي. و اغتتم اليهود ضعف حكام الدولة الزيانية فتسللوا إلى داخل تلمسان و أقاموا بها حياً لهم<sup>(8)</sup>

1- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 170

2- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 3، ص 77.

3- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 77.

4- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 28.

5- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 32.

6- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 131.

7- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 193. ينظر كذلك: فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع

و الثامن الهجري الموافق ل 14 - 15 ميلادي، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع، 2011، ص ص 13 - 15.

8- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، المرجع السابق، ج 3، ص 81.

تحدث الحسن الوزان عن حي اليهود بتلمسان: «و حارة تضم نحو خمسمائة دار لليهود، كلهم تقريباً أغنياء يضعون على رؤوسهم عمامات صفراء، لكنهم لم يبقوا أغنياء إلا فترة من الزمان، إذ نهبت أموالهم بعد موت الملك أبي عبد الله عام 932 هـ، فأصبحوا اليوم يكادون يتكفون الناس»<sup>(1)</sup>، كما تعرض أيضاً إلى الجالية اليهودية التي استقرت بصحراء تيكورارين جنوب المغرب الأوسط قائلاً: «كان بعض اليهود الأغنياء يقيمون بتيكورارين»<sup>(2)</sup> غير أن اليهود استغلوا الأوضاع المتردية للدولة الزيانية بنفوذهم و ترائهم فكثرت المؤامرات. -النصاري<sup>(3)</sup>:

وُجدت فئة من النصاري خلال القرن 5 هـ/11 م في مدينة تلمسان، كانت لهم كنائس يمارسون فيها بكل حرية شعائهم الدينية و يتضح ذلك ما قاله البكري: «و بها - أي تلمسان - بقية من النصاري إلى وقتنا هذا و لهم بها كنيسة معمورة»<sup>(4)</sup>، و قد كان موقع تلمسان من عوامل استقطاب النصاري بها.

كان النصاري جميعهم من أصل أوربي، إذ آخر ما تبقى من آثار المسيحية بالمغرب الإسلامي اندثر منذ القرن 6 هـ/12 م تحت تأثير الحركة الموحدية، و رغم ذلك ظل النصاري متواجدين بالدولة الزيانية فكان منهم التجار الذين يعيشون غالباً في المواني مجتمعين بحسب جنسياتهم، يتاجرون تحت إشراف قنصل معتمد لدى العاهل الزياني، و كان يوجد في البلاط الزياني حرس نصراني<sup>(5)</sup>، و قد وُجدت بتلمسان أماكن للنصاري سابقاً، منها ما ذكره ابن الحاج النُميري: «ساقية النصراني»<sup>(6)</sup> التي نزل بها السلطان أبي عنان المريني، و قد تكون أماكن بالمغرب الأوسط تشتهر هي الأخرى بأسماء نصاري.

عرف المسلمون في المشرق و المغرب، الأعلاج أو الصقالبة<sup>(7)</sup> منذ وقت مبكر، و هو ما عكسته كتاباتهم عنهم، رغم ما يشوبها من غموض و حكايات و طرائف كثيرة، فقد تحدث ابن رُسته<sup>(8)</sup> عن أرض الصقالبة و خيراتهم، و عاداتهم و ديانتهم، و قدم معلومات حول تجارتهم و نظامهم السياسي، كما كتب عنهم ابن فضلان في رحلته و ابن خلكان، و ياقوت الحموي و القلقشندي و غيرهم. و ظلت هذه المعرفة قائمة فيما بعد رغم توقف تجارتهم خاصة نحو البلاد المغرب<sup>(9)</sup>، و قد جُلب الكثير من الصقالبة إلى بلاد المغرب و تلمسان على شكل رقيق أو ما أصطلح عليه بالرقيق الأبيض.

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 19

2- المصدر نفسه، ص 134

3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 185.

4- أبو عبيد البكري، المسالك و الممالك، المصدر السابق، ص 172.

5- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 490

6- ابن الحاج النُميري، المصدر نفسه، ص 487.

7- الصقالبة: مشتقة من اللفظة الفرنسية (ESCLAVE) و معناه العبد أو الرقيق، و هو المصطلح الذي أطلقه الجغرافيون المسلمون في العصر الوسيط. ينظر: عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 204

8- ابن رُسته: هو أبو علي أحمد بن عمر بن رسته.

ينظر: أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، الأعلام النفسية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1988، ص ص 132 - 134.

9- عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب و الأندلس، مؤسسة الأنتشار العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ص 214.

تبرز الهدايا التي توصل بها أمراء الدول المغاربية كقناة واضحة لاستقرار الصقالية في بلاد المغرب، فقد وجه الأمير الزيري باديس بن المنصور سنة 405 هـ / 1045 م هدية إلى الخليفة الحاكم الفاطمي بمصر، ضمنها «عشرون وصيفة بارعة جمال، و عشرة من الصقالية، و رغم أن الهدية لم تصل إلى مصر، لاعتراض العرب سبيلها في برقة.»<sup>(1)</sup>، فالهدية تعبر عن حضور صقلبي مهم في بلاد المغرب.

ذكر الحاج عبد الله ابن الصباح ذلك في رحلته: «لحقت في زمني هذا علجا من علوج<sup>(2)</sup> أبي تاشفين الأول من ملوك بني عبد الوادي و حدثني عن مملكة أبي تاشفين، و كان اسم العليج البلغاري باسم العجم و كان العليج المذكور من مخاصي الجواري التي كانت إلى أبي تاشفين حتى كان يحكى أنه دخل على مولاه يوما من الأيام فرأى في مرتبته مثل شجرة مرصعة بالجواهر...»<sup>(3)</sup>، و هذا ما أوضحه التنسي في نظم الدر و العيان في كلامه على أبي تاشفين: «و كانت عنده شجرة من فضة على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة و أعلاها صقر فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة و بلغ الريح مواضع الطيور صوتت بمنطقها فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها.»<sup>(4)</sup>

أورد الحاج ابن الصباح حواراً جرى بينه و بين نصراني في بلاد الشام قائلاً: «...و قد كنت ذات يوم في بيروت مرسى دمشق و ذكرت بلاد النصارى و رفاهيتها و المال و العتاد و التجارة و الكفاية التي فيها، فقام رجل نصراني و قال لي يا هذا المسلم سمعت حديثك و فهمت كلامك من عافية النصارى و مالهم و تعجبك منهم و من بلادهم، فقلت إنك لا تعلم شيئاً فقلت له لم ذلك فقال يا مسلم إن في دمشق الشام من مال و من تجارات و عافية جميع ما يحتاجه أهل الأرض من عجم و عرب فقلت له بين لي ذلك حتى أعرفه قال النصراني رأيت يا مسلم تجار أرض النصرانية كلها من حبش و فنش و قطلان و افرنسة و رومة و إفرنج و جزر بحر الروم و بحر الهند و بحر اليمن و بحر النيل الحلو و مشارق الأرض و مغاربها من عرب و عجم كلهم يأتون إلى بلاد دمشق و إسكندرية فتأخذ منهم الداخل و تُعطيهم الخارج فهذا يدل على أن بلاد الشام و مصر تعدل بلاد التجار كلها. فبقيت متعجبا في فطانة هذا النصراني و قلت صدق النصراني في مقالته، و كذب في دينه، إذ هو و دينه على الباطل كما قال الله تبارك و تعالى: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ﴾<sup>(5)</sup>. أما ما كان من أمور الدنيا فهم يقومونها جد التقويم و أما أمور الآخرة فما لهم فيها قوام و لا نصيب ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾<sup>(6)</sup>...»<sup>(7)</sup>

1- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص ص 260 - 261.

2- ذكر ابن خلدون في العبر بعض أسماء هؤلاء الأعلاج فمنهم هلال المذكور و مسامح المسمى بالصغير و فرج و ظافر و مهدي و علي و فرج الملقب بشقورة.

ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، ج7، المصدر السابق، ص ص 139 - 140.

3- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 93.

4- محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 141.

5- سورة الأنعام، الآية 73 .

6- سورة الروم، الآية 7 .

7- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 98.

كان النصارى يعيشون في سلم داخل المجتمع الزياني باعتبارهم أهل عهد، و يظهر ذلك من خلال قول لسان الدين بن الخطيب: «...و أخذ موثيق من لديه من النصارى بعد أن أكثر عُرفاءهم.»<sup>(1)</sup>، و سكن النصارى بحي خاص بهم عُرف بربض النصارى، و اهتموا بالمحافظة على عاداتهم و تقاليدهم و ممارسة شعائرهم الدينية<sup>(2)</sup>، و يتضح ذلك من قول فقال صاحب الروض المعطار: «و فيها - أي تلمسان - بقية من النصارى و لهم بها كنيسة معمورة.»<sup>(3)</sup>

كان اليهود و النصارى من أهل الذمة بالمجتمع الزياني، حيث لقيت هذه الطبقة اهتمام السلاطين بتلمسان خاصة بعد الهجرة التي عرفها العرب و اليهود و النصارى إلى بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ/1492 م على يد النصارى<sup>(4)</sup>، و بالرغم من السلم الذي ضمنه سلاطين بني عبد الواد لِنصارى تلمسان و المغرب الأوسط، إلا أن بني جلدتم حاولوا التسلط و المس بالاستقرار السياسي للدولة الزيانية، و هذا ما أوضحه الرحالة المغربي العبدري عند وصوله مدينة بونة قائلاً: «ثم وصلنا إلى مدينة بونة...و من أغرب المسموعات أننا صادفنا - وقت المرور بها - زُوَيْرَقاً للنَّصارى، لا تبلغ عمارته عشرين شخصاً، و قد حَصَرُوا البلد حتَّى قطعوا عنه الدخول و الخروج، و أسروا من البرِّ أشخاصاً فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد، و تركناهم ناظرين في فدائهم.»<sup>(5)</sup>، و بقي العبدري محتاراً حول مصير هؤلاء الأسرى.

تحدث عبد الرحمن بن خلدون في رحلته عن سُفن القراصنة النصارى عندما أراد الرحلة إلى الأندلس قائلاً: «و لما أجمعت الرحلة إلى الأندلس، بعثت بأهلي و ولدي إلى أحوالهم بقسنطينة، و كتبت لهم إلى صاحبها السُّلطان أبي العباس أحمد بن الشريف الحسني، ذو النسب الواضح، السالم من الزَّيبة عند كافة أهل المغرب، و انتقل سلفه إلى سبته من صقلية، و أكرمهم بنو العَرْفِيّ أولاً و صاهرهم...فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق فأسروهم. و انتدب السُّلطان أبو سعيد إلى فديتهم، رعاية لشرفهم...»<sup>(6)</sup>.

### - العبيد:

كان الرقيق الأسود موجوداً بين العناصر الاجتماعية المختلفة في مدينة تلمسان خلال العهد الزياني، و كان أغلبهم من الخصيان، الذين يعملون في القصور، و الحقول و الجيش، و من الجواري اللاتي كن يسخرن للخدمة في المنازل، فقد كانوا يجلبون من بلاد السودان التي كانت المصدر الرئيسي للرقيق الأسود، حيث كانوا يصطادون بعد غارات كان يقوم بها أهل غانة و التكرور على حافات الغابات، فيسبون الرجال و النساء و الأطفال و يبيعونهم لتجار المغرب و اليهود، الذين ينقلونهم إلى الشمال الإفريقي<sup>(7)</sup>، و منه إلى تلمسان حيث كانوا يستغلون في المجالات الشاقة كالزراعة و التعدين و حتى الحروب و غيرها.

1- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 306.

2- سميرة نميش، دور أهل الذمة بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني من القرنين (7 - 10 هـ / 13 - 16 م)، أطروحة لنيل درجة ماجستير، 2013 - 2014، ص 49.

3- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

4- سميرة نميش، المرجع السابق، ص أ.

5- العبدري، المصدر السابق، ص 104.

6- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 83.

7- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 184 - 185.

كانت مدينة واركلان أبرز مركز تجاري في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، إذ كانت المزود الرئيسي لأهل إفريقية و المغرب الأوسط بحاجتهم من الرقيق ، و هو ما يثبته الجغرافي ابن سعيد المغربي: «و هي بلاد نخل وعبيد و منها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط و إفريقية، و السفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير.»<sup>(1)</sup>، خاصة بعد تراجع الطريق الرابط بين تادمكة و غدامس و جبل نفوسة و طرابلس، فقد ارتبطت واركلان في القرن 5 هـ/11 م ببلاد قسطنطينية و قلعة بني حماد و تلمسان.<sup>(2)</sup> و كانت تجارة الرقيق ببلاد المغرب رائجة، إذ قال صاحب الروض المعطار عن مدينة بونة: «يصح بها السودان و يسقم البيضان»<sup>(3)</sup>

كان أهل السودان الغربي أنفسهم يتباهون بكثرة العبيد و الخدم، حيث قال ابن بطوطة: «و لأهلها رفاهية وسعة حال و يتفاخرون بكثرة العبيد و الخدم و كذلك أهل مالي و إيالاتن ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادرا وبالثلثم الكثير أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلمة فلم أجدها ثم بعث إلي القاضي أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا.»<sup>(4)</sup>

كان الذهب و العبيد مرتبطان في تجارة السودان نحو بلاد المغرب، ذلك أن القافلة الواحدة كانت تجمع بين تجار الذهب و تجار العبيد<sup>(5)</sup>، فوصف الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته دولة أبي تاشفين: «مملكته عظيمة... القدرة الواسعة بالمال و العبيد.»<sup>(6)</sup>، و قد كان المسلك الرابط بين سجلماسة و غانة من أهم المسالك التجارية نحو السودان الغربي، قال عنه صاحب الروض المعطار: «و سجلماسة من أعظم مدن المغرب، و هي على طرف الصحراء لا يعرف في قبليها عمران، و بينها و بين غانة في الصحراء مسيرة شهرين في رمال و جبال غير عامرة، قليلة الماء...»<sup>(7)</sup>. كما وجدت ضمن المجتمع الزياني عناصر بشرية أجنبية أخرى، منها الأعزاز<sup>(8)</sup> و غيرها.

1- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا...، المصدر السابق، ص 126.

2- عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 189.

3- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 115.

4- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 473.

5- عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 190.

6- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 93.

7- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 305.

8- الأعزاز: من القبائل التركية التي قدمت من بلاد المشرق. ينظر: عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 180.

## المبحث الثاني: طبقات المجتمع

قسم المجتمع الزياني إلى طبقات- شأن أي مجتمع آخر- إلا أنه من المفروض ألا يقسم إلى درجات<sup>(1)</sup> كون العقيدة الإسلامية تنبذ التصنيف الفئوي و الطبقي، و تدعو المسلمين إلى المساواة في إطار الأمة الواحدة، إلا أن واقع الحياة و ظروف العيش و سلوك الفرد أفرزت فئات و طبقات اجتماعية متباينة<sup>(2)</sup> و ما ميّز المجتمع الطبقي هو الملكية الفردية لوسائل الإنتاج، و استغلال الأقلية المالكة للأغلبية غير المالكة، بينما في المجتمع المغربي الإسلامي، يمكن الحديث عن فئات و طبقات اجتماعية مختلفة عن بعضها البعض، لكن لا تسمح لها بالارتقاء إلى مستوى مفهوم الطبقة<sup>(3)</sup>، فكان التقسيم الاجتماعي خاضعاً إلى معايير محددة.

و من الدراسات التي اختلف فيها الدارسون للمجتمع الزياني في ضبط طبقاته الاجتماعية، «وصف إفريقيا» للحسن الوزان خلال القرن 10 هـ/16 م قد قسم المجتمع التلمساني إلى أربع طبقات<sup>(4)</sup>، بينما نجد مرمول كاريخال في مؤلفه «إفريقيا» قسمه إلى ثلاث طوائف<sup>(5)</sup>. و بالرغم من تقارب هاتين الدراستين - الحسن الوزان و مرمول كاريخال -، نجد مرمول كاريخال الذي ربما نقل عن الحسن الوزان قد أنقص فئة من المجتمع الزياني، لأن مرمول درس تلمسان بعد الوزان و بالتالي لم يجد الفئة التي ذكرها الوزان. و يمكن تقسيم المجتمع في عهد الدولة الزيانية إلى طبقات هي:

**أ- طبقة الحكام:** تمثل الفئة العليا من المجتمع و هم السلاطين و الأمراء والحجاب و الوزراء وكتاب الدواوين و الولاة و قادة الجيش<sup>(6)</sup>، لهم امتيازات و إعفاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من أن يعيشوا عيشة راضية<sup>(7)</sup>، و وصف ملكهم الحاج عبد الله بن الصباح بقوله: «يفتخر على ساير الملوك من ملوك المغرب بالعدة و الشدة و القوة»<sup>(8)</sup>، و يضيف ابن الصباح عن قياد الدولة الزيانية قائلاً: «...و كان في خدمتها... و قياد مثل القايد هلال<sup>(9)</sup> و غيره من القيايد...»<sup>(10)</sup>، فكانوا من المقربين للحكام في تلمسان الزيانية، أصحاب امتيازات كبيرة مقابل ضمان السير الحسن لشؤون الدولة، و الولاء لها و لسلاطينها.

1- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 489

2- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 211

3- المرجع نفسه، ص 211

4- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 21.

5- مرمول كاريخال، المرجع السابق، ج 2، ص 300

6- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 211

7- مرمول كاريخال، المرجع السابق، ج 2، ص 300

8- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 93.

9- القايد هلال: أصله فارسي من سبي النصارى القطلونيين أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن و صار إلى السلطان أبي حمو فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالي الأعلاج و نشأ معه تزيماً.

ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، الهامش 160، ص 92.

10- المصدر نفسه، ص 92.

وصف الحسن الوزان حاشية السلطان في تلمسان: «يتبع ملك تلمسان مراسيم شديدة، فلا يظهر إلا للعظماء و لكبار الشخصيات من رجال حاشيته، و لا يستقبل إلا هؤلاء وحدهم. و هم الذين ينجزون القضايا حسب النظام المقرر. و في هذا البلاط مناصب و مهام عديدة.»<sup>(1)</sup>، و عن النبلاء و المحاربين بتلمسان يقول مرمول كرخال: «أما النبلاء و المحاربون فيعتزون كثيراً بما لهم من وجهة و شجاعة لأنهم هم الذين يرافقون الملك: لذلك فإن لهم عدة امتيازات و اعفاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من أن يعيشوا عيشة راضية. يقسم الملك بين العمال و أهم القواد جميع رعاياه و مدنه كولايات، و يوليهم المهام الرئيسية في قصره و بلاطه. ذلك هو النظام الذي كان يتبعه ملوك تلمسان.»<sup>(2)</sup>، لكن اختيار الملك كان لا يتعدى بيت الأسرة الحاكمة في تلمسان.

ب- طبقة الفقهاء و العلماء<sup>(3)</sup>: تتكون من أسر أهل العلم و الفكر من الكتاب و الشعراء و الفقهاء و الأساتذة الذين يزاولون التدريس، و عائلات الأطباء أصحاب الحظ في دولة بني زيان.<sup>(4)</sup> يقومون بواجباتهم المنوطة إليهم في الدولة الزيانية، منها الواجبات الدينية و التعليمية. و عن علماء تلمسان قال الحاج عبد الله بن الصباح صاحب الرحلة: «... و لكن نرجع إلى وصف المدينة المذكورة مدينة تلمسان و هي كثيرة العلماء و القراء.»<sup>(5)</sup>، و قد كان العلماء و الفقهاء محل تقدير سلاطين بني زيان، و كثيراً ما دعواهم إلى مجالسهم لغرض الاستشارة و الأخذ بالرأي السديد في قضايا كثيرة تهم المجتمع الزياني. و كان شجع سلاطين بنو زيان لهذه الطبقة نتيجة حاجة الدولة إليها، و ضمان استمرار حلقات العلم و الثقافة.

ج- طبقة التجار: وصفها مرمول بقوله « و الصناع أناس بسطاء لطفاء، يعتزون بأنهم يعملون بأدب و يصنعون أشياء متقنة، يعملون هناك أقمصة، و زرابي فاخرة، و معاطف صغيرة و كبيرة رفيعة جداً... فضلاً عن طقوم فاخرة للخيل مع ركابات جميلة، و أجم، و مهاميز... يعيش العمال عيشة راضية من كسبهم قوتا و تسلية»<sup>(6)</sup> ثم طبقة الفلاحين.

كان لطبقة التجار خاصة الكبار منهم دور في تراء الدولة الزيانية و ضخامة مواردها المالية و غناها، فقال الحاج عبد الله بن الصباح عن تلمسان في رحلته: «كثيرة الحرث و النسل و التجارة و الحركات...»<sup>(7)</sup>، و وصف الحسن الوزان التجار في تلمسان بقوله: «فالتجار أناس منصفون مخلصون جداً و أمناء في تجارتهم»<sup>(8)</sup>، و وصف مرمول كرخال النشاط التجاري و التجار الأجانب بتلمسان قائلاً: «بها فنادق عديدة على كل طراز البلاد، يقيم في أهمها التجار الحاصلون على جواز الاتجار... أناس طيبون، أوفياء في تجارتهم، معتزون بالنظام و الحضارة و حسن التدبير، مهذبون مع الأجانب...»<sup>(9)</sup>

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 22.

2- مرمول كرخال، المرجع السابق، ج 2، ص 300

3- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 135.

4- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 213

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 97.

6- مرمول كرخال، المرجع السابق، ج 2، ص 300.

7- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 95.

8- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 21.

9- مرمول كرخال، المرجع السابق، ج 2، ص ص 298 - 300.

د - طبقة الصناع وأصحاب الحرف: وهي التي تشتغل في الصناعة و الحرف، قال الحسن الوزان عن تجار تلمسان: «و الصناع أناس أقوىاء يعيشون في هناء و متعة، و يحبون التمتع بالحياة.»<sup>(1)</sup>، و وصفهم مرمول كاريخال بقوله: «و الصناع أناس بسطاء لطفاء، يعتزون بأنهم يعملون بأدب و يصنعون أشياء متقنة، يعملون هناك أقمصه، و زرابي فاخرة، و معاطف صغيرة و كبيرة رفيعة جدا... فضلا عن طقوم فاخرة للخيل مع ركابات جميلة، و أجم، و مهاميز... يعيش العمال عيشة راضية من كسبهم قوتا و تسلية»<sup>(2)</sup> و يمكن إضافة الفلاحين إلى هذه الطبقة الذين يشتغلون في المزارع. و عن تلمسان قال الحاج عبد الله بن الصباح: «كثيرة الحرث و النسل و التجارة و الحركات».<sup>(3)</sup>

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 21.

2- مرمول كاريخال، المرجع السابق، ج 2، ص 300. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 21.

3- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 95.

## المطلب الثالث: أخلاق التلمسانيين و صفاتهم

كانت القيم الدينية تتحكم في تصرفات معظم الناس في تلمسان، و تضبط سلوكهم و توجه حياتهم الدنيوية، و تجعل يوم الآخرة نصب أعينهم و يوم الحساب محل تفكيرهم، و السند الذي ترتكز عليها علاقاتهم مع الآخرين<sup>(1)</sup>. و كان الاحترام متبادلاً فيما بينهم، بما في ذلك أصحاب أهل الذمة - أي اليهود و النصارى -، فقد كانوا يعيشون و يتعايشون فيما بينهم، و أحياناً كانت تربطهم علاقات حميمة.

وصف بعض الرحالة المغاربة و الأندلسيين أخلاق التلمسانيين، و أعجبوا بها بسبب التعامل الجيد الذي لقوه من سكان تلمسان، و قد قال عنهم العبدري: «و أهلها ذوو ليانة و لا بأس بأخلاقهم.»<sup>(2)</sup>، و نظراً لكون تلمسان كانت طريقاً ضرورياً لا بد للمغاربة الاجتياز به خلال رحلاتهم المختلفة، مما جعل هؤلاء الرحالة المغاربة و الأندلسيين لا يشعرون بالغرابة في تلمسان، و اعتاد التلمسانيون على التعامل معهم بطرق لائقة.

وصف ابن الحاج التميمري في رحلته سكان مدينة تلمسان بأسلوب مبالغ فيه، متحيزاً إلى سلاطين بني مرين قائلاً: «و في يوم قوم مولانا رضي الله عنه على تلمسان بالتعبئة التي خضعت لها ملوك الأرض، و الترتيب الفخم الذي أذكر بعرض العساكر يوم العرض. و احتفل أهل تلمسان في البروز المشهود المشهور، و خرجوا عن بكرة أبيهم إظهاراً للسرور و سروراً بالظهور. و جروا على رسومهم المتعارفة في محاجرة أرباب الصنائع، و إبداء أعلامهم السافرة عن المنظر الرائق الرائع.»<sup>(3)</sup>، و هذا لا يعكس حقيقة المجتمع التلمساني الذي ظلّ وفيماً لملوك بني عبد الواد حتى في فترات الأزمات و الحصار الخانق.

اهتم التلمسانيون نساءً و رجالاً بمظهر الملبس، و المأكّل و التأنق فيهما بحيث كانوا يلبسون أحسن الثياب، في مختلف فصول السنة، و يفضلون لبس اللون الأبيض، و الثياب الخفيف في فصل الصيف، و اعتنوا بهيئتهم و هندامهم، حتى الفقهاء و الصالحين و العلماء، و كانت درجة الأناقة تخضع إلى الحالة الاجتماعية و المادية و الثقافية لكل أسرة في تلمسان، فقد تميز سكان المدن بصفة عامة بالألبسة الأنيقة الرفيعة و الجميلة، بينما لبس أهل البوادي الألبسة البسيطة و الخشنّة من الصوف و الكتان، حسب طبيعتهم و ذوقهم و درجة تحضرهم، بينما لبس الأعيان و الأغنياء ألبسة من القطن و الحرير و الكتان و الصوف الرفيع، و كانوا يلبسون أثواباً مستوردة من الأندلس و إفريقية<sup>(4)</sup>، فوصف صاحب الروض المعطار أغنياء تلمسان: «و لم يكن... أكثر من أهلها أموالاً و أرفه حالاً...»<sup>(5)</sup>.

و عن لباس التلمسانيين ذكر مرمول كريخال: «لباس التلمسانيين أكثر أناقة مما هو عليه الحال بفاس، و هو نسيج الصوف و الكتان و الحرير، إنهم محترمون أكثر و حديثهم أمتع. النساء جميلات و زيهن كزي نساء مراكش.»<sup>(6)</sup>

1- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 264.

2- العبدري، المصدر السابق، ص 48.

3- ابن الحاج التميمري، المصدر نفسه، ص 484.

4- عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج 1، ص 266.

5- محمد بن عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 305.

6- مرمول كريخال، المرجع السابق، ج 2، ص 300.

### الفصل الثالث

الحركة الفكرية في تلمسان من خلال كتب الرحالة  
والجغرافيين المغاربة والأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ

(13 و 15 .)

## 1- المبحث الأول: الحياة العلمية في تلمسان الزيانية

### المطلب الأول: ظروفها

### المطلب الثاني: أهم عوامل ازدهارها

1- العوامل الداخلية

2- العوامل الخارجية

## 2- المبحث الثاني: المؤسسات التعليمية

### المطلب الأول: المدارس

أ – مدرسة ابني الإمام

ب – المدرسة التاشفينية

ج – المدرسة اليعقوبية

د – مدرسة العباد

هـ – مدرسة أبي عنان المريني

### المطلب الثاني: المساجد

أ – الجامع الأعظم

ب – مسجد أبي الحسن

ج – مسجد أولاد الإمام

د – مسجد إبراهيم المصمودي

هـ – مسجد أبي مدين بالعباد

المطلب الثالث: الزوايا

3- المبحث الثالث: العلوم السائدة

المطلب الأول: العلوم اللسانية

المطلب الثاني: العلوم النقلية

المطلب الثالث: التصوف

المطلب الرابع: العلوم العقلية

تناولت في الفصل الأحوال الثقافية و الحياة العلمية في تلمسان من خلال كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين، فالمطلب الأول خصصته للظروف العامة التي كانت تحيط بها، فتناولت فيها الظروف الداخلية و الخارجية بشكل عام.

أما المطلب الثاني درست فيه أهم عوامل ازدهار الحياة العلمية في تلمسان و حاولت استخلاصها و استنتاجها من كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين، فقسمتها إلى عوامل داخلية التي كان بينها اهتمام سلاطين بني زيان بالعلم و العلماء، فكان كثيراً منهم يكثر من المجالس العلمية و عوامل أخرى و عوامل خارجية منها دور الرحلة سواء من تلمسان أو إليها منها الرحلات المغربية و الأندلسية .

تناولت في المبحث الثاني المؤسسات التعليمية في تلمسان، منها المدارس و المساجد و الزوايا، رغم أن الزاوية لم تظهر باسمها هذا في بداية التاريخ الحديث و كانت الأربطة ربما هي النواة الأولى التي أسست عليها الزوايا.

خصصت المبحث الثالث للعلوم السائدة في تلمسان من خلال كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين، فكانت مختلفة و متنوعة، منها اللسانيات و العلوم العقلية و النقلية، و قد ورد ذكر علماء كثيرين في كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين، بل كان من بينهم - أي الرحالة المغاربة و الأندلسيين - من تعلم على يد شيوخ من في تلمسان مثل القلصادي.

كما تناولت تيار التصوف السني الذي كان سائداً في تلمسان، و اهتمت كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين بهذا التيار، لأنه كان واسع الانتشار في بلاد المشرق و المغرب، و ربما كان بعضهم - أي الرحالة المغاربة و الأندلسيين - متصوفة، كما أشارت كتبهم لسلاطين اهتموا بالتصوف و صلحاء تلمسان، فمنهم من زار ضريح الغوث أبي مدين الغوث و غيره من صلحاء تلمسان مثل السلطان أبي عنان المريني.

**المبحث الأول: الحياة العلمية في تلمسان الزيانية:****المطلب الأول: ظروفها**

كانت الأحوال السياسية و الاجتماعية للدولة الزيانية في معظمها متميزة بالاضطراب، بسبب الحروب المستمرة مع جيرانها الحفصيين شرقاً و المرينيين غرباً، كما عرفت الدولة الزيانية حالات الفوضى بسبب تنافس أفرادها على العرش، و رغم ذلك فقد كانت الحياة العلمية في تلمسان الزيانية نشيطة جداً، و يتضح ذلك من خلال انتشار المؤسسات التعليمية من مساجد و مدارس و مكاتب و غيرها، و ظهور عدد كبير من العلماء و الفقهاء بتلمسان على مدى ثلاثة قرون، نشروا فيها علومهم، بالإضافة إلى ظهور مؤلفات عديدة، و أصبحت تلمسان مركز إشعاع علمي تُدرّس فيه مختلف العلوم و حاضرة من حواضر بلاد المغرب يستشار علماؤها في كثير من الفتاوى و المسائل الفقهية.

اختلف وصف الرحالة المغاربة و الأندلسيين في وصف الحياة العلمية بتلمسان الزيانية، فمنهم العبدري صاحب الرحلة الذي أمدنا بمعلومات هامة عند وصفه الدقيق، عبّر عنه بركود الحركة الفكرية و الثقافية بالمغرب الإسلامي عقب سقوط الموحدين قائلاً: «و أما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، و غاضت أنهاره فأزدحم على الثماد<sup>(1)</sup>»<sup>(2)</sup>، كما حضر العبدري درساً في النحو بتلمسان فوجد الجهل مطبقاً على الجميع<sup>(3)</sup> و وصف مدينة الجزائر وقتئذ قائلاً: «فلم يبق بها من أهل العلم محسوب، و لا شخص إلى فن من فنون المعارف المنسوب. و قد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كُرْبَةَ، أو أديب يونس غربة، فكأنني أسأل عن الأبلق العقوق. أو أحاول تحصيل بيض الأنوق...»<sup>(4)</sup> و يبدو أن الحركة الفكرية و الثقافية استعادت نشاطها و انتعاشها مع المرينيين في عهد يعقوب بن عبد الحق عندما ظهرت المدرسة في المغرب الأقصى و عند الحفصيين بإفريقية، فيبدو أن العبدري استاء من معظم حواضر العالم الإسلامي نظراً للظروف التي كان يمر بها.

و من الرحالة المغاربة و الأندلسيين الذين أشادوا بالعلم و العلماء بتلمسان، أبو الحسن علي القلصادي عندما كانت مملكة غرناطة تلفظ أنفاسها الأخيرة<sup>(5)</sup>، فلجأ القلصادي مثل الكثير من الأندلسيين إلى حواضر بلاد المغرب الإسلامي و منها تلمسان، حيث تشبّع بالعلوم من علمائها و فقهاءها حتى أصبح مؤهلاً للتدريس في تلمسان، و يبدو أن الاختلاف في وجهات النظر بين الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين حول أوضاع الحياة الفكرية بتلمسان يعود إلى اختلاف زمن زيارة كل واحد منهم لتلمسان.

1- الثماد: الحُفر يكون فيها الماء القليل. ينظر: العبدري، المصدر السابق، ص 49.

2- العبدري، المصدر السابق، ص 48.

3- المصدر نفسه، ص 50.

4- نفسه، ص 82.

5- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 24.

و ممن لقيهم العبدري بتلمسان أبو زكرياء يحيى بن عصام فقال عنه: «و هو رجل حَيٌّ متعفف، له حظ في اللغة، و يقرضُ من الشعر ما لا بأس به، جازاً لأبي عبد الله بن خميس فكنت أجتبع به عنده كثيراً»<sup>(1)</sup>، فبالرغم من الوصف السيئ للرحالة العبدري للأوضاع الثقافية آنذاك بالمغرب الأوسط، إلا أن هذا الوصف لا ينفي وجود علماء و فقهاء.

أثنى المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته التي قام بها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري- الرابع عشر ميلادي على الأحوال الثقافية بتلمسان عندما قال: «مدينة تلمسان و هي كثيرة العلماء...»<sup>(2)</sup>، و يدعم هذا الرأي القلصادي صاحب الرحلة عندما تحدث عن تلمسان قائلاً: «...و سوق العلم حينئذ نافقة، و تجارة المتعلمين و المعلمين رابحة، و الهمم إلى تحصيله مشرفة، و إلى الجد و الاجتهاد فيه مرتقية...»<sup>(3)</sup>

تحدث صاحب الروض المعطار عن الأحوال الثقافية بتلمسان بقوله: «و لم تزل تلمسان داراً للعلماء و المحدثين و أهل الرأي على مذهب مالك»<sup>(4)</sup>، و هو ما يدل على أن تلمسان كانت حاضرة علمية بالمغرب الأوسط، بالإضافة إلى المعلومات التي زودتنا بها كُتب التراجم عن أسماء كثيرة لفقهاء و علماء كبار من تلمسان. و مهما كان الأمر فإن الظروف الثقافية في تلمسان اختلفت من رحلة إلى أخرى، حسب انتقال تلمسان من عهد لآخر، لكن العهد الزياني حسب مؤلفات الرحالة المغاربة و الأندلسيين تميّز أكثر بازدهار الثقافة و العلوم.

### المطلب الثاني: أهم عوامل ازدهارها

كانت الناحية الثقافية في تلمسان خلال العهد الزياني الذي يعتبر رغم الوقائع الحربية المتعددة و الفتن الداخلية المتوالية العصر الذهبي للمغرب الأوسط ففيه بلغت البلاد ذروة عزها و أوج مجدها و رقيها و ازدهارها وذلك يرجع للعوامل الآتية<sup>(5)</sup>:

#### 1- العوامل الداخلية:

**أ- تشجيع ملوك بني عبد الواد للعلم و العرفان:** شجع ملوك بني عبد الواد خاصة أبو حمو موسى الأول و أبو تاشفين عبد الرحمن الأول و أبو حمو موسى الثاني و أبو زيان محمد الأول و أبو العباس أحمد العاقل للعلماء و الأدباء و الفنانين و غيرهم.

تحدث المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح عن ملوك الدولة الزيانية و لا سيما أبو تاشفين الأول<sup>(6)</sup> الذي عرف عهده أوج ازدهار الدولة في مختلف المجالات.

1- العبدري، المصدر السابق، ص 73.

2- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 94.

3- المصدر نفسه، ص 100.

4- محمد بن عبد المنعم الجُميري، المصدر السابق، ص 135.

5- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص ص 64 - 70.

6- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص ص 92 - 94.

**ب- المنافسة بين ملوك المغرب:** تنافس ملوك بني زيان و بني حفص و بني مرين منافسة شديدة في نشر الثقافة و تقريب العلماء و الأدباء إلى مجالسهم، مما جعل ملوك تلمسان و تونس و بجاية و فاس و بنو الأحمر في غرناطة بالأندلس، يرحبون برجال العلم و الأدب و الفن في عواصمهم، و إنزالهم مكانتهم اللاتقة بشأنهم و منحهم الهدايا و العطايا<sup>(1)</sup>، و من الأمثلة على ذلك ما كتبه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته عن دعوة أبو حمو الزياني له قائلاً: «...و كان السلطان أبو حمو قد بلغه خروجي من بجاية... فكتب إليّ يستنقذني...»<sup>(2)</sup>

**ج - إنشاء المدارس<sup>(3)</sup> و وقف الأوقاف<sup>(4)</sup> عليها:** أنشأ الزيانيون مدارس عديدة بتلمسان و كذلك بنو مرين عند استيلائهم عليها و وقفوا الأوقاف عليها حتى تؤدي مهامها كاملة غير منقوصة، و بقيت المدارس التي أنشأها الزيانيون و المرينيون قائمة بعد انقراض دولتهما.

**د- إنشاء المكتبات العامة:** كان بالجامع الكبير بتلمسان في العهد الزياني مكتبتان عامتين حافظتين بالكاتب النفيسة و أمهات الكتب التي يستفيد منها الطلبة، و كانت تلمسان حسب ابن الصباح «كثيرة القراءة»<sup>(5)</sup>.

**هـ- طريقة التعليم المتبعة بتلمسان:** كانت طريقة تلقين العلوم بتلمسان للطلبة أحسن مما كانت عليه في غيرها من المدن العلمية المغربية، فكان الطلبة يتلقون العلوم بالتدريج حسب قوة إدراكهم و فهمهم لها على يد فقهاء يُشهد لهم بالعلم و هذا ما ذكره القلصادي صاحب الرحلة: «فأخذت فيها - أي تلمسان - بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة و البيان»<sup>(6)</sup>، و قد اكتسب فقهاء و علماء تلمسان طرق التدريس من خلال خبرتهم الطويلة في التعليم، و منهم من كتب عنها - أي طرق التدريس - في مؤلفاتهم.

**و- تسليم الإجازة لمن يستحقها:** الإجازة عند المحدثين هي الإذن في الرواية لفظاً أو كتابة و كانت في الأصل لا تمنح إلا لمن يدرس علم الحديث ثم عمم استعمالها فصارت تمنح في كل علم أو فن. لم يكن لطالب العلم أن تنتهي مسيرته في طلب العلم عند تخرجه من المدرسة بل كان لابد عليه ليصبح من العلماء المشهورين أن يسعى للحصول على الإجازات في مختلف العلوم و من أشهر علماء عصره، و

1- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص 64.

2- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 98.

3- ظهرت المدرسة بالمشرق قبل ظهورها بالمغرب بنحو ثلاثة قرون، إذ كانت المدرسة البيهقية بنيسابور أول من حمل اسم المدرسة قبل نهاية القرن الرابع الهجري. ينظر: عبد الله على علام، المرجع السابق، ص 292.

4- ورد لفظ «الأوقاف» في رحلة عبد الرحمن بن خلدون. ينظر: ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 206.

الأوقاف: وقف فلان أرضه وفقاً مؤيداً إذا جعلها حببياً لا تباع و لا تورث.

ينظر: محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، المصدر السابق، ج 54، ص 4898.

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 94.

6- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 100.

الإجازة العلمية هي بمثابة الشهادة التي يسلمها الأستاذ إلى طالبه أو مستجيزه<sup>(1)</sup>، و قد أخذ القلصادي العلم عن علماء تلمسان و استطاع بتكوينه العلمي أن يرقى إلى مكانة لائقة في تلمسان مما أهله للتعليم بها، من الذين تتلمذوا على يد القلصادي بتلمسان: الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني<sup>(2)</sup>، فقال المقرئ صاحب نفع الطيب عن القلصادي: «و كفاه فخراً أن الإمام السنوسي صاحب العقائد أخذ عنه جملة من الفرائض و الحساب، و أجازه جميع مروياته.»<sup>(3)</sup>، و قد يكون القلصادي نفسه حصل على إجازات من علماء تلمسان سمحت له بممارسة التعليم بتلمسان.

## 2 - العوامل الخارجية:

**ز- هجرة الأندلسيين إلى تلمسان:** كثر عدد المهاجرين الأندلسيين نحو تلمسان في العهد الزياني، خاصة بعد أن استولى الأسيبان على حواضر الأندلس مثل طليطلة و قرطبة و اشبيلية و سرقسطة و بلنسية و غيرها، و انحصر معظمهم في مملكة غرناطة التي ضاقت بهم فهاجر عدد كبير منهم العلماء و الأدباء الذين وجدوا بها الحفاوة و الإكرام و نفس الطبيعة التي كانوا يتمتعون بها في بلادهم المهجورة، و قد شبّه المدجّن الحاج عبد اله بن الصباح تلمسان بمدينة شاطبة بالأندلس حين قال: «و قد دخلت تلمسان فرأيت مدينة مناسبة منسب مدينة شاطبة منظرها شمالي غربي في حجر جبل ليس لها قبلي مثل مدينة شاطبة و مثل مدينة انطاكية و مثل برصة و مثل غرناطة»<sup>(4)</sup>

يقول الشيخ ابن عاشور «كان علماء الأندلس لشعورهم بسوء العاقبة يعملون في الهجرة في الهجرة إلى ما جاورهم من بلدان، و كان مقصدهم من ذلك تلمسان و المغرب الأقصى ثم إلى تونس، و بدخول رحالة الأندلس أصبحت هاته الأقاليم وارثة العلوم الأندلسية.»<sup>(5)</sup>، و من هؤلاء المهاجرين أبو عبد الله محمد ابن الحداد الوادي آشي، و قد حلّه المقرئ ب ( الفقيه الأديب حائز قصب السبق في كثرة النسخ و الكتابة)، و قد قصد تلمسان، و عاش بها يحترف بالنسخ و فيها صاهر بني مرزوق<sup>(6)</sup>، و أبو جعفر أحمد البلوي الوادي آشي الذي ارتحل مع أبيه و إخوته من غرناطة بعد التسعين و ثمانمائة فنزلوا بتلمسان، و أخذ عمن أدرك من شيوخها حينئذ ثم ارتحل إلى المشرق<sup>(7)</sup>، و غيرهما من العلماء الذين تشنتوا بين حواضر بلاد المغرب و المشرق.

1- محمد بوشقيف، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن و التاسع الهجريين (15/14 م)، أطروحة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010 - 2011، ص 80.

2- أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني: شيخ العلماء و الزهاد و الأساتذة العباد العارف بالله الجامع بين العلم و العمل، أخذ عن أئمة منهم والده و أخوه لأمه علي التالوتي و القلصادي و أجازه و آخرون. توفي في جمادى الآخرة سنة 895 هـ. ينظر: محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 266.

3- أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفع الطيب...، المصدر السابق، مج 2، ص 692.

4- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 91.

5- المصدر نفسه، ص 28.

6- نفسه، ص 28.

7- نفسه، ص 30.

## ح- الارتحال لطلب العلم:

تنافس ملوك بني زيان و بني حفص و بني مرين منافسة شديدة في نشر الثقافة و تقريب العلماء إليهم و اهتمامهم بهم، مما جعل ملوك تلمسان و تونس و بجاية و فاس و بنو الأحمر في غرناطة بالأندلس، يرحبون برجال العلم و الأدب في عواصمهم، و إنزالهم مكانتهم اللائقة بشأنهم و منحهم الهدايا والعطايا<sup>(1)</sup>، فتعددت المناظرات العلمية و كان للرحلة في طلب العلم دوراً كبيراً في ازدهار العلوم بالمغرب الأوسط و ذلك من خلال الإطلاع على مكتبات مراكز العلم و جلب مصنفات علمية جديدة إلى تلمسان.

قال عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «و لم أزل منذ نشأت، و ناهزت مُكَبّاً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، منتقلاً بين دروس العلم و حلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، و ذهب الأعيان و الصدور و جميع المشيخة، و هلك أبواي، رحمهما الله.»<sup>(2)</sup>، و كانت المراكز الثقافية التي نشأت خارج تلمسان، كوهران، و جزائر بني مزغنة، و قلعة بني راشد، و مستغانم، و مازونة، فإن علمائها الأوائل تتلمذوا عن علماء تلمسان، و عند عودتهم إلى ديارهم لعبوا دوراً بارزاً في نشر الإنتاج العلمي لعلماء تلمسان<sup>(3)</sup>، فانتشرت الثقافة و العلوم بحواضر بالمغرب الأوسط.

1- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص 64.

2- ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 64 - 65.

3- مختار حساني، المرجع السابق، ج 2، ص 273.

**المبحث الثاني: المؤسسات التعليمية:**

كان التعليم منتشراً في شتى مدن الدولة الزيانية و معظم قراها، و كان ينحصر في مرحلة أولى في تعلم الكتابة و القراءة، و حفظ القرآن في الكتاتيب و المساجد ثم في مرحلة ثانية كان الطلبة يقبلون على دراسة النحو و اللغة و الأدب و الفقه ينالون بضاعة وافرة تمكنهم من بلوغ مستوى ثقافي لائق، و معرفة دينهم، و الإلمام بالعلوم اللسانية. كان الذين يريدون مواصلة دراستهم و التخصص في العلوم، ينتقلون إلى المرحلة الأخيرة، فيدرسون العلوم الدينية من قراءات و تفسير و حديث و فقه و توحيد و العلوم العقلية و الاجتماعية و الأدب، و غيرها، بمزيد من التعمق و التفصيل، و ذلك في المسجد الأعظم الذي كان شبه جامعة على النمط القديم، مثل القرويين بفاس و الزيتونة بتونس، و الأزهر بالقاهرة.<sup>(1)</sup> و كان التعليم منظماً ضمن مؤسسات تعليمية بحسب الأغراض و الوظائف المرجوة<sup>(2)</sup> منها المدارس و المساجد و الزوايا و الكتاتيب و غيرها.

**المطلب الأول: المدارس**

لم تعرف المدرسة باسمها هذا بالمغرب و الأندلس حتى نهاية عصر الموحدين، إذ نقل المرينيون الذين تولوا الحكم بعد الموحدين النظام المدرسي إلى المغرب عن الأيوبيين بمصر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري<sup>(3)</sup>، فالمدارس هي تلك الأماكن أو الدور أو المباني المنظمة التي يقصدها طلاب العلم، و يتولى التدريس فيها معلمون و أساتذة و علماء، و المدرسة بناء يشبه المسجد الجامع و الربط، و هي لفظ يعني بناية مخصصة للدراسة<sup>(4)</sup> متميزة بشكلها المعماري.

أعجب الرحالة المغاربة و الأندلسيين بكثرة المدارس في تلمسان، فمنهم المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح حين قال: «فيها (تلمسان) المدارس الكثيرة و طلاب العلم و القراءة...»<sup>(5)</sup>، و كانت مدارس تلمسان مليئة بالعلماء و هذا ما أكده القاصدي أيضاً في رحلته عندما قال: «و أدركت فيها (تلمسان) كثيراً من العلماء...»<sup>(6)</sup>، و قد كان لسلطين بني زيان جهود كبيرة من وراء نشر التعليم و الثقافة بتلمسان تمثلت في بناء المؤسسات التعليمية، منها المدارس و العناية بها و التكفل بنفقات التعليم و مستلزماته مثل التكفل بأجرة المعلمين و تخفيف نفقات الدراسة عن المتعلمين من إيواء و إطعام و عبّر عنها المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته قائلاً: «...فيها الإطعام من الحلال الموقوف من أوقاف الصالحين و مدارس جمّة و لكن نذكر ذلك على وجه الاختصار.»<sup>(7)</sup>

1- عبد الحميد حاجيات، "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، مجلة الأصالة، العدد 26، السنة 4، 1975، ص ص 137 - 138.

2- إسماعيل سامعي، معالم...، المرجع السابق، ص 299

3- عبد الله على علام، المرجع السابق، ص 292.

4- إسماعيل سامعي، معالم...، المرجع السابق، ص 312

5- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 94.

6- أبو الحسن علي القاصدي الأندلسي، المصدر السابق، ص 100.

7- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص ص 94 - 95.

و عن مدارس تلمسان الزيانية يقول الحسن الوزان: «و خمس مدارس حسنة، جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء و غيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان و بعضها ملوك فاس»<sup>(1)</sup> و «تتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة»<sup>(2)</sup> و كانت المدارس التلمسانية في أغلب الأحيان ملحقة بالمساجد، و من أشهر المدارس التي أنشأها الزيانيون و المرينيون بتلمسان هي:

### أ- مدرسة ابني الإمام:

تعد أول مدرسة بناها بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط، و كان ذلك سنة 710 هـ/1310 م، في أول عهد السلطان أبي حمو موسى الأول، و عيّن على رأس هيئة التدريس بها الأخوين العالميين ابني الإمام<sup>(3)</sup>، هما: أبي زيد عبد الرحمن بن الإمام<sup>(4)</sup> و أخيه أبي موسى عيسى بن الإمام<sup>(5)</sup>، قال عنهما عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «فأما ابنا الإمام منهم فكانا أخوين من أهل برشك من أعمال تلمسان، و اسم أكبرهما: أبو زيد عبد الرحمن، و الأصغر: أبو موسى عيسى، و كان أبوهما إماماً ببعض مساجد برشك...»<sup>(6)</sup>، و تتلمذا على يد والدهما في بداية مسارهما العلمي، ثم أخذوا بعدها عن شيوخ آخرين و أصبح لهما صيتا بالمغرب الأوسط.

و عن تشيّد مدرسة ابني الإمام يذكر عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «...و ارتحل ابن أبي الطلاق<sup>(7)</sup>، و الخيري<sup>(8)</sup>، و الكناني<sup>(9)</sup> من مليانة راجعين إلى المغرب، و مرّوا بتلمسان، و مع الكناني هذان الأخوان، فأوصلهما إلى أبي حمو، و أتى عليهما. و عزّفه بمقامهما في العلم، فاغتبط بهما أبو حمو، و اختطّ لهما المدرسة المعروفة بهما بتلمسان. و أقاما عنده على هدي أهل العلم و سننهم، و هلك أبو حمو، فكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن المريني إلى تلمسان، و ملكها عنوة، سنة سبع و ثلاثين... فاستدعاهما لحين دخوله، و أدنى مجلسهما، و أشاد بتكريمهما، و رفع محلها على أهل طبقتها. و صار يُجملّ بهما مجلسه، متى مرّ بتلمسان، أو وفدا عليه في الأوقات التي يفد فيها أعيان بلدهما.»<sup>(10)</sup>، فكان تشيّد المدرسة تكريماً لابني الإمام و لمكانتهما العلمية.

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 19.

2- المصدر نفسه، ج 2، ص 21

3-

*Dhina Atallah. op. cit, p.34*

4- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أبو زيد، ابن الإمام: فقيه مالكي، من كبارهم، أجمع كتاب التراجم و السير بالمغرب العربي أنه كان من أشهر علماء عصره و لم يكن فيه أعظم رتبة و لا أعلم منه، توفي سنة 741 هـ/1340 م. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 22.

5- عيسى بن محمد بن عبد الله، ابن الإمام: فقيه مالكي، مجتهد، كان هو أخوه عبد الرحمن عالمي المغرب في عصرهما. توفي سنة 749 هـ/1348 م. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 23.

6- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 46.

7- ابن أبي الطلاق: هو الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 47.

8- الخيري: هو علي بن محمد الخيري من بني ورتاجن. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 47.

9- الكناني: هو منديل بن محمد صاحب الأشغال. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، ج 7، المصدر السابق، ص 132.

10- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 47.

وصف المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح السلطان أبو حمّو في رحلته وصفاً أثنى فيه عليه و على خصاله<sup>(1)</sup>، فكان من سلاطين الدولة الزيانية الذين وضعوا الأساس لأول مدرسة في تلمسان، كما سجلت لهم مصادر التاريخ اهتمامهم بمجالس العلم و العلماء.

### ب- المدرسة التاشفينية:

و هي ثاني مدرسة زيانية، أسسها أبو تاشفين ابن أبي حمو الأول فيما بين سنة 717 هـ - 728 هـ/1316 م - 1327 م ، و زخرفها حتى أصبحت قصراً من أعظم قصور الملوك، وقد حضر في حفل افتتاحها علامة عهده (أبو موسى المشدالي)، و هو من أقطاب عصره في الفقه المالكي<sup>(2)</sup> تقع إلى جانب المسجد الأعظم و هي في منتهى الروعة و الجمال<sup>(3)</sup>، و قد أبرز عبد الرحمن بن خلدون في رحلته القصد من بناء المدرسة التاشفينية الذي تمثل في المنافسة العلمية الشريفة لمدرسة ابني الإمام، و يبدو ذلك واضحاً عندما قال: «و بنى السلطان أبو تاشفين مدرسة بتلمسان، فقدمه (المقري)<sup>(4)</sup> للتدريس بها، يضاهي به أولاد الإمام. و تفقه عليه بتلمسان جماعة، كان من أوفرهم سَهْمًا في العلوم أبو عبد الله المقري هذا.»<sup>(5)</sup> و علماء آخرون.

وصف المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح المدرسة التاشفينية في رحلته: «و فيها (تلمسان) مدرسة القاضي الفاضل و الحاكم العدل سيدي سعيد العقباني<sup>(6)</sup> مفتي هذه الأمة و سيد زمانه بالعلم و الإفتاء في صفة حدود الشرع و القضاء كثر الله منه و من ذريته في الإسلام.»<sup>(7)</sup>، و لعل ابن الصباح صاحب الرحلة نسب المدرسة إلى سيدي سعيد العقباني لأنه كان يدرس بها.

ثم يضيف بن الصباح في رحلته عنها قائلاً: «...و هي مدرسة جنة في الأرض ذات بنيان مُشيد و سقوف مقريسة و أبواب مرصعة بالزينة، و المصنع في وسط المدرسة من الماء العذب ترى فيه وجهك من شدة الصفاء...»<sup>(8)</sup>، و كانت المدرسة التاشفينية من أشهر المدارس التلمسانية التي توافد عليها الطلاب من أقطار مجاورة و بعيدة منحتهم إجازات، كما ساهمت في تخريج دفعات من الفقهاء و العلماء.

- 1- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 93.
- 2- زكريا مفدي، النشاط العقلي و التقدم الحضاري بالجزائر في عهد الزيانيين، مجلة الأصالة، العدد 26، السنة 4، 1975م، الجزائر، ص 165. ينظر كذلك: الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص 64.
- 3- مختار حساني، المرجع السابق، ج 2، ص 275.
- 4- أبو عبد الله، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن، القرشي المقري التلمساني: باحث، أديب، قاض، من أكابر علماء المذهب المالكي في وقته، و شيخ لسان الدين ابن الخطيب و عبد الرحمن بن خلدون ولد بتلمسان، و تعلم بها و بتونس و المغرب. توفي سنة 759 هـ/1359 م. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 312. ينظر كذلك: أحمد بابا التبتكتي، المصدر السابق، ص 420 - 427.
- 5- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 68.
- 6- سعيد العقباني: هو سعيد بن محمد العقباني نسبة إلى عقبان قرية بالأندلس أصله منها، ولى قضاء الجماعة ببجاية في زمن أبي عنان المرينيّ ولى قضاء تلمسان و مكث في القضاء ما ينيف عن أربعين سنة و له مؤلفات عديدة مولده بتلمسان عام 720 هـ و توفي عام 811 هـ. ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، الهامش 168، ص 94.
- 7- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 94.
- 8- المصدر نفسه، ص 94.

**ج - المدرسة اليعقوبية:**

أسسها أبو حمو موسى الثاني (760 - 791 هـ)، و بناها للعلامة أبي عبد الله الشريف التلمساني<sup>(1)</sup> و قد شيّد إلى جانبها مسجداً، و أحدث بجانبها مقبرة ضمت ضريح أبيه أبي يعقوب يوسف و أعمامه أبي ثابت و أبي سعيد<sup>(2)</sup> و كان ذلك بعدما استعاد أبو حمو موسى الثاني تلمسان من المرينيين و هذا ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «و ملك أبو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين، و استدعى الشريف من فاس فسرجه القائم بالأمر يومئذ الوزير عمر بن عبد الله، فانطلق إلى تلمسان. و تلقاه أبو حمو براحتيه، و أصهر له في ابنته فزوجها إياه، و بنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفناً لأبيه و عمه، و أقام الشريف يدرس العلم»<sup>(3)</sup>، و مما تجدر الإشارة إليه أن المدرسة اليعقوبية أنها استقطبت طلاب كثيرين من تلمسان و خارجها و حواضر بلاد المغرب و الأندلس، و قد تدرس بها الفلصادي فقال عن المدرسة و عن أحد شيوخ تلمسان: «و لازمته (أحمد بن زاغو) في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية»<sup>(4)</sup> اندثرت المدرسة كغيرها من المدارس الزيانية.

**د - مدرسة العباد:**

شيدها أبي الحسن المريني في منطقة العباد سنة 747 هـ/1346 م أثناء استيلائه على المغرب الأوسط، و يوجد بجوارها ضريح أبي مدين شعيب<sup>(5)</sup>، قال عنه ابن قنفذ القسنطيني و بجواره: «مدرسة للعلم»<sup>(6)</sup>، و هذا يعني أن المدرسة كانت ملحقة بالضريح<sup>(7)</sup> و كان السلطان أبي الحسن المريني يهدف من إنشائها استغلال قيمة و حضوة أبي مدين شعيب بين أهل تلمسان جميعاً فباشراً بوضع حجر الأساس لتشييد المدرسة و لم يجد من مكان مناسب إلا موضع العباد الشهير و المقدس في المدينة، حيث استخلص منه اسم المدرسة و صارت تسمى بمدرسة العباد، و كانت على غاية معتبرة من الحسن و الجمال و الذوق الفني و المعماري، و بذل السلطان جهوداً كبيرة من أجل إقناع علماء و فقهاء تلمسان للانضمام إلى المدرسة و فتح أبوابها كذلك أمام علماء مراكش و فاس و أغمات ممن أراد الالتحاق بها، و بذل السلطان جهوداً كبيرة في إقناع علماء و فقهاء تلمسان من أجل الانضمام إلى المدرسة و فتح أبوابها كذلك أمام علماء مراكش و فاس و أغمات<sup>(8)</sup>، و يبدو أن مدرسة العباد كانت على صلة بمدارس المغرب و حواضر الأندلس.

1- محمد بن أحمد المري، أبو عبد الله الشريف التلمساني: خطيب، من الفقهاء و العلماء، من أهل تلمسان، أخذ عن المنجور و غيره و عنه ابنه أبو الحسن، و محمد العربي الفاسي (988 هـ/1052 م). ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 76.

2- مختار حساني، المرجع السابق، ج 2، ص 276.

3- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 71.

4- أبو الحسن علي الفلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 109.

5- أبو مدين شعيب: هو شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي الأصل من أحواز اشبيلية، إمام العباد و الزهاد، توفي سنة 594 هـ و دفن بتلمسان. ينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، المصدر السابق، ص 55 - 65.

6- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، المصدر السابق، ص 106.

7- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 220.

8- سعيد عيادي، المرجع السابق، ص 301 - 302.

تحدث الحسن الوزان عن مدرسة العباد و وصفها قائلاً: «و هناك أيضا مدرسة جميلة جدا، و فندق لإيواء الغرباء أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين، حسبما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم»<sup>(1)</sup>، كما أشار إليها أيضا ابن مرزوق<sup>(2)</sup> قائلاً: «و بالعباد ظاهر تلمسان و حذاء الجامع الذي قدمت ذكره، و بالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان»<sup>(3)</sup> و كانت مدرسة العباد من المدارس الهامة في تلمسان، زادها شهرة المستوى الرفيع لعلمائها و وجودها بقرب ضريح ذلك الولي الصالح.

### هـ- مدرسة أبي عنان المريني:

أسسها أبو عنان المريني ابن أبي الحسن المريني سنة 754 هـ، بجانب مسجد الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحلوي<sup>(4)</sup> و قد وصفها ابن الحاج التميمي في رحلته فيض العباب قائلاً: «مدرسة متعددة البيوت، ربيعة السموت، بديعة النعوث. و بها أبواب تشرع إلى ديار كاملة المنافع، حسنة المقاطع»<sup>(5)</sup>، و قد أشاد ابن بطوطة بفضائل السلطان أبي عنان المريني بأسلوب كثير المبالغة و خصّه في صفحات من رحلته، ففي مجال اهتمامه بالعلم و العلماء قال عنه: «و أما اشتغاله (أبي عنان المريني) بالعلم فهو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح... و أما صدقاته الجارية و ما أمر به من عمارة الزوايا ..»<sup>(6)</sup>

سار ابن الحاج التميمي على نهج ابن بطوطة، حيث أثنى على السلطان أبي عنان المريني في تشييده لهذه المدرسة قائلاً: «جزى الله مولانا على ذلك جزاء من أعتنى بأوليائه أحياءً أو أمواتاً. و نقص بالجوهر مالا و كمل ذاتاً و جعل بين أعماله الصالحات و بين الفوز بعلو درجات ميقاتاً.»<sup>(7)</sup>، و هذا لا ينفي جهود المرينيين في بناء مدارس ببلاد المغرب الأوسط عند استيلائهم عليه، منها المدرسة التي شيدت بمدينة الجزائر بني مزغنة في عهد السلطان أبو الحسن المريني، و قد حضيت المدارس المرينية بالمغرب الأوسط بعناية من الزينانيين.

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 24.

2- محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق: العجيسي التلمساني، شمس الدين أبو عبد الله الشهير بالخطيب و الجد، فقيه من أكابر علماء المالكية في عصره. ينظر: أحمد بابا التتبيكتي، المصدر السابق، ص 450 - 456.

3- ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، ص 406.

4- أبو عبد الله الشوذي: تنسب إليه طائفة صوفية تدعى الشوذية و يقال إنه ولي القضاء بإشبيلية في عهد الموحدين ثم ترك القضاء و تصوّف و أوى إلى تلمسان في زي المحاذيب فكان يبيع الحلوى. فنسب إليها و يبدو أنه عاش في القرن السادس الهجري و ضريحه في تلمسان و هو مما أمر ببنائه أبو الحسن المريني. ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، الهامش 157، ص 91.

5- ابن الحاج التميمي، المصدر السابق، ص 488.

6- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 449 - 450.

7- ابن الحاج التميمي، المصدر نفسه، ص 488.

## المطلب الثاني: المساجد

كانت المساجد قبل تأسيس المدارس و الزوايا، هي المؤسسة التي تستقبل الطلبة و المصلين، فالمسجد مقر للعبادة و بمثابة جامعة أو معهد لتلقي الدروس، فتعقد به الحلقات، و تنظم فيه المناظرات العلمية، و يجتمع فيه العامة و الخاصة<sup>(1)</sup>، و قد اهتم الريانيون منذ عهد يغمراسن بن زيان، فقال عنه الحاج عبد الله بن الصباح في رحلته: «و شيد المساجد و زين البلاد...»<sup>(2)</sup>، و من مساجد تلمسان:

أ- الجامع الأعظم<sup>(3)</sup>:

شيد بتكرارات في عهد المرابطين من قبل يوسف بن تاشفين سنة 450 هـ/1136 م كما هو منقوش بباطن قبة المسجد<sup>(4)</sup> و أعاد بناؤه ابنه - فيما يبدو - ابنه يوسف سنة 530 هـ/1135 م و أدخل عليه المعماريون مسحة فنية أندلسية<sup>(5)</sup> من زخارف و نقوش جلبت انتباه الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين، منهم العبدري عندما وصف هذا الجامع: «و لها جامع عجيب مليح متسع.»<sup>(6)</sup>

تحدث ابن الحاج النميري في رحلته عن آثار تلمسان في رحلته: «و كم أبقى من آثار حسان، و مصانع يعجز عن وصفها كل لسان.»<sup>(7)</sup>، و أعجب كذلك بالنمط المعماري و الفني للجامع الأعظم بتلمسان حين قال: «و لا كجامع الخطبة الأعظم الذي أمر باختطاطه في حضيض البيت الذي فيه ضريح الشيخ الصالح أبي عبد الله الشوزي المعروف بسيدي الحلوي رحمه الله، و هو من أجمل الجوامع، قد أحكمت فيه أنواع الصنائع، و أبدى الاحتفال به ما شاء من البدائع.»<sup>(8)</sup> و يمثل الجامع الأعظم معلماً متميزاً في العمارة الدينية بتلمسان.

شهد الجامع الأعظم بتلمسان مراسيم تشيع جنازة علماء من تلمسان، منهم محمد بن مرزوق الذي قال عنه القلصادي في رحلته: «توفي ﷺ، و ذلك يوم الخميس عند العصر رابع عشر من شعبان عام اثنين و أربعين و ثمانمائة هجرية = 30 جانفي 1439 م، و صُلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة، و دفن بالروضة المعروفة هناك بغربي المسجد، و كانت له جنازة عظيمة حضرها السلطان فمن دونه، لم أر مثلها فيما قبل...»<sup>(9)</sup> اعترافاً له بمكانته العلمية.

1- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 145

2- الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 92.

3- *Abdebasit B.khalil et adorne. Robert brunschvic, deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV<sup>e</sup> siècle.paris V<sup>e</sup> la rosé éditeurs, 11 rue victor cousin, 1936.p.34.)*

4- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 252.

5- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 146

6- العبدري، المصدر السابق، ص 48. ينظر كذلك: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 111.

7- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 488.

8- نفسه، ص 488.

9- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 102.

**ب- مسجد أبي الحسن:**

أسسه السلطان الزياني أبو سعيد عثمان سنة 696 هـ/1296 م، كما تدل عليه كتابات على لوحة رخامية مرصعة في الجدار الغربي لبيت الصلاة<sup>(1)</sup> تكريماً للعالم الجليل أبي الحسن علي بن خلف التنسي<sup>(2)</sup>، إذ كان من علماء تلمسان المعروفين بتقواهم و صلاحهم و كان أيضاً أعلمهم بالفتوى في مسائل فقهية مختلفة، حتى قال عنه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «...أبو الحسن التنسي كبير أهل الفُتْيا بتلمسان.»<sup>(3)</sup>.

يدخل هذا المسجد ضمن المشاريع الزيانية الضخمة في العمارة الدينية بتلمسان نظراً لحجمه الكبير و فضائه الواسع، و هو أيضاً بمثابة تحفة فنية معمارية جمعت بين الفن الزياني و الأندلسي.

**ج- مسجد أولاد الإمام:**

شيد السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول سنة 710 هـ/1310 م و كان المسجد ملحقا بالمدرسة القديمة التي بناها لأبني الإمام<sup>(4)</sup>، فقال عنهما عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «كانت لهما (ابني الإمام) شهرة في أقطار المغرب، أثبتت لهما في نفس السلطان عقيدة صالحة.»<sup>(5)</sup>، و للمسجد طابع معماري فني زياني متأثر بالطابع الأندلسي، مما أضفى عليه جمالية.

بُني هذا المسجد تكريماً لأولاد الإمام، و هي ميزة كرّست مدى اهتمام بعض سلاطين الدولة الزيانية بالعلماء، فأصبحت بعض المساجد بتلمسان تحمل أسماء علماء تكريماً لهم و للعلم.

**د - مسجد إبراهيم المصمودي<sup>(6)</sup>:**

قام بتأسيسه أبو حمو موسى الثاني<sup>(7)</sup> إلى جانب القبة و الزاوية و المدرسة تكريماً لوالده أبي يعقوب، يحتوي المسجد على منڈنة مربعة الشكل، و قبة مزينة بأخاديد تشبه قبة حمام الصباغين بتلمسان.<sup>(8)</sup> و بالقرب من هذا المسجد يُوجد ضريح إبراهيم المصمودي، و هذا المسجد يصنف ضمن العمارة الدينية الزيانية في تلمسان من حيث التصميم و الزخرفة و تحف فنون العمارة.

1- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 496

2- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص 187.

3- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 264.

4- نفسه، ص 47.

5- نفسه، ص 47.

6- إبراهيم المصمودي: هو إبراهيم بن موسى المصمودي التلمساني الشيخ العالم الولي الزاهد أبو إسحاق، أحد شيوخ الإمام بن مرزوق الحفيد، أفرد بترجمته بتأليف، قال الشيخ أبو عبد الله بن سعد التلمساني في كتابه «النجم الثاقب»، كان هذا الولي أحد من أوتي الولاية صبيّاً، و حل من رئاسة العلم و الزهد مكاناً علياً. ينظر: أبو القاسم محمد الحفناوي، المصدر السابق، ج 2، ص ص 17-19.

ينظر كذلك: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، الهامش 3، ص 103.

7- قال عنه عبد الله بن الصباح في رحلته: «والد هؤلاء الأولاد المذكورة و الفوارس المشهورة.»

ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجن، المصدر السابق، ص 93.

8- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 147.

**هـ- مسجد أبي مدين بالعباد:**

أمر ببنائه السلطان أبو الحسن المريني سنة 739 هـ/1339م، كما توضح لوحة الكتابة<sup>(1)</sup>، قال عنه الرحالة العبدري: «به رباط مليح مخدوم مقصود»<sup>(2)</sup>، أي متقن العمارة و كثير الزوار و المصلين المتوافدين لزيارة أبي مدين شعيب.

و عن تأسيس هذا المسجد يقول عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «و قد شيّد (السلطان أبا الحسن) بالعباد مسجدا عظيما، و كان عمه ابن مرزوق خطيبا به على عادتهم في العباد»<sup>(3)</sup>، و قال عنه ابن قنفذ القسنطيني و بجواره - أي أبي مدين شعيب - «جامع للخطبة»<sup>(4)</sup>، و أخذ المسجد اسم الرجل الصالح أبي مدين شعيب.

**المطلب الثالث: الزوايا:**

لم تذكر مؤلفات الرحالة المغاربة و الأندلسيين مصطلح «الزاوية» في تلمسان إلا في مواضع قليلة منها، لأن الأريطة<sup>(5)</sup> ربما كانت النواة الأولى التي قامت عليها الزوايا، نظراً لتطور وظائفها عبر التاريخ. أشار العبدري في رحلته إلى رباط أبي مدين شعيب بالعباد، فقال: «و عليه (أبي مدين شعيب) رباط مليح مخدوم مقصود»<sup>(6)</sup>.

و من بين مؤلفات الرحالة التي أشارت إلى وجود زوايا بتلمسان، ما أشار إليه ابن الحاج النميري في رحلته و المتمثل في وجود زاوية متصلة بالجامع الأعظم بتلمسان قائلاً: «و تتصل به (الجامع الأعظم) الزاوية المنسحة الأرجاء اللابسة حلل السنا و السناء، المزدانة بالقبة التي يحسد ارتفاع سمكها السماك، و تتمنى الاقتعاد بصدورها الأملاك، و تخنع لجلال مبناها الأفلاك»<sup>(7)</sup>، و كان للزوايا دور كبير، منها التكفل بالزوار و طلاب العلم كالإيواء و الإطعام و غيرهما.

1- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 1، ص 147.

2- العبدري، المصدر السابق، ص 48.

3- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 61.

4- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، المصدر السابق، ص 106.

5- الأريطة: الرّباط و المرابطة يتضمن مفهوم ملازمة المكان والثبات فيه، و يعني المواظبة على لزوم ثغر العدو.

ينظر: محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، دار المعارف، (د ت)، ج 18، ص 1561.

6- العبدري، المصدر السابق، ص 49.

ينظر كذلك: أبو الحسن علي القصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 111.

7- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 488.

## المطلب الثاني: العلوم السائدة

اعتنى سلاطين دولة بني عبد الواد الزيانية بالعلم و العلماء، و كان التعليم منتشراً في المدن و القرى و كانت الدروس تقام في المسجد الأعظم و المدارس المتخصصة<sup>(1)</sup>، ففي العهد الزياني عرفت تلمسان أوج ازدهارها في مختلف العلوم رغم الفتن السياسية الداخلية و الحروب مع جيرانها، فأصبحت تلمسان خلال العهد الزياني حاضرة من أعظم حواضر العالم الإسلامي يؤمها العلماء و الأدباء و الشعراء<sup>(2)</sup>، تُشد الرحال إليها في طلب علوم الحكمة و الفلسفة و الرياضيات و الطب و الموسيقى<sup>(3)</sup>، فهذا عبد الباسط بن خليل المصري من علماء القرن 9 هـ/15 م، هجر بلاده و ارتحل إلى المغرب الأوسط ليستكمل به معلوماته في الطب فنزل تلمسان و أخذ بها عن الشيخ محمد بن علي بن فشوش أخذ أطبائها في المزولة و الدرس<sup>(4)</sup> و قد وصف الحسن الوزان حالة التعليم بتلمسان قائلاً: «و كثير من الطلبة و الأساتذة في مختلف المواد، سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية»<sup>(5)</sup>، و قد اختلفت وُجّهات النظر بين الرحّالة المغاربة و الأندلسيين حول وضعية التعليم و الأحوال الثقافية بتلمسان، فمنهم من استاء منها كالعبدري، و منهم من أشاد بها و تعلّم على يد شيوخ تلمسان كالقصادي، و قد يكون هذا التباين في وُجّهات النظر خاضع للظروف التي كانت تمر بها تلمسان من فترة إلى أخرى. و من العلوم التي ظهرت في المغرب الأوسط في عهد بني زيان:

## المطلب الأول: العلوم اللسانية

تسمى العلوم اللغوية أو الأدبية، و كانت تشمل هذه العلوم النحو و الصرف و العروض و البلاغة و اللغة و الأدب و التاريخ، و كان الهدف من دراستها الاستعانة بها لفهم القرآن الكريم و الحديث الشريف و ضبط ألفاظهما و فهم أساليبيهما<sup>(6)</sup>، و قد كان الرحّالة العبدري شديد الاستياء من الوضع الثقافي و العلمي بتلمسان، فحضر درس في النحو و الإعراب فقال: «و قد حضرت بها مُدرّساً مذكوراً عندهم يُقرأ عليه باب التوكيد من «الجمل» فسمعتة يقول: «كلا للمذكّرين و كلتا للمذكّرتين»! و أعربوا قول ابن دُرَيْد<sup>(7)</sup>: هم الذين جرّعوا من ما حلّوا»<sup>(8)</sup>، فكان الإعراب: «بأنّ هم: مبتدأ، و الذين: مبتدأ ثان، و جرّعوا: خبره، و الجملة في موضع خبر الأول! و هذا قليل من كثير، و صُبّابة<sup>(9)</sup> من غدير.»<sup>(10)</sup>، غير

1- عمار عمورة، المرجع السابق، ص 86.

2-

Salah Ferkous.op.cit, p. 79.

3- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 249.

4- نفسه، ص 250.

5- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 21. ينظر كذلك: مرمول كريخال، المرجع السابق، ج 2، ص 298.

6- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص 61.

7- ابن دُرَيْد: هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أئمة اللغة و الأدب، توفي ببغداد سنة 221 هـ، من مؤلفاته: الاشتقاق، و المقصور و الممدود، و الجمهرة. ينظر: العبدري، المصدر السابق، الهامش 1، ص 50.

8- العبدري، المصدر السابق، ص 49 - 50.

9- الصُبّابة: ما بقي في الإناء من ماء و نحوه. ينظر: العبدري، المصدر السابق، الهامش 2، ص 50.

10- العبدري، المصدر السابق، ص 50.

أن تلمسان عرفت علماء في اللسانيات ورد ذكرهم في كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين، كان من أبرزهم:

• أبو عبد الله بن عمر بن خميس التلمساني (ت 708 هـ):

كان أديباً ناثراً شاعراً، غادر تلمسان سنة 693 هـ/1294 م نحو المغرب الأقصى زائراً لحواضره العلمية ثم سبتة ثم أبحر إلى الأندلس<sup>(1)</sup> فأعجب العبدري بابن خميس من خلال قوله: «وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم، و لا من يتعلق منه بسبب، سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس، و هو فتى السنّ، له عناية بالعلم مع قلة الرّغب فيه و المعين عليه، و حظ وافر من الأدب، و طبع فاضل في قرص الشعر»<sup>(2)</sup>

واصل العبدري عن ابن خميس في رحلته قائلاً: «فكنت آنس بابن خميس و أكثر من مجالستّه و مفاوضتّه و أعجبتني ذهنه و حاله... و في أول ما اجتمعت به رأى في يدي كتاباً فسألني عنه، فقلت: هو كتاب «الشمائل»<sup>(3)</sup> فاستظرف فعلي في إمساكه، و قال لي: أخبرني الفقيه أبو عبد الله بن حمدون، قال لي: أخبرني الفقيه أبو زيد بن القاضي بتونس أنّ أبا محمد بن حوط الله<sup>(4)</sup> ورد على أبيه فأنزله بداره، و كان يبيت في سريره و معه خريطة لا يفارقها، و كانت تفوح منها رائحة المسك، قال: و كنت أهاب أن أسأله عمّا فيها، فرقد ذات يوم فسقطت عن السرير و وقع منها كتاب «شمائل النبي» ﷺ<sup>(5)</sup>.

قال العبدري في رحلته: «و قد انشدني ابن خميس كثيراً من شعره، فمن ذلك قوله من قصيدة»<sup>(6)</sup>:

و من العجيبه أن أقيم ببلد	يوماً و أسلم من أذى جهالها
شغلوا بدنياهم، أما شغلهم	عني، فكم ضيعت من أشغالها
حجّبوا بجهلهم، فإن لاحت لهم	شمس الهدى عبثوا بضوء دبالها
و إن انتسبت فإني من دوحه	تنقيل الأنساب برد ظلالها
من حمير من ذي رعين من ذوي	حجر من العظماء من أقبالها
و إذا رجعت لطينتي معني فما	سلسألهم بأرق من صلصالها

1- محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983، ص 215 (سلسلة الدراسات الكبرى)

2- العبدري، المصدر السابق، ص 53.

3- هو كتاب الشمائل النبوية و الخصائل المصطفوية للترمذي المتوفى سنة 279 هـ، و عليه شروح كثيرة.

ينظر: العبدري، المصدر السابق، الهامش 2، ص 54.

4- هو عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري: محدث، حافظ، مقريء، خطيب، شاعر، نحوي. أدب أولاد المنصور الموحي بمراكش، وولى قضاء إشبيلية و قرطبة و غرناطة له كتاب في تسمية شيوخ البخاري و مسلم و أبي داود و الترمذي و النسائي لم يتمه. توفي سنة 612 هـ. ينظر: محمد بن محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ص 173.

5- العبدري، المصدر السابق، ص 54.

6- نفسه، ص ص 54 - 58.

و بعد سماع العبدري لها ردّ: «قلت: هذه القصيدة مهذّبة الألفاظ و المعاني، و ألدُّ من نعمات المثالث و المثاني، إلا أنّ مقطعها قلق ناب، لا يلين و لو مُضِعَ بضرس و ناب، ليس يلتئم بما قبله و لا يمتزج، و لا يزال السَّمْعُ به يقلقُ و ينزعج، و قد زاولتهُ أن يلتجِمَ فأبى و حاولته كي يَلْتَمِّمَ فَنَبَا.»<sup>(1)</sup>، و قد كان الرحالة العبدري يهوى الشعر و يميل إليه، و مما زاده محبة لابن خميس ما سمعه من قصائد شعرية حفظها عن ظهر قلب و فهم لمعاني آياتها.

تحدث ابن الحاج التّميري في رحلته عن أشعار ابن خميس، حين قال: «فتشوّف (السلطان أبي عنان المريني) لأخذ الفأل فيه، و الاعتمال في استطلاع طلع أمانيه. فخرج له قول ابن خميس في قصيدته العينية التي فجّرت أرض البلاغة عيوناً، و استخرجت من درر الإجابة ما كان مخزوناً، و شهدت بالإبداع الذي كان دليله معلوماً لا مضموناً»<sup>(2)</sup>:

أتبع عداك إلى أقصى مفازهم	إن خلّصت منك ذا جرم مفازعه
جيش كثيف كثير الخلق محتفل	جمّ الصواهل لا يلويه خازعه
مثل الرمال إذا هيلت كتائبه	و كالأسود إذا هيّجت سلافه
إن جاب سهلاً أثارته سوابغه	أو جار حرباً ألانته موالعه
و إن تيمم أرضاً و هي هادية	هزّت هضاب رواسيها قعاقعة
فرقت شمل العدى فأجمع بمقدك	الميمون شمل سرور أنت جامع <sup>(3)</sup>

كان ابن خميس من علماء اللسان بتلمسان، أبدع في الشعر و البلاغة، فقال عنه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «كان لا يجري في البلاغة و الشعر إلى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به، و قد ذكره ابن الخطيب في تاريخ غرناطة.»<sup>(4)</sup>، و استطاع ابن خميس أن يحفظ أشعاراً لغيره من الشعراء و أن يبدع يبدع في قصائد شعرية من إنتاجه جمعها غيره في ديوان شعر سمّاه: «المنتخب النفيس في شعر ابن خميس».

1- العبدري، المصدر السابق، ص 58.

2- ابن الحاج التّميري، المصدر السابق، ص 247.

3- ابن الحاج التّميري، المصدر السابق، ص 247.

4- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 54.

ترجم عادل نويهض لابن خميس من خلال أعلام مشهورين فقال: «قال عنه ابن خلدون: «كان لا يجاري في البلاغة و الشعر» و قال ابن خاتمة: «كان من فحول الشعراء، و أعلام البلغاء، حافظاً لأشعار العرب و أخبارها، له مشاركة في العقليات، و استشراف على الطلب.» و ترجم له لسان الدين ابن الخطيب فقال: «كان نسيج وحده زهداً و انقباضاً و أدباً و همة، عارفاً بالمعارف القديمة، مضطلعاً بتفاريق النحل، قائماً على العربية و الأصلين، طبقة الوقت في الشعر، و فحل الأوان في المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب.» له «ديوان شعر» جمعه بعد موته أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي و سمّاه الدر النفيس من شعر ابن خميس، و عرّف به صدر الديوان.<sup>(1)</sup> و هي شهادات و اعترافات من علماء عصره في علوم اشتهر بها، كان منها الشعر.

### • أبوزكريا يحيى بن عصام:

أعجب الرحالة العبدري بابن عصام جار ابن خميس حيث قال عنه في رحلته: «و ممن لقبته بتلمسان أبو زكرياء يحيى بن عصام، و هو رجل منقلّب حَيٌّ متعفف، له حظ من اللغة، و يقرض من الشعر ما لا بأس به، جاراً لأبي عبد الله بن خميس فكنت أجتمع به عنده كثيراً، و مما أنشدني لنفسه قوله<sup>(2)</sup>:

ألا أعلم بأنّ الموتَ كأسٌ مُـدَارَةٌ      على كل من قد راح فيها و من غدا  
و غَضْبُ رسومِ شيمٍ في شِيعِ الوَرَى      و ما ربيءَ يوماً بعد ما شيمَ مَعْمَدَا

و يبدو أن ابن عصام كسب مهارات في الشعر و البلاغة لأنه كان يلزم جاره ابن خميس، فيتبادلان الأشعار و علوم اللغة من صرف و نحو غيرها. و قد ورد ذكر أشعار كثيرة لابن عصام في رحلة العبدري فقال: «و مما عرض لي نظمه بمدينة تلمسان - جبرها الله - قولي<sup>(3)</sup>:

تَعَرَّيْتُ عَنْ أَهْلِي إِلَيْكَ وَ مَالِي      وَ أَعْرَضْتُ عَنْ قَبِيلِ عَدَاكَ وَ قَالَ  
تَمَائِلٌ فِي دُنْيَايَ - إِذْ أَنْتَ مَطْلَبِي -      مُحِبُّ لــــه شوقِ إِلَيَّ وَ قَالَ  
سَمَوْتُ عــــلى قَصْدِ إِلَيْكَ بِهَمَّةٍ      ترى عيش كسرى مثل عيش دلالٍ  
وَ لاحت لي الدنيا فأبصرت عمرها      و لو زيدَ أضعافاً، كحلَّ عِقالٍ  
وَ ما عَيْشُهَا إِلَّا كَطِلٍّ غــــمامة      و ما مِلْكُهَا إِلَّا كَطَيْفِ خِيَالٍ  
وَ هل بعدَ أن أسدى إليّ لطائفاً      يُفَصِّرُ عن تبيانهنَّ مقْدَ مَالِي  
وَ باشــــرَ قلبي باليقين مُبرداً      حرارة إشكالٍ أخلَّ بحــــمالي

1- عادل نويهض، المرجع السابق، ص ص 135 - 136.

2- العبدري، المصدر السابق، ص 73.

3- نفسه، ص 76 - 78.

## المطلب الثاني: العلوم النقلية

يطلق عليها كذلك العلوم الشرعية و الدينية أيضا من تفسير و الحديث و «الفقه»<sup>(1)</sup> و الأصول و علم الكلام و التصوف، و المراد من دراستها معرفة الأحكام الشرعية و دلائلها و مقاصدها و فوائدها حتى يصحح الناس معتقداتهم و يتقنوا عباداتهم<sup>(2)</sup>، و كان للمصنفات التي جلبها الرحالة المغاربة و الأندلسيين خلال رحلاتهم دور فيها.

و عن الفقه بتلمسان يقول الرحالة العبدري: «و أما الفقه عندهم فطويلُ الاغتراب، يؤوب «إذا ما القارِطُ العنزِيُّ أب»، و قد تحاكمَ إلى قاضيها - إذ كنتُ بها - متبايعان في ذَهَب رديء، فحكم بما قيلَ في ذلك من يمين المُبتاع على عِلْمِهِ، فحلفَ و بُرِّيء، ثم أتى البائع بعد أيام بمن شهدَ له أنَّ صاحِبَهُ إنَّما دَفَعَ لَهُ سِكَّةَ فاس - و كان الذي تداعيا فيه من سِكَّةِ فاس - فأحضر المبتاعَ و وبَّخَهُ بأنَّه حلفَ إنَّما و أنَّه قد ظهر كذبه، و حكم عليه بإبدال الذهب.»<sup>(3)</sup> و أكمل العبدري قوله بعبارة: «و إلى هذا انتهى بالعلم و أهله الحال، و حسبنا الله و عليه الاتكال!..»<sup>(4)</sup>، و رغم وصف العبدري السيئ لأحوال الثقافة لتلمسان إلا أنها شهدت علماء ورد ذكرهم في كُتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة منهم:

• أبو إسحاق التنسي<sup>(5)</sup> (ت 680 هـ):

توجه إلى بجاية لطلب العلم، ثم رحل إلى المشرق للتحصيل العلمي، فأخذ عن كثير من العلماء، و برع في العلوم الدينية، ثم عاد إلى مسقط رأسه، استقدمه يغمراسن بن زيان إلى تلمسان و طلب منه أن يدرس العلوم الدينية بها<sup>(6)</sup>، ورد ذكره في الرحلة المغربية للعبدري حيث قال عنه: «و كنتُ ألقيتُ الشيخ الفقيه أبا إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي، و أخاه أبا الحسن مسافرين إلى المشرق و هما من سگان تلمسان، و ليسا منها، فقيهان مشاركان في العلم مع مروءة تامة و دين متين، و أبو إسحاق أسنُّهما و أسنَّاهُما، و هو ذو صلاح و خير. و كان شيخنا زين الدين أبو الحسن بن المنير - حفظه الله - يُثني عليه كثيرا، و سألني عن الغرب، فذكرتُ له قلةَ رغبة أهله في العلم. فقال لي: «أما بلاد يكون فيها مثل أبي إسحاق التنسي فما خلت من العلم»، و قد أدركتهما بمصر، و كان أبو الحسن لم يحجَّ فحجَّ معنا.»<sup>(7)</sup>

1- علم الفقه (العلم الخامس): و هو لغة الفهم اصطلاحا و اصطلاحا ما ذهب إليه مالك من الأحكام الشرعية المنصوص عليها بالكتاب و السنة و القياس. مؤلف مجهول، كتاب القول الأحوط في بيان ما تداول من العلوم و كتبه بالمغربين الأقصى و الأوسط، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3185، بالميكروفيلم، الورقة 46.

2- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص 61.

3- العبدري، المصدر السابق، ص 50.

4- نفسه، ص 50.

5- إبراهيم بن يخلف التنسي: فقيه، عالم مالكي، من أهل تنس، انتهت إليه رئاسة التدريس في أقطار المغرب كلها، أخذ عن الناصر المشدالي و الإمام القرافي و غيرهما من علماء المشرق و المغرب، له شرح في التلقين للقاضي عبد الوهاب، قابله العبدري صاحب الرحلة في الطريق إلى الحج سنة 677 هـ، وفوفاته كانت بعد هذا التاريخ. و أخوه أبو الحسين من العلماء الفضلاء.

ينظر: العبدري، المصدر السابق، ص 35. ينظر كذلك: أحمد بابا التبتكتي، المصدر السابق، ص 38 - 39.

6- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 439.

7- العبدري، المصدر السابق، ص 53.

و مما يستنتج أن أبا إسحاق التَّنسي كان من أشهر علماء بلاد المغرب، بلغ صيته و شهرته ديار المشرق الإسلامي.

#### • أبو الحسن التَّنسي (ت 706 هـ):

هو أخو أبي إسحاق التَّنسي، قام بالتدريس بعد وفاة أخيه<sup>(1)</sup>، التقاه العبدري رفقة أخيه أبو إسحاق التَّنسي في تلمسان<sup>(2)</sup>، قال عنه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «كان من فقهاء المغرب، أبو الحسن التَّنسي كبير أهل الفُنْيا بتلمسان»<sup>(3)</sup>، و قد أخذ أبو الحسن التَّنسي العلم عن أخيه أبا إسحاق التَّنسي، فكانا يحسبان ضمن العائلات المشهورة بالعلم في تلمسان.

#### • أبو زيد بن الإمام<sup>(4)</sup> (ت 743 هـ):

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام، أكبر الأخوين ابني الإمام<sup>(5)</sup> وُلد ببرشك، كان أبوه إماما بها و بها نشأ ثم ارتحل إلى تونس مصحوبا بأخيه عيسى فأخذا من علمائها، ثم عادا إلى تلمسان فاستقبله أبو حمو موسى الأول و بنى لهما مدرسة بتلمسان عرفت باسميهما<sup>(6)</sup> تخليدا لمكانتهما العلمية كما ورد ذكره سابقاً.

#### • أبو عيسى بن الإمام (ت 749 هـ):

استقر بتلمسان، ثم التحق ببلاط القصر المريني، و بعد وفاة أخيه أبي زيد، أصبح في طليعة العلماء في مجلس السلطان، كان يشتغل بالتعليم و العلوم الطبية و الكونية و تخرج عنه الكثير من العلماء، صحبه السلطان أبو الحسن إلى تونس، ثم أذن له بالرجوع إلى تلمسان بعد انتشار الطاعون بإفريقية. لكنه توفي بعد عودته بقليل سنة 749 هـ<sup>(7)</sup>، و اختص عيسى بن الإمام حسب ما جاء في رحلة ابن خلدون في «المنطق و الأصلين»<sup>(8)</sup>، و قد نشأ عيسى بن الإمام رفقة شقيقه العلامة أبي زيد بن الإمام في عائلة علمية.

#### • أبو عبد الله المقرئ (ت 759 هـ):

ولد بتلمسان في عهد أبي حمو موسى الأول، نشأ و درس بها، و عند احتلال أبو الحسن المريني سنة 737 هـ، جلب معه علماء من فاس، فدرس عليهم المقرئ، صاحبه أبو عنان إلى فاس و ولاه القضاء، توفي سنة 759 هـ، فحمل إلى تلمسان و دفن بها<sup>(9)</sup>، فقال عنه عبد الرحمن بن خلدون في

1- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 440

2- العبدري، المصدر السابق، ص 53.

3- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 264.

4- نفسه ص 41.

5- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 440.

6- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 47.

7- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 439.

8- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 47.

9- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 439

رحلته: «كان من أوفرهم سهما في العلوم أبو عبد الله المقري هذا»<sup>(1)</sup>، و كان أبو عبد الله المقري أيضاً: «كبير الجماعة بفاس و كبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقري»<sup>(2)</sup>، و تخرج على يده كثير من العلماء.

#### • أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت 771 هـ):

وُلد بتلمسان سنة 710 هـ، و نشأ بها و تعلم من علمائها، تفرغ للتعليم في المدرسة اليعقوبية، إلى أن توفي سنة 771 هـ<sup>(3)</sup> قال عنه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «الإمام العالم الفذّ، فارس المعقول و المنقول، صاحب الفروع و الأصول، أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، و يُعرف بالعلويّ، نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، تسمى العلّوين، فكان أهل بيته لا يُدافعون في نسبهم، و ربما يَغْمز فيه بعض الفجّرة، ممن لا يزرّعه دينه، و لا معرفته بالأنساب، فيُعدُّ من اللّغو، و لا يُلتفت إليه.»<sup>(4)</sup>

روى عبد الرحمن خلدون عن نشأة و علم و شيوخ أبو عبد الله الشريف التلمساني في رحلته قائلاً: «نشأ هذا الرجل بتلمسان، و أخذ العلم عن مشيختها، و اختصَّ بأولاد الإمام، و تفقّه عليهما في الفقه، و الأصول و الكلام، ثم لزم شيخنا أبا عبد الله الأبلي، و تزلّع من معارفه، فاستبحر، و تفجّرت ينابيع العلوم من مداركه.»<sup>(5)</sup>، و مارس أبو عبد الله الشريف التلمساني التعليم بمدارس تلمسان و ساهم في تخريج علماء كثيرين منها.

#### • محمد بن مرزوق (ت 842 هـ):

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد التلمساني، وُلد و نشأ بتلمسان، رحل إلى المشرق لطلب العلم و عند عودته إلى بلاده سنة 733 هـ، وجد أبا الحسن المريني محاصراً لتلمسان، فحظي باستقبال السلطان المريني<sup>(6)</sup>، ذكره ابن خلدون في رحلته: «أبو عبد الله بن أحمد بن مرزوق، من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين شعيب، و متوارثين خدمة تربته، و من لدن جدّهم خادمه في حياته.»<sup>(7)</sup>، رحل ابن مرزوق الخطيب إلى الأندلس و المشرق.

نهل القلصادي من منابع العلم و العلماء بتلمسان، و في مقدمتهم ابن مرزوق الخطيب، فقال عنه في رحلته: «و أولاهم في الذكر و التقديم، الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا و بركتنا: سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي رحمته، حل كنف العلم و العلاء، و جل قدره في الجلة الفضلاء، قطع الليالي ساهراً، و قطف من العلم أزهاراً فأثمر و أورق، و غرّب و شرّق، حتى توغل في فنون العلم و استغرق، إلى أن طلع إلى الأبصار هلالاً، لأن المغرب مطلعته، و سما في النفوس

1- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 68.

2- نفسه، ص 200.

3- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 451.

4- عبد الرحمن بن خلدون، الرحلة...، المصدر السابق، ص 69.

5- نفسه، ص 70.

6- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 439.

7- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 60.

موضعه و موقعه، فلا عليك أن ترى أحسن من لقائه، و لا سهل من إلقائه، لقي الشيوخ الأكابر، وبقي حمده متعرفاً من بطون الكتب و أسنة الأقلام، و أفواه المحابر.»<sup>(1)</sup>

ذكر القلصادي بيتين في حق ابن مرزوق الخطيب: و لله درّ القائل<sup>(2)</sup>:

ألا إن أرض الغرب أفضل موطن      تساق إليه الواخداث النجائب  
و لو لم يكن في الغرب كل فضيلة      لما حركت شوقاً إليه الكواكب

كان ابن مرزوق الخطيب المعروف بالحفيد من العلماء المتدينين الحارصين على التعليم، و هذا ما أورده عنه القلصادي في رحلته حين قال: «كان رحمته من رجال الدنيا و الآخرة، و كانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلاً و نهاراً: من صلاة و قراءة و قرآن و تدريس علم و فتيا و تصنيف، و كانت له أوراد معلومة، و أوقات مشهورة، و كان له بالعلم عناية تكشف بها العماية، و دراية تعضدها الرواية، و نباهة [تكسب النزاهة]، فقرأت عليه رحمته بعض كتابه في الفرائض، و أواخر «الإيضاح» للفارسي، و شيئاً من «شرح التسهيل» لابن مالك، و حضرت عليه نحو الربع من إعراب القرآن و «صحيح البخاري» و الشاطبيتين، و الأكثر من ابن الحاجب الفرعي، و التلقين و بعض الرسالة، و أكثر التسهيل لابن مالك، و كذلك الألفية و الكافية و ابن الصلاح في علم الحديث، و «المنهاج» للغزالي، و غير ذلك من الكتب.»<sup>(3)</sup>، فكان ابن مرزوق الخطيب بمثابة موسوعة علمية جمعت مختلف العلوم.

و عن وفاة ابن مرزوق الخطيب يقول القلصادي في رحلته: «توفي رحمته يوم الخميس عند العصر رابع عشر من شعبان عام اثنين و أربعين و ثمانمائة هجرية = 30 جانفي 1439 م، و صلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة... و آخر بيت سُمع منه قرب موته»<sup>(4)</sup>:

إن كان سفك دمي أقصى مرادكم      فما غلت نظرة منكم بسفك دمي

أخذ القلصادي خلال رحلته العلمية عن شيوخ آخرين أثناء إقامته بمدينة تلمسان الزيانية، و قد أورد ذكرهم في رحلته «تمهيد الطالب و منتهى الرّاغب إلى أعلى المنازل و المناقب»، فهم:

#### • عيسى الرتيمي:

قال عنه القلصادي في رحلته: «و منهم شيخنا و بركتنا الفقيه الصدر العلم في الفرائض و العدد، أحد عصره، و فريد دهره في فنه: سيدي أبو مهدي عيسى الرتيمي. شهر بأمر الزيان، لم أر أعلم منه بكتاب الحوفي في الذين أخذت عنهم. و أخبر رحمته أنه: لم يسر إلى القراءة على سيدي سعيد العقباني إلا بعد أن قرأ جميع الحوفي على والده ست مرات، و حضره مع الغير نحو الثمان عشرة ختمة.»<sup>(5)</sup>

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 100 - 101.

2- نفسه، ص 101.

3- نفسه، ص 102.

4- نفسه، ص ص 102 - 103.

5- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 103.

أخذ القلصادي عن عيسى الرتيمي علوم كثيرة في تلمسان جاء ذكرها في رحلته و أشفق عليه من عناء الرحلة إلى كي يتعلم حيث قال القلصادي: « فقرأت عليه كتاب الحوفي من مواضع مختلفة، [بطريقتي الصحيح و الكسور]، و كان له مقصد حسن في التعليم، مع خلق رضية و تسليم. و لم يزل يقول لي في أكثر أوقات القراءة عليه: ( لو كان في قدرتي أو أمكنني أن أعلمك كل ما عرفته في آن واحد لفعلت، و لم نتعبك بالغدو و الرواح إلي، كما قال القحطاني)»<sup>(1)</sup>:

ففي شربة لو كان علمي سقيتكم و لم أخف عنكم ذلك العلم بالذخر

و رغم غزارة العلم الذي تميّز به عيسى العلم الرتيمي، إلا أنه لم يُوفّق في التعليم، ربما نظرا للطريقة التي كان يسلكها في التعليم و هذا ما أشار إليه القلصادي في رحلته: «و لم يكن يحسن تعليم المبتدئ، و لذلك لم يشتهر عند جميع الناس كغيره، توفي رحمة الله عليه في... و دُفن بقرب الولي الصالح سيدي الحلوي.»<sup>(2)</sup>، و لم تضبط رحلة القلصادي تاريخ وفاته بشكل دقيق.

#### • محمد الشريف (ت 847 هـ):

أوردت بعض كتب التراجم<sup>(3)</sup> ترجمته مقتصرة على جاء في رحلة القلصادي الذي قال فيه: «و منهم شيخنا الفقيه الإمام الصدر العلم الحسب الأصيل: سيدي أبو عبد الله محمد الشريف، إمام مسجد الخراطين، اختصر «شرح التسهيل» لأبي حيان.»<sup>(4)</sup>، لكن الاسم في الأصل ابن حيان.

تعلم القلصادي منه علوم كثيرة، ذكرها في رحلته: «قرأت عليه «تلخيص المفتاح»، و بعض «التسهيل» لابن مالك، و كذلك «مفتاح الأصول» للسيد الشريف التلمساني، و حضرت عليه بعض الألفية و بعض المرادي عليها، و «الجمال» للزجاجي و «التنقيحات» للقرافي. توفي ﷺ عام سبعة و أربعين و ثمانمائة = 1443 - 1444 م، و دُفن خارج باب الجياد.»<sup>(5)</sup>

#### • محمد بن النجار (ت 846 هـ):

تحدث القلصادي عن شيخه محمد بن النجار في رحلته فقال عنه: «و منهم شيخنا الإمام العلامة المتقن سيدي أبو [عبد الله] محمد النجار، و كانت له مشاركة في العلوم النقلية و العقلية.»<sup>(6)</sup>، و يمكن تصنيف محمد بن النجار ضمن العلماء التلمسانيين الذين جمعوا بين المنقول و المعقول، و هي شيمة ميزت القليل من العلماء.

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 104.

2- نفسه، ص 104.

3- ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، المصدر السابق، ص 222.

أحمد بابا التتبيكتي، المصدر السابق، ص 526.

4- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 104.

5- نفسه، ص 105.

6- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 107.

تعلم القلصادي من شيخه محمد بن النجار علوم كثيرة، ذكرها في رحلته: «قرأت عليه بعض مختصر الشيخ خليل، و بعض «المستصفي» للغزالي، و بعض ابن الحاجب الأصلي، و كذلك «تلخيص المفتاح»، و حضرت عليه بعض تفسير الكتاب العزيز، و بعض كتاب «الإرشاد» لإمام الحرمين، و «المنهاج» للبيضاوي، و «البرهانية» للسلاجي، و «الجمال» للخونجي، و «تلخيص المفتاح» غير مرّة، و بعض الخفاف، و شيئاً من «المدونة». توفي ﷺ عام ستة و أربعين و ثمانمائة = 1442 - 1443 م، و دفن بمقبرته من بستانه خارج باب الجياد، و هناك صُلّي عليه.»<sup>(1)</sup>

#### • أحمد بن زاغوت 845 هـ:

يعتبر أحمد بن زاغو أحد أبرز شيوخ القلصادي، حيث قال عنه في رحلته: «و منهم شيخنا و بركتنا الفقيه الإمام المفتي المصنف المدرس المؤلف، ذلك سيدي أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المغراوي الخزري شهر بابن زاغو»<sup>(2)</sup>، و قد تخصص ابن زاغو في علوم كثيرة و أبحر فيها، فقال عنه القلصادي في رحلته: «أعلم الناس في وقته في التفسير، و أفصحهم في التعبير، [أخذ] بمذهب الإمام مالك، و فاق على نظرائه و أقرانه في [دلائل السبل] و المسالك، إلى سبق في الحديث و الأصول و قدم راسخة في التصوف، مع الذوق السليم و الفهم المستقيم»<sup>(3)</sup>، فكان المذهب المالكي و كل ما يتصل به من علوم، من أولويات علماء تلمسان خلال العهد الزياني، حيث نجد الرحالة المغاربة و الأندلسيين يشيرون إليه في مصنفاتهم.

و عن نسب شيخه ابن زاغو يقول القلصادي في رحلته: «له نسب أشهر من الشمس في السماء، و حسَب كاتساق عقد النجوم في بحر الظلمات، و خُلق أُندي من الزهر و أسوغ من الماء، و نزاهة الهمة العالية، و المشاركة المباركة للخاصة و العامة، من هذه الأمة، مع إيثاره الخلوة، و إجابة الدعوة.»<sup>(4)</sup>، فنقرب منه القلصادي لعلمه و صلاحه، فقال: «و أنا مذ رأيت نجاح دعواته، و صلاح حالي بالتماس بركاته، لازمته و ترددت إليه فكنت أجد في مجالسه فوائد تنسي الأوطان، و أرد من بحر فيضه ما يحيا به الظمان، فسرعت إلى خدمته مسرعاً، و إلى مبرته مبادراً، إلى أن صيرني كـ بعض أولاده، و أنزلني منزلة أحد أصدقائه و أجدانه.»<sup>(5)</sup>، فكان علماء تلمسان حريصين عطوفين على طلبة العلم، خاصة الغريباء منهم الذين هجروا ديارهم و قطعوا مسافات للتعلّم. و مهما يكن الأمر فإن تقرب العالم أو الشيخ من طالب العلم أثمرت في كثير من الأحيان، فجعلت يقتدي بشيخه و يسلك نهجه في النهل من العلوم.

تعلم القلصادي عن شيخه ابن زاغو علوم كثيرة ذكرها في رحلته: «فقرأت عليه بلفظي رواية جميع «صحيح البخاري»، و من أول كتاب مسلم إلى أثناء باب الوصايا. و من تأليفه: مقدمته على «التفسير»

1- نفسه، ص ص 107 - 108.

2- نفسه، ص 108.

3- نفسه، ص 108.

4- نفسه، ص ص 108 - 109.

5- نفسه، ص 109.

و «تفسير الفاتحة»، و «التذليل في ختم التفسير»، و «منتهى التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح»، غير مرة، و «شرح التلخيص لوالده»، و قرأت عليه أيضا «الحكم» لابن عطاء الله و شرحها ثانياً لابن عباد، و «لطائف المنن»، و «تأليف سيدي أبي يحيى الشريف على المغفرة»، و بعض القصد إلى الله، و كذلك كتاب «الإحياء» للغزالي و بعض مختصره لسيدي أبي عبد الله البلبالي، و من مختصر الشيخ خليل من الأفضية إلى آخره، و ابن الحاجب الفرعي من الأيمان و النذر، و بعض ابن الحاجب الأصلي<sup>(1)</sup>، و هذا ما عكس مستوى شيخه ابن زاغو و سعة إطلاعه على مختلف المصنفات الفقهية.

قال القلصادي عن شيخه ابن زاغو الذي مارس التعليم بالمدرسة اليعقوبية: «و لازمته في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية للتفسير و الحديث و الفقه في أزمنة الشتاء، و الأصول و العربية و البيان و الحساب و الفرائض و الهندسة في زمن الصيف، و يوم الخميس و الجمعة لقراءة التصوف و تصحيح تأليفه»<sup>(2)</sup>، ثم يضيف القلصادي في رحلته عن سلوك شيخه ابن زاغو: «كانت أوقاته ﷺ مضبوطة للعبادة و أزماته محفوظة للإفادة، و أفعاله مرضية، و سجاياه محمودة، لولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم و لا عصب. و لا أعلم أنه كان يأمر بفعل و يخالفه، اقتداء بالسلف الصالح»<sup>(3)</sup>:

أنشد ابن زاغو للقلصادي أبياتاً<sup>(4)</sup> من الشعر دونها خلال رحلته:

رأيت الانقباض أجلاً شياً و أدعى في الأمور إلى السلامة  
فهذا الخلق سالمهم و دعمهم فخطبتهم تقود إلى الندامة  
و لا تُعنى بشيء غير شيء يقود إلى خلاصك في القيامة

و يضيف القلصادي في رحلته و مما أنشدني لبعضهم، و كان يستحسنه:

أنست بوحدتي و لزمت بيتي فدام الأُنس لي و نما السُرور  
و أدبني الزمان فما أبالي هُجرت فلا أزار و لا أزور  
و لست بسائل ما دمت حياً أسار الجند أم ركب الأمير

شعر ابن زاغو شيخ القلصادي بدنو أجله، فبدأ في آخر عمره في تلمسان كأنه يتهب للرحيل عن الدنيا، فزاد من العبادة و فعل الخير، و عبر عن ذلك القلصادي حين قال: «و آخر بيت أنشدني يوم الجمعة بعد خروجنا من الصلاة، و لم يشهد بعدها جمعة أخرى»<sup>(5)</sup>:

تمتع من شيم عرر نجد فما بعد العشية من عرر

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 109.

2- نفسه، ص ص 109 - 110.

3- نفسه، ص 110.

4- نفسه، ص 110.

5- نفسه، المصدر السابق، ص 111.

و في ختام لما ذكره القلصادي عن شيخه ابن زاغو في رحلته قال: «و آخر ما قرىء عليه كتاب «الطائف المنن». و في أثناء ذلك كان يشير إلينا بأحوال تدل على سفره من الدنيا، و كان يتأهب لذلك. توفي ﷺ يوم الخميس عند وقت العصر الرابع عشر من ربيع الأول عام خمسة و أربعة و ثمانمائة = 2 أوت 1441 م في زمن الوباء، و صُلي عليه من الغد بعد صلاة الجمعة بالجامع الأعظم، و دُفن بخارج المدينة بطريق العباد في موضع بالقرب من عين و نزوته، و كانت له جنازة عظيمة حضرها الخاص و العام، و أسف الناس لفقده. و أمل أنا فوجدت لفراقه ما يجده المبعد من مرامه، أو المرضع عن فطامه، و كان عمره ثلاثاً و ستين سنة.»<sup>(1)</sup>، و يبدو أن وفاة ابن زاغو شيخ القلصادي كان له تأثير كبير عليه.

### ● قاسم العقباني (ت 854 هـ):

قال القلصادي عن شيخه قاسم العقباني في رحلته: «و منهم شيخنا و بركتنا الإمام الفقيه المعمر ملحق الأصاغر بالأكابر، العديم النظراء و الأقران، المرتقي درجة الاجتهاد بالدليل و البرهان: سيدي أبو الفضل قاسم العقباني ﷺ، ذو أبهة و بهاء و حبة مملوءة من علم، خالية من ازدهاء، و خلقة سمعت في مطالع الحسن إلى أنهى كمال، و أكمل انتهاء.»<sup>(2)</sup>

كان الشيخ قاسم العقباني يفقه علوم كثيرة جمعت بين المعقول و المنقول و علم اللسان، حيث تتلمذ على يديه بعد وفاة شيخه أحمد بن زاغو، فأوضح ذلك القلصادي في رحلته قائلاً: «انفرد بفتي المعقول و المنقول، و اتحد في علمي اللسان و البيان، و هو فيما عدا يفوق الصدور، و يفيض على مزاحمته [البحور، ولي خطة القضاء] بتلمسان في صغره، و رأى أمله من ذريته في كبره، و أحرز في طلب العلم قصب السبق و حازه، و قطع فيه صدر العمر و استقبل إعجازه، عكف على تعليم العلوم، و عطف على تقدير المعدوم منها و المعلوم، فأفاد الأفاضل و أمتع الجهابذة و النقاد، و أسمع الأسماع ما اشتهى كل منها و أراد، فسمعت منه و أخذت عنه، و لازمت مجلسه بعد وفاة الشيخ سيدي أحمد بن زاغو ﷺ إلى أن ارتحلت من تلمسان و لما عدت إليها وجدته بقيد الحياة.»<sup>(3)</sup>، فكان لزاماً على القلصادي بعد وفاة شيوخه، أن يبحث عن شيوخ العلم، و هذا ما وقع له بعد وفاة شيخه ابن زاغو.

تحدث القلصادي عن العلوم التي أخذها عن شيخه قاسم العقباني قائلاً: «و مما قرأت عليه بلفظي بعض مختصر «المدونة» لابن أبي زيد و بعض مختصر خليل، و بعض الحكم لابن عطاء الله و شرحها لابن عباد، و بعض الحوفي بطريقتي التصحيح و الكسور، و بعض المناسخات من الشرح لوالده سيدي سعيد، و بعض مختصره في أول الدين، و غير ذلك. و حضرت عليه كتباً متعددة في علوم

1- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 111 - 112.

2- نفسه، ص ص 112 - 113.

3- نفسه، ص ص 112 - 113.

شتى»<sup>(1)</sup>، و عن أخلاق و وفاة شيخه العقباني قال القلصادي في رحلته: «كانت أخلاقه ﷺ حسنة مرضية، قلّ أن يرى الراؤون مثلها. توفي ﷺ في شهر ذي القعدة من عام أربعة و خمسين و ثمانمائة = ديسمبر 1450 م أو أوائل جانفي 1451 م، و صلّي عليه بالجامع الأعظم و دفن بغربية بالروضة هناك، قرب الشيخ سيدي أبي عبد الله محمد بن مرزوق، و كانت له جنازة عظيمة حضرها السلطان فمن دونه»<sup>(2)</sup>

حضر القلصادي أربع مجالس علم في تلمسان، لكنه لم يتلمذ على شيوخها، و يبدو أن حضور القلصادي لها جاء بعد وفاة شيوخه بتلمسان الذين تتلمذ عليهم، فكان عليه أن يبحث عن شيوخ آخرين، و الشيوخ الأربعة الذين حضر مجالسهم العلمية هم:

#### • الحسن بن مخلوف:

هو الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي، أبو علي، كان عالماً ولياً صالحاً قطباً غوثاً، أخذ عن إبراهيم و ابن مرزوق (الحفيد)، و ممن أخذ عنه الحافظ التنسي و علي التالوتي و الشيخ السنوسي، كان الحسن بن مخلوف لا يخاف في الله لومة لائم كما كان رحيماً بالمؤمنين شفيقاً عليهم. كانت وفاته آخر شوال سنة 857 هـ<sup>(3)</sup>، قال عنه القلصادي في رحلته: «فمنهم الشيخ الولي الصالح سيدي الحسن بن مخلوف الراشدي الأصل، القاطن بتلمسان الشهير بأبركان ﷺ، و شهرته تغني عن تعريفه»<sup>(4)</sup>، كما أورد ابن سعد في «روضة النسرين» جملة من كراماته.

#### • أبو الفضل ابن الإمام:

هو محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام حلاه ابن مريم في البستان: «الإمام العلامة الحجة النظار المحقق العارف اللوذعي الرحلة أحد أقران ابن مرزوق الحفيد»<sup>(5)</sup>، قال عنه القلصادي في رحلته: «فمنهم الشيخ الفقيه الإمام الصدر العلم سيدي أبو الفضل ابن الإمام. كان عالماً بالمعقول»<sup>(6)</sup>

#### • محمد بن العباس:

هو محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي الشهير بابن العباس التلمساني<sup>(7)</sup>، تحدث عنه ابن مريم في البستان: «الإمام العلامة المحقق المتقن المحصل القدوة الحجة المفتي الصالح الحافظ المتقن

1- نفسه، ص 113.

2- نفسه، ص 113.

3- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، المصدر السابق، ص ص 74 - 93. ينظر كذلك: محمد بن محمد مخلوف، المصدر السابق، ص 262.

4- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 113 - 114.

5- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، المصدر السابق، ص 220.

ينظر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 113 - 114.

6- نفسه، ص 114.

7- نفسه، ص ص 113 - 114.

البركة»<sup>(1)</sup>، قال عنه القلصادي في رحلته: «و منهم الفقيه الإمام سيدي أبو عبد الله محمد بن العباس، متقن في العلوم.»<sup>(2)</sup>، ورد ذكره في كتب أخرى.

### • سليمان البزدي:

هو سليمان بن الحسن البوزيدي الشريف التلمساني أبو الربيع عالم محصل محقق، كان قائماً على المدونة و ابن الحاجب مستحضراً لفته ابن عبد السلام و أبحاثه. توفي سنة 845 هـ<sup>(3)</sup>، قال عنه القلصادي في رحلته: «و منهم الفقيه الإمام العالم بمذهب الإمام مالك سيدي سليمان البزدي.»<sup>(4)</sup>

### المطلب الثالث: التصوف

لم يتفق الكتاب من المتصوفة وغيرهم في تحديد الأصل الذي يمكن إرجاع اشتقاق لفظ التصوف، فالقشيري<sup>(5)</sup> رحمه الله يرى أن: «التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: «رجل صوفي»، و للجماعة «صوفيّة»، و من يتوصل إلى ذلك يُقال له: «متصوّف»، و للجماعة: «المتصوّفة» و ليس يشهد لهذا الاسم من حيث اللغة العربية قياس و لا اشتقاق»<sup>(6)</sup> فالصفاة معناها أن الصوفية صافية من الشرور وشهوات الدنيا، و هذا الاشتقاق غير صحيح لغوياً فالنسبة إلى الصفاء: صفوي أو صفاوي أو صفائي وليس صوفياً. غير أنه لا مانع أن تكون الكلمة مأخوذة عن أهل الصفة<sup>(7)</sup>

استعرض القشيري اشتقاق كلمة التصوف قائلاً: «فأما قول من قال: إنه من الصوف، و لهذا يُقال: تصوّف إذا لبس الصوف كما يُقال: تقمّص إذا لبس القميص، فذلك وجه. و لكن القوم لم يختصوا بلبس: الصوف!!» و اشتقاق الصوفي من الصفاء، بعيد في مقتضى اللغة. و بعضهم ينسب الكلمة إلى الصف الأول من المؤمنين في الصلاة، و هذا التعبير بعيد عن سلامة الاشتقاق اللغوي<sup>(8)</sup> كما أن النسبة إلى الصفة لا تجيء إلاّ على الصوّفي، فكذلك الشأن في نسبهم إلى الصّف، حيث يكون إرجاع النسبة إلى اللفظ خلاف الصوفي<sup>(9)</sup> و يذهب غالب المتصوفة إلى أن الصوفي منسوب إلى لبس الصوف و هذا يفسر التقشف و ترويض النفس و البدن.

عرف ابن خلدون التصوف بأنه: «علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة و أصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق و الهداية واصلها

1- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، المصدر السابق، ص 223.

2- نفسه، ص 114.

3- نفسه، ص ص 113 - 114.

4- نفسه، ص 115.

5- القشيري: هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد الاستوائى القشيري النيسابوري الشافعي، المحدث الصوفي. توفي سنة 465 هـ/1072 م.

6- أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة 3، 2005، ص 312.

7- محمد السيد الجليند، من قضايا التصوف في ضوء الكتاب و السنة، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1990، ص 40.

8- المرجع نفسه، ص 40.

9- محمد مرتاض، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص

19. ينظر كذلك: عبد الرحمن بن خلدون، شفاء السائل و تهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، مكتبة الأسد، 1996، ص ص 50 - 54.

العكوف على العبادة والانتقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل»<sup>(1)</sup> و قد بدأ التصوف في حركة زهد، غير أن التطورات التاريخية التي ظهرت في حياة المسلمين، أدت إلى الانتقال من الزهد إلى التصوف.

فسر البعض على أن ابن النديم كان يفهم التصوف على أنه مأخوذ من كلمة سوفيا اليونانية بمعنى محبة الحكمة، و أن جابر بن حيان أول من عرف بذلك من المسلمين<sup>(2)</sup> و مع تطور السلوك الصوفي، أصبح للمتصوفة فلسفة استمدت أصولها من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة وبعض المذاهب الفارسية والهندية.

بدأ التصوف في شكل حركة زهد، باعتبار القرآن الكريم يضم عددا كبيرا من الآيات الداعية إلى الزهد منها قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»<sup>(3)</sup>

شهد المغرب الأوسط من بداية 2 هـ/5 م، حركة زهدية، برزت ملامحها في سياق الفتوحات الإسلامية، حيث استقر الزاهد وهب بن منية من كبار التابعين و عندما توفي أصبح قبره موضع زيارة التلمسانيين<sup>(4)</sup>، غير أن التطورات التاريخية التي ظهرت في حياة المسلمين، أدت إلى الانتقال من الزهد إلى التصوف، فالقشيري و ابن خلدون أوضحا مولده في ظروف صعبة تميزت بالبدع غدتها أفكار المعتزلة، و الرفضة و الخوارج<sup>(5)</sup> و أصبح كل منها يدعي الزهد و الورع.

كان لرحلات الحج و الرحلات العلمية الدور البارز في انتقال المصنفات الصوفية من المشرق إلى المغرب الإسلامي، فخلال عهد المرابطين جلب سعدون القرووي (ت القرن 5 هـ) من مكة المكرمة إلى المغرب الإسلامي المصنفات الصوفية أبرزها «كتاب الأنوار» لأبي الحسن بن جهضم، و كتاب «طبقات الصوفية» لعبد الرحمن بن الحسين السلمي و غيرها و عمل على تدريسها<sup>(6)</sup>، كما نقل القاضي أبو بكر بن العربي إلى الأندلس، بعد عودته من المشرق «الرسالة القشيرية» و «إحياء علوم الدين»<sup>(7)</sup> اطلع عليها الفقهاء و عامة الناس مما ساهم إلى حد كبير في انتشار التصوف بالمغرب الإسلامي و الأندلس.

عرفت مدينة تلمسان كغيرها من حواضر المغرب الاسلامي الكبرى تيار التصوف، إذ انتشر بها انتشاراً كبيراً، في نهاية القرن 6 هـ/ 12 م، خاصة بعد أن دُفن الشيخ القطب أو مدين الغوث بالعباد

1- ابن خلدون، المقدمة، ص 467.

2- محمد السيد الجليند، المرجع السابق، ص 43.

3- القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية:20.

4- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 117.

5- الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين/12 و 13 الميلاديين، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2004، ص 37.

6- المرجع نفسه، ص 63.

7- أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، المصدر السابق، ص 321.

بتلمسان، وشهدت تلمسان حركة نشيطة لهذا التيار، لأن أبا مدين صار ولياً لهذا المكان<sup>(1)</sup>، كما برز في مدينة تلمسان عدد كبير من شيوخ التصوف خلال العصر الزياني كان لهم تلاميذ و مدارس حيث حرص رجال التصوف في تلمسان على العمل بالكتاب و السنة و الاهتمام بالجانب التربوي العلمي و الابتعاد عن التصوف الفلسفي<sup>(2)</sup> و برز منهم متصوفة بتلمسان كثيرون و أكثر زوار ضريح أبي مدين شعيب و أصبحت العبادة قبله لمريدي طريقته.

و قد وجدت ظاهرة التصوف مجالاً لها في تقديس الأولياء و الجماعات الصوفية، حيث دعم هذه الظاهرة ملوك بني زيان ابتداءً من جدهم يغمراسن بن زيان، الذي كان معجباً بالصوفية و المتصوفين ساعياً للتقرب منهم متحمساً لنيل بركتهم، حريصاً على زيارتهم<sup>(3)</sup>، و حتى الرحالة المغاربة و الأندلسيين كانوا حريصين أيضاً على زيارة العبادة الذي قال عنه العبدري في بداية رحلته: «بظاهرها (تلمسان) في سند الجبل موضع يعرف بالعبادة و هو مدفن الصالحين و أهل الخير، و به مزارات كثيرة، و من أعظمها و أشهرها قبر الشيخ الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين - رضي الله عنه. و زرقنا بركته -»<sup>(4)</sup>، و كان القصد من زيارته التبرك به و التفاؤل بالخير خلال رحلته.

لم يكتف الرحالة العبدري بزيارة أضحية صلحاء تلمسان عند بداية رحلته فحسب، بل كررها عند إياها منها، و عند وصوله تلمسان قرر زيارتها، فقال: «فلما وقفنا على باب تلمسان صادفنا العادة الكريمة من لطف المولى سبحانه، فألقينا قافلة تخرج، و هي كبيرة تزيد على الألف و قال لنا قائل على الباب: إن لهم محاولة الخروج نحواً من ثلاثة أشهر، حتى تسنى لهم بخفارة على أداء خفارة فدخلنا إلى البلد. و خرجت ساعة دخولنا إلى زيارة قبور الصالحين بالوضع المعروف بالعبادة، و زرت قبر الشيخ الصالح آية زمانه أبي مدين [شعيب] رضي الله عنه...»<sup>(5)</sup>، و كان أمل العبدري كبير في قطع المفازة الخطيرة إلى رباط تازة متفائلاً بالنجاة من قطاع الطرق و اللصوص.

اهتم السلاطين الزيانيين و المرينيين بالمتصوفة، منهم السلطان أبي عنان المريني، فقال عنه ابن الحاج النميري في رحلته: «و خرج إلى بقعة العبادة، مرتقياً عن الأغوار إلى الأنجاد، و دخل إلى ضريح شيخ المشائخ سلطان العارفين أبي مدين شعيب بن الحسن الأندلسي رضي الله عنه، فأطال به المقام، و واصل الدعاء و أدام.»<sup>(6)</sup>

1- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 2، ص 387

2- بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع و التاسع الهجريين (13 - 15 م)، دراسة في تاريخ السوسيو ثقافي، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2002، ص 108.

3- عبد العزيز فيلاي، تلمسان...، المرجع السابق، ج 2، ص 389

4- العبدري، المصدر السابق، ص 48 - 49.

5- العبدري، المصدر السابق، ص 563.

6- ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 486.

كان سلاطين بنو مرين كلما غزو تلمسان بدؤوا زيارتهم لها بأضرحة صلحاء تلمسان، و في مقدمتها ضريح الغوث أبي مدين شعيب، ثم ما تبقى منهم، و جاء ذلك في رحلة ابن الحاج التميمي عن السلطان أبي عنان المريني حين قال: «لم ينشب رضي الله عنه أن سار إلى ضريح الشيخ الصالح أبي إسحاق الطيَّار<sup>(1)</sup> رضي الله عنه فأقام أيضاً هنالك معتملاً في دعاء مسترسلاً في شكر الله تعالى و ثناء و رفع إليه أيضاً بعض الشكايات...»<sup>(2)</sup> و قد أبدى بعض السلاطين احتراماً لرجال التصوّف بتلمسان أو ربما كانوا أنفسهم متصوّفة.

قصد الرحّالة المغربي ابن بطوطة زيارة ضريح أبي مدين شعيب عن عودته من رحلته، و أوضح ذلك في رحلته عندما قال: «فقصدت العباد، و زرت الشيخ أبا مدين رضي الله عنه و نفع به.»<sup>(3)</sup> و كلما حلّ ابن بطوطة ببلد إسلامي إلا و سارع للقيام بنفس العمل، كما أورد في رحلته ذكر علماء تلمسانيين مجاورين لمكة المكرمة: «و منهم الصالح السابح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني»<sup>(4)</sup>، و قد يعني هذا أن كثير من الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين كانوا متصوّفين يحترمون الأولياء الصالحين، و بمجرد وصولهم لبلد ما سارعوا إلى البحث عنهم و زيارتهم.

و من المتصوفة الذين لقيهم ابن بطوطة بالقدس أثناء رحلته «طلحة العبد الوادي»، حيث قال: «ثم سافرت عن القدس، و رافقني الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني»<sup>(5)</sup> و شيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي»<sup>(6)</sup>، المعروف بزهد و علمه.

أورد العبدري في رحلته شخصيات علمية و صوفية في تلمسان، منها ابن خميس فقال عنه: «فإنني وجدته (ابن خميس) على حالٍ انزواء و تقلّلٍ من الدُّنيا...»<sup>(7)</sup>، و قد كان ابن خميس من فحول الشعراء و أعلام البلغاء حافظاً لأشعار العرب<sup>(8)</sup>، و قال عنه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «العالم الصوفي، المتجرد أبي عبد الله محمد بن خميس التلمساني»<sup>(9)</sup>، لأنه جمع بين العلم و الزهد، و لم يمنعه تصوّفه من الإبداع في العلوم التي كان يحسنها، و خاصة نظم الشعر.

1- أبو إسحاق الطيَّار: من كبار الأولياء الصالحين بتلمسان، تذكر عنه المصادر بأنه من يضطجع أربعاً و عشرين سنة، ظل خلالها قائماً صائماً خاشعاً يعلم القرآن توفي في نهاية القرن السابع الهجري و دُفن بالعُباد. ينظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 106.

2- ابن الحاج التميمي، المصدر السابق، ص 487.

3- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 447.

4- المصدر نفسه، ص 100.

5- سليمان الملياني: محدث، فقيه مالكي، مشارك في عدة علوم، من أهل مليانة، رحل إلى المشرق و دخل بغداد، و لقي جماعة من العلماء و أخذ عنهم. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 316.

6- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 442.

7- العبدري، المصدر السابق، ص 53.

8- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص 122.

9- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 54.

كانت العبّاد من الأماكن الهادئة بتلمسان، يلجأ إليها خاصة و عامة الناس، منهم الرحّالة المغاربة و الأندلسيين للتأمل و العلم، و هذا ما قام به عبد الرحمن بن خلدون فقال في رحلته: «فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين و نزلت بجواره مؤثراً للتخلي و الانقطاع للعلم ، لو تركت له»<sup>(1)</sup>، لكن ابن خلدون كلما كان السلاطين بحاجة إليه طلبوه، فقال: «فاستدعاني (السلطان عبد العزيز صاحب المغرب) من خلوتي بالعبادة عند رباط الولي أبي مدين»<sup>(2)</sup>

كان الشيخ أحمد بن زاغو أحد شيوخ القلصادي المتصوفة بتلمسان فقال عنه في رحلته: «و به (أحمد بن زاغو) يضرب المثل في الزهد و العبادة. و عند كلامه تقف الفتيا في الأذكار و الإرادة، مقبل على الآخرة معرض عن الدنيا، عار عن زخرفتها، إلا ما يتخذه من ثوب حسن أو هيئة فيها جمال. أكرمه المولى بتلاوة القرآن، و شرفه بملازمة قراءة العلم و التصنيف و التدريس و التأليف.»<sup>(3)</sup>

التقى القلصادي بعد قيامه بمناسك العمرة ببعض أصحابه، منهم القاسم بن الحسين التلمساني، فقال عنه: «ثم أقمنا تلك الليالي و الأيام في سرور و نعيم و أمان، لم أر أقصر منها، و وقع إلفنا بالشيخ المتبرّك به الولي الصالح سيدي قاسم بن الحسين التلمساني ﷺ، نرح عن طلب الدنيا فحصل له من الأخرى الحظ الأوفى، و فاز بالسعادتين، من المجاورة بالحرمين الشريفين، و خصني ببيته من رباط الموفق<sup>(4)</sup>، فتمتعت بمؤانسته و تمتعت إلا عن مجالسته، و تعاطينا أحاديث كأنها رصاب، و فوائد لها بيننا اقتضاء و اقتضاب، و تذكرنا أزماناً سلفت بتلمسان مع أشياخنا منهم و الأعيان، تداركهم الله بالرحمة و الرضوان. و وقع أيضاً اجتماعنا بالأخ في الله تعالى الفقيه الصدر: أبي الفضل قاسم بن أبي حديد القسنطيني<sup>(5)</sup>، شقيق إخاء لا شقيق أخوة، نسيب صفاء إن تذكرت نسبياً.»<sup>(6)</sup>، و شيوخ آخرون من المغرب الأوسط.

خصّص الحاج عبد الله بن الصباح جزء من رحلته و عنوانه بـ [إلى مملكة بني عبد الواد]<sup>(7)</sup>، افتتحه بذكر رجال التصوّف بتلمسان قائلاً: «و نخرج إلى ملك بني عبد الواد المذكورين إلى مدينة تلمسان المذكورة المبرورة من الصالحين المشهورين مثل سيدي أبي مدين و غيره و مثل سيدي الحلوي و غيره من الصالحين لله الحمد كثيراً على بركة الله تعالى و بركة هذه الأمة المباركة ببركة نبينا ﷺ.»<sup>(8)</sup>

1- نفسه، ص 121.

2- نفسه، ص 121.

3- نفسه، ص 108.

4- رباط الموفق: يقع بأسفل مكة، وقفه الموفق علي بن عبد الوهاب الإسكندري سنة 604 هـ.

ينظر: تقى الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تح محمد حامد الفقى، ج 1، مؤسسة الرسالة، الطبعة 2، 1406 هـ - 1986 م، ص 122. أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، الهامش 1، ص 140.

5- لم نعتز على ترجمته. ينظر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 140.

6- نفسه، ص 140.

7- الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 91.

8- نفسه، ص 91.

و من كُتُب الرحّالة و الجغرافيين التي تخصصت في التصوف «أنس الفقير و عز الحقيّر» لأبي العباس أحمد بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، حيث نجد يبين في كتابه هذا ضرورة الاعتقاد بالأولياء الصالحين و دعا إلى الزهد و الاعتراف بالمناقب و البركات و الكرامات، و عدم التكر لها، و وضح بانها من الأمور التي تنفع الفقير و تعز الحقيّر، و قد أورد في هذا الكتاب تشخيصاً لأحوال الناس، برؤى عديدة و من زوايا مختلفة الاجتماعية، منها الدينية و العقديّة، و توصل في دراسته إلى أن سبب فساد عقيدة الفرد، تعود إلى كثرة المظالم، و انعدام العدالة و التعامل بالحرام بين الناس، و تقليص دائرة الحلال و الانغماس في الملاذ و الشهوات و الانسياق وراء الغرائز من جهة، و ضعف الفقهاء و انتشار الخلاف في ما بينهم، من جهة ثانية، مما جعل السلطان الحفصي يتدخل لفض هذه النزاعات و الاختلافات من حين إلى آخر.<sup>(1)</sup> ، و كان ابن قنفذ القسنطيني يرى في التصوف مشروع لإصلاح مجتمع المغرب الإسلامي.

و عن وفاة الغوث أبي مدين شعيب و أحوال الناس في تلمسان عندها قال ابن قنفذ: «و كانت وفاة الشيخ أبي مدين، رضي الله عنه، و رحمه في عام أربعة و تسعين و خمسمائة و كان في ذلك اليوم محفل عظيم و مشهد جسيم و في ذلك اليوم تاب الشيخ الصالح أبو علي عمر الحباك التلمساني و خرج عن دنياه و كان يحدث بسبب ذلك فيقول: حضرت جنازة الشيخ أبي مدين، رضي الله عنه، بالعباد، خارج تلمسان، فما رأيت أعز من الفقراء في ذلك اليوم و لا أدلّ من الأغنياء في ذلك اليوم - قال: قلت في نفسي: إذا كانت هذه حالتهم في الدنيا فما ظنك بها في الآخرة - قال: فدفعت أثوابي إلى فقير بجنبي و أخذت مرقعته و حلقت رأسي و دخلت على أهلي، فصاحت زوجتي فقلت لها: ان،،، لم توافقيني فعديني ميتاً.»<sup>(2)</sup>

و عن العباد يقول ابن قنفذ القسنطيني: «و العباد منظر شريف و بقعة مباركة وطأها الصالحون و سكنها المتعبدون.»<sup>(3)</sup>، و كان يعتقد في بركات الصوفية و كراماتهم، و يتضرع كثيراً عند أضرحتهم، خاصة أبي مدين شعيب الغوث بعباد تلمسان، فقال: «و قبر الشيخ أبي مدين، رضي الله عنه، بالعباد معهود مشهور، و حوض للزائرين. رأيت من قبور الأولياء كثيراً من تونس إلى مغرب الشمس و منتهى بلد آسفي فما رأيت انور من قبره و لا أشرق و لا أظهر من سره و ليس الخبر كالعيان.»<sup>(4)</sup>، و هذا دليل على اعتقاد ابن قنفذ في الأولياء الصالحين و المتصوفة و أن الكروب و الهموم لا تفرج إلا بإتباع نهجهم الصوفي.

1- أبو العباس أحمد بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، أنس... المصدر السابق، ص 110.

2- نفسه، ص 104.

3- نفسه، ص 110.

ينظر كذلك: عبد العزيز فيلالي، دراسات في تاريخ الجزائر و الغرب الإسلامي، دا الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012، ص 157.

4- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس... المصدر السابق، ص 104.

و عن الزهد يقول ابن قنفذ القسنطيني: «و الزهد ميل النفوس إلى ما دعا الله سبحانه إليه و الانقطاع إلى خدمته بنسيان ما يقع به طباعها، و تفسده استراحة النفس و ميلها إلى رخص الفقهاء. و قد سئل بعضهم عن الزهد. فقال: هو ترك الحرام. فإذا حصلت هذه الرتبة الثالثة رجي القبول في الله تعالى. و الفضل بيد الله سبحانه، يؤتيه من يشاء.»<sup>(1)</sup>

لخص الدكتور بونابي الطاهر مشروع الإصلاح الذي تقدم به ابن قنفذ لإصلاح التصوف و المجتمع، معتمداً على تجربته الصوفية، التي عاشها في أماكن متعددة من المغرب الإسلامي في ما يلي<sup>(2)</sup>:

1- يرى ابن قنفذ القسنطيني بأن فكرة التوبة تتميز بالشمولية و أهم عناصرها هو الإصرار و العزم، و التخلص من الحرام و العمل على كسب الرزق الحلال.

2- يرى أيضا أن فكرة محاسبة النفس و الابتعاد عن طريق الشر تعد وسيلة هامة من الوسائل التي تؤدي إلى الورع الكامل، و بالتالي الوصول إلى الرتبة الثانية من الزهد، فعلى الزاهد التائب أن يسلك طريق الخير و الشكر، و نبذ الشهوات و الملذات و محاربة الشيطان، و محاربة النفس، تجعله ينتقل إلى، المرتبة الثالثة، و هي مرتبة الزهد في الدنيا، لأن درجات الورع عند ابن قنفذ تكون أول درجة الزهد.

حدد ابن قنفذ القسنطيني قصده من تأليف كتابه [أنس الفقير و عز الحقير]، فقال: «و بعد فإن الفقير إلى ربه أحمد بن الخطيب، وفقه الله، و لطف به قال: رغب إلي من يكرم علي من بعض اخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين، نفع الله به و بأمثاله المسلمين.»<sup>(3)</sup>، كما تحدث أيضا عن صفة الولي الصالح و شروط الكرامة و فصل فيها.

ذكر ابن قنفذ القسنطيني في كتابه [أنس الفقير و عز الحقير] شيوخ أبي مدين شعيب مع ذكر العلوم التي اشتهروا فيها و كراماتهم، و عند زيارته لفاس التقى بامرأة متصوفة من تلمسان، فقال عنها: «و رأيت منهم بفاس المرأة الصالحة مؤمنة التلمسانية. و تبركت بها و ما زالت على ما تقرر عندي، تخصني بالدعاء في ظهر الغيب. و كان قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله المقري، رحمه الله، يزورها و يسعى في قضاء حوائجها. و كانت على زهد و تقشف و عبادة و ورع. و كان قوتها في العام من غزل بديها من نصف و سق شرعي من الزرع و هو ثمنه و نصف بالكيل الجديد ببلدنا. لا تقبل من أحد شيئاً. و ما زالت تقيم بدارنا أياماً متوالية. لا تأكل شيئاً. و كانت تقيم عندنا الشهر و نحوه على يسير من قوتها و ما أكلت طعاماً لنا قط... و أراد سيد الشرفاء و جليس الأمراء الفقيه العالم العلم الصدر الشيخ الشهير أبو القاسم الشريف التلمساني زيارتها فأتوا قالت: «يعظم علي أن يقصدني شريف.»<sup>(4)</sup>

1- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس...، المصدر السابق، ص 110.

2- عبد العزيز فيلالي، دراسات...، المرجع السابق، ص 157 - 158.

3- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس...، المصدر السابق، ص 1.

4- نفسه، ص 80 - 81.

وصف ابن قنفذ مؤمنة التلمسانية قائلاً: «و رأيتها مرة عليها جبة صوف و على رأسها طرف من تليس معقود تحت دقنها وشيب رأسها ظاهر على جبهتها و لوحها فيه من سورة البقرة بيدها. قالت لي: «كيف يكون حالي يا ولدي بين يدي ربي!» و اخذت في البكاء.»<sup>(1)</sup>

كانت مؤمنة التلمسانية شديدة الشوق إلى أن تموت بتلمسان و تدفن بتربة العباد، و هذا ما نقله عنها في رحلته، حين قالت له: «أريد أن أموت بعباد تلمسان.»، و تكرر ذلك، فلما قربت منيتها يسر الله لها السفر إلى تلمسان، فسافرت و توفيت بها بعد وصولها بأيام، رحمها الله و نفع بها.<sup>(2)</sup> و بالعباد» قبور كثيرة متزاحمة لالتماس بركة الشيخ أبي مدي رضي الله عنه.<sup>(3)</sup> و لم يقتصر التصوف بتلمسان على الرجال فقط، بل شمل حتى النساء.

و من المتصوفة الذين أقاموا بتلمسان و دفنوا بالعباد، أبو محمد عبد السلام التونسي<sup>(4)</sup>، قال عنه ابن قنفذ القسنطيني: «و حدثوا عن عبد السلام التونسي أنه كان يعمل بيده في أرضه. فقصدته والي تلمسان للتبرك فنزل عن فرسه ففرش له فتاه برنوسه يجلس عليه. فقال له عبد السلام: «ما هذه الأخلاق؟» أين تجد غدا برنوسا تجلس عليه؟» فاستحيا و قام و جلس على الأرض. و كانت لعبد السلام أحوال عجيبة. و بلغ الغاية في الزهد و التقشف و كان إذا صلى الجمعة بتلمسان حبسه الناس عند الخروج للدعاء زماناً طويلاً واحداً بعد واحداً. و رابطته بالعباد معروفة.»<sup>(5)</sup>

1- نفسه، 82.

2- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس...، المصدر السابق، 82.

3- نفسه، 106.

4- أبو محمد عبد السلام التونسي: قال عنه ابن مريم في البستان: «سيدي عبد السلام التونسي الذي دفن الشيخ سيدي أو بومدين بجواره في روضته قرأ على عمه عبد العزيز و نزل تلمسان في الرهبان كان عالماً زاهداً من أكابر أولياء الله تعالى لا تأخذه في الله لومة لائم يلبس الصوف و يأكل الشعير من حرث يديه و السلاحف البرية إلى ان مات رحمه الله عليه و قبره بالعباد.»  
ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، المصدر السابق، 122.

5- أبو العباس أحمد بن الخطيب، ابن قنفذ القسنطيني، أنس...، المصدر السابق، 108.

## المطلب الرابع: العلوم العقلية

و تسمى أيضا العلوم الكونية و كانت تشمل المنطق و الرياضيات من حساب و هندسة و جبر و طبيعيات من فيزياء و كيمياء و طب و ما يلحق به من فلسفة أو حكمة بالإضافة إلى علم السياسة و علم الموسيقى<sup>(1)</sup> و من أبرز العلماء في العلوم العقلية الذين جاء ذكرهم في كتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين:

## • أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي (ت 757 هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي ( 681 - 757 هـ ) أحد أساتذة عبد الرحمن بن خلدون و لسان الدين بن الخطيب، أصله أندلسي من مدينة آبله في الأندلس، ثم انتقلت عائلته إلى تلمسان بالمغرب الأوسط، و هناك عكف على تحصيل العلم و تدريسه مخالفاً في ذلك اتجاه أبيه و اعمامه الذين احترفوا الجندية، رحل إلى المشرق و حج، و لقي كثيرا من العلماء ثم عاد ثانية إلى تلمسان ثم اندمج في طبقة العلماء بمجلس السلطان أبي الحسن المريني بفاس و ظل هناك إلى أن مات.<sup>(2)</sup> و قد لقيه و استفاد من علمه الرحالة المغربي ابن بطوطة عندما مرّ بتونس عند عودته من رحلته، فقال عنه: «و لقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتم العلماء و كبيرهم أبا عبد الله الآبلي، و كان في فراش المرض، و باحثي عن كثير من أمور رحلتي.»<sup>(3)</sup>، فكان حريصاً و مقبلاً على العلم حتى على فراش المرض.

كان الآبلي من شيوخ عبد الرحمن خلدون، إذ أوفد عنه معلومات في رحلته: «اسمه محمد بن إبراهيم فممنشؤه بتلمسان، و أصله من جالية الأندلس من أهل آبله من بلد الجوف منها، أجاز بأبيه و عمه أحمد، فاستخدمهم يغمراسن بن زيان و ولده في جندهم، و أصهر إبراهيم منهما إلى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته، فولدت له محمدا هذا.»<sup>(4)</sup>، و هذا ما أكده ابن خلدون في رحلته: «و منهم شيخ العلوم العقلية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي. أصله من تلمسان، و بها نشأ، و قرأ كتب التعاليم، و حدّق فيها، و أظله الحصار الكبير بتلمسان أمام المائة السابعة، فخرج منها، و حجّ، و لقي أعلام المشرق يومئذ، فلم يأخذ عنهم لأنه كان مختلطا بعارض عَرَض في عقله. ثم رجع من المشرق، و أفاق، و قرأ المنطق و الأصولين، على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام، و كان قرأ بتونس، مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن، على تلاميذ ابن زيتون<sup>(5)</sup> الشهير الذكر، و جاء إلى تلمسان بعلم كثير من المعقول و المنقول.»<sup>(6)</sup>

1- الحاج محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج 2، ص 61.

2- لسان الدين بن الخطيب، نفاضة...، المصدر السابق، ص 64.

3- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 446.

4- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 49.

5- ابن زيتون: هو القاسم بن أبي بكر بن مسافر شهر بابن زيتون، يكنى أبا القاسم رحل إلى المشرق، و أخذ عن علمائه، و رجع إلى تونس، فتولّى بها الإفتاء و القضاء، و هو أول من أظهر تأليف فخر الدين الرّازي بتونس، حيث كان يقرأها.

ينظر: أحمد بابا التتبيكتي، المصدر السابق، ص 362.

6- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 40 - 41.

تعلم ابن خلدون عن الآبلي فأجازه، فقال في رحلته عنه: «و منهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقلية، و مُفيدُ جماعتهم، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، قرأت عليه بعضه (موطأ الإمام مالك)، و أجازني بسائره.»<sup>(1)</sup>

### • أبو عبد الله محمد بن النجار: (ت 749 هـ)

هو محمد بن يحيى بن علي النجار التلمساني أبو عبد الله<sup>(2)</sup>، مراكشي الأصل، ولد و نشأ بتلمسان و تتلمذ عن الآبلي ثم رحل إلى المغرب الأقصى و درس عن مشايخه، فنبح في العلوم العقلية، ثم عاد إلى تلمسان فدرس بها<sup>(3)</sup>، قال عنه عبد الرحمن بن خلدون في رحلته: «شيخ التعاليم أبو عبد الله محمد النجار من أهل تلمسان، أخذ العلم بلده عن مشيختها، و عن شيخنا الآبلي، و برز عليه، ثم ارتحل إلى المغرب. ثم ارتحل إلى المغرب، فلقى بسببته إمام التعاليم، أبا عبد الله محمد بن هلال شارح المِجْصُطِي في الهيئة، و أخذ بمراكش عم الإمام أبي العباس بن البناء، و كان إماماً في علوم النجامة و أحكامها، و ما يتعلق بها، و رجع إلى تلمسان بعلم كثير، و استخلصته الدولة.»<sup>(4)</sup>

### • يوسف الزيدوري (ت 845 هـ):

قال عنه القلصادي في رحلته: «و منهم شيخنا الفقيه المتقن في المعقول: سيدي أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الشهير بالزيدوري. كانت له مشاركة و قدم في علوم الرياضيات و كانت له همة عالية بحيث لا يلتفت إلى أحد من أبناء الدنيا، فعزت نفسه عن دني الكسب، و رغب بها عما يهين الطالب، و حقن ماء وجهه عن التعرض لما يحمد تاركة شرعاً، و يذم فاعله عادةً أو طبعاً، فكان لباسه كساء صوف لا غير»<sup>(5)</sup>، و كان من هو الآخر من أعلام التصوف في تلمسان ترجمت لهم كتب التراجم.

و من العلوم التي أخذها عنه القلصادي: «قرأت عليه تلخيص ابن البناء غير مرة، و كذلك الحوفي بطريقتي «التصحيح و الكسور»، و بعض الأصول و المقدمات في الجبر و المقابلة لابن البناء، و شيئاً من رفع الحجاب، و حضرت عليه التلخيص و التلمسانية و المقالات و الجمل للخونجي. توفي ﷺ في الوباء سنة خمس و أربعين و ثمانمائة = 1441 - 1442 م و دفن بخارج باب كشوط.»<sup>(6)</sup> في تلمسان.

1- نفسه، ص 240.

2- أحمد بابا التتبيكتي، المصدر السابق، ص 404.

3- رشيد بورويبة و آخرون، المرجع السابق، ص 451.

4- ابن خلدون عبد الرحمن، الرحلة...، المصدر السابق، ص 59.

5- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 106.

ينظر كذلك: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، المصدر السابق، ص 305.

أحمد بابا التتبيكتي، المصدر السابق، ص 630.

6- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، المصدر السابق، ص 106.

خاتمه

من خلال تطرقي إلى موضوع تلمسان من خلال كُتُب الرَحَّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري (13 - 15 م) و هي الفترة التي شهد بها المغرب الإسلامي وجود الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط و الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى و المرينية بالمغرب الأقصى بعد سقوط دولة الموحدين، فيمكن أن نستخلص جملة من النتائج من خلال مؤلفات هؤلاء الرحالة و الجغرافيين المغاربة الذين مروا بالمغرب الأوسط.

- تشترك رحلات المغاربة و الأندلسيين في كثير من الدوافع و الخصائص، و في مقدمتها الواع الديني الذي يبدو وضحاً ضمن مؤلفاتهم التي برعوا فيها، ثم تأتي دوافع أخرى بعده كالرغبة في التحصيل العلمي و الدراسة على يد شيوخ و فقهاء تمتعوا بسمعة علمية بالمشرق العربي و كانت مؤلفاتهم مصادر هامة في أدب الرحلة و كتابة تاريخ المغرب الأوسط و تلمسان.
- اضطر الرحَّالة و الجغرافيون المغاربة و الأندلسيين في أغلب الأحيان إلى المرور بتلمسان الزيانية، نظراً لأهمية موقعها، كما كانت محطة مهمة في رحلاتهم للتزود بمستلزمات الرحلة و الراحة لاستئنافها و كانت تلمسان نقطة تجمّع قوافل المغاربة و الأندلسيين، و من تم تواصل سيرها باتجاه بلاد المشرق أو جهات أخرى لأن تلمسان كانت بمثابة مفترق الطرق.
- أشار الرحَّالة و الجغرافيون المغاربة و الأندلسيون إلى سوء الأحوال السياسية في تلمسان، لكنها استطاعت تحافظ على كيانها و تنافس جيرانها، فأنشأت تنظيمات إدارية و قضائية لتنظيم و تسيير شؤونها، و عسكرية للدفاع عن حدودها. و كانت النزاعات داخل الأسرة الحاكمة من الأسباب التي عجلت بسقوطها مثل جيرانها.
- أوردت كتب الرحَّالة المغاربة و الأندلسيين ازدهار الأوضاع الاقتصادية بتلمسان خلال العهد الزياني، و ذلك بفضل إمكانياتها الطبيعية و عناية سكانها، فازدهرت الزراعة و كثر إنتاجها و تنوعت الصناعة و نشطت التجارة الداخلية بين حواضر المغرب الأوسط و الخارجية مع جيرانها المرينيين و الزيانيين خاصة في أوقات السلم و مع النصارى عن طريق الموانئ الهامة مثل هنين و المرسى الكبير و تنس و الجزائر و غيرها من الموانئ، و مع السودان الغربي، مما أنعش الحياة الاقتصادية.
- أشارت كتب الرحَّالة المغاربة و الأندلسيين إلى تنوع المجتمع الزياني في تلمسان من حيث التركيبة البشرية، و كان للعنصر البربري دور كبير في الحياة السياسية و الثقافية فيها، كما عُرف المجتمع بطبقاته المتفاوتة كأى مجتمع مغربي في العصر الوسيط، و كان المجتمع في تلمسان يعاني كبقية مجتمعات بلاد المغرب الإسلامي من الآفات الاجتماعية منها الفقر... الخ. و كان للجالية الأندلسية التي فضلت الاستقرار بتلمسان و بلاد المغرب أو المهجرة إجباراً من بلاد الأندلس الفضل الكبير في تطور الحياة الثقافية و الاقتصادية بتلمسان الزيانية، و ذلك من خلال الاستفادة من تجاربها في مختلف المجالات.

- أورد الرحالة العبدري صورة سيئة عن الحياة الفكرية المتدهورة بتلمسان بعض سقوط الدولة الموحدية، لكنها انتعشت مع الدولة الزيانية و ذلك من خلال اهتمام بعض سلاطينها بالعلم و العلماء و بناء المؤسسات التعليمية مثل المدارس و المساجد التي لعبت دورا كبيرا في انتشار الثقافة، و ازدهرت العلوم و نبغ كثير من العلماء و الفقهاء مثل أبو إبراهيم بن يخلف التنسي و محمد بن خميس التلمساني و أبو عبد الله المقري و الشريف التلمساني و الأبلي و غيرهم.
- ذكر القلصادي في رحلته أنه تتلمذ على يد الكثير من شيوخ تلمسان، و منهم من حضر حلقات دروسهم، و قد أشاد القلصادي بالازدهار العلمي و الثقافي في تلمسان الذي عكس مدى تطور مدينة تلمسان خلال العهد الزياني في مختلف العلوم تلمسان، فكانت رحلته رحلة علمية قيّد فيها ما تعلمه في الحواضر التي مرّ بها، أهمها تلمسان التي كان يصعب عليه كثيراً فراقها، و يبدو أن القلصادي حصل على إجازات من بعض شيوخه بتلمسان سمحت له بالتدريس فيما بعد من خلال ما ذكره في رحلته.
- تحدثت كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين عن تنوع العلوم في تلمسان و إبداع علمائها، فمنهم من أبدع في العلوم العقلية مثل ابن خميس في اللسانيات الذي استمتع بقصائده الرحالة المغربي العبدري و أبو زكريا يحيى بن عصام جار ابن خميس الذي اعترف له كذلك العبدري بمستواه في الشعر، كما برز علماء تلمسانيون كثيرون ورد ذكرهم في كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين أمثال أبو اسحاق التنسي الذي ذكر عنه ماخلت بلد من العلم فيها أبو إسحاق التنسي، و كذلك أبو الحسن التنسي و ابني الإمام و غيرهم.
- أما في العلوم العقلية فقد أوردت كتب الرحالة المغاربة و الأندلسيين أعلامها، و كان في مقدمتهم محمد بن إبراهيم الأبلي شيخ عبد الرحمن خلدون و لسان الدين بن الخطيب و غيرهما. قام الأبلي برحلات علمية نهل خلالها من مختل العلوم ثم عاد إلى تلمسان ليفيد طلاب العلم في تلمسان، و كذلك محمد بن النجار و يوسف الزيدوري الذين أبدعا في العلوم العقلية في تلمسان.
- حافظت تلمسان الزيانية على التيار الصوفي السني، من خلال ظهور فئة من المتصوفة متبعة نهج سابقهم مثل أبي مدين شعيب و غيره، و قد ساهم هذا التيار في نشر التعليم الديني و نشر ثقافة التقشف و الزهد في المجتمع، و ورد في كتابات الرحالة و الجغرافيين المغاربة ذكر كثير من المتصوفة مثل: أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني و أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني، الذي خصص مؤلفه «أنس الفقير و عز الحقير» لأقطاب التصوف بالمغرب الإسلامي و الأندلس.
- أورد بعض الرحالة المغاربة و الأندلسيين في كتبهم معلومات كثيرة عن التصوف، فكان منهم متصوفة أو متأثرين بالتيار الصوفي السني أمثال ابن بطوطة و ابن الحاج النميري و العبدري و ابن قنفذ القسنطيني و غيرهم، من خلال زيارتهم لأضرحة أقطاب التصوف بتلمسان كضريح أبي مدين

الغوٲ و غيرها من أضرحة صلحاء المدينة و كان تيار التصوف واسع الانتشار في بلاد المغرب و المشرق، مما جعل بعض سلاطين بني زيان و بني مرين يقومون بزيارتها و بالأخص ضريح أبي مدين الغوٲ و كان القصد منها التبرك و من بين هؤلاء السلاطين، السلطان أبي عنان المريني الذي مرّ بتلمسان في رحلة غزو لمدينة قسنطينة و الزاب بحجة تأديب الأعراب.

## قائمة المصادر والمراجع

**قائمة المصادر والمراجع:**

- القرآن الكريم

- الحديث النبوي: البخاري عبد الله محمد بن إسماعيل، "صحيح البخاري"، ج1، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، 2004.

**1- المصادر****أ- المصادر المخطوطة:**

1- عمار أحمد ابن عمار، نخلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2757، بالميكروفيلم.

2- المجاجي عبد الرحمن بن خروب المجاجي، رحلة المجاجي، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 1564، بالميكروفيلم.

3- مؤلف مجهول، كتاب عن رحلة إلى المغرب الأقصى، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3164، بالميكروفيلم.

**ب- المصادر المطبوعة:**

4. ابن الآبار أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت 658 هـ/ 1260 م)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، ج1، دار الفكر، بيروت، 1995.

5. ابن الأثير محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630 هـ)، الكامل في التاريخ، مراجعة و تصحيح محمد يوسف الدقاق، مج 9، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 4، 2003.

6. ابن الأحمر اسماعيل (ت 807 هـ)، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تقديم وتحقيق و تعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر و التوزيع، الطبعة 1، 2001.

7. الإدريسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 560 هـ/ 1166 م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.

8. الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم، المسالك و الممالك (ت 346 هـ/ 957 م)، تحقيق محمد جابر عبد العال الجيني، وزارة الثقافة و الإرشاد، 1961.

9. الإفراني محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير (ت 1156 هـ/ 1744 م)، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004.

10. الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ)، الرحلة في طلب الحديث، تح نور الدين عتر، سلسلة روائع تراثنا الإسلامي، ط1، 1975.

11. ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (ت 779 هـ/ 1369 م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، مؤسسة الحسني، الدار البيضاء المغرب، ط 1، 2006.

12. البكري أبو عبيد الله، المسالك و الممالك الجزء الخاص ببلاد المغرب (ت 487 هـ/1102 م)، تحقيق زينب الهكاري، مطبعة الرباط نات، المغرب 2012.
13. البلوي أبو القاسم بن أحمد التونسي البرزلي (ت 833 هـ/1429 م)، ، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين و الحكام، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ج 1، ط 1، 2002.
14. البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين، تقديم عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1971.
15. التنبكتي أحمد بابا(ت 1036 هـ/1627 م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط 1، 1989.
16. التنسي محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق و تعليق محمود آغا بوعبيد، موفم للنشر لنشر(تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية (2011).
17. التجيبي السبتي القاسم بن يوسف (ت 730 هـ/1329 م)، مستفاد الرحلة و الاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا، تونس،الدار العربية للكتاب، 395 هـ/ 1975 م.
18. التيجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، رحلة التيجاني، تقديم حسن حُسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981.
19. ابن حزم الأندلسي بن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق و تعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د ت).
20. الحموي الرومي أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان (ت 626 هـ)، مج 1، دار صادر بيروت، لبنان، 1977.
21. الحموي الرومي أبو عبد الله ياقوت، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح إحسان عباس، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1993.
22. الحميري محمد بن عبد المنعم (ت 866 هـ/1463 م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة 1، 1975.
23. ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد(ت 614 هـ)، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار القصة للنشر، الجزائر.
24. ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض(ت 367 هـ)، دار صادر بيروت.
25. ابن الخطيب السُلّماني لسان الدين(ت 713 هـ)، الإشارة إلى أدب الوزارة، دراسة و تحقيق محمد كمال شبانه، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2004.

26. ابن الخطيب السِّلْماني لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، ج 4، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ( د ت).
27. ابن الخطيب السِّلْماني لسان الدين، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983.
28. ابن الخطيب السِّلْماني لسان الدين خطيب لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف في رحلة الشتاء و الصيف، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبو ظبي، 2003.
29. ابن الخطيب السِّلْماني لسان الدين ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
30. ابن الخطيب السِّلْماني لسان الدين، نُفاضة الجراب في غلالة الاغتراب، تح أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985.
31. ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي ( 808 هـ) ، شفاء السائل و تهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، مكتبة الأسد، 1996.
32. ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي ، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصروهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 6، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، 2000.
33. ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.
34. ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي، المقدمة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009.
35. ابن خلدون يحيى ( ت 788هـ)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بيبير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903.
36. ابن خلكان عباس أبو شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان و أنباء الزمان ( ت 681 هـ)، تحقيق إحسان عباس، ج7، دار الثقافة، بيروت، 1968.
37. ابن دحية أبو الخطاب مجد الدين عمر بن الحسن بن علي (ت 633 هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق ابراهيم الأبياري و حامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1954.
38. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ( ت 748 هـ) ، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف و محيي هلال السرحان، ج 23، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1985.
39. ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر (ت نحو 300 هـ) ، الأعلام النفسية، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1988.

40. ابن أبي زرع الفاسي(ت 726 هـ/1326 م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، صور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1972.
41. الزُّهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت 230 هـ)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر(د ت).
42. الزياني أبو القاسم(ت 1147 هـ/1734 م)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا و بحرا ، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب،1991.
43. الأنصاري السبتي محمد بن القاسم(ت بعد 825 هـ)، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983.
44. السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت 902 هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج6، دار الجيل، بيروت(د ت).
45. السيوطي جلال الدين(ت 911 هـ)، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
46. السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 1، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1968.
47. الشهرستاني محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح، الملل و النحل(ت على الأرجح نحو 548 هـ)، تحقيق ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، لبنان (د ت).
48. الصفدي صلاح الدين خليل بن ابيك، تح أحمد الأرنؤوط و تركي مصطفى(ت 764 هـ)، دار إحياء التراث العربي،بيروت، لبنان، ج 14، ط 1، 2000.
49. العبدري أبو عبد الله، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كرومي(ت نحو 700 هـ)، دار سعد الدين للطباعة و النشر و التوزيع، ط2، دار سعد الدين للطباعة و النشر و التوزيع، 2005.
50. ابن عذارى المراكشي(ت نحو 695 هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق و مراجعة ج.س.كولان و إ.ليني بروقنسال، ج 1، دار الثقافة، بيروت،1948.
51. العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر(ت 852 هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 3، دار إحياء، التراث العربي، بيروت، (د ت).
52. الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (ت 704 هـ)، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.
53. ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد(ت 799 هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق علي عمر، مج 2، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2003.
54. ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي(ت 1025 هـ)، جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس، ج1، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1973.

55. ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة (د ت).
56. القشيري أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان (ت 465 هـ)، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 3، 2005.
57. القلصادي الأندلسي أبو الحسن علي (ت 891 هـ)، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجنان، دار ابن حزم، ط 1، 1432 هـ/2011.
58. القلقشندي أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (ت 821 هـ)، ج 5، ج 14، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340 هـ/1922 م.
59. ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب (ت 733 هـ)، أنس الفقير و عز الحقيير، نشر و تصحيح محمد الفاسي و أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، (د ت).
60. ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن الخطيب، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم و تحقيق محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.
61. ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب (ت 810 هـ)، الوفيات، تحقيق و تعليق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 4، 1983.
62. ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن الخطيب، شرف الطالب في أسنى المطالب، تح عبد العزيز صغير دُخان، مكتبة الرشد ناشرون، (د ت).
63. القيرواني ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرعيني (ت نحو 1698 م)، كتاب المؤنس في أخبار افريقية و تونس، مطبعة الدولة التونسية، الطبعة 1،
64. كاربخال مارمول كاربخال (ت 1600 م)، إفريقيا، ج 2، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي و آخرون، الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، 1989.
65. الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (450 هـ)، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت (د ت).
66. المراكشي محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي (703 هـ)، السفر الثامن من كتاب الذيل و التكملة، تحقيق محمد بن شريفة، القسم 1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984.
67. المدجن الحاج عبد الله بن الصباح (النصف الثاني من القرن 8 هـ)، أنساب الأخبار و تذكرة الأخيار، تحقيق محمد بنشريفة، دار أبي رقرق، للطباعة و النشر، ط 1، 2008.
68. المراكشي عبد الواحد المراكشي (ت 647 هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم و تحقيق و تعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر و التوزيع، 1994.
69. ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد (ت حوالي 1020 هـ/1611 م)، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

70. المغربي علي بن موسى ابن سعيد المغربي (ت 685 هـ)، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة 2، 1982.
71. المغربي علي بن موسى ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج1، ج 2، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، 2009.
72. المقدسي شمس الدين أبو عبد الله (ت 380 هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، 1980.
73. المقري التلمساني أحمد بن محمد المقري (ت 1041 هـ)، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج 3، تحقيق مصطفى السقا و آخرون، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1942.
74. المقري التلمساني أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مج 2، مج 7، دار صادر، بيروت، 1968.
75. مؤلف مجهول (ت القرن 6 هـ)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.
76. النباهي المالقي الأندلسي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 5، 1983.
77. الثميري ابن الحاج (ت 768 هـ)، فيض العباب و إفاضة قдах الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب، دراسة و إعداد الدكتور محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990.
78. الوزان الحسن بن محمد الفاسي (ت 957 هـ/1550 م)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1983، 2.
79. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 914 هـ)، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا و الأندلس و المغرب، ج 2، ج 10، تح محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981.
80. اليحصبي أبو الفضل عياض بن موسى (ت 544 هـ)، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد سالم هاشم، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1998.
81. اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي (ت 284 هـ)، كتاب البلدان، مكتبة المثنى عن ليدن، 1891.

**2- المراجع:****أ- المراجع باللغة العربية:**

82. أتاكي يوسف بن تغري بردى الأتابكي و جمال الدين أبو المحاسن، تحقيق محمد أمين، المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي، ج 8، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1999
83. أحمد رمضان أحمد، الرحلة و الرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة و النشر و التوزيع، جدة، (د ت).
84. أحمد علي أحمد، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، ط 1، 1989.
85. أحمد موسى عز الدين عمر، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط 1، 1983.
86. أرسلان شكيب، الحلل السندوسية في الأخبار و الآثار الأندلسية، المطبعة الرحمانية، ج 1، ط 1، 1936.
87. أندري برنيان و آخرون، الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة اسطنبولي رابح و منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
88. أنساعد سميرة، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة و التطور و البنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009.
89. الأنصاري محمد جابر، التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق في آثار ابن سعيد المغربي و رحلاته المشرقية و تحولات عصره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1992.
90. البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين و آثار المصنفين، مج 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ت).
91. بلعربي خالد، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن دراسة تاريخية و حضارية 633-681 هـ/1235-1282م، مطبعة تلمسان، ط 1، 2005.
92. بنعيسى بويوزان، فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، 1426هـ.
93. بنمليح عبد الإله، الرق في بلاد المغرب و الأندلس، مؤسسة الأنتشار العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2004.
94. بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997.
95. بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع و التاسع الهجريين (13 - 15 م)، دراسة في تاريخ السوسيو ثقافي، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2002.
96. بوعزيز يحيى، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د ت).

97. بوعمامة فاطمة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع و الثامن الهجري الموافق ل 14 - 15 ميلادي، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع، 2011
98. بوغلا أحمد، الرحلة الأندلسية الأنواع و الخصائص، دار أبي رقرق للطباعة و النشر، ط 1، 2008.
99. بونابي الطاهر، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين/12 و 13 الميلاديين، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2004.
100. بونار رابح، المغرب العربي تاريخه و ثقافته، ط 3، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2000.
101. تازي عبد الهادي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية و رحلة، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، 2005.
102. جحمة نواف عبد العزيز، رحالة الغرب الإسلامي و صورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، دار السويدي للنشر و التوزيع، ط 1، 2008.
103. جغلول عبد القادر، مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم و الوسيط، ترجمة فضيلة الحكيم، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع، (د ت).
104. جليند محمد السيد، من قضايا التصوف في ضوء الكتاب و السنة، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1990.
105. جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.
106. جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، تقديم إبراهيم صحراوي، ج2، ج 3، موفم للنشر، 1993.
107. الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 7، 1415 هـ/1994.
108. حاج عيسى إلياس، "الحرف اليدوية في المغرب الأوسط«تلمسان نموذجاً»، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني و المعماري و الميراث الفني، ج 2، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان عامة الثقافة الإسلامية سنة 2011.
109. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، مج 1، مج 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
110. حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزياني حياته و آثاره، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1394 هـ-1974
111. الحجوي الثعالبي محمد بن الحسن، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة النهضة، تونس، (د ت).
112. حدّادي أحمد، رحلة ابن رُشيد السبتى، ج 1، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، 2003.
113. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج 2، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 2011.

114. الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني (610 هـ/1213 م) - (869 هـ/1468 م)، دار القلم للنشر و التوزيع، الكويت، ط 2، 1987.
115. حساني مختار، الحواضر و الأمصار الإسلامية الجزائرية، ج 4، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2011.
116. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، ط 2، 1983.
117. حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1989.
118. الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج 1، تحقيق خير الدين شترة، دار كردادة للنشر و التوزيع، ط 1، 2012.
119. حليفي شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2003.
120. حمودة عبد الحميد حسين حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط 1، 2007.
121. حميدة عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، المطبعة العلمية، دمشق، 1995.
122. حواله يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح و حتى منتصف القرن الخامس الهجري، جامعة أم القرى، ج 1، 2000.
123. دفاع علي بن عبد الله، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، ط 2، 1993.
124. ذنون طه عبد الواحد، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي و المشرق، دار المدار الإسلامي، ط 1، 2005.
125. زبادية عبد القادر، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.
126. الزركلي خير الدين، الأعلام، ج 5، ج 7، دار العلم للملايين، بيروت، ط 15، 2002.
127. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1981.
128. زيادة نقولا زيادة، الجغرافية و الرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، 1987.
129. سالمة محمود محمد عبد القادر، منهجية ابن خلدون في تدوين السيرة النبوية و تفسيرها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2010.
130. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 - 20 م)، ج 2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1401 هـ - 1981 م.
131. سعيد إبراهيم أحمد، الحجاز في نظر الأندلسيين و المغاربة في العصور الوسطى، ط 1، الأوائل للنشر و التوزيع، 2004.

132. السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري، ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط 1، 1997.
133. سماعي إسماعيل، معالم الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، (سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية و الاجتماعية).
134. السملالي العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام، ج 9، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1993.
135. الشامي صلاح الدين، الرحلة عين على الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف الإسكندرية، 1999.
136. الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج 1، منشورات عكاظ، 1990.
137. شاوش الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ج 1، ج 2، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، 2011.
138. شريط عبد الله، مختصر تاريخ الجزائر السياسي و الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
139. ابن شقرون محمد بن أحمد، مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ - 1985م.
140. الشوابكة نوال عبد الرحمن، أدب الرحلات الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2008.
141. الصعيدي عبد الحكم عبد اللطيف، الرحلة في الإسلام أنواعها و آدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط 1، 1996.
142. صلابي علي محمد، صفحات مشرفة من التاريخ الإسلامي، ج1، ج2، دار ابن الجوزي، ط1، 2007.
143. ضيف شوقي، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1956.
144. الطاهري أحمد، الرحلة التجارية الأندلسية من خلال كتب التراجم و الطبقات، "أدب الرحلة و التواصل الحضاري"، سلسلة الندوات 5، مطبعة فضالة، 1993.
145. الطمار محمد، تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
146. عبدلي لخضر، التاريخ السياسي لمملكة تلمسان في عهد بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.
147. العدوي أحمد، ابن بطوطة في العالم الإسلامي، دار المعارف، مصر، 1954.
148. العربي إسماعيل، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
149. عزوق عبد الكريم، "تمزذكت قلعة حصار زيانية على أبواب بجاية"، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني و المعماري، ج 1، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011.

150. علي حسن حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس " عصر المرابطين و الموحيدين"، مكتبة الخانجي، مصر الطبعة 1، 1980.
151. عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، أبو الفداء(ت 732)، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1870.
152. عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانه للنشر و التوزيع، الجزائر، ط 1، 2002.
153. عنان محمد عبد الله، لسان الدين بن الخطيب حياته و تراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968.
154. فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، ج 6، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
155. الفقى عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب و الأندلس، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، (د ت).
156. فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، موفم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2002.
157. فيلاي عبد العزيز، دراسات في تاريخ الجزائر و الغرب الإسلامي، دا الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012.
158. قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002.
159. الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس و الأثبات و معجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982.
160. كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، ج3، مؤسسة الرسالة، دون تاريخ.
161. الكعك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تقديم و مراجعة أبو القاسم سعد الله وآخرون، ط 1، دار الغرب الإسلامي، 2003.
162. كمال أبو مصطفى، محاضرات في تاريخ الغرب الإسلامي و حضارته (المغرب و الأندلس) مركز الإسكندرية للكتاب، 2007.
163. لعرج عبد العزيز محمود، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان دراسة تاريخية أثرية في عمرانها و عمارتها و فنونها، زهراء الشرق، ط1، 2006.
164. لقبال موسى، تاريخ المغرب الإسلامي، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، طبعة منقحة، 2005.
165. محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1982.
166. محمد محمود محمد، التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم للطباعة و النشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1999، 3.
167. مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، (د ت).

168. مرتاض محمد، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسة الهجرية الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009.
169. مصطفى ابراهيم و آخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة للطبع و النشر و التوزيع، الإسكندرية، (د ت).
170. الملاح هاشم يحي، المفصل في فلسفة التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007.
171. الملاح هاشم يحي، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة 2008، 1.
172. مودن عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1996.
173. مودن عبد الرحيم، الرحلة في الأدب المغربي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006،
174. مؤنس حسين، ابن بطوطة و رحلاته، دار المعارف، القاهرة، (د ت).
175. مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، (د ت).
176. مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب و الأندلس، مكتبة الأسرة الأعمال الفكرية، 2004.
177. مؤنس حسين، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، ط 2، 1986.
178. الميللي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ت).
179. النجار جميل موسى، علم التاريخ و فلسفته في فكر ابن خلدون، دار و مكتبة عدنان، بغداد، ط 1، 2013.
180. نصار حسين، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط 1، 1991.
181. نواب عواطف محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر الهجريين، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2008.
182. نواب عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع و الثامن الهجريين - دراسة تحليلية مقارنة -، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996.
183. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر، بيروت، لبنان، ط 3، 1983.
184. هلال عمار، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية ما بين القرنين الثالث و التاسع عشر الميلاديين (3/19 م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
185. الورداني التونسي علي بن سالم، الرحلة الأندلسية، تح الحبيب العوادي، مطبعة فن الطباعة، ط 1، تونس، 2008.
186. يحيايوي جمال، سقوط غرناطة و مأساة الأندلسيين 1492 - 1610 م، دار هومة، الجزائر، 2009.

**ب- المراجع العربية:**

187. أنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية.
188. أندري برنيان و آخرون، الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة اسطنبولي رابح و منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
189. كراتشكوفسكي أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ج 1، جامعة الجامعة الدول العربية.

**ج- المراجع باللغة الأجنبية:**

190. *Joseph Chelhod, Ibn Battuta in Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°25, 1978.*
191. *Janssens (Herman F.). Ibn Batouta, "Le Voyageur de l'Islam" (1304-1369) Revue belge de philologie et d'histoire, Année 1949, Volume 27, Numéro 3.*
192. *Ernest (Mercier), histoire de l'Afrique septentrionale (berbérie), depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française(1830), tome premier, Ernest Leroux éditeur, 1888.*
193. *Mahfoud kaddache, l'Algérie médiévale, entreprise nationale du livre, deuxième édition, Alger, 1992.*
194. *Stéphane gsell, histoire ancienne de l'Afrique du nord, tome 1, librairie hachette, Paris.*
195. *Rozet et carette, l'univers ou histoire et description de tous les peuples, de leurs régions, mœurs, coutumes, etc. Firmin didot frères, éditeurs, imprimeur de l'institut, Paris.*
196. *O.mac Cathy, ALGERIA.ROMANA. Recherche sur l'occupation et la colonisation de l'Algérie par les romains, 1<sup>er</sup> mémoire subdivision de Tlemcen, in revue africaine, vol.1, 1856.*
197. *Richard L.Lawless, Tlemcen, capitale du maghreb central. Analyse des fonctions d'une ville islamique médiévale, in revue de l'occident musulman et de la méditerranée, N° 20, 1975.*
198. *Georges Marçais, les villes d'art célèbres Tlemcen, librairie renouard. H.Laurens, éditeur, Paris, 1950.*
199. *De prémare (Alfred-Louis), Maghreb et Andalousie au XIV<sup>e</sup> siècle. Les notes de voyage d'un Andalou au Maroc 1344-1345, Presses universitaires de Lyon, 1981.*
200. *Abdelaziz Khelil Lacene Yahyaoui, Les grands savants arabes, Edit distribution HOUMA, Alger, 1999.*
201. *Jean-Charles ducène, la situation du Maghreb au travers de la relation de voyage d'AL-ABDARI (VII<sup>e</sup>/XIII<sup>e</sup> S), CRAI (Comptes rendus des séances de l'Académie) 2012.*
202. *Lotfi Akalay, Ibn Battouta prince des voyageurs, éditions le fennec, Casablanca, 3<sup>e</sup> édition, mars 2004.*
203. *Syndicat d'initiative (Tlemcen). Tlemcen et sa région : livret-guide / publié par le syndicat d'initiative de Tlemcen imp-pho.ATHIRIAT & Cie-Toulouse. 1921.*
204. *Barges: Mémoire sur les relations commerciales de Tlemcen avec le soudan sous le règne de Béni-Ziane, revue de l'orient , Paris 1953*

الرسائل الجامعية:

205. بن أمعر محمد، العلاقات السياسية و الروابط الثقافية بين المغربين الأوسط و الأقصى من نهاية القرن الثاني إلى أواسط القرن السادس الهجريين، أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2001-2002.

206. بوشقيف محمد، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن و التاسع الهجريين (15/14 م)، أطروحة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010 - 2011.

207. مشعل نايف عايض الدهاس، الحجاز من خلال كتب الرحالة المشاركة خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين، أطروحة لنيل درجة ماجستير، كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2008.

208. نازك أفرح نازك عبد الرحمن حفيظة، الحميري محمد بن عبد المنعم و كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" دراسة تاريخية للأوضاع الاقتصادية، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2013.

209. نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني "685 - 706 هـ / 1286-1306 م" دراسة سياسية حضارية، أطروحة لنيل درجة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الموصل، 2004.

210. نميش سميرة، دور أهل الذمة بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني من القرنين (7 - 10 هـ / 13 - 16 م)، أطروحة لنيل درجة ماجستير، 2013 - 2014.

4. الدوريات و المجلات العربية:

211. حاجيات عبد الحميد، "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، مجلة الأصالة، العدد 26، السنة 4، 1975.

212. حاجيات عبد الحميد، تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 1، أبريل 1993.

213. حوتية محمد، توات و القوافل التجارية، مجلة طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ، الجزائر، 2001.

214. خليل فاضل اسماعيل خليل، الرحلة في طلب الحديث، مجلة آداب البصرة، العدد 38، 2005.

215. سامعي إسماعيل، الحركة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال صورة الأرض لابن حوقل القرن 4 هـ / 10 م، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ربيع الأول 1427 هـ / أبريل 2006 العدد 20.

216. عماري حسين، "العلاقات التجارية بين المغرب و السودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب وصف إفريقيا"، مجلة كان الإلكترونية، العدد 9، سبتمبر، 2010.

217.مخلف ساجد حسن، لسان الدين بن الخطيب حياته و منهجه في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، مجلة جامعة تكريت للعلوم، مج 20، العدد 1، كانون الثاني 2013.

#### **5- المعاجم والقواميس:**

218. الرازي محمد بن أبي بكر الرازي،مختار الصحاح،تحقيق محمود خاطر،طبعة جديدة، بيروت،1995.
219. الفراهيدي الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، ج 2، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، الطبعة 2003،1.
220. ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، ج 1، ج 5، ج 10، ج 15، ج 17، ج 39، ج 48، دار المعارف،(د ت).

## فهرس الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية

## فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة و رقمها	رقم الآية	الصفحة
﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾	آل عمران (3)	97	19
﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ﴾	سورة الأنعام (6)	73	232
﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾	سورة الأعراف (7)	92	48
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾	سورة يوسف (12)	2	21
﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾	سورة يوسف (12)	62	18
﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَحِيهِ ثُمَّ أَدْنَى مُؤَدَّنَ أَيَّتْهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾	سورة يوسف (12)	70	18
﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾	سورة النحل (16)	41	18
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾	سورة النحل (16)	80	17
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾	سورة الإسراء (17)	1	18
﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا شَدِيدًا إِمْرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾	سورة الكهف (18)	73-71	17
﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾	سورة الحج (22)	27	19
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾	سورة النمل (27)	69	17
﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾	سورة الروم (30)	7	232
﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾	سورة سبأ (34)	19	20
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾	سورة الشورى (42)	20	268
﴿لَا يَلَا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾	قريش (106)	04-01	17

ملاحظة: رتبت الآيات حسب ورودها في سورها التي رتبها كما جاءت في المصحف

### فهرس الحديث النبوي

الصفحة	الحديث
18	{يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ}
18	{إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ}
18	{وَلَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الْأُقْصَى وَمَسْجِدِي}

## فهرس الموضوعات

أ - ح	مقدمة.....
7-1	المدخل.....
9 هـ	الباب الأول: ترجمة و دراسة لكتب الرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م)
9 - 11	الفصل الأول: تحديد المفاهيم و المصطلحات الأساسية للدراسة.....
12 - 16	المبحث الأول: تلمسان.....
17	المبحث الثاني: مفهوم الرحلة.....
17 - 19	المطلب الأول: في القرآن الكريم و السنة النبوية.....
20	المطلب الثاني: في اللغة.....
21	المطلب الثالث: في الاصطلاح.....
22 - 24	المبحث الرابع: فن الرحلة عند المغاربة و الأندلسيين - أنواعها، خصائصها.....
25 - 26	المطلب الأول: أنواعها.....
26 - 28	أ- الرحلات الدينية.....
28 - 30	ب- الرحلات العلمية.....
31 - 32	ج - الرحلات الرسمية.....
33 - 34	د - الرحلات الاقتصادية.....
35 - 36	هـ - الرحلات العامة.....
37	المطلب الثاني: خصائصها.....
37 - 47	أ - الخصائص العامة.....
48 - 54	ب - الخصائص الخاصة.....
9 هـ	الفصل الثاني: التعريف بالرحالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م)
55	المبحث الأول: أبو الحسن بن سعيد المغربي (ت 685 هـ/1285 م).....
59 - 60	المطلب الأول: مولده و نشأته.....
60 - 62	المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه.....
62 - 64	المطلب الثالث: رحلاته.....
65	المطلب الرابع: عوامل تكوين شخصيته.....
66	المطلب الخامس: وفاته.....
67	المبحث الثاني: العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد (توفي بعد سنة 700 هـ/1300 م).....
67 - 68	المطلب الأول: مولده و نشأته.....
69	المطلب الثاني: تعليمه و شيوخه.....

70.....	المطلب الثالث:رحلته.....
70.....	المطلب الرابع:وفاته.....
71.....	المبحث الثالث:ابن الحاج النميري(ت 768 هـ/1367 م).....
72 – 71.....	المطلب الأول:مولده و نشأته.....
72.....	المطلب الثاني:مراحل حياته.....
73.....	المطلب الثالث:تعليمه و شيوخه.....
75 – 74.....	المطلب الرابع: رحلاته و المهام التي كلف بها.....
76 – 75.....	المطلب الخامس: صفاته الجسمية و الخلقية.....
76.....	المطلب السادس:وفاته.....
77.....	المبحث الرابع: لسان الدين بن الخطيب(ت 776 هـ/1374 م).....
77.....	المطلب الأول:مولده و نشأته.....
78.....	المطلب الثاني:تعليمه و شيوخه.....
78.....	المطلب الثالث:رحلاته.....
80 – 79.....	المطلب الرابع:حياته السياسية.....
81 – 80.....	المطلب الخامس:وفاته.....
82.....	المبحث الخامس: ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 779 هـ/1377 م).....
82.....	المطلب الأول:مولده و نشأته.....
83.....	المطلب الثاني:تعليمه و شيوخه.....
84 – 83.....	المطلب الثالث:أخلاقه و طباعه.....
85 – 84.....	المطلب الرابع:رحلاته.....
86.....	المطلب الخامس:وفاته.....
87.....	المبحث السادس: الحاج عبد الله بن الصباح ( النصف الثاني من القرن 8 هـ/14 م).....
88 – 87.....	المطلب الأول:مولده و نشأته.....
88.....	المطلب الثاني:تعليمه و شيوخه.....
88.....	المطلب الثالث:رحلته.....
88.....	المطلب الرابع:وفاته.....
89.....	المبحث السابع: ابن خلدون عبد الرحمن(ت 808 هـ/1406 م).....
89.....	المطلب الأول:مولده و نشأته.....
90 – 89.....	المطلب الثاني:تعليمه و شيوخه.....
90.....	المطلب الثالث:رحلته.....

91 - 90.....	المطلب الرابع:حياته السياسية.....
91.....	المطلب الخامس:وفاته.....
92.....	المبحث الثامن: ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب(ت 810 هـ/1047 م).....
92.....	المطلب الأول:مولده و نشأته.....
93.....	المطلب الثاني:تعليمه و شيوخه.....
96 - 93.....	المطلب الثالث:رحلته في طلب العلم.....
96.....	المطلب الرابع:عودته إلى قسنطينة.....
96.....	المطلب الخامس:وفاته.....
97.....	المبحث التاسع:الجَمِيرِي محمد بن عبد المنعم (ت 866 هـ/1463 م).....
97.....	المطلب الأول:مولده و نشأته.....
98.....	المطلب الثاني:تعليمه و شيوخه.....
99.....	المطلب الثالث:مشاركته في الحياة السياسية.....
99.....	المطلب الرابع:رحلاته.....
100.....	المطلب الخامس:وفاته.....
101.....	المبحث العاشر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي(ت 891 هـ/1486 م).....
101.....	المطلب الأول:مولده و نشأته.....
101.....	المطلب الثاني:المطلب الأول:تعليمه و شيوخه.....
103 - 102.....	المطلب الثالث:رحلته و نشاطه العلمي.....
103.....	المطلب الرابع:وفاته.....
<b>الفصل الثالث:التعريف بمؤلفات الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ</b>	
<b>(13 و 15 م)</b>	
108.....	المبحث الأول: أبو الحسن بن سعيد المغربي(ت 685 هـ/1285 م).....
108.....	المطلب الأول:منهجه.....
109.....	المطلب الثاني:أسلوبه.....
114 - 110.....	المطلب الثالث:أهم مصنفاته.....
115.....	المطلب الرابع:مصادر دراسة جغرافيته.....
116.....	المطلب الخامس:أهمية مؤلفاته.....
117.....	المبحث الثاني: العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد( توفي بعد سنة 700 هـ/1300 م).....
117.....	المطلب الأول:منهجه.....
118 - 117.....	المطلب الثاني:أسلوبه.....
118.....	المطلب الثالث:مؤلفاته.....

120 - 119.....	المطلب الرابع: أهمية الرحلة.....
121 - 120.....	المطلب الخامس: مصادره.....
121.....	المبحث الثالث: ابن الحاج النميري (ت 768 هـ/ 1367 م)
123 - 121.....	المطلب الأول: منهجه و أسلوبه.....
124 - 123.....	المطلب الثاني: رحلته.....
125 - 124.....	المطلب الثالث: آثاره.....
126.....	المبحث الرابع: لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ/ 1374 م)
126.....	المطلب الأول: منهجه و أسلوبه.....
126.....	المطلب الثاني: مكانته السياسية.....
129 - 127.....	المطلب الثالث: آثاره.....
130.....	المطلب الرابع: مصادره.....
131.....	المبحث الخامس: ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 779 هـ/ 1377 م)
131.....	المطلب الأول: تدوين رحلاته.....
132.....	المطلب الثاني: أسلوب الرحلة.....
133-132.....	المطلب الثالث: منهجه.....
133.....	المطلب الرابع: مؤلفاته.....
134.....	المطلب الخامس: القيمة العلمية للرحلة.....
135.....	المطلب السادس: اهتمام المستشرقين بتحفة النظار.....
136.....	المبحث السادس: الحاج عبد الله بن الصباح (الصف الثاني من القرن 8 هـ/ 14 م)
136.....	المطلب الأول: المطلب الأول: منهجه.....
136.....	المطلب الثاني: المطلب الأول: أسلوبه.....
137.....	المطلب الثالث: مصادره.....
138.....	المبحث السابع: ابن خلدون عبد الرحمن (ت 808 هـ/ 1406 م)
139-138.....	المطلب الأول: أسلوبه و منهجه.....
140 - 139.....	المطلب الثاني: مشاركته في مختلف العلوم.....
141-140.....	المطلب الثالث: مؤلفاته.....
141.....	المطلب الرابع: مصادره.....
142.....	المبحث الثامن: ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب (ت 810 هـ/ 1047 م)
142.....	المطلب الأول: أسلوبه.....
143-142.....	المطلب الثاني: مؤلفاته.....
145.....	المطلب الثالث: مكانته العلمية.....

- 145.....المطلب الرابع:مشاركته في النقاش العلمي
- 146.....المبحث التاسع:الجَمِيرِي محمد بن عبد المنعم (ت 900 هـ/1495 م).
- 147 - 146.....المطلب الأول:خطته و منهجه.
- 147.....المطلب الثاني:أسلوبه.
- 148.....المطلب الثالث:مصادره.
- 150-149.....المطلب الرابع:أهم خصائص الروض المعطار.
- 150.....المطلب الخامس:أثر الروض المعطار و قيمته.
- 151.....المبحث العاشر: أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي(ت 891 هـ/1486 م).
- 151.....المطلب الأول:أسلوبه.
- 153-151.....المطلب الثاني:مصنفاته.
- 153.....المطلب الثالث:أهمية رحلته.
- الباب الثاني:الأحوال السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الفكرية من خلال كتب الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م)
- الفصل الأول:الأحوال السياسية في تلمسان من خلال كتب الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م)
- 155.....المبحث الأول:الأوضاع الداخلية.
- 177 - 174.....المطلب الأول: الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط قبيل العهد الزياني.
- 164 - 163.....المطلب الثاني: يغمراسن و تأسيس المملكة الزيانية.
- 167 - 165.....المطلب الثالث: الصراع داخل البيت الزياني.
- 167.....المبحث الثاني:العلاقات الخارجية.
- 168-167.....المطلب الأول:الصراع الزياني المريني.
- 170 - 168.....أ- أسباب و عوامله.
- 172 - 171.....ب - حصار يوسف بن يعقوب المريني لتلمسان.
- 173.....ج - حصار أبي الحسن المريني لتلمسان.
- 175 - 174.....د - حملة أبي عنان المريني على الزاب و قسنطينة.
- 178 - 176.....هـ - غزو أبي سالم المريني لتلمسان.
- 179.....المطلب الثاني:الصراع الزياني الحفصي.
- 181 - 180.....أ - غزو أبي زكريا الحفصي لتلمسان.
- 182.....ب - العلاقات الزيانية الحفصية.
- 183.....المبحث الثالث: التنظيمات بتلمسان.
- 183.....المطلب الأول: النظام الإداري.

185 - 183.....	أ - السلطان.....
186.....	ب - الأمراء.....
187 - 186.....	ج - الوزارة.....
188 - 187.....	د - الكتابة.....
189 - 188.....	هـ - الحجابة.....
190.....	المبحث الرابع: النظام القضائي.....
190.....	المطلب الأول: القضاء.....
191.....	المطلب الثاني: الوظائف القضائية.....
191.....	أ - الحسبة.....
191.....	ب - الحافظ.....
192.....	المبحث الخامس: الجيش و التحصينات.....
192.....	المطلب الأول: عناية الزيانين بالجيش.....
192.....	أ - الأسلحة.....
193 - 192.....	ب - أقسام الجيش.....
194 - 193.....	ج - الأسوار.....
194.....	د - الخنادق.....
196 - 194.....	هـ - الأبواب.....
196.....	و - الحصون.....
197.....	ز - القلاع.....
الفصل الثاني: الأحوال الاقتصادية و الاجتماعية في تلمسان من خلال كتب الرحالة و الجغرافيين	
198.....	المغاربة و الأندلسيين من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م).....
202.....	المبحث الأول: الأوضاع الاقتصادية.....
202.....	المطلب الأول: الفلاحة.....
202.....	أ - المياه.....
203 - 202.....	ب - التضاريس.....
205-203.....	ج - المناخ.....
207 - 206.....	د - الإنتاج الزراعي.....
207.....	هـ - الإنتاج الحيواني.....
208.....	المطلب الثاني: الصناعة.....
208.....	أ - المواد الأولية و أهم الصناعات.....
209.....	ب - المهن و الحرف.....

210.....	المطلب الثالث: التجارة.....
212 – 210.....	أ - الطرق التجارية.....
214 – 213.....	ب - اللصوصية.....
215.....	ج - العلاقات التجارية.....
216.....	د - الصادرات.....
216.....	هـ - الواردات.....
217.....	و - أساليب التعامل.....
221 – 218.....	ز - الموائئ.....
222-221.....	ح - المراكز التجارية.....
223.....	ط - الواحات.....
223.....	- سجلماسة.....
224.....	- ورجلان.....
225.....	- فكيك.....
225.....	- تابلنت.....
225.....	- توات.....
226.....	ي - السودان الغربي.....
227-226.....	- أودغست.....
227.....	- إيولاتن.....
228.....	المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية.....
228.....	المطلب الأول: عناصر المجتمع.....
228.....	أ - قبائل البربر.....
229.....	ب - العرب.....
230.....	ج - الأندلسيون.....
234 – 230.....	د - عناصر أخرى.....
235.....	المطلب الثاني: طبقات المجتمع.....
236 – 235.....	أ - طبقة الحكام.....
236.....	ب - طبقة الفقهاء و العلماء.....
237.....	ج - طبقة التجار.....
237.....	د- طبقة الصناع و أصحاب الحرف.....
238.....	المطلب الثالث: أخلاق التلمسانيين و صفاتهم.....

239.....	من القرن 7 إلى القرن 9 هـ (13 و 15 م)
243.....	المبحث الأول: الحياة العلمية في تلمسان الزبانية.
244 - 243.....	المطلب الأول: ظروفها
244.....	المطلب الثاني: أهم عوامل ازدهارها
246 - 244.....	1- العوامل الداخلية
247-246.....	2- العوامل الخارجية
248.....	المبحث الثاني: المؤسسات التعليمية
249- 248.....	المطلب الأول: المدارس
250 - 249.....	أ - مدرسة ابنى الإمام
250.....	ب - المدرسة التاشفينية
251.....	ج - المدرسة اليعقوبية
252 - 251.....	د - مدرسة العباد
252.....	هـ- مدرسة ابي عنان المريني
253.....	المطلب الثاني: المساجد
253.....	أ - الجامع الأعظم
254.....	ب - مسجد ابي الحسن
254.....	ج - مسجد أولاد الإمام
254.....	د - مسجد إبراهيم المصمودي
255.....	هـ- مسجد ابي مدين بالعباد
255.....	المطلب الثالث: الزوايا
256.....	المبحث الثالث: العلوم السائدة.
259 - 256.....	المطلب الأول: العلوم اللسانية
269 - 260.....	المطلب الثاني: العلوم النقلية
276 - 269.....	المطلب الثالث: التصوف
278 - 277.....	المطلب الرابع: العلوم العقلية
282 - 279.....	الخاتمة
291 - 283.....	قائمة الملاحق
307 - 292.....	قائمة المصادر و المراجع
310 - 308.....	فهرس الآيات القرآنية و الأحديث النبوية
319 - 311.....	فهرس الموضوعات

## ملخص:

تهتم هذه الدراسة بموضوع تلمسان من خلال كُتب الرحّالة و الجغرافيين المغاربة و الأندلسيين من القرن السابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري (13 - 15 م) هذه الفترة شهد فيها المغرب الأوسط قيام الدولة الزيانية عاصمتها تلمسان التي كانت محطة مُهمّة في رحلات المغاربة و الأندلسيين للتزود بمستلزمات الرحلة و الراحة و تجديد النفس لاستئناف السير نحو بلاد المشرق أو جهات أخرى. كانت تلمسان بمثابة مفترق الطرق و نقطة تجمّع قوافل المغاربة و الأندلسيين، و قد كتب بعض الرحّالة المغاربة و الأندلسيين عنها و وصفوا أحوالها السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الفكرية.

## الكلمات المفتاحية:

تلمسان - الرحلة - المغاربة - الأندلسيون - العلوم - التصوّف.

## Résumé:

*Cette recherche s'intéresse au sujet de Tlemcen à travers les ouvrages des voyageurs et les géographes maghrébins et andalous du septième au neuvième siècle de l'Hégire (13 - 15 J-C).*

*Durant cette période où le Maghreb central a connu l'état zéyanide.*

*A cette époque, la capitale Tlemcen était une station importante aux voyageurs maghrébins et andalous pour fournir les pré-requis du voyage, le repos et le renouvellement automatique pour reprendre le voyage vers l'orient et d'autres directions.*

*Tlemcen était un carrefour et un point de rassemblement des caravanes maghrébines et andalouses.*

*Certains voyageurs maghrébins et andalous ont écrit et décrit les diverses situations de Tlemcen: politiques, économiques, sociales et intellectuelles.*

## Les mots clés:

*Tlemcen -le voyage-les maghrébins - les andalous -les sciences- le soufisme.*

## Abstract:

*This research focuses on Tlemcen through works of travelers and Maghrebian and Andalusian geographers from seventh to ninth century AH (13-15 J-C).*

*During this period the central Maghreb has known zéyanide state.*

*At that time, the capital Tlemcen was an important station and transit point of Andalusian and Maghrebian travelers to provide the prerequisites of travel, rest and automatic renewal to resume the journey to the east and other directions.*

*Tlemcen was a crossroads and a meeting point for Maghreb and Andalusia caravans.*

*Some Maghreb and Andalusian travelers have written and described the various situations of Tlemcen: political, economic, social and intellectual.*

## Key words:

*Tlemcen -the trip -the Maghrebs - the andalous- the Sciences- Sufism.*